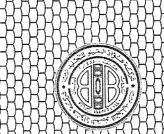


دور المعلمين
في تقدم العالم الإسلامي وتخلفه
تأليف
محمد بن عبد الله المبارك
دار العاصمة
للنشر والتوزيع






دور المعلمين
في تقدم العالم الإسلامي وتخلفه

ح دار العاصمة للنشر والتوزيع، ١٤٣٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المترك، محمد عبدالله

دور المعلمين في تقديم العالم الإسلامي وتخلفه./محمد عبدالله المترك

- الرياض، ١٤٣٣هـ

٤٠٠ ص، ١٧ x ٢٤ سم

ردمك ٧-٣٧-٨٠٥٧-٦٠٣-٩٧٨

١- المدرسون ٢- العالم الإسلامي

٣- التربية الإسلامية أ- العنوان

ديوي ٣٧١،١ ١٤٣٣/١٠٧٣

رقم الإيداع: ١٤٣٣/١٠٧٣

ردمك: ٧-٣٧-٨٠٥٧-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

دار العاصمة

المملكة العربية السعودية

الرياض - ص ب: ٤٢٥٠٧ - الرمز البريدي: ١١٥٥١

المركز الرئيسي: شارع السويدي العام

هاتف: ٤٤٩٧٢٢٤ / فاكس: ٤٤٩٧٢٢٥

دور المعلمين

في تقدم العالم الإسلامي وتخلفه

تأليف

محمد بن عبد الله المترك

دار العاصمة

للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[1].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[2].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾[3].

أما بعد:

أيها القارئ الكريم.. فقد قال الله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[4]، ونحن ولله الحمد كذلك، ولكن إذا نظرنا إلى واقعنا المعاصر، وجدنا هذا التخلف المحزن في العالم الإسلامي، مع أن المسلمين هم خير الأمم على الإطلاق!

وهنا نتساءل: ما سبب تلك الخيرية؟ وما سبب هذا التخلف مع أننا خير الأمم؟!

والجواب بَيِّنٌ ولله الحمد؛ إذ أخبرنا الله سبحانه وتعالى في تكملة الآية السابقة أن سبب الخيرية هو: ﴿ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾[4].

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٠٢).

(٢) سورة النساء، الآية: (١).

(٣) سورة الأحزاب، الآية: (٧١).

(٤) سورة آل عمران، الآية: (١١٠).

وأما سبب هذا التخلف والانحدار إلى هذا المستوى المريع المؤسف، فيرجع إلى أحد أمرين:

١- ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله؛ وبهذا نكون شر الأمم.

٢- التقصير في التمسك؛ فتستمر الخيرية، ولكن يحصل التخلف.

ولا شك أن سبب تخلف المسلمين الآن هو السبب الثاني؛ وهو: الضعف في التمسك بدين الله سبحانه وتعالى والمحافظة عليه؛ لهذا نحتاج إلى من يعلِّم المسلمين الخير؛ ليكونوا خير الأمم في جميع الأمور، بل ليتصدروا بقية الأمم ويقودوها إلى خيري الدنيا والآخرة.

وخير من يتولى هذه المهمة العظيمة هو المعلِّم، ولكن ليس أي معلم، إنما هو المعلِّم الصالح للتربية والتعليم، فمهنة التعليم من أهم المهن وأعظمها، ووظيفة المعلم من أشرف الوظائف وأعلاها، وأكتفي بذكر هذا الحديث العظيم الذي يوضِّح- لمن تأمله- تلك القيمة العالية:

أخرج الترمذي في «سننه»: أنه ذُكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجلان أحدهما عابد والآخر عالم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ»، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ، حَتَّى النَّمْلَةُ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الحُوتُ، لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ»[1].

ولقد وصفهم الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله[2]، فزكاهم وميزهم عن غيرهم؛ حيث قال: «ولِـمَا لهم على العامة والخاصة من فضل في تعليم الناس الخير، ونشر السنن، وإماتة الأهواء والبدع؛ فهم قد أوتوا الحكمة، يقضون بها، ويعلمونها الناس، ولم يتخلفوا في كهوف (القعدة) الذين صرفوا وجوههم عن آلام أمتهم وقالوا: (هذا

---

(١) صححه الألباني.

(٢) الشيخ الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد رحمه الله، (١٣٦٥-١٤٢٩هـ)، عمل إمامًا ومدرسًا وخطيبًا في المسجد النبوي الشريف، وعضوًا في هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية، ورئيس مجمع الفقه الإسلامي الدولي، المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي، ولديه نحو عشرين إجازة من علماء الحرمين والرياض والمغرب والشام والهند وإفريقيا وغيرها، وله كتب قيمة زادت على ستين كتابًا.

مغتسل بارد وشراب)، وكأنما عناهم شوقي بقوله:

وَقَـدْ يَـمُـوتُ كَـثِـيرٌ لا تُحِـسُّـهُـمُ   كَأَنَّهُمْ مِنْ هَوَانِ الخَطْبِ مَا وُجِدُوا

بل نزلوا ميدان الكفاح، وساحة التبصير بالدين، وهم الذين ينبئون عن مقياس العظمة (العصامية) التاريخية في أشباحهم المغمورة، لا العظمة (العظامية) الموهومة، كما لبعض أصحاب الرتب، والشارات، المفرغين لأنفسهم عن قرن العلم بالعمل» انتهى[١].

فلهؤلاء المعلمين الشكر الجزيل، والدعاء في ظهر الغيب، فجزاهم الله خير الجزاء.

وجل بحثنا هذا يتكلم عن أخطاء المعلمين الذين قصّروا في حمل الأمانة أو أضاعوها، فكانوا من الأسباب التي أدت إلى تخلف العالم الإسلامي.

ومما زاد الطين بلة أن مشكلة التربية والتعليم صارت من أكبر الأسباب التي تقف حجر عثرة أمام تطور الأمة الإسلامية وتصدرها لقيادة الأمم الأخرى، بل ما زالت الأمراض الناتجة عنها تنخر في جسد الأمة الطاهر؛ ولهذا ينبغي على الجميع التنبيه إليها، وتسليط الضوء عليها، وبيان خطورتها، والاجتهاد في علاجها؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى»[٢].

وهنا نتساءل: ما دور المعلمين وأهميتهم؟ وما السلبيات وطرق علاجها؟ وما كيفية القيام بهذا الدور الهام على الوجه المطلوب للنهوض بالأمة الإسلامية وتطورها؟

هذا ما سنناقشه في هذا الكتاب ونجتهد في الإجابة عليه، فالهدف من هذا الكتاب هو: الاجتهاد في نشر التربية الإسلامية لبناء الفرد السوي الذي يتكون منه المجتمع الصالح؛ من أجل تطور الأمة وتصدرها لقيادة الأمم الأخرى، وحل المشاكل التي أضرت بالمسلمين وغيرهم، وعملت على صدهم عن سبيل الله عز وجل، وبالتربية الإسلامية يكون التوجه الصحيح لعبادة الله وتحقيق رضاه سبحانه تعالى.

---

(١) كتاب (تصنيف الناس بين الظن واليقين) لبكر أبو زيد.

(٢) صحيح البخاري ومسلم.

منهجي في الكتاب:

إن هذا الكتاب موجه للجميع: للعالِم، والعامي، وأنصاف المتعلمين؛ ولهذا حاولت الكتابة بطريقة تناسب الجميع؛ مثل: الإكثار من الأدلة، وذكر الصحيح منها بقدر المستطاع، والعزو إلى العلماء الثقات، والتقليل من الاختلافات، والاستفادة ممن سبق، والاختصار قدر المستطاع، فلابد من كبح جماح القلم لكي تصل الرسالة إلى أكبر عدد من الناس وليتحقق الهدف المنشود.

وكذلك حاولت الابتعاد عن التكلف والتقعر، وتشقيق الكلام وتنميقه، ووعورة الأسلوب، وإيراد وحشي العبارات وغريب الألفاظ، وحاولت البعد عن الحشو والكلام بطريقة رسمية استعراضية (خشبية) جافة ليس فيها روح.

وحاولت الابتعاد عن الغموض والرتابة المملة، فاستخدمت العناوين البارزة، والصور المنتظمة، وابتعدت عن المداهنة، وتكلمت بصراحة، قد يكون فيها قسوة، ولكن المقصود هو الصالح العام.

وكذلك تركت التأصيل المبالغ فيه، ولم أقصد الإحاطة بمشاكل التربية والتعليم كلها، وإنما هي إشارات تنبه وتبين وتدل- على استحياء- على بعض ما انطبع في النفس عن تلك المشاكل، وأنا على يقين أن الموضوع يحتاج إلى الكثير والكثير، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله، وكما قيل: «حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق»، على أننا إلى العمل أحوج منا إلى القول، والله المستعان.

أما من ناحية الأحاديث، فحرصت عند إيرادها ألا أذكر إلا ما روي في صحيحي البخاري ومسلم، أو ما حكم عليه العلماء بأنه صحيح أو حسن، وخاصة ما صححه محدِّث العصر الشيخ الألباني رحمه الله تعالى[1].

---

(١) هو: محمد ناصر الدين الألباني، ولد في ألبانيا عام ١٣٣٣هـ الموافق ١٩١٤م، وهاجر وهو صغير بصحبة والده إلى الشام، وسكن في مدينة دمشق، ودرس في مدارسها، ثم توجه إلى طلب العلم، وتبحر في الحديث وعلومه، فأصبح من أبرز علماء المسلمين وخاصة في علم الحديث، أثنى عليه كثير من العلماء البارزين. اهتم بالدعوة إلى السنة، ومحاربة البدع والتعصب المذهبي، وله مؤلفات= = وتحقيقات قيمة منها: (سلسلة الأحاديث الصحيحة)، (سلسلة الأحاديث الضعيفة)، وله جهود

وأما العزو إلى المصادر فإني أكتفي بذكر الكتاب وصاحبه أو الكتاب وحده؛ وذلك لأسباب، من أهمها:

الأول: تعدد الطبعات، ومن ثم تغير الصفحات والمجلدات.

الثاني: أن الباحث يستطيع في عصر الإنترنت وغيره أن يحصل - في الغالب- على ما يريد بمجرد الضغط على بعض الأزرار، مع أن الاكتفاء بالعزو للكتاب والمؤلف أو أحدهما كان معمولًا به في القرون السابقة.

ونظرًا لكثرة أسماء الأعلام والشخصيات الواردة في الكتاب، فقد تم التعريف ببعض الشخصيات التي أرى أنها تحتاج إلى تعريف.

أما الهامش فأذكر فيه ما أراه هامًّا ولكن لا يناسب وضعه في المتن، ولا مشاحة في الاصطلاح.

وأستسمح القارئ الكريم في ذكر بعض الأبيات لا للاستدلال، وإنما لأن الكتاب يناقش مواضيع هامة تحتاج إلى تركيز، وقد يكون في بعضها شيء من الجفاف؛ فنذكر الأبيات لإضفاء شيء من الترويح، وكذلك لتحصيل بعض الفوائد؛ كإيضاح الفكرة أو إبرازها أو الاختصار.

وكذلك من باب الترطيب والترويح ولفت الانتباه، نذكر بعض العبارات والعناوين الطريفة؛ مثل: «مهندس شاورما» و«كرم من مال الغير» ونحو ذلك.

وأخيرًا.. فإن هذا الكتاب كغيره من الكتب لا بد أن يكون فيه نقص وعيوب وأخطاء، ولكن ينبغي ألا يكون هذا مؤثرًا أو شاغلًا أو صارفًا عن الموضوع الأساسي، وهو الأهم، الذي يتلخص في: معرفة المشكلة بوضوح، ثم بيان الطريقة المثلى لعلاجها.

* * *

كبيرة في التصحيح والتضعيف للأحاديث في كتب كبيرة مثل: سنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والجامع الصغير والترغيب والترهيب والأدب المفرد. توفي في عام ١٤٢٠هـ، الموافق ١٩٩٩م، في مدينة عمان عاصمة الأردن، غفر الله له ورحمه.

وقد قسمت الكتاب إلى مقدمة وستة أبواب، وختمته بتوصيات وخاتمة:

الباب الأول: تخلف العالم الإسلامي.

الباب الثاني: دور المعلِّمين.

الباب الثالث: الضرب.

الباب الرابع: علاج الأخطاء.

الباب الخامس: دور الجامعات في إعداد المعلِّمين.

الباب السادس: الإدارة والمعلمون.



الباب الأول

تخلُّف العالَم الإسلامي





الباب الأول
تخلُّف العالم الإسلامي

هذا الباب سيبين بوضوح حال المسلمين ويصفه، ويبين من هم المتخلِّفون، ويقيم الأدلة على ذلك، ثم يبين القيمة الهامة للنقد ولو رفضها المفسدون أو تضايقوا منها (مع بعض التأصيل لذلك)، ويبين العوائق التي تؤدي إلى رفض الحق، ويبين أن الإسلام- لا الغرب- هو الذي أمر بإقامة الموازين الثابتة والدقيقة للحق، وأمر بالالتزام بها ، ويبين المخرج من هذا التخلف، وما التربية المناسبة لحال المسلمين، وكيفية اختيارها، وعلى من تقع المسؤولية في تخلف المسلمين، ثم يمثل على هذا التخلف بسبب صغير ولكنه يرمي إلى معان كبيرة، وفي المقابل يبين صورًا إسلامية تبين عظمة المسلمين عندما يتمسكون بإسلامهم.

حال المسلمين:

لقد بلغ المسلمون حالة تبعث على الأسى، حتى وصل الأمر بكثير من المسلمين في العالم الإسلامي، إلى أن يتمنى أن يخرج من هذا العالم إلى عالم التقدم والحضارة، ووصل الأمر ببعضهم إلى أن يتمنى الحصول على جنسيات غير إسلامية، فتجد التجمعات الكثيرة عند سفارات تلك البلاد يستجدونهم العيش عندهم ولو خدمًا.

بل وصل الأمر ببعض أولئك إلى المغامرة بروحه، فعلى قلة ذات اليد تجده يدفع المبالغ الكبيرة لمن يهرّبه من بلاده إلى تلك البلاد المنشودة، وبأي طريقة، برًّا أو بحرًا أو جوًّا، ولو أدى الأمر إلى المخاطرة بحياته في (قوارب الموت).

مع أنه- في حالة نجاته- قد يعمل أي عمل، ويكون مجرد عامل أو خادم لهم؛ غاسلًا للصحون في مطاعمهم، أو طباخًا، أو عامل نظافة، أو ماسحًا لأحذيتهم، أو خادمًا في خماراتهم، بل وصل الأمر إلى أن يشك ناس منهم في الدين الإسلامي، بل فتن

بعضهم فكفر بالإسلام والمسلمين.

وفي إحدى القنوات الفضائية في برنامج للإفتاء، استمعت لمسلم من دولة عربية يتصل بالشيخ الذي يفتي، فيسأله ويذكر أنه يعمل في دولة... (ويسمي إحدى الدول الغربية) ويخبره أنه يعمل في المجاري وعلى ملابسه القاذورات النجسة، ويسأل عن كيفية الصلاة وهو على هذه الحال: هل يجمع الصلوات فيصليها بعد العمل، أو يصليها في وقتها وعليه قاذوراتهم وأوساخهم النجسة؟! ثم يقول: ادعوا الله عز وجل لي أن أترك ذلك العمل!

وصفه: (عريان!)

إن المرء ليستحي عندما يصف حالنا؛ لأن ذلك الوصف كالسخرية، ولكن ماذا تفعل إذا رأيت مشهدا في الطريق، ثم قلت صادقا: إني رأيت رجلين:

الأول: يمشي بغرور وهو عريان، ويحمل حقيبة مملوءة ملابس!

والثاني: يمشي بذل وهو عريان، ويحمل حقيبة مملوءة ملابس!

وهذا حال الكثيرين من أبناء أمتنا الإسلامية، عندها دين فيه أحسن الأسس والمبادئ التربوية، ومع ذلك تكاد تكون عريانة من التربية والتعليم!

فالرجل الأول: كحال الكثير في عالمنا الإسلامي، ممن يرى نفسه وبلده (الأحسن)، وأن الناس يحقدون عليهم وتملؤهم الغيرة والقهر، ومع ذلك هو مستمر على تخلفه!

والرجل الثاني: كمن هو مستمر على تخلفه ولكنه يرى نفسه حقيرًا تابعًا ذليلًا يستجدي من أعدائه التقدم والعزة، مع أن العزة لله جميعًا!

قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾[1]، وقال عز وجل: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ ﴾[2].

ولا شك أن الصلاح والفلاح يكمن في الاسترشاد بشرع الله عز وجل، وكما قال

---

(١) سورة النساء، الآية: (١٣٩).

(٢) سورة فاطر، الآية: (١٠).

الإمام مالك رحمه الله: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها»[١]؛ وهذا- مع الأسف- ما استفاد منه الغرب ليصلوا إلى هذا التطور.

إِسْتَرْشَدَ الغَرْبُ بِالمَاضِي فَأَرْشَدَهُ   وَنَحْنُ كَانَ لَنَا مَاضٍ نَسِينَاهُ
إِنَّا مَشَيْنَا وَرَاءَ الغَرْبِ نَقْبِسُ مِنْ   ضِيَائِهِ فَأَصَابَتْنَا شَظَايَاهُ

لهذا نقول للرجلين العاريين: إن الحل فيها أنزل الله سبحانه وتعالى؛ فقد قال: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾[٢].

وكذلك ينطبق وصف حالهم على حال العطشان الذي يحمل الماء، ولا يشرب منه:

كَالعِيسِ فِي البَيْدَاءِ يَقْتُلُهَا الظَّمَا   وَالمَاءُ فَوْقَ ظُهُورِهَا مَحْمُولُ[٣]

* * *

(١) كتاب (شرح العقيدة الطحاوية) لسفر الحوالي.

(٢) سورة الأعراف، الآية: (٢٦).

(٣) أي: كالجمال في الصحراء القاحلة يقتلها الظمأ، مع أنها حاملة فوق ظهرها الماء.

من المقصود بالتخلف؟

سيكون البحث موجهًا لحل المشاكل التربوية في العالم الإسلامي؛ لهذا فإن له صفة العموم والشمولية، ومن ثم سيكون المقصود في هذا البحث:

١- التخلف التربوي:

إن التخلف في عالمنا الإسلامي يشمل جميع المجالات مع الأسف، والمجال التربوي يدخل في ذلك التخلف، وهو المقصود في هذا الكتاب.

٢- جميع المظاهر التربوية:

إن التخلف يشمل جميع المظاهر التربوية؛ مثل:

- جميع مجالات التربية بما فيها التعليم الخاص والعام.
- جميع المراحل، من الحضانة إلى ما بعد الجامعة.
- أغلب مدارس العالم الإسلامي.
- أغلب المعلمين والطلاب.

٣- العالم الإسلامي:

إن هذا البحث يشمل العالم الإسلامي كله؛ فلهذا سيناقش الأمور المشتركة بشكل عام، ولا يخص أحدًا معينًا، فهو لا يخص معلمًا بعينه أو مدرسة أو مدينة أو منطقة أو دولة بعينها، وإنما هو يناقش مشاكل العالم الإسلامي كله.

ملاحظة: ينبغي ملاحظة ما يأتي:

١- أن المقصود هو الحديث بشكل عام عن الجوانب التربوية للعالم الإسلامي؛ لهذا ينبغي ألا تُفهم أو تُؤخذ تلك البحوث بشكل شخصي أو خاص.

٢- أن هذا الكلام ليس على إطلاقه؛ فهناك تفاوت بين الطلاب والمعلمين والمدارس، بل بين الدول أيضًا، فمثلا ماليزيا الإسلامية قد تستثنى؛ لأنها نهضت، فصارت نموذجًا بالنسبة للعالم الإسلامي.

وكذلك من الملاحظ أن التعليم والمعلمين في تحسن مستمر، ولكنه تحسن بطيء ليس بالمستوى المأمول؛ لأن أملنا أن تكون الأمة سباقة، بل أن تكون في الصدارة، وليس مشيًا كمشي السلحفاة.

٣- أن مما يسهل العناء في الشرح، أن الجميع تعلم في تلك المدارس؛ لهذا سيكون الكلام عن واقع عاشه الجميع.

٤- أن إطلاق كلمة «التخلف» يقصد منها العموم، وهو مبني على أساس الإحصائيات والشواهد التي سيأتي ذكرها.



شواهد على التخلف:

إن الأدلة على تخلف العالم الإسلامي كثيرة- مع الأسف- ولكن سأذكر بعضها باختصار، لكي نعرف وضعنا، ونعمل على إصلاحه، فرحم الله امْرَأً عرف قدر نفسه، ومع أننا- مع الأسف- في ذيل القائمة غالبًا، وأحيانًا لسنا في القائمة أصلًا- مثل غزو الفضاء!- ولكن لا مانع من التبيين.

ولقد حاولت عند إيراد المعلومات أن تكون شاملة، وحديثة، ومنوعة، ومن عدة مصادر، ولم أستقص في ذلك، فمن خلال تلك المعلومات، تتبين بقية المجالات.

ولكن قبل ذكر المعلومات ينبغي التذكير بأن المكابر والفاشل غالبًا لا يعترف بالحقيقة، وإذا قبل بها فإنه سيحتال ويجتهد باختلاق أنواع الأعذار والمبررات، وكما قيل: «برر ومرر»، ومن الأمثلة: تعليق التخلف على الآخرين وأنه ليس من عند أنفسنا، أو عدم المواجهة، كالهروب إلى الأمام؛ مثل: الله أقوى منهم، أو الإسلام أحسن من الكفر، أو نحن مسلمون، أو يريد الكفار أن نتقدم ونترك إسلامنا، أو لن نهتم بالدنيا ونترك الآخرة... وعلى هذا فقس، بحيث يخدر ضميره (المخدر كالعادة) ولسان حاله يقول: ليس في الإمكان أحسن مما كان، فينام قرير العين، ويحلم أنه الأحسن على كل حال، أو يكابر ويستخدم الكلمات المعروفة: نحن أفضل، أطول، أكبر... «كَالهِرِّ يَحْكِي انْتِفَاخًا صَوْلَةَ الأَسَدِ»:

مِمَّا يُزَهِّدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ　　أَسْمَاءُ مُعْتَصِمٍ فِيهَا وَمُعْتَضِدِ
أَلْقَابُ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا　　كَالهِرِّ يَحْكِي انْتِفَاخًا صَوْلَةَ الأَسَدِ

* * *

أمة ﴿اقْرَأْ﴾ لا تقرأ:

قال الدكتور زغلول النجار[1] حفظه الله: «تفشت الأمية بين المسلمين البالغين في هذا العصر بصورة مزعجة؛ بنحو ٥٨٪، بينما تقل نسبة الأمية عن ٢٪ في دول الشمال، ولا تتعدى هذه النسبة ٤٥٪ في المتوسط في دول العالم الثالث بصفة عامة. وهذا يعني بوضوح أن أعلى نسبة للأمية في العالم: في الدول الإسلامية المعاصرة، على الرغم من أن القرآن الكريم نزلت أولى آياته آمرة بالقراءة والكتابة.

وتبلغ نسبة العلماء والتقنيين إلى مجموع تعداد السكان في الدول الإسلامية رقما لا يذكر، إذا قورن بنسبتهم في دول التقدم العلمي والتقني، ومعنى ذلك أن نسبة العلماء والتقنيين في شعب مثل شعب الولايات المتحدة تصل إلى مئة ضعف ذلك في دولة إسلامية كبيرة؛ مثل مصر، وهي من أغنى الدول الإسلامية وفرة في عدد العلماء والتقنيين.

وفي الوقت الذي تنفق فيه الدول الكبرى ما بين ٢٪ و٤٪ من إجمالي ناتجها القومي على عمليات توظيف البحث العلمي من أجل التنمية، فإننا نجد إنفاق الدول الإسلامية (في زمرة الدول النامية) لا يتعدى ٠,٣٪ على ضخامة الدخول القومية في الدول الكبرى وضآلتها في الدول النامية.

هذا، وقد بلغ عدد الطلاب المسجلين في الجامعات والمعاهد العليا بدول العالم الإسلامي في سنة ١٩٨٥م نحو الثلاثة ملايين طالب، أي بما يعادل ٣٧٠ طالبا من كل مئة ألف مواطن تقريبًا، بينما تبلغ هذه النسبة نحو ثلاثة أضعاف ذلك في الدول النامية بصفة عامة، وعشرة أضعافه في الدول المتقدمة علميًّا» انتهى[2].

وإذا قرأت، فما هذه القراءة؟

بيّن الدكتور أحمد نوفل الداعية الإسلامي المشهور: أن إسرائيل تطبع من الكتب أكثر

---

(١) هو: الأستاذ الدكتور زغلول راغب محمد النجار، ولد في سنة ١٩٣٣م، في مصر، رئيس لجنة الإعجاز العلمي للقرآن الكريم- المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وله أكثر من مئة وخمسين بحثًا ومقالًا علميًّا منشورًا، وخمسة وأربعين كتابًا باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والألمانية.

(٢) باختصار من سلسلة كتاب الأمة (قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر) للدكتور زغلول النجار.

مما تطبع الدول العربية مجتمعة، أي أربعة ملايين يطبعون أكثر مما يطبع أربع مئة مليون!

وقال الدكتور أحمد نوفل: «إن هناك أزمة قراءة حقيقية»، بل قال: «أمة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ لا تحسن أن تختار ما تقرأ» انتهى[١].

وكتب محمد الأمير تحت عنوان: «فضيحة القراءة في العالم العربي» فقال: «تكشف الإحصاءات الحديثة أن المواطن الأوروبي يقرأ بمعدل ٣٥ كتابًا في السنة، والإسرائيلي ٤٠ كتابًا في السنة، أما العربي فإن ٨٠ شخصًا يقرؤون كتابًا واحدًا في السنة.

وطبعا هذا متوسط الإحصاءات... وبعبارة أخرى، وحسب لغة الأرقام:

- ٨٠ عربيًّا يقرؤون كتابًا واحدًا.

- أوروبي واحد يقرأ ٣٥ كتابًا.

- إسرائيلي واحد يقرأ ٤٠ كتابًا.

إذن، لكي تتم قراءة ٣٥ كتابًا في العالم العربي ، فإننا نحتاج إلى (٢٨٠٠ عربي)، وهو حاصل ضرب رقم ٨٠ عربيًّا × ٣٥ كتابًا.

ولكي تتم قراءة ٤٠ كتابًا، فإننا نحتاج إلى (٣٢٠٠ عربي) وهو حاصل ضرب رقم ٨٠ عربيًّا × ٤٠ كتابًا.

الحصيلة:

- ثقافة أوروبي واحد = ثقافة ٢٨٠٠ عربي !

- ثقافة إسرائيلي واحد = ثقافة ٣٢٠٠ عربي !

وهذه الأرقام تبدو رحيمة، والإحصاءات بما تحمله من صدمة تبدو سهلة إذا ما طالعنا بقية الأرقام والإحصاءات الدولية بشأن وضع القراءة والتعليم والثقافة في العالم العربي المنكوب بالتخلف، فالأرقام التي تصدر عن دور النشر تشير إلى واقع أسوأ من ذلك بكثير» انتهى[٢].

---

(١) برنامج "وجوه إسلامية" الذي عرض في قناة العربية في شهر رمضان عام ١٤٣٢هـ ٢٠١١م.

(٢) باختصار من صحيفة (الأهالي) الصادرة في العراق تحت عنوان: (التعليم في العالم العربي

الجامعات والأبحاث والترجمة:

من مجلة (المعلوماتية) نذكر من المعلومات ما يأتي:

«١- من بين أرقى ٥٠٠ جامعة ومؤسسة تعليمية على مستوى العالم، احتلت إسرائيل المرتبة الثانية من بين الدول الآسيوية بعد اليابان، أما الجامعات العربية فلم يرد ذكرها على الإطلاق.

٢- أما الترجمة، فإن عدد الكتب المترجمة إلى العربية يقرب من ربع ما تنتجه اليونان.

٣- نسبة الأبحاث العربية مجتمعة لا تساوي سوى ٢٪ مما نشرته الجامعات الإسرائيلية؛ أي أن إسرائيل أنتجت أكثر ٥٠ مرة من الدول العربية.

٤- إسرائيل تنفق على البحوث العلمية والتطوير ما مقداره ٤,٥ ٪ من الدخل القومي، وهي أعلى نسبة من بلدان أوروبا وأمريكا الشمالية وأعلى بنحو ٢٠ مرة من نسبة الإنفاق في الدول العربية.

٥- نسبة إسهام المنشورات العربية في الإنتاج العلمي العالمي لا تتجاوز ٠,٠٠٠٢٪ لمنطقة يشكل عدد سكانها ٥٪ من عدد سكان العالم أجمع.

٦- إسرائيل تسهم بما مقداره ١٪ من الإنتاج العالمي في الأبحاث العلمية.

٧- إسرائيل تنشر أبحاثًا علمية أكثر ٥٠٠٠ مرة من الإنتاج العربي مجتمعًا.

٨- نسبة إنتاج إسرائيل إلى إنتاج الدول العربية ارتفعت خلال ربع القرن الأخير ١٠٠ مرة.

٩- البلدان العربية مجتمعة في أسفل القائمة من حيث الإصدارات تأليفًا وترجمة؛ إذ لم يزد إنتاج الكتب في البلدان العربية عام ٢٠٠٠ على ٠,٨٪ من الإنتاج العالمي، على الرغم من أن العرب يشكلون ٥٪ من سكان العالم.

١٠- إن العدد الإجمالي التراكمي للكتب المترجمة إلى العربية منذ عصر المأمون حتى الآن (١٠٠٠عام تقريبا) يقدر بنحو عشرة آلاف كتاب، وهو ما يوازي ما تترجمه

"يتدهور" والقراءة في أدنى مستوياتها عالميًّا) لمحمد الأمير.

إسبانيا في عام واحد!» انتهى[1].

وكتب محمد الأمير تحت عنوان: (الترجمة)، فقال: «عندما نعود إلى تقرير التنمية المذكور[2]، فإن المعطيات التي يوردها حول الترجمة إلى اللغة العربية تبين أن الدول العربية ككل هي أدنى القائمة؛ إذ قال التقرير: إن اليابان تترجم نحو ٣٠ مليون صفحة سنويًّا، في حين أن ما يترجم سنويًّا في العالم العربي، هو نحو خُمس ما يترجم في اليونان.

وتبيِّن مقارنة أعداد الكتب المترجمة إلى اللغة العربية مع لغات أخرى، سعة الهوة بين العالم والعربي بمجمله وبين أي دولة في العالم؛ ففي النصف الأول من ثمانينات القرن العشرين، كان متوسط الكتب المترجمة لكل مليون- على مدى خمس سنوات- هو ٤,٤ كتاب (أقل من كتاب لكل مليون عربي في السنة)، في حين كان الرقم في هنغاريا ٥١٩، وفي إسبانيا ٩٢٠.

إضافة لذلك، فإن المقارنة العددية بين العناوين لا توضح توضيحًا كافيًا مدى بؤس الثقافة في العالم العربي؛ فعدد النسخ المطبوعة للعنوان هي ألف نسخة، وفي حالات خاصة، وعندما يكون المؤلف ذائع الصيت، فقد يبلغ عدد النسخ ٥,٠٠٠؛ ولذا، فإن المقارنة لا تكون صحيحة على أساس عدد العناوين التي تصدر بالعربية، ما دامت طبعة الكتاب في الغرب تتجاوز خمسين ألف نسخة. ولهذا فنسبة كتاب واحد لكل ثمانين عربيا رقم يتجاوز الواقع، ونجد أنفسنا مرغمين على قبول ما جاء في المعطى التالي:

«إن كل ٣٠٠ ألف عربي يقرؤون كتابًا واحدًا، ونصيب كل مليون عربي هو ٣٠ كتابًا».

هذا الرقم الأدق يترجم إلى المعادلة التالية:

ثقافة غربي واحد أو إسرائيلي واحد = ثقافة مليون عربي.

ظلام الجهل الذي يعم العالم العربي لا يشمل ميدان عالم الكتاب فحسب (تأليفًا

---

(١) هذه المعلومات مأخوذة من: مجلة (المعلوماتية) العدد السادس عشر، تحت عنوان: (دراسة لواقع التعليم العالي والبحث العلمي في الجامعات العربية) للدكتور زياد سعيد العاني.

(٢) يقصد: (تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٣، النسخة الإنجليزية).

وترجمة وقراءة)، بل يشمل أيضًا القدرة على القراءة والكتابة.

هذه الأرقام، تظهر وضعًا مؤلـمـًا تعانيه الشعوب العربية، لا نَفِيهِ حقه إن وصفناه بالتخلف الحضاري.

والسؤال الذي ينتظر الإجابة: هذه الشعوب التي لا تقرأ- والتي لا تعرف القراءة- هل تستحق فعلا أن تحلم بأن يكون لها دور في المستقبل، في حين لم تبلغ سن الطفولة الحضارية بعد؟!

هل تحتاج هذه الشعوب حقًّا إلى مؤامرة لتكون متخلفة؟! وأي تخلف أكثر من أن تعادل ثقافة مليون فرد في أمة ثقافة فرد واحد في أمة أخرى؟!» انتهى [1].

مستوى التعليم:

من صحيفة (الأهالي) نذكر من المعلومات ما يأتي:

«١- جاء تسلسل الطلاب العرب في مادتي (الرياضيات والعلوم) في مؤخرة طلاب دول العالم في تقييم دولي، شمل ٤٩ نظامًا تعليميًّا حول العالم.

٢- احتل الطلاب العرب في الصف الثاني المتوسط والصف الرابع الابتدائي، مراكز في ذيل القائمة التي ضمت خمسين دولة، بحسب تقرير «دراسة مستويات العلوم والرياضيات الدولي (TIMSS) الدوري»[2]، الذي أجرته المنظمة الدولية لتقييم الإنجازات التعليمية (IEA)، عام ٢٠٠٧.

---

(١) باختصار من صحيفة (الأهالي) الصادرة في العراق تحت عنوان: (التعليم في العالم العربي «يتدهور» والقراءة في أدنى مستوياتها عالميا) لمحمد الأمير.

(٢) وكما جاء في الصحيفة: «يدرس التقرير الدولي، الذي تجريه «المنظمة الدولية لتقييم الإنجازات التعليمية» (IEA)، مستوى العلوم والرياضيات في دول العالم على مستوى الصفين التعليميين الرابع والثامن (الرابع الابتدائي والثاني المتوسط)، باعتبار أن المادتين المذكورتين تشكلان مفتاح التقدم والتطور العلمي.

وعادة ما تجري الاختبارات بمشاركة ٤٠٠ ألف طالب دون الخامسة عشرة من قرابة ٥٠ دولة. وأشار التقرير إلى أن معظم المدارس تعتمد أسلوب التلقين؛ يقرأ المدرس من كتاب، ويعيد الأطفال ما قرأه، ويستمر الدرس هكذا؛ فالمدرس يقيد الطلبة بالكتاب، عليهم أن يحفظوا طوال الوقت، يتلقون التعليم بالملعقة طوال الوقت، وفي النهاية وبعد الامتحانات ينسون كل ما تعلموه» انتهى.

٣- لم تفلح أي من الدول العربية التي شملتها الدراسة، في تحصيل نتائج إيجابية، وحققت جميعها مجاميع نقطية أقل من المعدلات العالمية للمستويين الدراسيين الرابع والثامن في المجالين العلميين.

٤- آخر التقارير الصادرة حول التعليم ومستوى طلبة المدارس الابتدائية والمتوسطة في العالم العربي، تؤكد أن الطالب العربي في أدنى سلم طلاب العالم في مادتي الرياضيات والعلوم.

٥- أكد البنك الدولي أن التعليم في المدارس بالعالم العربي في تدهور مستمر» انتهى(١).

وكتب منير حداد تحت عنوان: «**التعليم العربي أساس التخلف**» فقال:

«تؤكد الدراسات المقارنة بين اقتصاديات النمور الآسيوية وباقي الدول النامية، أن تعميم التعليم مع المحافظة على جودته وملاءمته لمتطلبات المؤسسات الاقتصادية التي تعمل في بيئة تنافسية، يمثل أحد أهم العوامل التي تساعد على تحقيق تنمية مستدامة، أي نسبة نمو اقتصادي سنوي لا تقل عن ٧٪ على مدى عقود طويلة.

في المقابل يعود فشل الدول العربية في تحقيق التنمية المستدامة إلى تخلف مناهجها التعليمية، حسب تحليل نشرته مجلة «ذي إيكونوميست» المتخصصة في عدد ١٧ أكتوبر ٢٠٠٩، تحت عنوان «المتخلفون يحاولون اللحاق بالركب»، مع عنوان جانبي: «التعليم الذي يعتمد على النقل أحد أهم أسباب الفقر المتفشي لدى العرب»» انتهى(٢).

أمة ﴿اقْرَأْ﴾ التي لا تقرأ، أيضًا لا تخترع:

حسب تقرير عام ٢٠٠٧م للمنظمة العالمية للملكية الفكرية التابعة للأمم المتحدة (WIPO)، التي ترصد اختراعات الباحثين والعلماء، فقد تقدم العالم العام الماضي بمليون وستمئة ألف اختراع، تم التبني والموافقة على ستمئة ألف منها. وكان على رأس القائمة طبقًا لأعداد طلبات براءة الاختراع: اليابان، ثم أمريكا، وبعدهما الصين،

---

(١) هذه المعلومات مأخوذة من: صحيفة (الأهالي) الصادرة في العراق تحت عنوان: (التعليم في العالم العربي "يتدهور" والقراءة في أدنى مستوياتها عالميا) لمحمد الأمير.

(٢) صحيفة المؤتمر.

وكوريا، وأوروبا، وهؤلاء الخمس الأوائل يحظون بنحو ٧٧٪ من إجمالي طلبات اختراعات العالم، و٧٤٪ من الاختراعات التي منحت حق البراءة.

ومع الأسف لا توجد أي دولة عربية أو إسلامية بين الأوائل، في حين احتلت إسرائيل المركز العشرين بعد الهند، وفرنسا، والبرازيل، والمكسيك، وهونج كونج، وسنغافورة، ونيوزيلندا، وبولندا، وتايلاند» انتهى[١].

ويقول د. أحمد زويل الحائز على جائزة نوبل في الكيمياء في كتابه (عصر العلم): «إن العالم العربي الذي يصنف من بين المناطق الثرية أصبح الآن في أدنى درجات السلم الدولي للعلم، ولا تقارن إسهاماته بأي إسهام لمنطقة أخرى فاعلة في العالم» انتهى[٢].

الناتج القومي للعالم الإسلامي:

«تتألف منظمة المؤتمر الإسلامي من ٥٧ دولة، وتمتد ما بين إندونيسيا والمغرب، ويبلغ عدد سكانها جميعا نحو ١,٣ مليار نسمة، إلا أن إجمالي الناتج القومي لهذه الدول جميعها أقل من نصف الناتج القومي لألمانيا، كما أن معدلات الأمية بها من أعلى النسب في العالم» انتهى[٣].

الإنتاج:

تحدث الدكتور طارق السويدان جزاه الله خيرًا عن أزمة التخلف والفاعلية في قناة «الرسالة»[٤] فبين بعض صور التخلف، نذكر منها ما يأتي:

- ضرب أمثلة على قلة فاعلية الموظف الحكومي وإنتاجه في الدول العربية فبين ما يلي:
- إنتاجية الموظف في منطقة الخليج لليوم الواحد = ربع ساعة في اليوم!
- إنتاجية الموظف في مصر لليوم الواحد = ٥ دقائق في اليوم!

---

(١) مجلة المجتمع رقم العدد: (١٨٠٣).

(٢) صحيفة الوحدة، رقم العدد: (٦٢٥٨).

(٣) جمعية «اقرأ» بتصرف عن: ميدل إيست أونلاين.

(٤) برنامج رياح التغيير المعروض في شهر رمضان سنة ١٤٣٢هـ ٢٠١١م.

- أما في مجال الإنفاق على البحث العلمي فإن الكيان الصهيوني يتفوق على الدول العربية (مجتمعة) ١٨ مرة.

- لدى الكيان الصهيوني ٨ جامعات، ٦ منها من ضمن أفضل ١٠٠ جامعة.

- الجوائز العالمية: جائزة نوبل:

- لليهود (٨٠) جائزة.

- للمسلمين (١٠) جوائز فقط.

وأخيرًا.. ماليزيا كانت من الدول المتخلفة، ولكن في خلال ١٠ سنوات صارت من دول العالم المتطور. انتهى.

الغذاء والصناعة والطب:

أما في مجال الغذاء فيكفي[1] أن البلاد العربية- كما هو معروف - أصبحت اليوم مستوردة لكل أنواع السلع الغذائية، أما في مجال الصناعة والطب، فحدث ولا حرج، والواقع خير شاهد.

هَذِي هِيَ الأَمْـرَاضُ قَدْ فَتَكَتْ بِنَا   فِي عَـصْرِنَـا وَدَوَاؤُهَـــا الإِسْــلَامُ

بل في أول القائمة:

وبيانًا للحق، فإنَّا لسنا دائمًا في ذيل القائمة أو خارجها، بل قد نكون في أول القائمة (وبلا منافس)؛ وذلك في أمور كثيرة؛ منها: الفقر، الأمية، الأمراض، الحروب، التشرد، اللجوء، الخلافات، الروتين، البطالة، التدخين، الفوضى، الظلم... وأمور أخرى! فصارت أمتنا لا قيمة لها عند الأمم!

وَيُـقْـضَى الأَمْـرُ حِـينَ تَغِيبُ تَيْمٌ   وَلاَ يُـسْـتَـأْذَنُـونَ وَهُـمْ شُـهُـودُ

أبلغ وصف:

وأبلغ من ذلك كله، وصف الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق

---

(١) للاختصار نكتفي بما سبق من بحوث وتقارير، مع ملاحظة أن جميع البحوث والتقارير تتفق على التخلف الشنيع مع الأسف.

عن الهوى، حيث وصفهم بالغثاء؛ فقال: «يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا» فقال قائل: أَوَمِنْ قلة نحن يومئذ؟ قال: «بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ المَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمُ الوَهَنَ»، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوَهَنُ؟ قال: «حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ المَوْتِ»[1].

لِمِثْلِ هَذَا يَذُوبُ القَلْبُ مِنْ كَمَدٍ ... إِنْ كَانَ فِي القَلْبِ إِسْلَامٌ وَإِيمَانُ

ولكن مع هذه المعلومات وغيرها الكثير، نجد من المكابرين والجهلة من لا يصدق هذه المعلومات، وإن صدقها فإنه لا يرضى بنشرها باعتبارها (كشفًا لعورته) عند الغرب!

فيقال له: إن عورتك مكشوفة عندهم بشكل أكبر؛ لأن المعلومات تصدر من عندهم[2]، ولكن خير من ذلك وأولى ألا تأخذك العزة بالإثم، وأن تسترها بترك التخلف؛ وذلك باتباع شرع الله حقًّا وصدقًا، وليس بالتمثيل أو اتباع بعض ما نشتهي

---

(١) صححه الألباني؛ قال الشيخ الملا علي القاري: «قال رسول الله: «يوشك الأمم» أي: يقرب فرق الكفر والضلالة أن يدعو بعضهم بعضًا لمقاتلتكم وكسر شوكتكم وسلب ما ملكتموه من الديار والأموال؛ كما يدعو أكلة الطعام بعضهم بعضًا «إلى قصعتها» أي: التي يتناولون منها بلا مانع ولا منازع، فيأكلونها عفوًا صفوًا؛ كذلك يأخذون ما في أيديكم بلا تعب ينالهم أو ضرر يلحقهم أو بأس يمنعهم، فقال قائل: «ومن قلة» أي: أذلك التداعي لأجل قلة نحن عليها يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير» أي: عددًا وقليل مددا، وهذا معنى الاستدراك بقوله: «ولكنكم غثاء كغثاء السيل»، قال: ما يحمله السيل من زبد ووسخ؛ شبههم به لقلة شجاعتهم ودناءة قدرهم وخفة أحلامهم، وخلاصته: ولكنكم تكونون متفرقين ضعيفي الحال خفيفي البال مشتتي الآمال، ثم ذكر سببه بعطف البيان؛ فقال: «ولينزعن» أي: ليخرجن «الله من صدور عدوكم المهابة» أي: الخوف والرعب «منكم» أي: من جهتكم، «وليقذفن» أي: وليرمين؛ أي: الله، «في قلوبكم الوهن» أي: الضعف، وكأنه أراد بالوهن: ما يوجبه، ولذلك فسره بحب الدنيا وكراهة الموت؛ حيث قال قائل: «يا رسول الله، وما الوهن؟» أي: ما سببه وما موجبه؟ سؤال عن نوع الوهن، أو كأنه أراد: من أي وجه يكون ذلك الوهن؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت»، وهما متلازمان؛ فكأنهما شيء واحد يدعوهم إلى إعطاء الدنية في الدين من العدو المبين، ونسأل الله العافية فقد ابتلينا بذلك فكأنا نحن المعنيون بما ذكر هنالك» باختصار من كتاب (مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح) للملا علي القاري.

(٢) وهذا التخلف مشهور على مستوى العالم، بل وصل لدرجة التحذير؛ كما حصل من البنك الدولي؛ إذ صدر بتاريخ: ٠٥/ ٠٢/ ٢٠٠٨م، تقرير عن البنك الدولي حذر فيه من تخلف التعليم في العالم العربي، قال فيه: «إن مستوى التعليم في العالم العربي متخلف بالمقارنة بالمناطق الأخرى في العالم».

من الدين وترك الباقي أو تشويهه، فإنه مهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله.

ومن المعروف أن الإسلام دين العلم والحضارة والتقدم والتطور في جميع جوانب الحياة؛ فكل الحياة عبادة لله تعالى؛ قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[1].

وقد حثنا الإسلام على العمل، وليس العمل فقط، بل حث على إتقانه؛ قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ»[2].

فيا سبحان الله! ما أعظم هذا الدين وأكمله! ولكن النقص والعيب فينا وفي فهمنا.

يقول مؤرخ العِلم الدكتور جورج سارتون[3]: «إن المسلمين يمكن أن يعودوا إلى عظمتهم الماضية، وإلى زعامة العالم السياسية والعلمية، كما كانوا من قبل، لو أنهم عادوا إلى فهم حقيقة الحياة في الإسلام والعلوم التي حث الإسلام على الأخذ بها».

وأمام هذا التخلف الذي ترجع بعض أسبابه إلى بعض المعلمين الذين فرطوا في حمل الأمانة- وسيأتي بيان ذلك- يحسن أن نستشهد ببعض الأبيات التي اخترتها من قصيدة للشاعر الذي قال فيها:

وَدَعِي الْقَادَةَ فِي أَهْوَائِهَا ... تَتَفَانَى فِي خَسِيسِ الْمَغْنَمِ
رُبَّ «وَامُعْتَصِمَاهُ» انْطَلَقَتْ ... مِلْءَ أَفْوَاهِ الصَّبَايَا الْيُتَّمِ
لَامَسَتْ أَسْمَاعَهُمْ لَكِنَّهَا ... لَمْ تُلَامِسْ نَخْوَةَ الْمُعْتَصِمِ

أرى وصفه ينطبق على بعض المعلمين وغيرهم من الذين يُمجّدون وهم كما وصف.

أُمَّتِي هَلْ لَكِ بَيْنَ الْأُمَمِ ... مِنْبَرٌ لِلسَّيْفِ أَوْ لِلْقَلَمِ
أَتَلَقَّاكِ وَطَرْفِي مُطْرِقٌ ... خَجَلًا مِنْ أَمْسِكِ الْمُنْصَرِمِ

---

(١) سورة الأنعام، الآيتان: (١٦٢، ١٦٣).

(٢) صححه الألباني.

(٣) جورج ألفريد ليون سارتون، ولد ببلجيكا في ١٨٨٤م، وتوفي سنة ١٩٥٦م، نال الدكتوراه الفلسفية في الرياضيات، وهو متخصص في العلوم الطبيعية والرياضيات، هاجر إلى بريطانيا، ومنها ذهب إلى أمريكا واستقر بها بقية حياته، حاضر بجامعة هارفارد، وأستاذًا لتأريخ العلم.

كَيْفَ أَغْضَيْتِ عَلَى الذُّلِّ وَلَمْ تَنْفُضِي عَنْكِ غُبَارَ التُّهَمِ؟
أُمَّتِي كَمْ صَنَمٍ مَجَدْتِهِ لَمْ يَكُنْ يَحْمِلُ طُهْرَ الصَّنَمِ
لَا يُلَامُ الذِّئْبُ فِي عُدْوَانِهِ إِنْ يَكُ الرَّاعِي عَدُوَّ الغَنَمِ
فَاحْبِسِي الشَّكْوَى فَلَوْلَاكِ لَمَا كَانَ فِي الحُكْمِ عَبِيدُ الدِّرْهَمِ

وإحقاقًا للحق، فإن بعض المعلِّمين لا يدخل في ذلك، بل يقترب من قول الشاعر أحمد شوقي- وهم يتدرجون بين هذا وذاك-:

قُمْ[1] لِلْمُعَلِّمِ وَفِّهِ التَّبْجِيلَا كَادَ المُعَلِّمُ أَنْ يَكُونَ رَسُولَا
أَعَلِمْتَ أَشْرَفَ أَوْ أَجَلَّ مِنَ الَّذِي يَبْنِي وَيُنْشِئُ أَنْفُسًا وَعُقُولَا
سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ خَيْرَ مُعَلِّمٍ عَلَّمْتَ بِالقَلَمِ القُرُونَ الأُولَى

ولكن قد يرى بعض من تربى على الاستبداد والعسف حتى استمرأ الإهانة والتحقير والذل والظلم، أن في ذلك مبالغة، وأن الأمر (سهل لا يؤلم)؛ فيقال: صدق الشاعر:

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهَوَانُ عَلَيْهِ مَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيلَامُ

وقال الشاعر:

لاَ تَشْكُ لِلنَّاسِ جُرْحًا أَنْتَ صَاحِبُهُ لاَ يُؤْلِمُ الجُرْحُ إلاَّ مَنْ بِهِ أَلَمُ

فالله المستعان والهادي إلى سواء السبيل، والحمد لله على كل حال.

* * * * *

(١) لقد ورد النهي الشرعي عن القيام للمعلم وغيره، فهذه المظاهر من التربية الفرعونية المتكبرة، وليست من التربية النبوية الطاهرة. وسيأتي مزيد بيان لهذا في الباب الخامس إن شاء الله تعالى.

النقد البناء:

قد يُظَنُّ أن نقد الذات وبيان المشاكل وإظهار الأخطاء التربوية، إنما هو كشف للمستور، أو سخرية أو حقد، أو تحامل، أو تكبير وتضخيم لتلك المشاكل والأخطاء.

وكل هذا غير صحيح، ولكن ماذا نعمل ونحن نرى الأمة الإسلامية على هذه الحال؟!

إن الأمر لا يخلو من ثلاثة اختيارات؛ وهي:

١ - أن نتفرج أو نهون أو نخدر أو نصف المسكنات أو نعتذر وندافع عن الأخطاء أو نبرر ونمرر.

٢ - أن ننقد الوضع نقدًا هدّامًا يقوم على السخرية والاستهزاء ويهدف إلى تحطيم المثل والمبادئ[1].

---

(١) لأن السخرية من التعليم والمعلمين، أو نقدهم بطريقة ساخرة، يقصد منها تحطيم هذه المهنة العظيمة، والحط من أهلها، وهذا يقع بكثرة مع الأسف.

ويلاحظ أن هذا النقد يصدر في الغالب من شراذم مفسدة، من فنانين أو صحفيين، كما يلاحظ أن هذه السخرية والاستهزاء بهم يكون أمام العامة بحيث تجعل منهم صورة مشوهة يسهل هدمها؛ لأن في تحطيمهم وتشويههم تدميرًا للعلم وأهله، ومن ثم الانحراف عن طريق النهوض بالأمة إلى الرقي والتفوق؛ لأن هناك من لا يريد للأمة أن تنهض، بل يريدها أن تنحدر إلى السفاهة والفساد؛ فتكون في الحضيض، وهذا هو الهدم.

وإن من ينقد بهذه الطريقة، فلا شك أنه يهدم، بغض النظر عما إذا كان يقصد الإصلاح أو يدعيه، بل سواء عليه أشعر بهذا أم لم يشعر، ولا ننسى في هذه الأحوال قول الله سبحانه وتعالى عمن يفسد وهو يدعي الإصلاح والذين هم المنافقون: ﴿ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، سورة البقرة، الآيتان: (١١، ١٢).

مع العلم بأن هذا النقد والهدم ليس بجديد، بل إن محاولات إفشال التعليم والحط من قدر المعلم- خاصة معلم الدين واللغة العربية- تسير على هذا النهج منذ عشرات السنين، ولقد كان الهدم يتركز على أكثر من اتجاه؛ مثل: وسائل الإعلام؛ كالتمثيل والصحافة بما فيها من الصور الكاريكاتورية الساخرة... وكذلك عدم إعطاء المعلم حقوقه المعنوية والمادية؛ مثل تخفيض راتبه (وهذه وسيلة لتحطيمه من عدة جوانب)، أما مواد الدين واللغة العربية ومحاولة هدمها، فقد نالها الإفساد كذلك؛ مثل: تخفيض نصاب هذه المواد، والحذف منها وتهميشها؛ كجعلها مادة ثانوية لا رسوب فيها ولا نجاح، وكذلك جعل مناهجها متخلفة.

٣- أن ندافع عن أمتنا بكل جهد وإخلاص، فنحدد المشاكل ونبينها، ثم نجتهد في علاجها بأحسن علاج.

إنه بلا شك الاختيار الثالث، وهو قول الحق ولو كان مرًّا، والصدق والإخلاص في تحديد المشكلة، مع اختيار العلاج المناسب لنكون في المقدمة، ونقود الإنسانية إلى الخير في الدنيا والآخرة، مقتدين بأنبياء الله تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[1].

ولهذا نريد من الطالب أن يكون مسلمًا متكامل الشخصية؛ قال الدكتور مصطفى السباعي[2]: «إذا لم يمنع العلم صاحبه من الانحدار، كان جهل ابن البادية علما خيرا من علمه».

وقالت نوال السباعي [3]: «لا تكون المدرسة دار تربية وتعليم، إلا عندما تربي إنسانًا حرًّا، وتعلمه كيف يبحث عن الحقيقة، وكيف يستخدم علمه في عمله، وكيف يقول: لا».

وقال الفيلسوف الصيني كونفوشيوس[4]: «لا يحصل المرء على المعرفة إلا بعد أن يتعلم التفكير».

---

(١) سورة هود، الآية: (٨٨).

(٢) الشيخ مصطفى بن حسني السباعي، رحمه الله، أحد العلماء البارزين والدعاة المشهورين، ولد في سوريا عام ١٩١٥م، ونشأ في أسرة علمية عريقة، أصيب في آخر عمره بالشلل النصفي حيث شل طرفه الأيسر وظل صابرًا محتسبًا مدة ٨ سنوات حتى توفي سنة ١٩٦٤م.

(٣) نوال السباعي، كاتبة وصحفية ومفكرة إسلامية من سوريا.

(٤) كونفوشيوس هو مؤسس الكونفوشية الصنية، وأعظم تربوي ومفكر عند الصينيين، ولد كونفوشيوس في عام ٥٥١ قبل الميلاد، وتوفي في عام ٤٧٩ قبل الميلاد، حيث كان أقدم من الفيلسوف اليوناني المشهور أرسطو، توفي والده وهو في الثالثة من عمره.
فلسفته قائمة على القيم الأخلاقية، الدعوة إلى الحب ومقاومة الطغيان، حيث كان يدعو إلى حب الناس وحسن معاملتهم، ونظافة اليد واللسان واحترام الكبير.
من حِكم كونفوشيوس: «لو قال كل إنسان ما يفكر فيه بصدق، فإن الحوار بين البشر يصبح قصيرًا جدًّا»، «سلح عقلك بالعلم خير من أن تزين جسدك بالجواهر»، «ليس من أغراك بالعسل حبيبًا، بل من نصحك بالصدق عزيزٌ»، «العقل كالمعدة؛ المهم ما تهضمه لا ما تبتلعه»، «إن تجاوز الهدف مثل عدم بلوغه»، «ليست العظمة في ألا تسقط أبدًا، بل في أن تسقط ثم تنهض من جديد».

وخير من قول هؤلاء، قول البشير النذير والسراج المنير؛ نبينا وحبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ الذي قال: «لاَ قُدِّسَتْ أُمَّةٌ لاَ يَأْخُذُ الضَّعِيفُ فِيهَا حَقَّهُ غَيْرَ مُتَعْتَعٍ»[١].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم بخصال من الخير: أوصاني ألا أنظر إلى من هو فوقي، وأن أنظر إلى من هو دوني، وأوصاني بحب المساكين والدنو منهم، وأوصاني أن أصل رحمي وإن أدبرت، وأوصاني ألا أخاف في الله لومة لائم، وأوصاني أن أقول الحق وإن كان مرًّا، وأوصاني أن أكثر من «لا حول ولا قوة إلا بالله» فإنها كنز من كنوز الجنة»[٢].

بل بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه على قول الحق وألا يخافوا في الله لومة لائم.

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال: «بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وألا ننازع الأمر أهله، وأن نقوم أو نقول بالحق حيثما كنا لا نخاف في الله لومة لائم»[٣].

وأولًا وآخراً، أقرأُ قول الله سبحانه وتعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي كان الرجلان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر هذه السورة[٤]: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾[٥].

ولا أظن أن عاقلًا يجادل في أهمية النقد البناء وقول الحق والعمل بمقتضاه والتواصي به في جميع الأمور: التربوية أو العلمية أو الفكرية...؛ لأن العمل البشري سيبقى معرَّضًا للنقص والخلل والقصور، ويبقى الكمال لله سبحانه وتعالى.

---

(١) صححه الألباني.

(٢) صححه الألباني.

(٣) صحيح البخاري.

(٤) «كان الرجلان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾، ثم يسلم أحدهما على الآخر». (السلسلة الصحيحة) للألباني.

(٥) سورة العصر.

ولا شك أن النقد تدخل فيه بعض العبارات غير المستساغة؛ لأن النصح بطبعه ثقيل، ولكن الأمة بحاجة لمن ينبهها ويوقظها، لا لمن يربت عليها ويخدرها.

مَا نَاصَحَتْكَ خَبَايَا الوُدِّ مِنْ أَحَدٍ ... مَا لَمْ يُصِبْكَ بِمَكْرُوهٍ مِنَ العَذَلِ

مَوَدَّتِي لَكَ تَأْبَى أَنْ تُسَامِحَنِي ... بِأَنْ أَرَاكَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الزَّلَلِ

ومع ذلك ينبغي الحرص على أن يكون النقد هدفه الإصلاح؛ ولذلك ينبغي التجرد من الطرفين ليتحقق الإصلاح.

ومثال ذلك: في حالة نقد المهندسين الذين يقصرون في عملهم، والقضاة الظلمة، والأطباء، والموظفين وغيرهم...

ففي هذه الحالة: إذا حصل النقد بتجرد، فسيفرح النزيهون منهم، ومن يريد الإصلاح، وسيستفيد المقصر، بل الجاهل والمخطئ، بل الخائن منهم، فالمقصر يحاول تلافي ذلك التقصير، والجاهل والمخطئ يتعلم، والخائن يتوب من خيانته، والله المستعان.

وعلى العموم لا يغضب من محاربة الأخطاء والجرائم والسرقات في المجتمع إلا الفاسدون والمجرمون أو المتعاونون مع هؤلاء الظلمة؛ قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾[1].

ففي حالة الخطأ يكون الوقوف مع المخطئ بتعليمه ورده عن الظلم، وليس بتشجيعه والدفاع عن أخطائه وتبريرها واختلاق الأعذار؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا»، فقال رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلومًا، أفرأيت إذا كان ظالمًا كيف أنصره؟ قال: «تَحْجِزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ»[2].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «رحم الله من أهدى إلي عيوبي»[3].

---

(١) سورة هود، الآية: (١١٣).

(٢) صحيح البخاري.

(٣) سنن الدارمي، وتفسير الرازي.

وقال الإمام الغزالي: «كان داود الطائي قد اعتزل الناس، فقيل له: لم لا تخالط الناس؟ فقال: «وماذا أصنع بأقوام يخفون عني عيوبي؟!» فكانت شهوة ذوي الدين أن يتنبهوا لعيوبهم بتنبيه غيرهم، وقد آل الأمر في أمثالنا إلى أن أبغض الخلق إلينا من ينصحنا ويعرفنا عيوبنا، ويكاد هذا أن يكون مفصحا عن ضعف الإيمان، فإن الأخلاق السيئة حيات وعقارب لداغة، فلو نبهنا منبه على أن تحت ثوبنا عقربًا لتقلدنا منه منة وفرحنا به، واشتغلنا بإزالة العقرب وإبعادها وقتلها، وإنما نكايتها على البدن، ويدوم ألمها يومًا فما دونه، ونكاية الأخلاق الرديئة على صميم القلب أخشى أن تدوم بعد الموت أبدًا وآلافًا من السنين، ثم إنا لا نفرح بمن ينبهنا عليها ولا نشتغل بإزالتها، بل نشتغل بمقابلة الناصح بمثل مقالته، فنقول له: وأنت أيضًا تصنع كيت وكيت، وتشغلنا العداوة معه عن الانتفاع بنصحه، ويشبه أن يكون ذلك من قساوة القلب التي أثمرتها كثرة الذنوب، وأصل كل ذلك ضعف الإيمان، فنسأل الله عز وجل أن يلهمنا رشدنا، ويبصرنا بعيوبنا، ويشغلنا بمداواتها، ويوفقنا للقيام بشكر من يطلعنا على مساوينا بمنه» انتهى(١).

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي: «فلو فرض أن أحدًا يكره إظهار خطئه المخالف للحق، فلا عبرة بكراهته لذلك، فإن كراهة إظهار الحق إذا كان مخالفًا لقول الرجل، ليس من الخصال المحمودة، بل الواجب على المسلم أن يحب ظهور الحق ومعرفة المسلمين له، سواء كان ذلك في موافقته أو مخالفته، وهذا من النصيحة لله ولكتابه ورسوله ودينه وأئمة المسلمين وعامتهم، وذلك هو الدين؛ كما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم. وأما بيان خطأ من أخطأ من العلماء قبله إذا تأدب في الخطاب وأحسن في الرد والجواب، فلا حرج عليه ولا لوم يتوجه إليه» انتهى(٢).

وأبلغ من ذلك قول من أعطي جوامع الكَلِمِ، حبيبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال: «الْمُؤْمِنُ مِرْآةُ الْمُؤْمِنِ»(٣).

(١) كتاب "إحياء علوم الدين" للغزالي.

(٢) كتاب "الفرق بين النصيحة والتعيير" لابن رجب.

(٣) صححه الألباني.

وفي عصرنا الحاضر نجد المسؤولين عن الشركات والمؤسسات المتطورة الناجحة، يدفعون المبالغ الكبيرة للشركات الاستشارية، لتبيين الأخطاء ونقدها، ومن ثم يقومون هم بإصلاحها.

وتجد الكثير من الناس يدفع المال مقابل الكشف عند الطبيب، وذلك لبيان ومعرفة الخلل ثم علاجه، ولكن في شؤون الحياة فالأمر يختلف؛ إما بسبب الجهل[1]، أو الإهمال.

وهناك أمر آخر يسعى الناصحون المصلحون الناجحون إليه؛ وهو: إذا كانت الأمور في وضع حسن وبلا مشاكل، فإنهم لا يكتفون بذلك ويسكتون عنه، بل يسعون إلى التطوير للانتقال من الحسن إلى الأحسن.

ولكن قد يقول قائل - خاصة من الذين يحبون اختلاق الأعذار، أو تعليق الأخطاء علي غيرهم -: إن الكفار هم السبب.

فيقال له: إن السبب الأكبر هو من نفس المجتمع المسلم؛ قال الله تعالى عن أثر البعد عن طاعته: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾[2].

ولنتمعن في هذا الحديث الشريف الذي يبين ذلك بصورة واضحة جلية؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، خِصَالٌ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ:

١ - لَمْ تَظْهَرِ الفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا، إلا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا.

٢ - وَلَمْ يَنْقُصُوا المِكْيَالَ وَالمِيزَانَ، إلا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمُؤْنَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ.

٣ - وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ، إلا مُنِعُوا القَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَوْلا البَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا.

٤ - وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ، إلا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ.

---

(١) الجهل ضد العلم وهو على قسمين: الأول: جهل بسيط: وهو عدم العلم مطلقا. والثاني: جهل مركب: وهو أن يعتقد أنه عالم مع أنه جاهل وهذا أشد، وسيأتي بيانه بأوسع من هذا إن شاء الله تعالى.

(٢) سورة الشورى، الآية: (٣٠).

٥- وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ إلا جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ»(١).

هِيَ الحَنِيفَةُ عَيْنُ اللهِ تَكْلَؤُهَا فَكُلَّمَا حَاوَلُوا تَشْوِيهَهَا شَاهُوا

ولنقارن بين واقعنا وهذا الحديث النبوي الشريف، إنها سلسلة من الأسباب أو المفاسد أو المعاصي، مرتبطة بسلسلة من النتائج، والملاحظ أن هذه المفاسد تبدأ من المسلمين أنفسهم!

وكذلك من جهة أخرى، نلاحظ أن في هذا التخلف نوعًا من صد الكفار عن الدخول في الإسلام؛ لأن في تقدمهم وتخلفنا سببًا رئيسًا في عدم دخول هؤلاء الكفار في الإسلام، حتى وصل الأمر إلى أن أحد علماء الدين عندما سافر إلى تلك الدول، قال بعد عودته إلى بلاد المسلمين عبارته الشهيرة: «لقد وجدت هناك مسلمين بلا إسلام، ووجدت هنا إسلامًا بلا مسلمين!»، بل قال أحد الدعاة: «لو طبق المسلمون دينهم بصدق لأسلمت أوروبا»(٢).

وهذا ما حصل مع رجل أوروبي دخل الإسلام حديثًا، إذ قام بعد الصلاة في مسجد في إحدى الدول الإسلامية العربية فقال مخاطبًا للمسلمين: «لقد أخطأتم في حقنا مرتين:

الأولى: أنكم بحالتكم هذه شوهتم الإسلام في نظرنا.

والثانية: أنكم قصرتم في دعوتنا للإسلام(٣)»(٤).

---

(١) حسنه الألباني. و«السنين»: جمع سنة، أي: جدب وقحط. «يتخيروا»: أي: يطلبوا الخير؛ أي: وما لم يطلبوا الخير والسعادة مما أنزل الله.

(٢) يقول الباحث الفرنسي كليمان هوار، رئيس مجمع البحوث والآداب في باريس: «لم يكن محمدٌ نبيًّا عاديًّا، بل استحق بجدارة أن يكون خاتم الأنبياء»؛ لأنه قابل كل الصعاب التي قابلت كل الأنبياء الذين سبقوه مضاعفة من بني قومه... نبي ليس عاديًّا من يقسم أنه: «لو سرقت فاطمة ابنته لقطع يدها»! ولو أن المسلمين اتخذوا رسولهم قدوة في نشر الدعوة لأصبح العالم مسلمًا» انتهى.

(٣) قالت امرأة دخلت الإسلام: «تعاملت مع الكثير من المسلمين أكثر من عشر سنوات، بل كان لي منهم أصدقاء، ومع ذلك لم يدعني أحد منهم إلى الإسلام!»، ثم قالت: «من المحزن أن يمتلك المسلمون هذا الكنز ولا ينشرونه».

(٤) وللدكتور أمجد قورشة الداعية الإسلامي المشهور جزاه الله خيرًا، كلام في هذا الشأن قال فيه: «إن سببًا من أسباب تشويه صورة الإسلام في العالم، هو المسلمون أنفسهم في الغرب، وتخصيصًا المسلمين=

بل إن هناك من يقرأ عن الإسلام فيسلم ويحج، ولكن عندما يرى حال المسلمين يرتد عن الإسلام ويرجع إلى بلده.

ولكن أمام هذا الوضع المؤسف، ينبغي أن نعلم: أنه مهما بلغ هذا الحال من سوء، فإن ذلك ليس بعذر لأحد أن ينتقص الدين الإسلامي أو يكفر به، سواء بسبب تقدم الدول الكافرة، أو تخلف المجتمعات الإسلامية؛ فالإسلام بريء من ذلك كله، ولكن السبب في ذلك يرجع إلى التقصير أو الفساد من بعض المسلمين وليس كلهم، بما فيهم من علماء دين وقضاة ومهندسين ومعلمين وأطباء وإعلاميين ورجال أعمال وفنانين، وغيرهم من الأعمال والمهن.

وأما تقدم الكفار وتمتعهم، فيجب ألا نغتر به، فمهما بلغوا من الترف والنعمة، فإن ذلك كله مظاهر مهترئة لحضارة زائلة زائلة، فقد قال الله تعالى عنهم: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾[1].

وهذا ليس مبررًا لنرضى بالتخلف والذل والشقاء، بل على العكس؛ لقد حثنا الإسلام على العمل، وليس العمل المجرد فقط، بل على أن يكون العمل متقنًا حسنًا، وحثنا على أن نُخرج الكفار من حياة الظلم والجور والذل والتخلف إلى عدل الإسلام وعزته ورقيه، والآيات والأحاديث كثيرة سيأتي ذكر بعضها إن شاء الله .

عقبات في طريق الإصلاح:

وهنا نتساءل: هل إنقاذ العالم الإسلامي من تخلفه سهل ومتيسر؟

والجواب: إن ذلك سهل من جهة، ولله الحمد؛ فهو بين واضح، ولكن من جهة أخرى أمامه عقبات كثيرة، ومن الأمثلة على تلك العقبات نأخذ عقبتين؛ هما[2]:

= الذي يأتون من الدول الإسلامية، وليس المسلمون الذين يولدون هناك وينشؤون هناك. للأسف خلافاتنا في بلداننا، أمراضنا الفكرية والسلوكية والأخلاقية نحملها إلى هناك. الإذاعات والقنوات الفضائية العالمية المنحازة ضد الإسلام والعرب تشوه صورة الإسلام، ويزيد الطين بلة أن الذين يأتون من الدول الإسلامية والعربية عنصر مساهم في تشويه الإسلام» وستأتي تكملة كلامه إن شاء الله.

(١) سورة آل عمران: الآيتان (١٩٦) و(١٩٧).

(٢) ينبغي التنبيه والانتباه لهذه العقبات وغيرها، فقد تكون فينا ونحن لا نشعر، فنقرؤها من باب=

العقبة الأولى: المعوِّقون:

إن الكلام عن المشاكل وبيان طرق إصلاحها مثير للمعوقين، ومنهم بعض المسلمين مع الأسف!

فمثلا إذا انتقدت- بحق- القضاء والقضاة في مجتمع ما، فإنه سيثور عليك: القضاةُ الظلمة، وكذلك المستفيدون من الظلم، وكذلك بعض القضاة تعصبًا لمهنتهم، وكذلك بعض الدهماء المقلدين؛ فيرمونك بشتى التهم؛ مثل: مغرض، حاقد، يريد الفتنة، ناقم، له أغراض أخرى مشبوهة، يصطاد في الماء العكر، وهذا ليس من الحكمة؛ لأن في التعرض للقضاة تشويه وحط من مكانتهم العالية[1].

أو يعتذرون لهم بالأعذار (المعلبة الجاهزة)؛ مثل: إن لنا وضعًا خاصًّا مختلفًا عن غيرنا، هذه حالات شاذة، هذه مبالغة، الوضع تحسن، احمد الله، انظر إلى الأسوأ، رضا الناس غاية لا تدرك...

= الاطلاع، فكم من مرة نلاحظ التناقض من أشخاص كثيرين، وقد يكون هذا التناقض في نفس الزمان والمكان، ومن الأمثلة العجيبة التي حصلت أمامي: أن أحد المعلمين (الصادقين المخلصين ولا نزكي على الله أحدًا) يتكلم عن نفسه وما يتحمله من معاناة في سبيل تربية الطلاب، وأن هذه الأمانة قدمها على أحسن وجه، وأنه يسأل الله الأجر والثواب، مع أن هذا المعلم من أسوأ المعلمين خاصة في التعامل لدرجة أن بعض الطلاب يتغيبون في حصصه، بل في اليوم الذي سيدرسهم فيه، بل إن كثيرًا من أولياء الأمور طالبوا بنقله، وفعلا نُقل، ولكن إلى فصل آخر!

وهنا يلاحظ أن هذا المعلم المسكين متناقض مع نفسه، فهو يعتقد في نفسه أمرًا، ولكنه يفعل ما يناقض هذا الذي في نفسه، وهذا يقع من كثير من الناس، ومنهم من يشعر، ومنهم من لا يشعر؛ لذلك فلنتنبه ولنحذر بعد أن نسأل الله سبحانه وتعالى أن يهدينا وأن يرينا الحق حقًّا ويرزقنا اتباعه، وأن يرينا الباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه، وألا يجعله ملتبسًا علينا فنضل، وألا نكون من الذين قال الله فيهم: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾، سورة الكهف، الآيتان: (١٠٣، ١٠٤).

(١) ويقال لأصحاب هذا النهج الذي يدعي الحكمة في سبيل تحقيق مآربه: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي هو أحكم الناس وأعدلهم وأتقاهم، قال لجميع الناس: «القضاة ثلاثة: قاضيان في النار، وقاضٍ في الجنة، قاضٍ قضىٰ بالهوى فهو في النار، وقاضٍ قضى بغير علم فهو في النار، وقاضٍ قضى بالحق فهو في الجنة». صححه الألباني، وفي ذلك تنبيه لمن يجعل من حصانة القضاة ستارًا يحجز بينهم وبين الناس.

هذا إذا لم يرموك في دينك بتهم شتى، أو يخرجوك من الإسلام كله![1]؛ وقس على ذلك في نقد المفسدين والمقصرين من العلماء والمهندسين والمعلمين والأطباء وغيرهم[2]، ولكنْ عزاؤنا في ذلك يتمثل في موقف الرسل والأنبياء والمصلحين، وثباتهم أمام من رماهم بالتهم الكبيرة، واقرأ قول الله تعالى، عن فرعون المفسد ضد موسى المصلح عليه السلام: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾[3].

وهكذا يتهم الأنبياء؛ مثل: مجنون، كاهن، ساحر، شاعر، كذاب... والآيات في ذلك كثيرة، فهم لا يحبون النصح؛ قال الله عز وجل، عن حال النبي صالح عليه السلام

---

(١) وهنا ينبغي أن نلاحظ موقف أتباع أصحاب السوء والظلم في الحياة الدنيا والمدافعين، بل المجادلين عنهم وموقفهم بعد ذلك، ولنتذكر قول الله عز وجل: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ سورة النساء، الآية: (١٠٩)، ولكن ولله الحمد نقرأ بعد هذه الآية مباشرة آيات تبين أن باب التوبة مفتوح للجميع، سواء من يعمل السوء أو من يظلم، مع التحذير من رمي التهم، فمجرد الدفاع عمن يقع في الخطأ والمجادلة عنه- مع أن الإثم يقع على نفس الظالم- ليس مبررًا لرمي التهم: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾، سورة النساء، الآيات: (١١٠ -١١٢).

(٢) في الزمن الماضي كان للأصنام والأوثان والأضرحة التي تعبد، سدنة يخدمونها ويقومون على أمورها، فيكسبون منها مكاسب معنوية؛ كالخضوع والطاعة...، ومكاسب مادية؛ كتقديم التبرعات والهدايا والقرابين والنذور... فإذا جاء رجل وعارض هذه الأصنام والأوثان والأضرحة حاربهم السدنة وهيجوا عليهم الأتباع.

وفي وقتنا الحاضر يوجد شبه لما سبق ولكن بطريق غير مباشر، ويتمثل فيمن يستغل بالباطل منصب: (الدكتور) أو (القاضي) أو (المعلم)... حيث إن بعضهم أعطى هذه الوظائف أو المناصب شيئًا من التقديس أو التعظيم، فصارت عندهم كالأصنام والأوثان والأضرحة لها سدنة وأتباع، فمن عارضهم حاربوه وسلطوا أتباعهم عليه.

فلمن تأثر وتبع سدنة الأوثان عليه أن يقرأ قصيدة الشاعر الذي وقف في وجه الطغاة وقال: «قِفْ كَمَا أَنْتَ وَرَتِّلْ سُورَةَ النَّسْفِ عَلَى رَأْسِ الوَثَنْ».

يقصد الشاعر بآية النسف قول الله تعالى: ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾، سورة طه، الآيتان: (٩٧، ٩٨).

(٣) سورة غافر، الآية: (٢٦).

مع قومه: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾[1].

ونقلت- باختصار- بعض الأبيات التي تشير إلى بعض تلك المعاني:

تَاللهِ مَا كَانَ فِي الإِسْلامِ مِنْ حَرَجٍ	عَلَى الأَنَامِ وَلا فِي نَهْجِهِ غَمَمُ
بَلْ كُلُّهُ جَاءَ تَيْسِيرًا وَتَبْصِرَةً	لِلْعَامِلِينَ وَأَحْكَامًا بِهَا حِكَمُ
إِذَا سَلَكْتَ إِلَى الإِصْلاحِ مَسْلَكَهُ	فَأَنْتَ فِي رَأْيِهِمْ بِالكُفْرِ مُتَّهَمُ
وَإِنْ تَصَادَمْتَ بِالعَادَاتِ تُنْكِرُهَا	فَأَنْتَ فِي زَعْمِهِمْ بِالدِّينِ تَصْطَدِمُ
وَإِنْ أَتَيْتَ بِبُرْهَانٍ فَأَعْجَزَهُمْ	لَمْ يُحْسِنُوا الرَّدَّ بَلْ مِنْ عَجْزِهِمْ شَتَمُوا
وَإِنْ تَقُلْ لَهُمُ قَوْلًا لِتُقْنِعَهُمْ	شَدُّوا عَلَيْكَ وَرَدُّوا قَبْلَمَا فَهِمُوا
لَكِنَّمَا القَوْمُ ظَلُّوا جَامِدِينَ عَلَى	مَا مِنْهُ قَدْ وَهِمُوهُ بِئْسَ مَا وَهِمُوا

العقبة الثانية: عدم قبول الحق:

تجاوز الحق ورده وعدم قبوله- إذ الحق واضح- يرجع إلى أمرين أساسين؛ هما: الجهل، والهوى، وعلى هذا الأساس نقول: إن الحق كالشمس تشرق على الجميع، إلا من تغطى عنها بغطاء الجهل والهوى.

ويطول التفصيل في هذا الباب، ولكن سنركز فيما يخص موضوعنا ونناقشه من ثلاثة جوانب: تعدد النظرات، المراوغة وعدم الاعتراف بالحق، التطفيف (الميزان بميزانين).

١- تعدد النظرات:

إن بعض المعلمين يرى أنه هو المظلوم الأساسي في عملية التعليم، ويرجع ذلك لأسباب كثيرة؛ منها: عدم إعطائه حقوقه المادية والمعنوية، وسوء المباني المدرسية والمكتبات والمعامل، وعدم توفر الوسائل التعليمية أو نقصها، وكثرة الطلاب في الفصل الواحد، وكثرة الحصص التي يشغلها المعلم، بالإضافة إلى الأعباء الأخرى الملقاة عليه، وسوء المناهج العقيمة...

---

(١) سورة الأعراف، الآية: (٧٩).

والطالب كذلك يرى الظلم والتسلط والسيطرة والأعباء الملقاة عليه...

ومدير المدرسة يرى أخطاء المعلمين والطلاب وأولياء الأمور ومن يشرف عليه...

وولي الأمر يرى سوء مستوى ابنه أو من يعول، وغيرهم يرى التربية الفاشلة للجيل.

وكذلك الحال في تعدد نظرات أفراد الأسرة: فالزوجة ترى زوجها لها وحدها... وأم الزوج ترى العكس، والزوج له نظرة مخالفة، والأبناء، والإخوة...

وكذلك في حالة امرأة الأب، والأب، والأم، والابن...

وكل فرد ينظر من جهة ولا يرى الجهات الأخرى، بل لا يُقدِّر أو يعذر أصحاب تلك النظرات؛ فنجد البعض يتبنى الفكرة ويضع الدفاعات لفكرته ويتخندق ويقيم المتاريس ويستعين بالدين لينصر فكرته، ويعادي ويسالم على ذلك الأساس، بل يحارب مستميتًا في سبيل تلك الفكرة، ولكن الأمر سيتغير لو نظر لها بعين التجرد قبل أن تدخل فيها الأسباب والمصالح والأنانية والتعصب...

وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ   وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي المَسَاوِيَا

فينبغي أن نستنير بالدليل قبل الفكرة؛ لهذا يقال: «استدل قبل أن تعتقد»، وكذلك يقال: «التخلية قبل التحلية»؛ فلهذا ينبغي ألا يخضع لميوله وأهوائه، بل يقاوم ما يحب ويتحمل ما يكره.

٢- المراوغة وعدم الاعتراف بالحق:

لا شك أن الحق مقدَّم على غيره مهما كان السبب، ولكن نلاحظ مع الأسف أن كثيرًا من الناس يقدمون المصلحة الذاتية على الاعتراف بالحق أو قبوله، وعلى هذا الأساس تكون المراوغة وعدم الاعتراف بالحق. وهذا يقع من الكثير بما فيهم بعض المعلمين والطلاب...، مع أن هذا العمل من صفات المنافقين[1]؛ لأن المنافقين لا مبادئ

---

(١) ولقد كشفهم الله سبحانه وتعالى في آيات كثيرة؛ منها هذه الآيات: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ =

لهم، فإذا عارض الحق مصالحهم أعرضوا عنه، ولكن إذا كان في صالحهم صاروا من أهل الحق! لهذا قال تعالى: ﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾[1].

٣- التطفيف أو التلاعب في الموازين:

إن ميزان الحق واحد؛ لهذا ينبغي ألا نتعامل مع الجهات المختلفة تعامل المطففين الذين يزيدون كيلهم حال الشراء وينقصونه حال البيع، فلا مكان للانحياز؛ فالمكيال والميزان مقياسه واحد في جميع الحالات؛ الكيلو ألف جرام في جميع الحالات، وكذلك اللتر ألف مللي لتر، ولكن مع الأسف يقع في الانحياز كثير من الناس، إلا من رحم الله تعالى، فويل لمن يفعل ذلك، ألا يظن أنه سيبعث؟! قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[2].

وقال الله سبحانه وتعالى مبينًا قيمة العدل وناهيًا عن الظلم: ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾[3].

وإقامة العدل ونشره مطلوب من كل مسلم، بل من كل إنسان، والرسل عليهم السلام هم خير من نشره بين الناس؛ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[4].

* * *

= وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾، سورة النور، الآيات: (٤٦-٥٢).

(١) سورة النور، الآية: (٤٩). قال ابن كثير في تفسيره: «أي: وإذا كانت الحكومة لهم لا عليهم جاؤوا سامعين مطيعين؛ وهو معنى قوله: «مذعنين»، وإذا كانت الحكومة عليه أعرض ودعا إلى غير الحق وأحب أن يتحاكم إلى غير النبي صلى الله عليه وسلم؛ ليروج باطله ثَمَّ، فإذعانه أولًا لم يكن عن اعتقاد منه أن ذلك هو الحق، بل لأنه موافق لهواه؛ ولهذا لما خالف الحق قصده عدل عنه إلى غيره» انتهى.

(٢) سورة المطففين، الآيات: (١-٦).

(٣) سورة الرحمن، الآيات: (٧-٩).

(٤) سورة الحديد، الآية: (٢٥).

ما المخرج؟

وبعد ما سبق، وبعد أن عرفنا أن أساس الداء فينا وبسببنا، فكذلك يحسن بنا أن نعلم أن مسؤولية العلاج تقع علينا جميعًا؛ لكي نغير ما أصابنا؛ فقد قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[2].

إذن الحل الوحيد والعلاج الناجع الذي يخرج المسلمين من التخلف والذل الذي هم فيه، يكمن ويتركز ويتلخص في: «الرجوع للدين»، فالحل في الدين الإسلامي فقط، وليس هناك حل غيره مهما بحثنا عن حلول، بل على العكس: إذا اخترنا غيره خسرنا في الدنيا والآخرة، وأذلنا الله عز وجل.

ولبيان ذلك نستدل بآية من كتاب الله تعالى، وحديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وقول لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقول المستشرق النمساوي ليوبولد فايس:

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[3]، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالعِينَةِ وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ البَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمُ الجِهَادَ؛ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»[4].

---

(١) سورة الأنفال، الآية: (٥٣).

(٢) سورة الرعد، الآية: (١١).

(٣) سورة آل عمران، الآية: (٨٥).

(٤) صححه الألباني. «العينة»: نوع من البيوع المحرمة. قال الشوكاني في «نيل الأوطار»: قوله: «واتبعوا أذناب البقر» المراد: الاشتغال بالحرث، وفي الرواية الأخرى: «وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع»، وقد حمل هذا على الاشتغال بالزرع في زمن يتعين فيه الجهاد.

قوله: «وتركوا الجهاد» أي: المتعين فعله، وقد روى الترمذي بإسناد صحيح عن ابن عمر قال: «كنا بمدينة الروم، فأخرجوا إلينا صفًّا عظيمًا من الروم، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر، وعلى الجماعة فضالة بن عبيد، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل بينهم، فصاح المسلمون وقالوا: سبحان الله يلقي بيده إلى التهلكة؟ فقام أبو أيوب فقال: يا أيها الناس إنكم لتؤولون هذا التأويل، وإنما نزلت هذه الآية لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه، فقال بعضنا لبعض سرًّا: إن أموالنا قد ضاعت وإن الله قد أعز الإسلام وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا وأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله على نبيه ما يرد علينا فقال:=

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنا كنا أذلَّ قوم، فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله»[(١)].

ويقول المستشرق النمساوي (ليوبولد فايس): «إن أوروبا لتعرف هذه الحقيقة حق المعرفة؛ لأن ثقافتها هي نفسها مدينة للإسلام بتلك النهضة على الأقل بعد قرون من الظلام الدامس... ولم يقف الإسلام يوما سدا في وجه التقدم العلمي، إنه يقدر الجهود الفكرية في الإنسان إلى درجة يرفعه فيها فوق الملائكة، وما من دين ذهب أبعد من الإسلام في تأكيد غلبة العقل، وبالتالي غلبة العلم على جميع مظاهر الحياة.

إن كل ما كان في الإسلام تقدمًا وحيوية، أصبح بين المسلمين اليوم تراخيًا وركودًا، وكل ما كان في الإسلام من قبل كرمًا وإيثارًا، أصبح بين المسلمين ضيقًا في النظر، وحبًّا للحياة الهينة».

ويقول أيضا: «تحققت أن هناك سببًا واحدًا للانحلال الاجتماعي والثقافي بين

= ﴿ تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾، فكانت التهلكة: الأموال وإصلاحها وترك الغزو.

وقال الشيخ عطية محمد سالم: «واتبعتم أذناب البقر، وتركتم الجهاد» اتبعتم أذناب البقر، فيه تقبيح، وإن كان العمل شريفًا؛ لأنه في مقابل ترك الجهاد، والجهاد هو ذروة سنام الإسلام، فما كان معطلا لهذا السنام فإنه يقبح، واتباع أذناب البقر كناية عن الاشتغال بالزراعة والحرث، والتعامل مع البقر.

وقال: إذا كانت الأمة تقدم دنياها على دينها، وتمزق دينها لترقع دنياها، وتترك الجهاد في سبيل الله، وتتغافل عن فضائله وفوائده؛ فإن الله يبتلي هذه الأمة بالذل والصغار أمام الكفار، حتى ترجع إلى دينها، وقد بين النبي عليه الصلاة والسلام هذا في حديثه المشهور الذي يعتبر من دلائل نبوته، فينبغي تدبره، والانتفاع به». كتاب "شرح بلوغ المرام" للشيخ عطية محمد سالم.

(١) صححه الألباني، وقال: «وروى الحاكم من طريق ابن شهاب قال: «خرج عمر بن الخطاب إلى الشام، ومعنا أبو عبيدة بن الجراح، فأتوا على مخاضة وعمر على ناقة، فنزل عنها وخلع خفيه فوضعهما على عاتقه، وأخذ بزمام ناقته فخاض بها المخاضة، فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين، أأنت تفعل هذا؟! تخلع خفيك وتضعهما على عاتقك، وتأخذ بزمام ناقتك وتخوض بها المخاضة؟! ما يسرني أن أهل البلد استشرفوك! فقال عمر: أوه! لو يقل ذا غيرك أبا عبيدة جعلته نكالا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم! إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله". وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين». ووافقه الذهبي، وهو كما قالا. وفي رواية له: «يا أمير المؤمنين، تلقاك الجنود وبطارقة الشام وأنت على حالك هذه؟ فقال عمر: إنا قوم أعزنا الله بالإسلام، فلن نبتغي العز بغيره»» انتهى. كتاب "السلسلة الصحيحة" للألباني.

المسلمين، ذلك السبب يرجع إلى الحقيقة الدالة على أن المسلمين أخذوا شيئًا فشيئًا يتركون اتباع روح التعاليم الإسلامية.

كنت كلما ازددت فهما لتعاليم الإسلام وعظيم أحكامه ومبادئه، ازددت رغبة في التساؤل عما دفع المسلمين إلى هجر تطبيقها تطبيقًا تامًّا في حياتهم اليومية... لقد ناقشت هذه المشكلة مع كثير من المسلمين المفكرين في جميع البلاد، ثم زادت رغبتي في ذلك بشدة، حتى أني- وأنا غير المسلم- أصبحت أتكلم إلى المسلمين مشفقًا على دين الإسلام من إهمال المسلمين أنفسهم وتراخيهم» انتهى[1].

★ ★ ★

---

(١) لا شك أن في الكتاب والسنة كفاية لمن أراد الحق، ومن أراد الزيادة ففي أقوال علماء المسلمين خير كثير، ولكن سنذكر أقوالًا لأشخاص من غير المسلمين؛ من باب بيان أن الحق يعلو ولا يعلى عليه، ومن باب أن القراء لهم وسائل مختلفة للإقناع، ومن باب أن هناك مفكرين لهم أقوال منصفة تبين هذا الحق- مهما كان اتجاه قائلها- ولو أن قائلها لم يؤمن بما تدعو إليه.

ومن الأمثلة على هؤلاء من العصور الماضية قول الوليد بن المغيرة الذي عرف الحق ومع ذلك لم يؤمن، وفي ذلك عبرة وعظة: «جاء الوليد بن المغيرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه، فإنك أتيت محمدًا لتعرض لما قبله، قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالا، قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له وأنك كاره له، قال: وماذا أقول؟! فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه هذا الذي يقول شيئا من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته، قال: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره؛ فنزلت: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا... ﴾». سورة المدثر، الآيات: (١١- وما بعدها). كتاب فتح القدير للشوكاني.

كيف نربي؟

من الملاحظ أن كثيرًا من المربين المسلمين يقفون حائرين متسائلين: كيف نربي؟ وما التربية الصحيحة؟ لأنهم أصبحوا يواجهون تحديات كبيرة، ويعانون انقسامًا وتشتتًا أمام تربيتين أو مدرستين أو منهجين؛ هما:

التربية التقليدية، والتربية الأجنبية:

فهل الأجدى اختيار إحداهما؟ أو الخلط بينهما، أو ما التربية الصحيحة؟

ما الطريقة الصحيحة لتربية الأبناء في المنزل؟

وما المدارس والجامعات التي يتعلم أبناؤهم فيها؟

وما الطريقة الصحيحة لتربية وتعليم الطلاب؟

وما الخطة المناسبة التي يرسمها من يؤسس للتعليم في إعداد المدارس والجامعات والمعلمين والمناهج...؟

اختيارات:

لا شك أن الحل ينحصر في ثلاثة اختيارات، وعلى المسلم أن يختار واحدًا منها:

الاختيار الأول: التربية الأجنبية أو المدارس الأجنبية التي هي أحسن من الناحية التربوية والتعليمية في نظر البعض.

فكيف يختار المسلم؟

هل يأتي بفروع منها، أو ينسخ مدارس وجامعات مقلدة عليها، أو ينسخ ما عندهم ويعربه ثم يدخل عليه بعض المعلومات الإسلامية بالرغم من طابعها البعيد عن الدين واللغة.

الاختيار الثاني: التربية التقليدية أو المدارس التقليدية التي تعتبر سيئة من الناحية التربوية والتعليمية؛ فهي خليط بين جهتين، من جهة بعض المعلومات الإسلامية العظيمة التي يعرض بعضها بصورة مشوهة، ومن جهة أخرى مجموعة من التراكمات

العقيمة المتخلفة التي لحقت بالمسلمين على مر العصور.

فكيف يختار المسلم؟ هل يبقيها كما هي باعتبار أنها الأصل وقد خرَّجت (الفطاحل)، لدرجة أن هناك من يدعي ظلمًا- بجهل- أنها تربية إسلامية.

أم يدخل عليها بعض التحسينات الشكلية؛ كالتقليل من الضرب والتسلط والإهانة، وفي المقابل الإكثار من توزيع الهدايا وإقامة المسابقات الرياضية والثقافية.

الاختيار الثالث: التربية الإسلامية الصحيحة التي أسسها الرسول صلى الله عليه وسلم والتي يدعو إليها المربون المسلمون؛ لأنها التربية الصافية النابعة من هذا الدين الذي شرعه لنا خالقنا عز وجل.

وأمام هذه الاختيارات لاشك أن المسلم الصادق سيختار التربية الإسلامية. ومع ذلك عليه أن يبعد عنها جميع ما يخالفها، وفي المقابل يضيف إليها جميع ما يوافقها، سواء من التربية الأجنبية الحديثة أو من التربية التقليدية؛ كالتقاليد والعادات المحمودة. وهذا يرجع إلى أن المسلم يأخذ بما لا يتعارض مع دينه، بحيث يكون فيه حق ونفع، بل هو أحق به؛ لأن الحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق بها.

إذن الاختيار الثالث هو الاختيار الوحيد- وهو خير اختيار ولله الحمد والمنة- بل ليس للمسلم أن يختار غيره، وإن شئت فاقرأ قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[1]، وقول الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: (٣٦)، قال ابن كثير في تفسيره: «فهذه الآية عامة في جميع الأمور؛ وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد ههنا ولا رأي ولا قول؛ كما قال تبارك وتعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾، وفي الحديث: «والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»، ولهذا شدد في خلاف ذلك فقال: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾؛ كقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. انتهى.

(٢) سورة القصص، الآية: (٦٨).

ولتحقيق هذا الاختيار على أحسن وجه ينبغي أن نراعي أمرين هامين:

١ - أن نُصفي هذا المنهج من الشوائب: وهذا يحتاج إلى مراجعة شاملة، ثم تصحيح يقوم على الإخلاص والعلم والعمل المتكامل المتقن، وقبل ذلك يحتاج إلى توبة إلى الله عز وجل.

٢ - أن تكون تربية هذا الجيل على المنهج الإسلامي، هي خيارنا الوحيد الذي يمثل مشروع الأمة الأساسي.

ولتنفيذ هذا المشروع ينبغي أن يتكاتف الجميع؛ فلكل فرد دور ينبغي أن يقوم به؛ قال الشاعر:

إِذَا الحِمْلُ الثَّقِيلُ تَوَازَعَتْهُ ... أَكُفُّ القَوْمِ خَفَّ عَلَى الرِّقَابِ

وبناءً على ما سبق، ورغم ما أصاب المسلمين، يتحتم علينا أن نترك التشاؤم والمبررات والأعذار الواهية، والتي قد تكون سببًا في هواننا على الله سبحانه وتعالى، ثم هواننا على الناس، ولنحذر من أن تسيطر علينا تلك النفسية المحطمة والروح اليائسة، ولنقرأ في كتاب الله عز وجل: ﴿ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[1].

فعلى كل مسلم أن يبذل جهده ويعمل بقدر ما يستطيع، ويتحمل المشاق في سبيل الله سبحانه وتعالى.

قال الشاعر المتنبي في قصيدة مطلعها:

لا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلا مَالُ ... فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إِنْ لَمْ تُسْعِدِ الحَالُ

يقول في آخر الأبيات:

لَوْلا المَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ ... أَلجُودُ يُفْقِرُ والإِقْدَامُ قَتَّالُ

وقال آخر:

وَكُلُّ مَنْ يَدَّعِي فِي المَجْدِ سَابِقَةً ... وَعَاشَ غَيْرَ مَجِيدٍ فَهْوَ مُتَّهَمُ

قال إدوارد لين المؤرخ الإنجليزي الكبير في كتابه «أخلاق وعادات المصريين»: «إن

---

(١) سورة يوسف، الآية: (٨٧).

محمدًا كان يتصف بكثير من الخصال الحميدة، كاللطف والشجاعة ومكارم الأخلاق، حتى إن الإنسان لا يستطيع أن يحكم عليه دون أن يتأثر بما تتركه هذه الصفات في نفسه من أثر، كيف لا، وقد احتمل محمد عداء أهله وعشيرته بصبر وجلد عظيمين، ومع ذلك فقد بلغ من نبله أنه لم يكن يسحب يده من يد من يصافحه حتى ولو كان يصافح طفلا، وأنه لم يمر يومًا من الأيام بجماعة رجالًا كانوا أو أطفالًا دون أن يقرئهم السلام، وعلى شفتيه ابتسامة حلوة، وقد كان محمد غيورًا ومتحمسًا، وكان لا يتنكر للحق ويحارب الباطل، وكان رسولًا من السماء، وكان يريد أن يؤدي رسالته على أكمل وجه، كما أنه لم ينس يومًا من الأيام الغرض الذي بعث لأجله، ودائمًا كان يعمل له ويتحمل في سبيله جميع أنواع البلايا، حتى انتهى إلى إتمام ما يريد» انتهى.

على من تقع المسؤولية؟

لقد دأب كثير من الناس على رمي غيرهم بالتقصير ونسيان أنفسهم تزكية لها، وكأنهم غير مسؤولين، مع أن كل فرد في هذا المجتمع يحمل جزءًا من تلك المسؤولية العامة، مهما كبر هذا الجزء أو صغر؛ إذ إن كل مسلم على ثغر من ثغور الإسلام، فليحذر المسلم أن يؤتى الإسلام من قبله.

فمثلًا، في قضية مكافحة التخلف التربوي والعمل على النهوض بالمجتمعات، يلقي البعض بالمسؤولية على إدارات التعليم، والبعض يلقيها على المعلمين، والآخر يلقيها على سوء إعداد المعلمين، أو التقصير في الحقوق المادية والمعنوية للمعلمين أو المناهج، أو المباني المدرسية... وغير هذا الكثير، وهذا لا ينافي الواقع وفيه كثير من الصحة، ولكن في المقابل ينبغي أن نعلم أن في رمي التهم وتقاذف المسؤوليات، تمييع للقضية وإذابة الحلول، ثم إماتة القضية وعدم العمل، وكما قيل: «بدل أن تلعن الظلام ألف سنة، أوقد شمعة»[1].

فإنقاذ هذه الأمة المباركة وتوجيهها، ليس مسؤولية شخص بعينه أو جهة، بل المسؤولية تقع على الجميع، وسنورد أدلة تكتب بماء الذهب؛ إذ تبين شمول المسؤولية وعظمها.

---

(١) هناك من يطبق هذه الحكمة بطريقة سيئة؛ وهي الدعوة إلى العمل مع السكوت عن الأخطاء؛ فيقال لمن هذه حاله: أوقد شمعة والعن الظلام.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ؛ فَالإِمَامُ الذي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى أَهْلِ بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْؤُولَةٌ عَنْهُمْ، وَعَبْدُ الرَّجُلِ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْهُ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»(١).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إلا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ»(٢).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ وَلَّاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ المُسْلِمِينَ فَاحْتَجَبَ دُونَ حَاجَتِهِمْ وَخَلَّتِهِمْ وَفَقْرِهِمْ، احْتَجَبَ اللهُ عَنْهُ دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتِهِ وَفَقْرِهِ»(٣).

لذا فليحذر المعلمون- وغيرهم- أن يقصروا في عملهم، أو أن يكون في تربيتهم وتعليمهم سبب في فساد طلابهم فيحملوا أوزار جميع طلابهم زيادة على أوزار أنفسهم؛ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾(٤).

رحم الله سلف هذه الأمة الذين كان كل واحد منهم يحرص على حماية ثغور الإسلام حتى لا يؤتى الإسلام من قبله.

مثال على سبب من أسباب التخلف: (موقف حرج)

كنت أراقب النظام في وقت استراحة الطلاب (الفسحة)، وخاصة تنظيم الطلاب عند الشراء من مقصف (كافتيريا) المدرسة. وطلاب المدرسة أكثر من (٥٠٠) طالب، ويشترون من شباك واحد! وعلى هذا الأساس، يحتاج الأمر إلى حالة (استنفار قصوى).

فكنت أشرف على تنظيم صف الطلاب للشراء من المقصف، فمن يأتي عليه أن يلتزم بالنظام الأول ثم الثاني ثم الثالث... وهكذا، فإذا حاول أحد الطلاب الكبار

---

(١) صحيح البخاري.

(٢) صحيح مسلم.

(٣) صححه الألباني.

(٤) سورة النحل، الآية: (٢٥).

(المتأثرين بتربية بعض المعلمين!) تجاوز الصف، كنت أنبهه وأنصحه، وبدأت أعطيهم رسائل إيجابية؛ مثل: «ما أحسن أن نراعي حق الصغير»، «إن الإيثار يليق بالمسلم، بعكس الأنانية»، «أنتم المسلمون أرقى الأمم في النظام والعدل والأخلاق»، وهكذا...

ولكن فجأة!! جاء أحد الطلاب من بعيد متجاوزًا الجميع ووقف ليشتري (أول واحد) غير مبال بأحد!!!

فقلت- في دهشة واستغراب-: لماذا تعمل هذا العمل؟

فقال: هذا للمعلم (مربي الأجيال)؛ هو الذي أمرني بهذا!

وبقية الطلاب ينظرون لهذا الموقف التربوي المحرج!

فصدمت، وسرح خاطري، فكنت أقارن بين معلم البشرية نبينا وحبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم، وبين بعض المعلمين الآن.

وسأذكر بعض الصور- بطريقة غير منتظمة- لكي يتبين لنا من خلالها بعض الجوانب المضيئة من منهج المدرسة النبوية.

وفي المقابل يتبين المنهج المتسلط الذي يهمش الطالب ويقدس المعلم، وذلك أقرب ما يكون للمدرسة الفرعونية المتسلطة والمتخلفة تربويًّا!

صور مقابلة من السلف الصالح:

روى البخاري عن البراء رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم ينقل التراب يوم الخندق حتى أَغْمَرَ بَطْنَهُ أو اغْبَرَّ بَطْنُهُ يقول:

«وَالله لَوْلَا اللهُ مَا اهْتَدَيْنَا وَلا تَصَدَّقْنَا وَلا صَلَّيْنَا
فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاقَيْنَا
إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا»

ورفع بها صوتَهُ: «أبينا أبينا»[1].

لاحِظْ.. رسول الله ينقل التراب بنفسه صلى الله عليه وسلم، وهذا في أمر عامة

(١) صحيح البخاري.

المسلمين، وقارن ذلك مع أحد المعلمين الذي يعطي (الشنطة) الخاصة به للطالب ليحملها، أو يرسله لحاجة من الحاجات! وكذلك كان صلى الله عليه وسلم يخصف نعله، ويخيط ثوبه، وقارن ذلك مع من يرسل الطالب، ليحضر له الشاي أو القهوة أو الماء!

وقد استمعت إلى أحد مديري المدارس يقول في اجتماع مع المعلمين: إن أولياء الأمور يشتكون، ويقولون: «إننا لم نرسل أبناءنا، ليخدموا المعلمين، ولكن ليتعلموا».

وباختصار لنرى بعض الصور المتعددة الغنية بالمعاني الرفيعة، وفيها المعاني التربوية التي يقف الإنسان منبهرًا- مهما كان دينه- بل يزداد انبهارًا كلما تمعن في هذه الصور، أما المسلم فإنه سيضيف إلى ذلك الانبهار، فخرًا بانتسابه لهؤلاء المعلمين الذين أسسوا تلك المدرسة التي بلغت القمة.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «كانت الأمة من إماء أهل المدينة لَتَأْخُذُ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت»[1].

وقال خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنس بن مالك رضي الله عنه: «والله لقد خدمته تسع سنين ما علمته قال لشيء صنعته: لم فعلت كذا وكذا، أو لشيء تركته: هلا فعلت كذا وكذا»[2].

وعن أنس بن مالك أنه قال عن الصحابة رضي الله عنهم: «ما كان في الدنيا شخص أحب إليهم رؤية من رسول الله، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له؛ لما كان يعلمون

---

(١) صحيح البخاري، الأمة: أي العبدة المملوكة، قال ابن حجر في كتابه "فتح الباري": «قوله: «فتنطلق به حيث شاءت» في رواية أحمد: «فتنطلق به في حاجتها»، وله من طريق علي بن زيد عن أنس: «إن كانت الوليدة من ولائد أهل المدينة لتجيء فتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما ينزع يده من يدها حتى تذهب به حيث شاءت»، وأخرجه ابن ماجه من هذا الوجه، والمقصود من الأخذ باليد لازمه وهو الرفق والانقياد. وقد اشتمل على أنواع من المبالغة في التواضع لذكره المرأة دون الرجل، والأمة دون الحرة، وحيث عمم بلفظ الإماء، أيَّ أمة كانت، وبقوله: «حيث شاءت» أي: من الأمكنة. والتعبير بالأخذ باليد إشارة إلى غاية التصرف حتى لو كانت حاجتها خارج المدينة والتمست منه مساعدتها في تلك الحاجة على ذلك، وهذا دال على مزيد تواضعه وبراءته من جميع أنواع الكبر صلى الله عليه وسلم» انتهى.

(٢) صحيح مسلم، وفي رواية لأحمد: «ما قال لي فيها أف».

من كراهيته لذلك»[١].

وعن أنس رضي الله عنه قال: «جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق حول المدينة، وينقلون التراب على متونهم وهم يقولون:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا
عَلَى الإِسْلَامِ مَا بَقِينَا أَبَدَا

قال: يقول النبي صلى الله عليه وسلم وهو يجيبهم: «اللَّهُمَّ إِنَّهُ لا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُ الآخِرَةِ، فَبَارِكْ فِي الأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ»، قال: يأتون بملء كف من الشعير فيصنع لهم بإهالة سنخة توضع بين يدي القوم، والقوم جياع، وهي بشعة في الحلق، ولها ريح منتن»[٢].

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعى إلى خبز الشعير والإهالة السنخة[٣]، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يزور الأنصار ويسلم على صبيانهم ويمسح رؤوسهم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يأتي ضعفاء المسلمين ويزورهم ويعود مرضاهم ويشهد جنائزهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقًا، وكان يركب الحمار، ويردف خلفه، ويجلس بين أصحابه مختلطًا بهم، حيثما انتهى به المجلس جلس، بل كان لا يميز نفسه عن أصحابه بشيء، فليس له مجلس خاص حتى إن الرجل الغريب لا يعرفه بين أصحابه، وكان شفيقًا بمن يخطئ، فكان يحسن إليه ويعلمه.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»[٤].

ولقد قال أعرابي، عن رسولنا ونبينا وحبيبنا صلى الله عليه وسلم: إن صاحبكم هذا يريد أن يرفع كل راعٍ بنِ راعٍ، ويضع كل فارسِ بنِ فارسٍ[٥].

(١) صححه الألباني.
(٢) صحيح البخاري.
(٣) الإهالة: الدسم الجامد، والسنخة: المتغيرة الريح.
(٤) صحيح مسلم.
(٥) صححه الألباني.

وكان أبو بكر رضي الله عنه قبل الخلافة تاجرًا، وكان يحلب للحي أغنامهم، فلما بويع بالخلافة قالت جارية من الحي: «الآن لا تحلب لنا منائح دارنا!»، فسمعها أبو بكر فقال: «بل، لعمري لأحلبنها، وإني لأرجو ألا يغيرني ما دخلت فيه عن خلق كنت عليه»؛ فكان يحلب لهم[١].

فتأمل.. في مسؤولياته الجسام، ومع ذلك لا يأخذ دور أحد، بل على العكس يخدم الناس![٢].

وكذلك القصة المشهورة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عند ما حمل كيس الدقيق على ظهره ليطعم الأطفال، (وليس العكس)، وكان أمير المؤمنين وخليفتهم وقتها.

وكان عثمان رضي الله عنه يلي وضوء الليل بنفسه، فقيل له: لو أمرت بعض الخدم فكفوك، فقال: «لا، إن الليل لهم يستريحون فيه»[٣].

وروي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، اشترى تمرًا بدرهم فحمله في ملحفة، فقالوا: نحمل عنك يا أمير المؤمنين، فقال: «لا؛ أبو العيال أحق أن يحمل»[٤].

وكان عبد الرحمن بن عوف لا يعرف من عبيده، إذ كان لا يتميز عنهم في صورة[٥].

بل إن سيد الناس كلهم أحرارهم وعبيدهم، بل سيد الأنبياء والمرسلين، صلى الله عليه وسلم، قال: «آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ العَبْدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ العَبْدُ»[٦].

---

(١) كتاب (الطبقات الكبرى) لابن سعد.

(٢) هؤلاء خريجو مدرسة النبوة الذين نالوا هذا الفهم الذي فاق به الشرق والغرب، ومنهم أبو مسلم الخولاني الذي قال عنه الذهبي: «دخل أبو مسلم الخولاني على معاوية بن أبي سفيان، فقام بين السماطين (أي: بين الصفين)، فقال: السلام عليك أيها الأجير، فقالوا: مه! قال: دعوه؛ فهو أعرف بما يقول، وعليك السلام يا أبا مسلم. ثم وعظه، وحثه على العدل» كتاب سير أعلام النبلاء للذهبي.

(٣) كتاب (الطبقات الكبرى) لابن سعد.

(٤) كتاب (الزهد) لأحمد بن حنبل.

(٥) كتاب (إحياء علوم الدين) للغزالي، وقد كان عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه من أغنى الناس.

(٦) صححه الألباني. يقول الباحث والمؤرخ الشهير جيمس متشنر معرفًا بجوانب من شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم: «إن محمدًا هذا الرجل الملهم، الذي أقام الإسلام، ولد نحو ٥٧٠ ميلادية في قبيلة عربية تعبد الأصنام، ولد يتيمًا محبًّا للفقراء والمحتاجين والأرامل واليتامى والأرقاء والمستضعفين.=

وكان أبو هريرة رضي الله عنه يحمل حزمة حطب وهو أمير المدينة، ويقول: «أوسعوا الطريق للأمير»[١].

وجاء أن عمر بن عبد العزيز أتاه ليلة ضيفٌ، فكاد السراج ينطفئ، فقال الضيف: أقوم إلى السراج فأصلحه؟ فقال: ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه، قال: إذن أنبه الغلام؟ فقال: إنها أول نومة نامها، فلا تنبهه، فقام وملأ المصباح زيتًا، فقال الضيف: قمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين؟ فقال: «ذهبت وأنا عمر، ورجعت وأنا عمر، ما نقص مني شيء، وخير الناس من كان عند الله متواضعًا»[٢].

وروي من تواضعه أيضًا، أنه قال يومًا لجارية له: يا جارية، روحيني، فأخذت المروحة فأقبلت تروحه، فغلبتها عينها فنامت، فانتبه عمر، فإذا هو بالجارية قد احمر وجهها، وقد عرقت عرقًا شديدًا- وهي نائمة- فأخذ المروحة وأقبل يروحها، فانتبهت، فوضعت يدها على رأسها فصاحت، فقال لها عمر: إنما أنت بشر مثلي أصابك من الحر ما أصابني، فأحببت أن أروحك مثل الذي روحتني»[٣].

وقال الحسن البصري: «والله لقد رأيت أقوامًا كانت الدنيا أهون على أحدهم من التراب تحت قدميه، ولقد رأيت أقوامًا يمسي أحدهم ولا يجد عنده إلا قوتًا، فيقول: لا أجعل هذا كله في بطني، فيتصدق ببعضه، ولعله أحوج إليه ممن يتصدق عليه»[٤].

وعن أبي جهم بن حذيفة العدوي، قال: «انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عمي ومعي شنة من ماء وإناء، فقلت: إن كان به رمق من حياة سقيته من الماء ومسحت به

= وقد أحدث محمد بشخصيته الخارقة للعادة ثورة في شبه الجزيرة العربية وفي الشرق كله. فقد حطم الأصنام بيديه، وأقام دينًا يدعو إلى الله وحده، ورفع عن المرأة قيد العبودية التي فرضتها تقاليد الصحراء، ونادى بالعدالة الاجتماعية، وقد عرض عليه في آخر أيامه أن يكون حاكمًا بأمره، أو قديسًا، ولكنه أصر على أنه ليس إلا عبدًا من عباد الله أرسله إلى العالم منذرًا وبشيرًا» انتهى. كتاب (الرسول في الدراسات الاستشراقية المنصفة) لمحمد شريف الشيباني.

(١) كتاب (تذكرة الحفاظ) للذهبي، وقوله: «أوسعوا للأمير» يقصد نفسه تواضعًا ومداعبة، رضي الله عنه.

(٢) كتاب (إحياء علوم الدين) للغزالي.

(٣) كتاب (عمر بن عبدالعزيز) للصلابي.

(٤) كتاب (سير أعلام النبلاء) للذهبي.

وجهه، فإذا به ينشغ، فقلت: أسقيك؟ فأشار: أن نعم، فإذا رجل يقول: آه، فأشار ابن عمي: انطلق به إليه، فإذا به هشام بن العاص أخو عمرو، فأتيته، فقلت: أسقيك؟ فسمع آخر يقول: آه، فأشار هشام: انطلق به إليه، فجئته، فإذا هو قد مات، ثم رجعت إلى هشام، فإذا هو قد مات، ثم أتيت ابن عمي فإذا هو قد مات»[١].

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتعاهد الأرامل يستقي لهن الماء بالليل. ورآه طلحة رضي الله عنه بالليل يدخل بيت امرأة، فدخل إليها طلحة رضي الله عنه نهارًا، فإذا هي عجوز عمياء مقعدة، فسألها ما يصنع هذا الرجل عندك؟ قالت: هذا منذ كذا وكذا يتعاهدني يأتيني بما يصلحني، ويخرج عني الأذى، فقال طلحة: ثكلتك أمك يا طلحة أعورات عمر تتبع»[٢].

وهذه أبيات من أقوال الشاعر المبدع المرهف الذي يحن لسيرتهم، وفي الوقت نفسه يعيب من يطريهم من غير أن يقتدي بهم ويعمل مثل ما عملوا:

اللهُ يَعْلَمُ مَا قَلَّبْتُ سِيرَتَهُمْ ... يَوْمًا وَأَخْطَأَ دَمْعُ العَيْنِ مَجْرَاهُ
إِنِّي لأَشْعُرُ إِذْ أَغْشَى مَعَالِمَهُمْ ... كَأَنَّنِي رَاهِبٌ يَغْشَى مُصَلَّاهُ
مَاضٍ تَعِيشُ عَلَى أَنْقَاضِهِ أُمَمُ ... وَتَسْتَمِدُّ القُوَى مِنْ وَحْيِ ذِكْرَاهُ
لا دَرَّ دَرُّ امْرِئٍ يُطْرِي أَوَائِلَهُ ... فَخْرًا وَيُطْرِقُ إِنْ سَاءَلْتَهُ: مَا هُو؟
مَا بَالُ شَمْلِ شُعُوبِ الضَّادِ مُنْصَدِعًا ... رَبَّاهُ أَدْرِكْ شُعُوبَ الضَّادِ رَبَّاهُ

وبالجملة: فمجامع حسن الخلق في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم والذي به ربى أصحابه ومن اقتدوا به وساروا على نهجه، ولا أدل على أهمية ذلك، ما سأذكره في مسألة الاعتماد على النفس والتواضع، حيث بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه على أمور هامة تمثل أسس الإسلام، فما تلك الأسس الإسلامية؟

* * *

(١) كتاب (تاريخ دمشق) لابن عساكر.

(٢) كتاب (جامع العلوم والحكم) لابن رجب الحنبلي.

المبايعة:

وأمام موقعنا بين الأمم وكيف صرنا عالة على غيرنا، لنر كيف عالج الإسلام عدم الاعتماد على النفس:

روى الإمام مسلم، عن عوف بن مالك الأشجعي، قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أو ثمانية أو سبعة، فقال: «أَلا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ؟!»، وكنا حديثي عهد ببيعة، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: «ألا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ؟!»، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: «أَلا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ؟!»، قال: فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلام نبايعك؟ قال: «عَلَى أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَالصَّلَوَاتِ الخَمْسِ، وَتُطِيعُوا- وأسرَّ كلمةً خفيّةً- ولا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا». فلقد رأيتُ بعضَ أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدًا يناوله إياه[1].

وعن أبي ذر قال: دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يشترط علي أن لا تسأل الناس شيئا، قلت: نعم، قال: «وَلا سَوْطَكَ إِنْ سَقَطَ مِنْكَ حَتَّى تَنْزِلَ إِلَيْهِ فَتَأْخُذَهُ»[2].

ولا شك أن النزول عن الجمل والصعود عليه ليس سهلا خاصة لمن جرب ذلك؛ لأن في إنزال الجمل ثم النزول عنه وأخذ الحاجة من الأرض، ثم إعادة الصعود مرة أخرى، مشقة كبيرة، مع أنه في حال إذا طلب من أحد مناولته السوط وهو على الجمل سهولة بالغة، ولكنها التربية النبوية الكاملة التي ساد بها المسلمون وارتقوا وتقدموا، ثم تخلفوا حين تركوها.

ونتساءل: هل طبق الكبير والصغير تلك التربية في حياتنا العملية؟! ولنتفكر في واقعنا، ثم في سيرة النبي الحبيب عليه الصلاة والسلام الذي سما وارتفع عن سؤال الناس، بل زاد سموا وتعاليا عما يعرض عليه بدون سؤال على الرغم من الحاجة

---

(١) صحيح مسلم.

(٢) صححه الألباني، قال ابن رجب في كتابه (جامع العلوم والحكم): «وفي النهي عن مسألة المخلوقين أحاديث كثيرة صحيحة، وقد بايع النبي صلى الله عليه وسلم جماعة من أصحابه على ألا يسألوا الناس شيئًا، منهم: أبو بكر الصديق، وأبو ذر، وثوبان، وكان أحدهم يسقط سوطه أو خطام ناقته، فلا يسأل أحدا أن يناوله إياه» انتهى.

والمشقة، وكذلك علو مكانته الرفيعة عند الله سبحانه وتعالى، وكذلك عند أصحابه رضي الله عنهم الذين يحبونه أكثر من أنفسهم، ولكن مع ذلك كله، طبق على نفسه هذه القضية في أحسن صورها، وذلك في حياته الشريفة كلها وجعل من نفسه خير قدوة؛ ففي غزوة بدر قاد المسلمين منطلقا بهم من المدينة النبوية متوجها إلى (بدر)، وكانت الرحلة شاقة، والمسافة طويلة، فالمسافة بين المدينة المنورة وبدر أكثر من مئة كيلو متر، وكانوا يتعاقبون (يتناوبون) على الرواحل، ولندع عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، يخبرنا عن ذلك الموقف العظيم، حيث يقول: كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير، كان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب زميلي رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: وكانت عقبة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فقالا نحن نمشي عنك فقال: «مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى مِنِّي، وَلا أَنَا بِأَغْنَى عَنِ الأَجْرِ مِنْكُمَا»(١).

فتخيل القائد يمشي والكثير يركبون! ومن الذي يمشي تلك المسافات الطويلة وعلى الأرض الوعرة؟ إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقائدهم يمشي على الأرض الوعرة ولمسافات طويلة، مع أنه ركب البراق الذي هو أسرع من الضوء(٢)، حيث ذهب به إلى المسجد الأقصى وإلى السماء ورجع في نفس الليلة، ولكنها التربية.

فما أعظم هذه القدوة وهذه التربية!

يقول بوسورث سميث، في كتاب (محمد والمحمدية): «لقد كان محمد قائدًا سياسيًّا وزعيمًا دينيًّا في آن واحد، لكن لم تكن لديه عجرفة رجال الدين، كما لم تكن لديه فيالق مثل القياصرة. ولم يكن لديه جيوش مجيشة أو حرس خاص أو قصر مشيد أو عائد ثابت.

(١) حسنه الألباني.

(٢) بالرغم من التطور العلمي الحديث لم تتوصل الاختراعات العلمية إلى وسيلة نقل تصل إلى سرعة الضوء، بل إن علماءهم لا يعلمون سرعة تفوق سرعة الضوء،، ومع ذلك فإنهم في سنة ٢٠١١م، اكتشفوا سرعة تفوق سرعة الضوء بقليل، وصدق الله العظيم الذي قال: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، سورة الإسراء، الآية: (٨٥). لذلك فإن العلماء يقفون عبيدًا أمام قدرة الله سبحانه وتعالى؛ سمع العالم الفلكي (جيمس جينز) العالم المسلم (عناية الله المشرقي) يتلو الآية الكريمة: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾، فصرخ قائلا: مدهش وغريب! إنه الأمر الذي كشفت عنه بعد دراسة استمرت خمسين سنة! من أنبأ محمدًا به؟ هل هذه الآية موجودة في القرآن حقيقة؟! لو كان الأمر كذلك فأنا أشهد أن القرآن كتاب موحى به من عند الله.

إذا كان لأحد أن يقول: إنه حكم بالقدرة الإلهية فإنه محمد؛ لأنه استطاع الإمساك بزمام السلطة دون أن يملك أدواتها ودون أن يسانده أهلها» انتهى.

تَوَاضَعْ تَكُنْ كَالنَّجْمِ لاحَ لِنَاظِرٍ   عَلَى صَفَحَاتِ المَاءِ وَهْوَ رَفِيعُ
وَلا تَكُ كَالدُّخَانِ يَعْلُو بِنَفْسِهِ   إِلَى طَبَقَاتِ الجَوِّ وَهْوَ وَضِيعُ

فمن طلب التواضع فليقتد به صلى الله عليه وسلم، ومن لم يرض لنفسه بذلك فما أشد جهله! فلقد كان صلى الله عليه وسلم إمام المتواضعين أعظم خلق الله في الدنيا والدين، فلا عز ولا رفعة إلا في الاقتداء به، فمن تواضع لله رفعه.

وقد يعارض البعض بحيل نفسية أو شيطانية...، فيقول: نريد أن نعلم الطلاب أدب الاحترام للكبير أو للمعلم.

فيقال له باختصار: اقتد برسول الله صلى الله عليه وسلم، ودع عنك الفلسفة(١).



(١) وهذا من باب أقوال العامة، وإلا فالتعبير الصحيح في هذه الحالة هو السفسطة. فالسفسطة هي: عكس الحق أو الحكمة، وتقوم على التلاعب بالألفاظ والتمويه والمغالطة لطمس الحقائق، ويقصد منها إفحام الخصم أو إسكاته. أما الفلسفة فهي كلمة مشتقة من فيلوصوفيا بمعنى محبة الحكمة أو طلب المعرفة. وليس لها تعريف محدد ولكنها تقوم على المنطق، وتهتم بالمعاني المجردة وتحللها تحليلا عقليًا.



الباب الثاني
دور المعلمين





الباب الثاني

دور المعلِّمين

سيناقش هذا الباب الأهمية الكبيرة للتربية وأثرها في بناء الحضارات، ومكانة المعلم العالية، ثم العوامل التي تؤثر في المجتمع، وكيف يتأثر الطلاب من خلال تلك التربية، وأثر المعلمين السيئين في إفساد الطلاب وخطورة ذلك الأثر، وحال الطالب الذي مسخت إنسانيته، والمستوى الذي وصل له المجتمع، وكيفية التخلص من ذلك.

أهمية التربية في نشأة الحضارات:

لا شك أن التربية هي العامل الأساسي في تشكيل الفرد وتكوينه، والأفراد هم الذين يكوِّنون المجتمعات؛ وبهذا تتكون الحضارات، وعلى هذا الأساس فإن الحضارات تتكون بحسب التربية التي يتربى عليها أفرادها.

والأمثلة على أهميتها كثيرة وواضحة، ولكن سنرى أهمية التربية لدى كل من: بريطانيا، وماليزيا، واليابان.

سبب هزيمة نابليون بونابرت:

كتب الدكتور ونيس الشاعري[1] عن أهمية التربية فقال:

«إن كنا في ريب من جدية الأمر وخطورته، فلنتأمل معا ما استخلصه أحد من أرخوا لنابليون بونابرت من المعاصرين؛ إذ علق وهو يستعرض أسباب هزيمة نابليون في معركة واترلو الفاصلة الشهيرة على أيدي البريطانيين، بأن نتيجة تلك المعركة كانت قد تقررت من قبل في المدارس البريطانية التي بزت مثيلاتها الفرنسية.

---

(١) الدكتور ونيس علي أحمد الشاعري (أبو فراس): ولد في مدينة بنغازي الليبية عام ١٩٥٠م وتوفي عام ٢٠٠٦م رحمه الله تعالى.

إن هناك من التجاذب ما ليس له حصر، فهل من معتبر؟» انتهى[١].

سبب تطور ماليزيا:

تعتبر تجربة ماليزيا الإسلامية تجربة جديرة بالدراسة، حيث حققت خلال عشرين عامًا، طفرات كبيرة بهرت العالم في مجال التنمية، والفضل يرجع في تطورها وتقدمها، بعد الله سبحانه وتعالى، إلى رئيس وزرائها السابق (مخاتير محمد) الذي تسلّم الحكومة في بداية عقد الثمانينات (متخلفة)، وتركها قبل سنوات قليلة دولة رائدة متطورة مع المحافظة على قيمها، فله يرجع الفضل في وضع خطط التنمية الشاملة و(تطبيقها) في البلاد.

وعندما سأله البعض عن سر تطور ماليزيا؟ أشار إلى أن سر التطور يرجع إلى سببين:

الأول: الاهتمام بالتربية والتعليم، حيث أعطاهما كل اهتمامه، وبيَّن أنه لا يمكن أن يتنازل عن أي تقصير في ذلك.

و الثاني: أنه عندما يسافر لحضور مؤتمرات أو لأي سبب، فإنه يتطلع إلى أحسن ما يجده في تلك البلدان، ثم يتساءل: هل يصلح هذا لبلدي؟ ثم يطبقه في بلده على أحسن وجه!

اليابان:

كتب الدكتور: عوض أمين عباس[٢] فقال: (إن التربية تعتبر من الركائز الجوهرية في تقدم الدول، ولا يمكننا أن نتحدث عن التنمية في كافة مجالاتها في غيابها، ونظرا لأهميتها فإن الدول تهتم بها اهتماما كبيرا، ولتأكيد ما ذكرته أورد جزءا من الحديث الذي دار بين جواهر لال نهرو والسفير الياباني، حيث سأل هذا السفير في دبلوماسية بالغة الزعيم الهندي الكبير: هل في اعتقادك أن هناك إمكانية لأن تنهض اليابان بعد تدميرها بالقنابل النووية في الحرب العالمية الثانية في ناجازاكي وهيروشيما؟ فرد عليه نهرو: في اعتقادي أن اليابان ليس لها مقومات الدولة العظمى. وقد أضاف الياباني: ما مقومات الدولة العظمى؟ فرد عليه نهرو قائلا:

---

(١) منتديات «ستار تايمز»، أرشيف: شؤون تعليمية (إلى المعلم): خواطر تربوية، د.الفقيد ونيس الشاعري.

(٢) دكتوراه في فلسفة التربية- جامعة كيندي وسترن الأمريكية.

- مساحة شاسعة من الأراضي.

- أعداد مهولة من السكان.

- اقتصاد قومي.

وهنا أشار السفير الياباني إلى أن الحل هو: «Solution is under my Hat»

أي: أن الحل تحت قبعتي، وكان يعني بهذه العبارة أن التربية بمعناها الشامل هي المقدمة المنطقية للتنمية في كافة الميادين.

نرجو من الله ألا يجعل كلامنا هذا كخطبة المقابر» انتهى[١].

وأخيرًا كتب الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله تعالى، عن منزلة التعليم لأي أمة فقال: «التعليم مثل أي كائن حي مستقل بذاته، له جرم وجوهر، وله شبح وروح.

وما روح التعليم وجوهره إلا ظل لعقائد واضعيه وأخلاقهم، فلابد أن ينتج الأهداف والغايات التي تعكس آثار هذا التعليم بكليته على العقائد، والأخلاق، والثقافة، والسياسة، والاجتماع.

فإذا تبنت أمة نظام التعليم في عقيدتها وأخلاقها، أنتج أهدافه منعكسة على شد الأمة إلى عقيدتها وأخلاقها، وسياستها، وآدابها الاجتماعية، والثقافية، ووحدتها في ذلك، وتضييق مساحة الصراع والتبدد والانقسام.أما إذا تبنت أمة نظام تعليم وافد في ظل عقيدة غير عقيدتها، وأخلاق غير أخلاقها، فإنه ينتج أهدافه منعكسة عليها في الاعتقاد والأخلاق والسياسة والاجتماع؛ لما تنطوي عليه نقوس ناشئتها من أفكار وانحرافات مغايرة لما عليه إيمانها وعقيدتها وسلوكها، مفضيا ذلك إلى زعزعة العقيدة، ثم الردة الفكرية، فالعقدية، وبه تؤول حياة الأمة إلى تبدد وانقسام، وتصدع وصراع، وتعيش في ظله بين البناء والهدم، والتصديق والتكذيب، والاحترام والازدراء، والتشقق في تزايد وامتداد، والصراع في تصاعد واتساع، ولا تسأل حينئذ عن فشو الفوضى، واضطراب الأحوال» انتهى[٢].

* * *

(١) باختصار من صحيفة الصحافة، (الاتصال التربوي ماله وما عليه)، رقم العدد: (٥٢٩٧).

(٢) كتاب (المدارس العالمية الأجنبية الاستعمارية تاريخها ومخاطرها) لبكر أبو زيد.

أهمية المعلمين:

إن مسؤولية التخلف يتحملها الجميع، ولكن لما للمعلمين من أثر مهم فإنهم يُقَدَّمون على غيرهم؛ لأنهم أكبر من يتولى الحمل المباشر لتربية الجيل، وهم المتخصصون في التربية، فالمريض إذا ساءت حالته عند والديه، فإنا لا نلقي اللوم الكبير عليهما، بل نطلب منهما أن يذهبا به إلى المستشفى، لكي يتولى الأطباء علاجه؛ لأنهم متخصصون، وكذلك ينطبق الحال على إرسال الوالدين أولادهما إلى مكان التربية الذي هو المدرسة؛ ليتولى أمرهم المربون المتخصصون؛ وهم المعلمون.

في العصور القديمة، لم يكن هناك متخصصون ولا مستشفيات ولا مدارس، أما الآن فقد وجد المستشفى والمدرسة، ووجد المتخصص؛ فلهذا زادت الأهمية وزاد الحمل؛ ولبيان جانب من أهمية هذا الدور، سنبينه من ناحيتي قوة التأثير، والشمول:

١- قوة التأثير:

إذا التحق شخص بدورة تعليمية لمدة ساعة كاملة، فإنه بلا شك سيتأثر بها. فما بالك بدورة لمدة يوم كامل، ولمدة أسبوع، وشهر، وسنة، وأكثر.

فالتعليم يستمر مع الطالب سنوات طويلة، قد تبدأ من سن السابعة أو قبل ذلك، وتنتهي بعد الجامعة، فهي قد تصل إلى ست عشرة سنة أو أكثر، ويلاحظ على هذه الدورة المركزة والطويلة، أن الطالب يجلس مع معلميه، ما لا يجلسه مع أحد غيرهم!

٢- الشمول:

وزيادة على أهمية المعلم في قوة تأثيره، تكمن أهمية أخرى وهي شموله؛ إن في صلاح المهندسين صلاحًا للمباني، وفي صلاح الأطباء صلاحًا للمرضى......، ولكن صلاح المعلمين يشمل صلاح الجيل بأكمله بما فيهم المهندسون والأطباء وغيرهم.

قيمة اتخاذ القرار أو (حمل الأمانة):

إن من يتولى حماية خزينة تحتوي على مال عظيم، سيكون مسؤولا عنها، فإذا اعتدى عليها أو قصر في حمايتها فإنه بلا شك خائن للأمانة.

والحال أشد في أمر العلم؛ فالعلم له قيمة غالية يجب على حامله أن يتحمل أمانته، أما في حالة خيانة هذه الأمانة فينبغي أن يكون الاهتمام في هذه الحال أشد وأكبر.

المكانة العالية للمعلِّم:

للمعلِّمين الشرف العظيم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو قدوتهم في هذا المجال؛ فلا ريب أن مهمتهم هي تعليم أمته ليكونوا خير متعلمين؛ قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1]، وقال الله عز وجل: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾[2].

وقال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا وَلا مُتَعَنِّتًا، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا وَمُيَسِّرًا»[3].

وعن تعليمه يقول أحد طلابه من الصحابة رضي الله عنهم: «فبأبي هو وأمي! ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه»[4].

وإطلاق اسم المعلِّم على النبي صلى الله عليه وسلم، شرف عظيم للمعلِّمين؛ قال الشاعر:

قَدْ شَرَّفَ اللهُ أَرْضًا أَنْتَ سَاكِنُهَا ... وَشَرَّفَ النَّاسَ إِذْ سَوَّاكَ إِنْسَانَا

ويقول الدكتور (شبرك) النمساوي: «إن البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد إليها، إذ إنه رغم أميته، استطاع قبل بضعة عشر قرنا أن يأتي بتشريع، سنكون نحن الأوروبيين أسعد ما نكون، إذا توصلنا إلى قمته» انتهى. وقال الشاعر:

وَكُلُّ أُنَاسٍ يَتْبَعُونَ إِمَامَهُمْ ... وَأَنْتَ لِأَهْلِ الْمَكْرُمَاتِ إِمَامُ

ويقول آن بيزيت: «من المستحيل لأي شخص يدرس حياة وشخصية نبي العرب

(١) سورة الجمعة، الآية: (٢).

(٢) سورة البقرة، الآية: (١٥١).

(٣) صحيح مسلم.

(٤) صحيح مسلم.

العظيم ويعرف كيف عاش هذا النبي وكيف علم الناس، إلا أن يشعر بتبجيل هذا النبي الجليل، أحد رسل الله العظماء، ورغم أنني سوف أعرض فيما أروي لكم أشياء قد تكون مألوفة للعديد من الناس فإنني أشعر في كل مرة أعيد فيها قراءة هذه الأشياء بإعجاب وتبجيل متجددين لهذا المعلم العربي العظيم».

خليلي وحبيبي:

لقد عايش حبيبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه رضي الله عنهم، فرباهم التربية العظيمة التي ملكت قلوبهم وعقولهم، فأحبوه أكثر من أنفسهم، ووصفوه بالخليل والحبيب، وحفظوا وصاياه في قلوبهم، لينفذوها مدى الحياة، وفي هذا إضاءة هامة في مجال التربية الإيجابية، بل أخص من ذلك وهو الحب في التربية الإيجابية، وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى.

عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: «أوصاني خليلي بثلاث، لا أدعهن حتى أموت: صوم ثلاثة أيام من كل شهر، وصلاة الضحى، ونوم على وتر»[1].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: «أوصاني حبيبي صلى الله عليه وسلم بثلاث، لن أدعهن ما عشت: بصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وصلاة الضحى، وبألا أنام حتى أوتر»[2].

وعن أبي ذر رضي الله عنه، قال: «أمرني خليلي بسبع: أمرني بحب المساكين والدنو منهم. وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني، ولا أنظر إلى من هو فوقي. وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبرت. وأمرني ألا أسأل أحدا شيئًا. وأمرني أن أقول بالحق وإن كان مرًّا. وأمرني ألا أخاف في الله لومة لائم. وأمرني أن أكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله؛ فإنهن من كنز تحت العرش»[3].

خير معلم لخير طلاب:

لا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم أعظم معلم: ترى بعض الدراسات

---

(١) صحيح البخاري.

(٢) صحيح مسلم.

(٣) حسنه الألباني.

التربوية أن أفضل الطرق لقياس مستوى المعلم تتركز في تقييم طلابه، ولو اعتمدنا هذه الدراسات لتوصلنا إلى أنه صلى الله عليه وسلم أعظم مربٍّ ومعلم؛ فعن طلابه وتلاميذه قال الله عز وجل: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[١].

يقول المستشرق مرماديوك باكسال: «يكفى محمدًا فضلًا أن أصحابه ظلوا اثنتي عشرة سنة في اضطهاد وتعذيب ومع ذلك كانوا يزيدون ولا ينقصون، ويكفى كتاب الإسلام جلالًا أنه مضى عليه أربعة عشر قرنا لم يصب أسلوبه بجفاف، بل ظل غضًّا نديًّا كان عهده بالحياة أمس» انتهى.

وفي هذا إشارة للغلاة الذين يذمون (الصحابة) الذين تربوا في مدرسة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

هَلْ تَطْلُبُونَ مِنَ الـمُخْتَارِ مُعْجِزَةً   يَكْفِيهِ شَعْبٌ مِنَ الأَجْـدَاثِ أَحْيَاهُ

فعلى هذا القياس، وبجميع المقاييس: هو خير معلِّم، بل هو خير إنسان؛ فهو سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم.

قال الآلوسي: «لا ريب لأحد في أن للنبي صلى الله عليه وسلم القِدْحَ المُعَلَّى من ذلك، بل له عليه الصلاة والسلام فيه غاية الغايات القاصية، ونهاية النهايات النائية؛ يقول رائيه[٢]:

وَأَحْسَـنَ مِنْكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْنِي   وَمِـثْـلَـكَ قَـطُّ لَـمْ تَـلِـدِ الـنِّـسَـاءُ
خُـلِـقْـتَ مُـبَرَّأً مِـنْ كُـلِّ عَـيْـبٍ   كَـأَنَّـكَ قَـدْ خُـلِـقْـتَ كَـمَا تَـشَـاءُ

وكذا يقول:

وَلَـوْ صَـوَّرْتَ نَفْسَكَ لَمْ تَزِدْهَا   عَـلَى مَا فِيـكَ مِـنْ كَـرَمِ الطِّبَـاعِ»

انتهى[٣].

* * *

(١) سورة آل عمران، الآية: (١١٠).

(٢) هو الصحابي الجليل والشاعر حسان بن ثابت رضي الله عنه.

(٣) كتاب (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) للآلوسي.

العوامل التي توجه المسلمين وتؤثر فيهم:

إن الإنسان تؤثر فيه عوامل كثيرة خارجية وداخلية، ويتأثر بها جبرًا أو اختيارًا، وفي هذا الباب ستتطرق لهذه العوامل بشكل عام، لنتعرف على أبعادها ومدى تأثير كل منها، لكي نصل إلى المؤثر المهم وهو المعلم ونعرف درجة تأثيره وكيف يؤثر سلبًا وإيجابًا، ومن ثم كيف نستفيد من ذلك في تربية الجيل المسلم.

تكامل الفطرة والبيئة:

إن المجتمع يتكون من أفراد، والفرد ينشأ في البداية، على التربية التي رباها عليه والداه، ولكن قبل تلك البداية تكمن الفطرة التي يفطر الناس عليها وهي: أن الطفل يولد على فطرة الله؛ فقد قال تبارك وتعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إلا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ»[2].

أي: يولد المولود على الفطرة السليمة في جميع النواحي وأهمها الإيمان بالله عز وجل، ولقد ذكرت دراسة علمية حديثة: أن الطفل يولد مؤمنا بالله، من دون تلقين[3].

---

(١) سورة الروم، الآية: (٣٠).

(٢) صحيح البخاري.

والبهيمة الجمعاء والجدعاء، ضربت مثلا للتأثير على المولود؛ فالجمعاء تامة الخلق، والجدعاء الناقصة بسبب قطع شيء منها. يعني: أن البهيمة ولو كان فيها قطع لبعض الأطراف؛ كالأذن أو الذنب أو اليد... إلا أنها تلد مولودًا تامًّا، ليس فيه نقص. وأن البهيمة تولد مجتمعة الخلق، سوية سليمة من الجدع أي القطع، ولولا تعرض الناس إليها لبقيت كما ولدت سليمة.

(٣) ذكرت صحيفة (تليغراف) اللندنية أن «الأطفال يولدون مؤمنين بالله ولا يتم تلقينهم الأفكار الدينية». وأشارت الصحيفة إلى أن أكاديميًّا- وهو باحث متقدم في علم الإنسان والعقل في جامعة أوكسفورد- يؤكد من خلال دراسات وأبحاث أن الأطفال الصغار لديهم إيمان كبير بالله وبوجوده حتى وإن لم يتم تعليمهم أو تلقينهم من خلال الأسرة أو المدارس أو رجال الدين، مشيرًا إلى أنهم مؤمنون حتى وإن عاشوا بمفردهم في جزر صحراوية، وقال الباحث الدكتور جاستون باريت: «إذا قمنا بإلقاء الأطفال وحدهم في جزيرة وعاشوا فيها فإنهم سيؤمنون بالله دون أن يبلغهم أو يطلب منهم أحد»، مؤكدا أنه سيروي اختبارًا نفسيًّا في جامعة كامبردج، =

ولكن بعد ذلك يأتي دور البيئة في تربية هذا المولود وتنشئته، فإذا كانت البيئة سليمة نشأ هذا الولد نشأة متجانسة ومتوازنة ومتناغمة مع تلك الفطرة السليمة؛ فصار رجلا أقرب إلى الكمال، وذلك بعد تأدية البيئة دورها الصحيح، من خلال رعاية تلك النبتة الصغيرة (الفطرة السليمة) رعاية شاملة بكل ما فيها من إيمان وأخلاق وفضائل وأفكار ومبادئ ومُثُل... وكذلك هناك أمور أخرى لا يعلمها إلا الله العظيم، الذي جعل في هذه الفطرة إمكانات عظيمة، ولكن البيئة السيئة مع الأسف (تطمسها) أو تضعفها أو تميتها.

ولكن بعد تلك المرحلة يختلط بالمجتمع الذي زادت العوامل المؤثرة فيه، من حيث التنوع والقوة، وفي هذا العصر بشكل أكبر.

ولهذا فإنا إذا درسنا هؤلاء الأفراد الذين يكوِّنون المجتمع، سنلاحظ أن العوامل التي توجههم وتؤثر فيهم- فترفعهم إلى القمة أو تهوي بهم إلى الحضيض- ترجع إلى أسباب كثيرة، ولكن أهمها يتلخص في خمسة عوامل أساسية تؤثر في المجتمعات وتشكلها؛ وهي:

١ - الدين: ويمثله جميع المسلمين بما فيهم العلماء، كل بحسب تأثيره [1].

٢ - الحكومات، ويقع عليها الحمل الأكبر خاصة في العالم الإسلامي.

٣- الإعلام.

٤ - المجتمع.

= سيوضح من خلاله أن الأطفال بشكل فردي مؤمنون من الولادة بكل شيء ويعلمون جدا أن كل شيء خلق لسبب محدد. ويقول الدكتور باريت: «إن علماء الإنسان قد وجدوا في بعض الثقافات أطفالًا يؤمنون بالله مع أن التعاليم الدينية ليست في متناولهم». باختصار من نور الإسلام.

(١) إن الإسلام هو الدين الكامل المنقذ للبشرية في الدنيا والآخرة، ولكن الأمر يشتبه على البعض، فيخلط بين الإسلام ومن ينتسب إليه.

فلهذا ينبغي بيان هذا اللبس؛ فإذا حصل تقصير من أحد ينتسب للإسلام فإن التقصير ينسب له ولا ينسب للإسلام، والإسلام بلا شك بريء من تقصيره.

وعلى كل إنسان أن يعرض أي عمل على الإسلام، فإذا كان يخالفه فإنه لا يلتفت إليه، بل يضرب به عُرض الحائط، وفي المقابل ينزه الإسلام منه.

٥- المؤسسات التربوية والتعليمية (والمعلمون لهم الأثر الأكبر في ذلك).

فنلاحظ أن الكل على ثغر، وكذلك نلاحظ أن التقصير يشمل الجميع، مع أن الكثير ينفي تلك التهمة عن نفسه- وهذا ما نتمناه- ولكن الحقيقة (مُرَّة) كما يقال.

فالتخلف يشمل الجميع، وقد يكون المعلمون من أفضل الناس، ولكن هذا لا يعذرهم ولا يعفيهم من المسؤولية، وهذا الكتاب لم يخصص لتقصير الأطباء أو القضاة أو المحامين أو المهندسين أو غيرهم، على ما فيهم من الأخطاء الكبيرة، وإنما هو خاص للمعلمين؛ لأهميتهم وتأثيرهم الكبير في نهضة الأمم ورقيها، وإلا فإن هذا التخلف الذي سيطر اليوم على حياة المسلمين يتحمله الجميع، ولو أنهم تمسكوا بهذا الدين وحافظوا عليه في واقعهم العملي الحيوي لكان للمسلمين شأن آخر بإذن الله تعالى.

وخير شاهد على أهمية البيئة أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يعش في المدينة النبوية المنورة إلا عشر سنوات (تقريبا). ومع ذلك وفي هذا الزمن (القياسي) انظر إلى تلاميذه وطلابه الأطهار الأبرار، فإن فيهم العبرة، بالرغم من قصر المدة[(١)].

ومما يؤكد أثر البيئة الصالحة في تربية الفرد، وتكوينه والمحافظة على استمرار

---

(١) لاحظ العكس: مشركون عاشوا في بيئة صالحة فصلحوا وأصلحوا وعلموا جميع الأمم، أما العكس فهو في وقتنا الحاضر: مسلمون عاشوا في بيئة لا تناسبهم ولا ترقى لدينهم، فحصل منهم ما يحزن المسلم، ومن الأمثلة على هذه الانتكاسة، ما بينه الدكتور أمجد قورشة الداعية الإسلامي المشهور:

«- إن سبب من أسباب تشويه صورة الإسلام في العالم، هو المسلمون أنفسهم في الغرب، وتخصيصا المسلمين الذي يأتون من الدول الإسلامية، لا المسلمون الذين يولدون هناك وينشؤون هناك.

- للأسف خلافاتنا في بلداننا، وأمراضنا الفكرية والسلوكية والأخلاقية نحملها إلى هناك.

- الإذاعات والقنوات الفضائية العالمية المنحازة ضد الإسلام والعرب، تشوه صورة الإسلام، ويزيد الطين بلة أن الذين يأتون من الدول الإسلامية والعربية عنصر مساهم في تشويه الإسلام.

- مثال: في بريطانيا مدينة (برمنغهام) ثاني أكبر مدينة، فيها أكبر تجمع للمسلمين في منطقة واحدة في بريطانيا، تدخل أحياء وشوارع فيها عشرات الآلاف (٩٥٪ إلى ٩٩٪) من المسلمين، هي أوسخ المناطق في المدينة! مع أن ديننا دين النظافة.

- على سبيل المثال: لكي تميز وتعرف إذا كان هذا الشارع من شوارع المسلمين، عليك أن ترى الشارع، إن كان وسخًا أو نظيفًا.

إذا كان وسخًا فاعرف أنه من المسلمين، وإذا كان نظيفًا ومرتبًا قيل: هذا إنجليز؛ هذه حقيقة!» انتهى، ذكر هذا في برنامج وجوه إسلامية الذي بث في قناة العربية في شهر رمضان ١٤٣٢هـ ٢٠١١م.

صلاحه، حديث الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسا فذهب لعالم، فدله على أن يتوب وينتقل إلى أرض بها أناسٌ يعبدون الله تعالى فيعبد الله معهم، ويترك أرض قومه؛ لأنها أرض سوء. وبهذا يستبدل بالبيئة الفاسدة بيئةً صالحةً، وكذلك في الصحبة؛ قال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[1].

وكذل الجلساء؛ فقد مثل صلى الله عليه وسلم الجليس الصالح والسوء بمثلين بليغين؛ وذلك في قوله: «مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالجَلِيسِ السُّوءِ، كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ؛ فَحَامِلُ المِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً»[2].

فالبيئة عنوان كبير يدخل فيه عوامل كثيرة، نختصرها هنا في: الأبوين، والمدرسة بما فيها (المعلم)، والمنهج، والمبنى، والطلاب...

ملاحظة:

بمناسبة الفطرة السليمة، يحسن بنا ذكر ملاحظة؛ وهي: أن بعض الآباء والمعلمين- هداهم الله تعالى- يتسلمون هذا الطفل سليمًا ثم يفسدونه! وبعد إفساده يذمونه ويرمون فساده على الزمان، وصدق الإمام الشافعي رحمه الله:

نَعِيبُ زَمَانَنَا وَالعَيْبُ فِينَا ... وَمَا لِزَمَانِنَا عَيْبٌ سِوَانَا
وَنَهْجُو ذَا الزَّمَانَ بِغَيْرِ ذَنْبٍ ... وَلَوْ نَطَقَ الزَّمَانُ لَنَا هَجَانَا
وَلَيْسَ الذِّئْبُ يَأْكُلَ لَحْمَ ذِئْبٍ ... وَيَأْكُلُ بَعْضُنَا بَعْضًا عِيَانَا

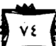
فليس لهؤلاء الطلاب المساكين ذنب؛ لأنهم من نتاج هذه التربية السيئة، فإذا أخطأ أحد منهم فعلينا أن نقدر حالته؛ لأن سبب الخطأ قد يرجع إلى سوء بعض المربين السفهاء، فلنرفق بهم.

تَرَفَّقْ أَيُّهَا المَوْلَى عَلَيْهِمْ ... فَإِنَّ الرِّفْقَ بِالجَانِي عِتَابُ
وَجُرْمٍ جَرَّهُ سُفَهَاءُ قَوْمٍ ... فَحَلَّ بِغَيْرِ جَانِيهِ العِقَابُ

---

(١) سورة الزخرف: الآية (٦٧).

(٢) صحيح البخاري ومسلم.



قال ماكس مولر[١]: «ما أندر من يحتفظ منا بفطرته الأصلية، في وسط أكاذيب العرف التي نقبلها مكرهين».

كيف يتأثر الطلاب؟

إن الطالب يتأثر بالتربية المدرسية السلبية منذ دخوله المدرسة- بل خروجه من بيته- قبل الطابور الصباحي إلى خروجهم من المدرسة.

ولا شك أن الملاحظ لحال الطلاب في القدوم المحبط وحالهم في الانصراف، سيجد أن الكثير منهم يخرجون من المدرسة مسرعين فرحين مع الأمنية ألا يعودوا إلى هذا السجن في نظرهم، والدليل فرحهم الزائد بالإجازة الأسبوعية.

وهذا الكره ناتج من أسباب كثيرة يتحمل بعضها سوء المبنى المدرسي، والمكتبة....، وكذلك سوء التربية من بعض المعلمين، ولذلك وسائل وطرق عديدة تشمل ضرب الطلاب والتعامل الفظ والغليظ معهم، وسيأتي الكلام عن جريمة ضرب الطلاب واستماتة البعض في الدفاع عنها، وادعاء أنها من أصول التربية، بل قول البعض بأنها سنة!

تَحَكَّمُوا فَاسْتَطَالُوا فِي تَحَكُّمِهِمْ ... عَمَّا قَلِيلٍ كَأَنَّ الأَمْرَ لَمْ يَكُنِ

لَوْ أَنْصَفُوا أُنْصِفُوا لَكِنْ بَغَوْا فَبَغَى ... عَلَيْهِمُ الوَقْتُ بِالأَحْزَانِ وَالمِحَنِ

فَأَصْبَحُوا وَلِسَانُ الحَالِ يُنْشِدُهُمْ ... هَذَا بِذَاكَ وَلا عَتْبٌ عَلَى الزَّمَنِ

دورات مركزة:

والأمثلة على الدورات اليومية للفوضى كثيرة، ولكن نأخذ الإفطار الصباحي الذي يتكرر في كثير من المدارس؛ حيث إن طلاب المدرسة جميعهم يشترون من شباك واحد، ليحصلوا على إفطارهم[٢].

---

(١) فريدريك ماكس مولر: عالم ألماني اهتم بمجالات اللغة والدين، ولد في ألمانيا وسافر إلى بريطانيا وعاش فيها بقية عمره، ١٨٢٣م - ١٩٠٠م. من أقواله: «إن فكرة التعبد من الغرائز التي فطر عليها الإنسان منذ نشأته الأولى».

(٢) سبق أن تطرقنا لهذا المثال، ولكنا سنعرضه من جوانب أخرى.

وهنا يبدأ قانون الغابة، فلكي يشتري الطالب إفطاره ينبغي أن يستشعر قول القائل: «إن لم تكن ذئبًا أكلتك الذئاب»، وعليه أن يستعمل وسائل شتى؛ كالمكر والصراخ والترجي والتسلط والتذلل....

وكل هذه الوسائل غير تربوية وتخالف النظام، وتربي الطلاب تربية سلبية.

أما من يتمسك بالمبادئ التربوية الحسنة، فإنه قد لا يحصل على إفطاره، أو سيحصل عليه في آخر الوقت.

وزيادة على ما سبق، منظر المعلم الذي يتجاوز النظام ويكسره لمصلحته الخاصة، وقد يرى أن في تحقيق مصلحته تحقيقًا لمصلحة الأمة؛ لأنه إذا أفطر سينفع الأمة، وهذا عذر وجيه (في نظره)، بل قد يدفعه ليرسل أحد الطلاب ليشتري له، غير مبال بهؤلاء الرعاع (في نظره)، هذا مع أساليب التعليم المتسلطة.

وكل هذا يكون في أكثر المدارس، ومع أكثر الطلاب.

وهذا أحد أنوع الدورات المستمرة التي تحصل في كل يوم ولمدة سنوات، حتى أضحى الطالب مبرمجًا على هذا الأساس، فصار من البديهي عند الكثيرين، أن من يريد شيئًا فعليه أن يحصل عليه بالقوة وفرض الأمر الواقع، في كل شيء بصرف النظر عن حقه في ذلك، فضلًا عن طريقة أخذ ذلك الحق.

لهذا لا نستنكر الظلم والفوضى في مجتمعاتنا بجميع أشكالها، كفوضى التعامل بين الناس، وفوضى الخدمات العامة، وفوضى المرور، وفوضى المواقف والمواصلات...، حتى الفوضى في خلع الأحذية عند المساجد، هذا إذا لم تسرق.

يقول الشيخ محمد الغزالي[1] رحمه الله: «بناء الأفراد على الأخلاق الفاضلة وبناء المجتمعات على التقاليد الشريفة، ركن ركين في دين الله، والتربية- كالزراعة والصناعة- عمل يحتاج إلى جهد طويل وتشترك فيه عناصر كثيرة، وليس كلامًا مرسلًا أو خطابًا حماسيًّا... كيف ننشئ أناسًا يحبون الإتقان ويعشقون الجمال والإجادة ويرفضون الخلل

---

(١) الشيخ محمد الغزالي أحمد السقا، عالم ومفكر إسلامي مصري، ولد سنة ١٩١٧م وتوفي سنة ١٩٩٦م، وسماه والده بـ(محمد الغزالي) تيمنا بالعالم أبي حامد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥هـ.

والفوضى؟ في أمة يكره دينها الفرط لماذا ينتشر التسيب في إدارتها؟ وفي أمة يبنى فقهها على النظافة لماذا تنتشر القمامة والقذارة؟ أحيانا أنظر إلى حضارة الغرب فأجدها- على ما بها- أقرب إلى فطرة الله...».

★ ★ ★

خطورة التربية السلبية:

دراسة: «تؤكد كلية الطب بكاليفورنيا سنة ١٩٨٦م، أن الإنسان من الميلاد إلى سن ١٨ سنة، يتلقى ما بين ٥٠٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠٠ رسالة سلبية مقابل ٦٠٠ رسالة إيجابية»[١].

لاشك أنه يوجد ارتباط قوي بين التربية السلبية القائمة على سوء معاملة الطالب بدنيًا ونفسيًا، وبين بروز الظلم والفساد والاستبداد في ذلك المجتمع الذي يتبنى تلك التربية، والذي ينتج منه خضوع أفراد ذلك المجتمع للظلم والاستبداد خانعين صاغرين ذليلين، ليس لهم قيمة بين المجتمعات المحترمة.

وبهذه التربية، ينشأ الطالب شخصًا بلا شخصية، وإنسانًا بلا إنسانية. فالعنف يحطم الشخصية، ويفقد الإنسان الثقة في نفسه، ويورثه كره الذين يمارسونه معه، فالعنف- بجميع أشكاله- لا ينشئ إلا إنسانًا جبانًا إمعة، ليس له شخصية يدافع عنها ولا أخلاق، بل مجرد تصنع، فلا حياء ولا كرم ولا صدق...، بحيث يكون إنسانًا لا يحمل شخصيته الحقيقية فشخصيته وإرادته مسلوبة، ومن ثم يعيش بشخصية مصطنعة ملفقة ممسوخة، وهذا من أسباب كثير من الأمراض النفسية والعقلية[٢]، وكذلك ضعف الشخصية والإضرار بها؛ كالخوف والخجل والشرود الذهني والوساوس والنسيان والقلق والتبول اللاإرادي، ومشاكل عيوب طلاقة اللسان؛ كالتلعثم والتأتأة

---

(١) كتاب (الأطفال المزعجون)، للدكتور: مصطفى أبو سعد. مع ملاحظة أن النسبة في العالم الثالث قد تضاعف عشرات المرات، طبعا للأسوأ، لهذا لا نستغرب سوء الطلاب وسلبيتهم؛ لأنه نتاج الغرس السلبي، فكل إناء بما فيه ينضح!

(٢) قال الدكتور في علم النفس التربوي مصطفى أبو سعد، بعد أن تحدث عن أن التعليم السيئ له تأثير في إحداث الأمراض النفسية والعقلية للمتعلمين، وبعد أن ذكر ما يثبت ذلك: (أي أن المرض النفسي سلوك متعلم..

وإننا نتعلم الخوف والوساوس والقلق، بل نتعلم تكوين ارتباطات شرطية خاطئة يمكن أن تؤدي إلى اختلال التفكير أو اضطراب الوجدان.

من هنا.. تؤكد نظريات التعلم وعلم النفس السلوكي أن المرض النفسي هو سلوك خاطئ متعلَّم.

بل إن المرض العقلي أيضا كالفصام بل إن المرض العقلي أيضا كالفصام...» إلخ، كتاب (الأطفال المزعجون) للدكتور مصطفى أبو سعد.

ومشاكل النوم...، وكذلك الحقد والحسد، بل الأمراض الاجتماعية والاقتصادية أيضًا...، وكذلك الأمراض الدينية وهي الأهم وأخطرها (النفاق)، بل قد لا يستطيع تقييم الأمور بنفسه أصلًا فضلًا عن معرفة قيمتها، فتكون قناعته وطاعته رهبة وخوفًا مع الذل، لا فهمًا واقتناعًا ورغبةً وحبًّا، وبهذا ينفذ ما يؤمر به بسبب العقاب، وليس اقتناعًا بجدوى الصواب.

ولله در العالم المسلم ابن خلدون الذي أدرك العلاقة والارتباط القوي بين التربية السلبية القائمة على العنف والقسوة وما ينتج منها من فساد ومسخ لتلك الشخصية.

وبهذا ربط ابن خلدون بين العقاب البدني وبين الشعوب الذليلة وكأنه يتحدث عن التربية الإسلامية في عصرنا الحاضر..

يقول ابن خلدون في المقدمة المشهورة لتاريخه:

«إن إرهاف الحد في التعليم مضرٌّ بالمتعلم سيما في أصاغر الولد لأنه من سوء الملكة.

ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر وضيق على النفس في انبساطها وذهب بنشاطها ودعاه إلى الكسل وحمل على الكذب والخبث وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفًا من انبساط الأيدي بالقهر عليه، وعلمه المكر والخديعة لذلك، وصارت له هذه عادة وخلقًا وفسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمدن وهي الحمية والمدافعة عن نفسه أو منزله. وصار عيالًا (أي: عالة) على غيره في ذلك، بل كسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل، فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيتها، فارتكس وعاد في أسفل السافلين. وهكذا وقع لكل أمة حصلت في قبضة القهر ونال منها العسف واعتبره في كل من يملك إمرة عليه. ولا تكون الملكة الكافلة له رفيقة به. وتجد ذلك فيهم استقراء.

وانظره في اليهود وما حصل بذلك فيهم من خلق السوء، حتى إنهم يوصفون في كل أفق وعصر بالخرج، ومعناه في الاصطلاح المشهور التخابث والكيد وسببه ما قلناه. فينبغي للمعلم في متعلمه والوالد في ولده ألا يستبدوا عليهم في التأديب» انتهى[1].

(١) مقدمة ابن خلدون.

وهنا يرد سؤال مهم وهو: هل ينطبق كلام ابن خلدون على واقعنا؟!

إن من يقرأ كلام ابن خلدون ووصفه لشخصية من تربى على الضرب والإهانة والتحقير والذل والظلم، يحس بقلق من هذه التربية الشائعة في أغلب بلدان المسلمين.

أَنَّى اتَّجَهْتَ إِلَى الإِسْلامِ فِي بَلَدٍ   تَجِدْهُ كَالطَّيْرِ مَقْصُوصًا جَنَاحَاهُ

* * * * *

أثر التربية السلبية على الطالب والمجتمع:

إننا حين نقابل هذا الشخص في الحياة وقد كبر ونما، على هذه الصفة السيئة، نلوم الجميع، وننسى أننا نكرر ذلك العمل كل يوم، فنساهم في زيادة عدد هؤلاء في الحياة ليفسدوها ويذهبوا بكثير من معاني الإيمان والجمال فيها أو يشوهوها، بالعنف الذي وضع فيهم- وهم صغار- ولذلك دعا ابن خلدون إلى الرفق بالمتعلم واجتناب الشدة في تأديبه وتهذيبه.

ولكن ليس كل من تعرض للعنف والقسوة والإهانة والتحقير...، يكون هذا مصيره، فليس ذلك على إطلاقه، فإنك حين تجد من تعرض في تربيته للعنف... ونجا من آثاره، فإنك لابد أن تكتشف أن عوامل أخرى في طفولته أو شبابه واجهت ذلك العنف... فأذهبت آثاره أو قللت منه، ومن أهم تلك العوامل: الإيمان، والعقل، والعلم، والفطرة، و(أم رحيمة).

وقد درج كثير من المعلمين في سالف الأوان على هذا النحو هداهم الله، إضافة إلى حظهم المتواضع في فن التربية والتعليم (أحشفًا وسوء كيلة؟!). فهم مع الأسف لم يقتدوا بالمربي والمعلم الأول صلى الله عليه وسلم، ولم يأخذوا بالمبادئ العلمية للتربية.

ففي مجتمعاتنا ينتهك حق الطالب، وفي المقابل تنكر وتصادر حقوقه الشرعية في الانتصار ممن ظلمه؛ وذلك لأسباب من أهمها: ضعف الطالب، وجهل ولي أمره، وتغاضي بعض الإدارات المدرسية والمعلمين أو إجرامهم.

ولكن في حالات نادرة يفيض الكيل ببعض الطلاب، وكما يقال: (يخرج عن طوره)، فينتقم لنفسه وبطريقته الخاصة، فأحدهم يدخل على المدير ويضربه، وآخر

يضرب المدرس، وآخر يحرق السيارة...، وعند ذلك يصيح الجميع: (أين العدل؟! أين العدل؟!)، (فسد التعليم! فسد التعليم!) يجب (التدخل السريع).. يا سبحان الله! وأين العدل عندما كان صغيرًا، يضرب ويسبّ ويحقر![1] فهل العدل أن يعتدي الكبير على الصغير، والقوي على الضعيف؟![2].

فيقال للمعلم الذي اغتر بقوته وتعاليه واستبداده، وكذلك اغتر بضعف الطالب وهوانه: انتبه! فقد يكون حال بعض الطلاب كما يقول الشاعر:

فَلا يَغْرُرْكَ مِنِّي لِينُ مَسٍّ ... تَرَاهُ فِي دُرُوسٍ وَاقْتِبَاسِ
فَإِنِّي أَسْرَعُ الثَّقَلَيْنِ طُرًّا ... إِلَى خَوْضِ الرَّدَى فِي وَقْتِ بَاسِ

أو كما قال الآخر:

فَلا يَغْرُرْكَ طُولُ الحِلْمِ مِنِّي ... فَمَا أَبَدًا تُصَادِفُنِي حَلِيمَا

ولكن هنا يذهب الخيال بعيدًا، فنذكر اليهود الصهاينة الغاصبين المعتدين حينما يضربون الفلسطينيين المرابطين بالصواريخ والقنابل، فإذا رد عليهم طفل بحجر، أقاموا عليه الدنيا!

إن هذا الكلام ينطبق على الطلاب الشاذين عن القاعدة طبعًا (وهم نادرون) أما البقية- وهم الغالبية العظمى- فقد روضوا على ما يراد منهم فطمست فطرتهم؛ لذلك تجدهم يُنَشَّؤُون لا هوية لهم، وإنما يقوم تفكيرهم على التقليد والتعصب الأعمى.

وعلى هذا، ماذا تتوقع أن يكون رد الفعل ممن ربوا على العسف والقهر والإهانة

---

(١) وبالمناسبة فإن الكثير من المعلمين ينشؤون النقابات والهيئات المدافعة عن حقوقهم ويطالبون بذلك، ولا شك أن هذا من حقهم لأن إعطاءهم حقوقهم من أوجب الواجبات، بل إن في إعطائهم حقوقهم صلاح للتربية والتعليم.

ولكن نتساءل هنا: أين النقابات والهيئات المدافعة عن حقوق الطلاب؟! أم أنهم كالأيتام على موائد اللئام؟! فلا أحد يدافع عنهم ولا عن حقوقهم، ومن هنا ينبغي أن ندعو الجميع وخاصة المصلحين من المعلمين أن يتحملوا هذه الأمانة، فإن هؤلاء الطلاب كما يقال: ضعفاء لا بواكي لهم.

(٢) ولا شك أن هناك أخطاء من الطلاب ولكن الخطأ الأكبر من بعض المعلمين؛ لأن الإحسان يعقبه الإحسان والعكس صحيح، وكما قيل:

أَحْسِنْ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعْبِدْ قُلُوبَهُمُ ... فَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الإِنْسَانَ إِحْسَانُ

والتحقير والظلم وتعودوا عليه واستمرؤوه؟!

المسخ:

إن هذا الطالب قد فسدت معاني إنسانيته وفقد كرامته واحترامه لنفسه قبلا، من جراء الضرب والإهانة والتحقير في البيت والمدرسة سنين طوالا، فلا يرى في العسف والقهر شذوذًا.

لدرجة أن التلاميذ أنفسهم يحضرون العصا من بيوتهم للمعلمين لكي يعقابوهم!

فإذا صاروا كبارًا تسمع أحدهم يقول مفتخرًا ومتباهيًا: لم أكن أجرؤ على النظر في عيني والدي و معلمي، كان لا يكلمني إلا بالعصا أو صفعًا، فيعلق آخر: «هذه هي التربية الصحيحة»! أو يقول الثاني: ما أروع المدرس الفلاني وأشد إخلاصه فلم تكن العصا تنزل من يده، إنه لا يبتسم ولا يتسامح مع أحد!

ويقول آخر: رحم الله أيام زمان، إن التعليم الآن من سيئ إلى أسوأ، لقد كنا في زماننا بمجرد أن ننظر أو نلمح معلمنا في الطريق، نهرب بعيدًا، مع أنا قد نكون ذاهبين لشراء بعض حاجات المنزل! ثم يعقب فيقول: «تلك هي التربية» ويعلق آخر: «رحم الله أيام زمان».

ويقول آخر: ما أحسن ذلك التعليم! لقد كان الطالب لا يرفع عينه أمام المعلم، بل كانوا ينزلون رؤوسهم وعيونهم إلى الأرض!

إن هذه التعليقات هي أشد قبحًا في نظري؛ لأن هذا التفكير الممسوخ يقوم على الجهل بالدين الإسلامي من جهة.

ومن جهة ثانية جهل بحقيقة العزة والكرامة والحق والعدل واللطف والرفق والإحسان- وهذا ما يفتقده الكثير مع الأسف- وكما قيل: فاقد الشيء لا يعطيه؛ لأنه قد لا يحس بهذه المعاني أو لا يعرفها، وفي هذه الحالات خاصة.

يُقْضَى عَلَى المَـرْءِ فِي أَيَّـامِ مِـحْنَتِهِ   حَتَّى يَرَى حَسَنًا مَا لَيْسَ بِالحَسَنِ

ومن جهة ثالثة: الجهل بالعلوم الأخرى؛ كعلم التربية، وعلم النفس، وعلم الاجتماع.

المجتمع الممسوخ:

إذا كبر الطالب وقد استملس جلده فانتكس واختلفت مبادئه فأصبح يرى الرفق والتسامح ضعفًا، ويرى الشدة والعنف قوة، وبهذا تنقلب موازين المجتمع حتى يصبح لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا.

فَوَاعَجَبًا كَمْ يَدَّعِي الفَضْلَ نَاقِصٌ ... وَوَاأَسَفَا كَمْ يُظْهِرُ النَّقْصَ فَاضِلُ
إِذَا وَصَفَ الطَّائِيَّ بِالبُخْلِ مَادِرٌ ... وَعَيَّرَ قُسًّا بِالفَهَاهَةِ بَاقِلُ
وَقَالَ السُّهَى لِلشَّمْسِ أَنْتِ خَفِيَّةٌ ... وَقَالَ الدُّجَى لِلصُّبْحِ لَوْنُكَ حَائِلُ
وَطَاوَلَتِ الأَرْضُ السَّمَاءَ سَفَاهَةً ... وَفَاخَرَتِ الشُّهْبَ الحَصَى وَالجَنَادِلُ

وبهذه الرؤية المنكوسة، يتكون من هؤلاء الأفراد شرائح كبيرة في المجتمع، فتذهب الكرامة ويحل محلها الهمجية، بحيث يصفهم البعض مجتمعاتنا: إنه لا ينفع معهم إلا الشدة، فانقلب حال كثير من المسلمين، فصاروا كالأيتام على مائدة اللئام.

حتى وصل الحال إلى أن قال بعض أعداء المسلمين، يصف كثيرًا من الشعوب الإسلامية: إذا أردتهم أن يحترموك أو تسيطر عليهم أو تتفاهم معهم أو يطيعوك، فإن أحسن طريقة هي أن (تدوس عليهم)، وهكذا يتفننون في وصفهم واحتقارهم؛ فبعضهم يصفونهم بالزنبرك، فيجب عليك أن تستمر بالضغط عليهم بقدمك! أو الوصف بالسجاد الفاخر الذي يتجدد بالمشي عليه! أو الوصف باللؤم!...

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الكَرِيمَ مَلَكْتَهُ ... وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا

فانظر كيف وصل حال المسلمين في نظر أعدائهم؟! بل إن بعض المسلمين يرى هذا الرأي عند وصفه لبعض إخوانه من الشعوب الإسلامية، مع الأسف، بل إن بعضهم يرى أنه وجيله أحقر من أن يتولوا أمورهم بأنفسهم! فهم في نظرهم لا يصلح حالهم إلا مع من يتسلط عليهم ويقودهم، فهم غير مؤهلين أو لا يستأهلون أن يكونوا أحرارًا كغيرهم[1]، والحمد لله على كل حال!

---

(١) وهذه الحالة شبيهة بالعقدة التي تسمى في الثقافة الأمريكية بعقدة «العم توم»؛ وترجع هذه التسمية إلى قصة عبد أسود اسمه «توم» يعمل بتفانٍ في خدمة سيده الأبيض، وكان العبد توم يعارض العبيد السود عندما يطالبون بالثورة على العبودية، وعندما يسألونه عن سبب موقفه =

ولكنَّ هؤلاء المساكين المستضعفين من المسلمين الذين انقلبت أو قلبت فطرتهم وأفكارهم وحالهم حتى صاروا أذلاء لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا، فوصلوا إلى ما وصلوا إليه، ولسان حال الواحد منهم يقول:

أَضَاعُونِي وَأَيَّ فَتًى أَضَاعُوا لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَسِدَادِ ثَغْرِ
وَخَلَّوْنِي وَمُعْتَرَكَ المَنَايَا وَقَدْ شَرَعُوا أَسِنَّتَهُمْ لِنَحْرِي

ولهذا صار حاله بعدما كبر وأصبح في حالة من التخلف لا يقدر على المنافسة أمام الأمم الأخرى، فيقول كما قال الشاعر:

فَلَوْ أَنَّ قَوْمِي أَنْطَقَتْنِي رِمَاحُهُمْ نَطَقْتُ وَلَكِنَّ الرِّمَاحَ أَجَرَّتِ

ويجب تدارك الوقت ، لأنه لا ينفع البكاء على حال الطالب الضحية بعد التقصير في تربيته؛ لأن هذا الطالب الضحية سيقول لمن يبكي عليه:

لا أُلْفِيَنَّكَ بَعْدَ الْمَوْتِ تَنْدُبُنِي وَفِي حَيَاتِيَ مَا زَوَّدْتَنِي زَادِي

وسيأتي الحديث عن قيمة الإنسان في العالم الثالث، وكيف يرى قيمته وقيمة أهله وقيمة لغته، وفي المقابل قيمة الغرب وكيف يراهم.

= الراضي بالعبودية والظلم، كان يجيبهم بأنه لا يتصور الحياة بغير أن يكون عبدًا لسيد أبيض يسيطر عليه، لدرجة أنه يشعر بالخوف من الحرية. فصار الأمريكيون يعيّرون من يرضى بالظلم والخنوع ويخاف من التغيير ويصفونه بأنه مصاب بعقدة «العم توم».

ولهذه العقدة أصل علمي يطلق عليه في علم النفس «متلازمة ستوكهولم»، وكلمة «متلازمة» تعني مجموعة من السمات والأعراض المرضية التي تتلازم وتترافق بعضها مع بعض وتصيب المريض. أما «متلازمة ستوكهولم» أو «مرض ستوكهولم» فهو مصطلح يطلق على بعض الحالات النفسية التي عندما تتعرض للقمع والإذلال أو الاعتداء فإنها تتعاطف مع من أساء إليها، فتتعاون معه أو تخضع له وتظهر له الولاء؛ وهذه التسمية ترجع إلى حادثة وقعت في مدينة ستوكهولم بالسويد في عام ١٩٧٣م وهي أن مجموعة من اللصوص سطوا على بنك واحتجزوا بعض الرهائن لمدة ستة أيام، وخلال تلك المدة نشأت علاقة تعاطف بين الرهائن والجناة، وبعد تحرير الرهائن من اللصوص حدثت المفاجأة؛ وهي أن بعض الرهائن المخطوفين دافعوا عن المختطفين!

وتتلخص هذه الحالة في أن المظلوم يكون أمام طريقين: إما ألا يرضى بالظلم فيستمر في الدفاع حتى يتحرر منه، أو أن يستسلم فيهرب من إحساسه المؤلم بأن يتوحد نفسيًّا مع الجلاد ويخضع له ويتعاطف معه.

ولا شك أن هذا ينطبق على الطلاب الذين يتعرضون للاستبداد ويحملون هذه العقدة في حياتهم.

ولو استرسلنا لتحدثنا عن قيمة الدين في نفوس الكثيرين، بل قيمة الآيات والأحاديث، حيث زهد فيها الكثير من الناس أو ملوها والعياذ بالله؛ وذلك لأسباب كثيرة؛ منها: إفراغها من محتواها، أو تشويهها- كما شوهت التربية النبوية؛ كالضرب مثلا- وكذلك سوء عرضها؛ مثل كثرة كلام المعلمين، وكذلك كلام الخطباء، حتى أطال كثير من الخطباء في خطبة صلاة الجمعة، مع أنهم يعلمون أن السنة تقصير الخطبة![1]، ولكن الكلام المفرغ أو الفارغ يغلب على الكثيرين بسبب التربية السيئة وعدم اتباع السنة، فأصبحوا كما قال أحد الضالين الزاهدين في الدين: «العرب ظاهرة صوتية»، وسيأتي الحديث عن كثرة كلام المعلمين.

* * *

(١) روى مسلم في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ طُولَ صَلَاةِ الرَّجُلِ وَقِصَرَ خُطْبَتِهِ مَئِنَّةٌ مِنْ فِقْهِهِ؛ فَأَطِيلُوا الصَّلَاةَ وَاقْصُرُوا الْخُطْبَةَ، وَإِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا». وفي كتاب (إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة)، قال الشيخ حمود التويجري رحمه الله تعالى: «صار كثير من الأئمة يطيلون الخطب يوم الجمعة والعيدين بثرثرة لا طائل تحتها ولا فائدة في كثير منها، وربما مكث بعضهم في خطبته نصف ساعة أو أكثر من ذلك» انتهى.

وقال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه على المنبر: «أيها الناس، لا تبغضوا الله عز وجل إلى عباده» فقال قائل: وكيف ذلك أصلحك الله؟ قال: «يجلس أحدكم قاصا فيطول على الناس حتى يبغض إليهم ما هم فيه، ويقوم أحدكم إماما فيطول على الناس حتى يبغض إليهم ما هم فيه» انتهى، كتاب المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي.

كل إناء بما فيه ينضح:

ولكن مع هذا التخلف والتدهور (المتراكم) في التربية و التعليم، تسمع الإعجاب بذلك، لدرجة أن البعض يتبناه، بل يدافع عنه!

فتجد هذا الجاهل المركب يحاجُّ ويجادل ويتعصب ويستشهد بأبيات من الشعر وبعض القصص، وقد يلجأ لتقوية موقفه فيقحم بعض الآيات والأحاديث بعد أن يلوي أعناقها أو يحاول تأويلها لتأييد قوله، وقد يأتي بمقولة للشيخ الفلاني في الكتاب العلاني، ولكن إذا أرجعته للأدلة الواضحة الصريحة من الكتاب والسنة، وجدته لا يدري أنه جاهل، وهذا هو الجهل المركب[١].

جَهِلْتَ وَلا تَـدْرِي بِـأَنَّـكَ جَاهِلٌ   فَمَنْ لِي بِـأَنْ تَـدْرِي بِأَنَّكَ لا تَدْرِي

وقديمًا قيل: «إن فاقد الشيء لا يعطيه».

الخلاصة: إذا دققت في هذه الأقوال المتهافتة، وجدتها مجموعة من العادات والتقاليد البالية والعقد الذاتية والجهالات المتراكمة والتبريرات السقيمة، والحيل

---

(١) الجهل ضد العلم؛ وهو على قسمين:
الأول: جهل بسيط؛ وهو عدم العلم مطلقًا.
والثاني: جهل مركب؛ وهو أن يعتقد أنه عالم مع أنه جاهل.
مثال: السؤال عن صلاة المرأة الحائض هل تصلي أم لا؟
الأول: الجاهل البسيط، سيقول: (لا أعلم)، وهذا يسهل تعليمه.
الثاني: الجاهل المركب، سيقول: (تصلي)؛ يعني أنه جاهل، ولكن لا يعلم أنه جاهل.
ولا شك أن القسم الثاني من الجهل أشد خطورة؛ لأنه لا يعلم ولكنه يتصور أنه يعلم، وعلى هذا الأساس يعتقد أنه على حق فيستمر على جهله، فيحتاج إلى جهد أكبر لتغيير هذا الاعتقاد، خاصة إذا خالط هذا الاعتقاد متكبر أو كبير أو متعصب أو معاند... أو كان معه من يؤيده.
قال الشاعر:
لَـمَّا جَهِلْـتَ جَهِلْـتَ أَنَّـكَ جَاهِلٌ   جَهْـلًا وَجَهْـلُ الجَهْـلِ دَاءٌ مُعْضَلُ
وقال أحد العلماء: الناس أربعة: أولهم: عالم، ويدري أنه عالم؛ فهذا كامل فسودوه. الثاني: عالم، ولا يدري أنه عالم؛ فهذا غافل فنبهوه. الثالث: جاهل، ويدري أنه جاهل؛ فهذا مسترشد فأرشدوه. الرابع: جاهل، ولا يدري أنه جاهل؛ فهذا مائق فاتركوه.
فنعوذ بالله تعالى من الجهل بجميع أنواعه، ونعوذ بالله من أن نجهل أو يجهل علينا.

النفسية والإسقاطات...، وأخيرًا الفهم الخاطئ للعلم بمعناه الواسع وعلى رأسه العلم الشرعي الذي ترجع إليه جميع العلوم، وفي هذه المسألة خاصة.

ومع شديد الأسف، إذا أسيء فهم العلم الأساسي وهو الشرعي، فإن إساءة فهم غيره تكون أحرى، فيصدق عليه قول الشاعر:

إِذَا سَاءَ فِعْلُ المَرْءِ سَاءَتْ ظُنُونُهُ ... وَصَدَّقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوَهُّمِ

وَعَادَى مُحِبِّيهِ بِقَوْلِ عُدَاتِهِ ... وَأَصْبَحَ فِي لَيْلٍ مِنَ الشَّكِّ مُظْلِمِ

وما ظنك بنتائج هذه التربية السيئة- بسبب البعض- لهذا الجيل، الذي يمثل مستقبل الأمة الإسلامية؟! وما مكانة أمتنا الإسلامية بين الأمم؟! وماذا تنتج؟! وما درجتها في البحث العلمي، والاختراعات، والزراعة، والصناعة، والطب، والإعلام، وغزو الفضاء...؟!

وَجُرْمٍ جَرَّهُ سُفَهَاءُ قَوْمٍ ... وَحَلَّ بِغَيْرِ جَارِمِهِ العَذَابُ

يقول الأديب العالمي تولستوي[1]: «يكفي محمدًا فخرًا أنه خلص أمة ذليلة دموية من مخالب شياطين العادات الذميمة، وفتح على وجوههم طريق الرقي والتقدم، وأن شريعة محمد، ستسود العالم لانسجامها مع العقل والحكمة».

لهذا يقال للمعلمين المصلحين: خلصوا هذه المجتمعات الذليلة من مخالب شياطين العادات الذميمة، كما خلصها معلم البشرية صلى الله عليه وسلم، ولا تلتفتوا لحججهم الواهية، ولو ألبسها البعض لباس الدين؛ لهذا فلنوقف عمليات الاستغلال باسم التعليم وضرب الطلاب والمعاملة الدونية والإساءة لهم والاستبداد...

وبإذن الله تعالى، فإنا بالانطلاق من النبع الصافي مدرسة الحبيب صلى الله عليه وسلم، سنسود العالم بهذا الدين السمح الذي ينسجم مع العقل والحكمة.



(١) ليو تولستوي: الأديب الروسي العالمي المشهور، يعده البعض أعظم الروائيين ١٨٢٨م- ١٩١٠م.

الباب الثالث
الضرب





الباب الثالث

الضرب

سيكون عرض هذا الموضوع بطريقة واضحة تحقق الهدف إن شاء الله، بعيدًا عن التأصيل المبالغ فيه[1]؛ فالضرب معروف، وكذلك القسوة والعقاب بنوعيه (المادي والمعنوي).

فالضرب قضية خاض فيها الناس بما فيهم (المربّون) ولكن لا يخفى أن الأغلبية في العالم الإسلامي- مع الأسف- هم ممن يؤيد الضرب، وعلى هذا الأساس يلبس عليها لباس دينيًّا (غطاءً شرعيًّا)، بل يدعي الكثير أن ذلك من السنة! أي: أن ضرب الطلاب من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم!

ولكن إذا ناقشت أحدهم في شرعية الضرب بدأ يخوض في كتاب الله عز وجل، وكذلك في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيلوي أعناق الآيات حينًا، ويقيس قياساتٍ فاسدةً أحيانًا أخرى، وهكذا حتى يجعل الأمر المبني على تخلفه وجهله وتراثه، من دين الله سبحانه وتعالى، بل يزعم أن الدين يحث على ضرب الطلاب!

ولبيان هذه المسألة وتجليتها، نلقي نظرة سريعة على بعض هذه الحجج أو الشبه

---

(١) مثل تعريف الضرب للفيروزآبادي في (القاموس المحيط): «(ضربه): يضربه، وضربه وهو ضارب وضريب وضروب وضرب ومضرب كثيره ومضروب وضريب، والمضرب والمضراب ما ضرب به».

ولابن منظور في "لسان العرب" قال: «ضربه بيده وبالعصا ونحوها يضربه ضربا: أصابه وصدمه بها. وبالسوط: جلده. وبالسيف: أوقع به. وأصل معنى الضرب: إيقاع شيء على شيء. وباقي المعاني متفرع منه...».

ولكن العاقل يعجب أن ينزل الإنسان عن مستوى التعامل بالعقل والمنطق الذي ميزه الله به عن غيره، إلى مستوى تعامل الحيوان الذي يفقد العقل والمنطق، فيتعامل بالاعتداء على الجسم، والأدهى أن ينزل إلى مستوى الحيوان بحجة التربية! بل يكفي الإحساس بفظاعة اعتداء جسم شخص على جسم شخص آخر محترم.

أو التبريرات، ونرد عليها باختصار، ثم بعد ذلك نبين السنة الطاهرة المطهرة التي يجب اتباعها، ونكشف ما علق بها من تشويه. ثم نبين جوانب الرحمة والرفق في منهج الرسول صلى الله عليه وسلم وموقفه من الضرب، وكيف تعامل مع الأطفال وغيرهم، ثم الموقف العام من العقاب والقسوة والآثار المترتبة عليه، وأقوال المختصين في ذلك المجال، ولبيان قيمة الإنسان في الإسلام، سنبين لمن يجهله قيمة الحيوان لكي يقارن بينهما، ومن ثم نبين قيمة الإنسان في العالم الإسلامي.

هل يُضرَب المعلمون؟!

قبل أن نبدأ بمناقشة أوضح الأخطاء التربوية وأبرزها في العالم الإسلامي، والتي تنسب للدين والدين منها بريء، وهي ضرب الطلاب، سنورد هذا السؤال: من الأولى أن يضرب تأديبًا الطلاب أو المعلمون؟

إنا لن نناقش مسألة ضرب المعلمين على أخطائهم وتقصيرهم، مع أن مسؤوليتهم أعظم، خاصة أنهم مكلفون يتحملون خطأهم وتقصيرهم. فالكبير يضرب على أخطائه أو تقصيره في حق الصغير، ومثال على ذلك: قول شيخ الإسلام ابن تيمية:

«ومن كان عنده صغير مملوك أو يتيم أو ولد، فلم يأمره بالصلاة، فإنه يعاقب الكبير إذا لم يأمر الصغير، ويعزر الكبير على ذلك تعزيرًا بليغًا؛ لأنه عصى الله ورسوله» انتهى[1].

لهذا ينبغي أن نطرح هذا السؤال: متى نضرب الآباء والمعلمين على أخطائهم وتقصيرهم؟[2].

وقد يكون هذا السؤال أهم بكثير من: هل يُضرب الأطفال؟!

فتخيل لو ضربنا المعلمين والمديرين المقصرين، كم سينجو منهم من الضرب؟!

ولكن مع هذا سنناقش ضرب الطلاب الضعفاء المساكين فقط.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية.

(٢) ويدخل معهم الموظفون والقضاة والأطباء والمهندسون...

حجج القائلين بالضرب:

يحتج المبررون والمبيحون للضرب بحجتين رئيسيتين؛ هما: (الضرب على الصلاة)، و(الترخيص في ضرب الزوجة)، وسنبين الأدلة في ذلك:

الحجة الأولى: الضرب للصلاة!

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مُرُوا أَوْلادَكُمْ بِالصَّلاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرِ سِنِينَ وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي المَضَاجِعِ»[١].

الحجة الثانية: ضرب الزوجة!

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾[٢].

وخارج هذين المجالين (الضرب للصلاة، وضرب الزوجة)، لا نعلم تشريعًا يبيح استعمال الضرب في التربية والتعليم؛ لأن الأصل في الضرب أنه محظور[٣]. وهناك قصص قديمة وحديثة وأشعار تحث على الضرب؛ مثل قول الشاعر:

لَا تَنْدَمَنَّ عَلَى الصِّبْيَانِ إِنْ ضُرِبُوا فَالضَّرْبُ يَبْرَا وَيَبْقَى العِلْمُ وَالأَدَبُ

فيقال: بل قد يكون العكس هو الصحيح[٤]. وعمومًا نحن لا نأخذ مبادئنا من الأشعار والقصص، بل من الكتاب والسنة ونستنير بأقوال علماء السلف والمتخصصين.

لهذا لن نترك تربية الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ونبحث عما يناقضها،

---

(١) صححه الألباني.

(٢) سورة النساء، الآية: (٣٤).

(٣) أما إقامة الحدود والتعزير، فإنهما لا يشتملان على الضرب فقط، بل يصلان للقتل وغيره، وهذا لا يخص المعلمين، وإنما هو من اختصاص القضاة فلن نناقشه.

(٤) يقول رجل جاوز الخمسين من عمره: ضربوني في أول سنة دراسية حتى تبولت على نفسي و...، وعندما سألته عن السبب؟ قال: لا أذكر السبب، مع العلم أنه لم يكمل دراسته!

فنفتح كتب التاريخ والأدب ونأخذ ما هب ودب، ونطبقه على أبنائنا، فهم ليسوا رخيصين لهذه الدرجة، وليسوا فئرانًا في مختبر تجارب، بل هم أبناء الإسلام، بل هم المسلمون، فلن نرضى لهم بغير تربية رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعلى هذا الأساس سنناقش - إن شاء الله تعالى - هاتين الحجتين، ووجه الاستدلال بهما، والرد عليهما وتفنيدهما.

* * *

الرد على حجج القائلين بالضرب:

الرد على الحجة الأولى:

وهي قولهم: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بضرب الأطفال![١]؛ والدليل: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرِ سِنِينَ».

ولا يخفى على المحققين، أن للعلماء ثلاثة أقوال في هذا الحديث:

القول الأول:

أ- الطعن في صحة هذا الحديث[٢].

ب- القول بأن الرسول صلى الله عليه وسلم، لا يأمر بالضرب بشكل عام، فكيف يأمر بضرب الأطفال.

واستدلوا على ذلك بآيات وأحاديث[٣].

القول الثاني: التوسع في قضية الضرب من خلال هذا الحديث؛ حيث قالوا بإطلاق الضرب على الصلاة وغيرها، وعلى الابن وغيره، وعلى الصغير والكبير (من غير قيود).

القول الثالث: تقييد الضرب في هذا الحديث، بالضرب على الصلاة فقط، وعند سن العاشرة، وللأولاد، وهو القول الراجح.

وأنا هنا لا أحلل ولا أحرم، فهذا أمر اختص به جبار السموات والأرض وحده لا شريك له، العليم الحكيم اللطيف الخبير سبحانه وتعالى.

---

(١) أعلم بشاعة هذا الكلام، ولكن كتبته لبيان بشاعة هذه الحجة.

(٢) كالعقيلي؛ قال عنه الذهبي: «الإمام الحافظ الناقد أبو جعفر، محمد بن عمرو بن موسى ابن حماد، العقيلي الحجازي، مصنف كتاب الضعفاء. قال القاضي أبو الحسن بن القطان الفاسي: أبو جعفر العقيلي ثقة، جليل القدر، عالم بالحديث، مقدم في الحفظ. قال: وتوفي سنة اثنتين وعشرين وثلاثمئة» كتاب "سير أعلام النبلاء" للذهبي.

(٣) ولن نناقش هذا القول؛ للاختصار ولعدم وجاهته، ولعدم انتشاره بين الناس.

ولكني أجتهد وأناقشه من الناحية التربوية، وتوكلي واعتمادي على الله وحده.

وسنناقش القول الثاني لكثرة القائلين به، الذي يرى أن الحديث يأمر أو يحث أو يبيح الضرب على غير الصلاة.

لهذا يجب أن نبين ثلاث مسائل في هذا القول؛ وهي:

١- الضرب على غير الصلاة.

٢- الضرب قبل العاشرة.

٣- ضرب غير الأولاد.

المسألة الأولى: الضرب على غير الصلاة:

إن هذا الحديث الشريف يبين أن الضرب في أمر مهم جدًّا، وهي الصلاة التي هي الركن الثاني من أركان الإسلام، وهي عمود الإسلام، والذي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالكُفْرِ تَرْكَ الصَّلاةِ»[(١)].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «العَهْدُ الذي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»[(٢)].

ومن المعلوم أن مسألة الحكم بكفر تارك الصلاة مسألة خلافية، وكذلك من المعلوم أن أي مسلم يترك الصلاة يعاقب باتفاق المسلمين؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وتارك الصلاة مستحق للعقوبة حتى يصلي باتفاق المسلمين؛ بل إذا لم يصل قتل»انتهى[(٣)].

وهنا ملاحظة جديرة بالتأمل؛ وهي: أن الطفل قبل سن العاشرة يؤمر فقط بالصلاة ولا يضرب، أما الكبير فيقتل، فتأمّل فيمن يأمر بضرب الأطفال قبل سن العاشرة، وعلى غير الصلاة!

فالضرب خاص بالصلاة فقط، ولا يضرب الطفل على الصيام على أهميته، ولا

---

(١) صحيح مسلم.

(٢) صححه الألباني.

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية.

على ما دون الصيام ولا على الكذب لعظمه [١]... بل إن بعض العلماء قد حرم ضرب الأطفال استنباطًا من الحديث الشريف؛ لأن نص الشريعة على جواز ضرب الأولاد لتعليم الصلاة يفهم منه عدم جواز ضربهم لأي سبب آخر، وذلك استنباط ذكي دقيق نابع من فقه هذه المسألة. فإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأذن بضرب الطفل قبل سن العاشرة على التقصير في عمود الدين وأساسه، فمن باب أولى عدم جواز الضرب في غيرها.

المسألة الثانية: الضرب قبل العاشرة:

وكذلك لا يضرب على الصلاة إلا بعد الأمر بها ثلاث سنوات، السابعة والثامنة والتاسعة، ثم في العاشرة يكون الضرب على ترك الصلاة.

ولكن المبررين، يضربون على غير الصلاة من الغد أو في نفس الساعة.

وكذلك الأمر بالضرب على الصلاة وهم أبناء عشر، ولكن المبررين يضربون قبل العاشرة، بل قد يضربون قبل السابعة، قياسًا على الصلاة، بزعمهم!

ولكن إذا سلمنا ووافقنا على هذا القياس، فإن تارك الصلاة يقتل بعد البلوغ!

فعلى قياس المبررين باستعمال الضرب قياسًا على الصلاة، فهل يشرعون استعمال القتل بعد البلوغ، أي: القتل في المرحلة المتوسطة والمرحلة الثانوية والجامعية وما بعدها؟!

فعلى هذا الأساس نقول: هل نطالب باستخدام الضرب في المدارس بعد العاشرة، والقتل بعد البلوغ في المدارس والجامعات، بل الضرب لمن يحضر للدراسات العليا؟!

فنلاحظ هنا أنه ينبغي أن نهتم بهذا الحديث، دراسة وتفقهًا وبحثًا، وذلك في جميع جوانبه (رواية ودراية).

فالمسألة تخص أبناء الأمة الإسلامية؛ فلهذا ينبغي أن تعطى أهمية أكبر من بعض المسائل الثانوية (غير الهامة في حياة المسلمين)، التي تؤلف فيها الكتب وتحضر فيها

---

(١) عن أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت عن تربية الرسول صلى الله عليه وسلم: «كان إذا اطلع على أحد من أهل بيته كذب كذبة لم يزل معرضًا عنه حتى يحدث توبة» صححه الألباني.

الرسائل العلمية!

فهنا مثلا: إذا تأملنا وفكرنا قليلا في أمر الطفل للصلاة قبل ضربه عليها في عامه العاشر، فإنه سيتبين لنا جوانب تربوية عظيمة في هذا الحديث الشريف (بما فيه من جوانب البرمجة العصبية)، وهي أن الأب إذا استمر بأمر ولده ثلاث سنين بالصلاة؛ من السابعة إلى العاشرة؛ ففي كل يوم خمس صلوات، والسنة نحو ٣٦٠ يومًا، فإذا ضربنا ٥ × ٣٦٠ كان الناتج ١٨٠٠ مرة، فإذا ضربنا ١٨٠٠ × ٣ وهي السنوات بين السابعة والعاشرة، كان الناتج ٥٤٠٠ أمر بالصلاة، فعند ذلك لا شك أن الولد سيصلي بإذن الله تعالى، فثلاث سنوات كافية للبرمجة الإيجابية؛ لأن هذا العدد الهائل من التكرار يعد كافيًا بشكل كبير لبرمجة الطفل على إقامة الصلاة اعتقادًا وممارسة.

بل قد يصلي قبل السابعة، وبلا أمر (كما هو ملاحظ).

ولكن لو شذ ولد بسبب ظروف معينة ولم يصل، واجتهد الوالد الحنون الرفيق، بأمر ولده بالصلاة ٥٤٠٠ مرة، واستعمل الطرق التربوية المناسبة، وبعد هذا كله لم يصل، فإن الولد أثبت بعناده أنه يستحق التأديب بالضرب، وتكون هذه العقوبة منقذة له من خطر عظيم جدًّا، ألا وهو ترك الصلاة الذي يقوده إلى المهالك، التي قد تؤدي به إلى جهنم والعياذ بالله.

وهنا نتنبه عند ضرب ابن العاشرة، إلى أن هذا الضرب ينبغي أن يكون غير مبرح، وأن يكون بعد أن يهدأ الإنسان من سَوْرَة الغضب[١] حتى يكون أداة تربوية دعوية تفيض إيمانًا هدفها الإصلاح، لا انتقامًا ولا تنفيسًا عن الغضب، بحيث نطلق العنان فنضرب بعنف بعيدًا عن الدين!

فعلى الرغم من إجازة الضرب في هذه الحالة النادرة، فإن الشرع المطهر جعل لها آدابًا؛ كالرفق واللين... وقد بين الله عز وجل ذلك حتى مع فرعون الذي قال: أنا ربكم الأعلى؛ قال الله تعالى: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[٢].

(١) سَورة الغضب؛ أي: حِدَّته.

(٢) سورة طه، الآيتان: (٤٣) و(٤٤).

وعن حسن الدعوة، قال الحكيم اللطيف الخبير: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[1].

فإذا كان اللين و الحكمة والموعظة الحسنة مع فرعون والكفار والمشركين، فكيف مع ابنك ذي السنوات العشر، فالحمد لله العظيم الحكيم اللطيف البر الرحيم.

المسألة الثالثة: الضرب لغير الأولاد:

وهذه واضحة في قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «أَوْلَادَكُمْ» ولم يقل: أولاد الناس، أو أولاد المسلمين، أو الأولاد.

ولكن إذا غالط أحد وأدخل المعلمين في الضرب، قلنا: ما رأيك في تكملة الحديث: «وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي المَضَاجِعِ»؛ هل يدخل المعلمون في ذلك؟! وهل دخول الطفل في المدرسة لكي يتعلم، مبرر لضربه؟! لأنه من غير الممكن ضرب أولاد الناس في الشارع[2].

وهنا ينبغي أن نلاحظ أن ضرب الأب الحنون الرحيم لأولاده (في أمر الصلاة)، يختلف عن ضرب غيره، فالعاطفة الأبوية والشفقة الفطرية تجعل الضرب منضبطًا بضابط التربية والتقويم.

أما غير الوالد، فإنه يتأثر أكثر بحالات الغضب والضجر والضيق والبغض والانتقام والحماس....

وقد يكون بعض الناس مصابًا بأمراض نفسية؛ مثل: (السادية) وهي التلذذ بتعذيب الآخرين.

ومن الجانب الآخر، فإن تقبل الابن لضرب أبيه يختلف عن تقبله لضرب غيره؛ لأنه يتقبل من أبيه ما لا يتقبل من الناس، وهذا يرجع لأسباب كثيرة، وهذا مما يشعره

(١) سورة النحل، الآية: (١٢٥).

(٢) لو ابتعدنا عما تعودنا عليه، وتخيلنا بشاعة أن يعتدي إنسان على جسم إنسان آخر، لكان في هذا منجاة من هذه الهمجية المتوحشة المقيتة.

بالذل والإهانة... ومن ثم ينمي عنده روح الانتقام والعناد....

وباختصار وبشكل عام: نعلم أنه لا يوجد أحد يريد الخير للولد مثل والديه.

وَإِنَّمَا أَوْلادُنَا بَيْنَنَا أَكْبَادُنَا تَمْشِي عَلَى الأَرْضِ
لَوْ هَبَّتِ الرِّيحُ عَلَى بَعْضِهِمْ لامْتَنَعَتْ عَيْنِي عَنِ الغَمْضِ

وختامًا نلاحظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ربط الضرب بالصلاة، وبالعمر، وبالآباء، ولكن البعض انتقى الضرب وضرب بالباقي عُرض الحائط: (الصلاة)، و(العمر)، و(الآباء)؛ وكذلك (مدة النصح)!

فلمن نسمع ونطيع ونتبع؟!

يَقُولُونَ أَقْوَالًا وَلا يَعْلَمُونَهَا وَلَوْ قِيلَ هَاتُوا حَقِّقُوا لَمْ يُحَقِّقُوا

* * *

الرد على الحجة الثانية:

الحجة الثانية لضرب الأطفال هي: ضرب الزوجة للتأديب!

نقول: حجج، مع أنها كما قيل فيها:

حُجَجٌ تَهَافَتُ كَالزُّجَاجِ تِخَالُهَا حَقًّا وَكُلٌّ كَاسِرٌ مَكْسُورُ

وحجتهم أن الله سبحانه وتعالى شرع عقاب الضرب في القرآن الكريم في حق الزوجة.

فنقول لهم: كذلك شرع الله سبحانه وتعالى عقاب قطع اليد والرجم والقتل...، فلم لا يستعمل ذلك في المدارس؟!

ونتساءل: إذا كان دليل ضرب الزوجة، الذي احتج به البعض، ثم طبقه بعد ذلك (وبلا دليل) على الأطفال أو الأولاد أو الطلاب، فلماذا لا يطبقه على الكبار كالإخوان والمعلمين وغيرهم؟! بل يضرب من هم في عمر الزوجة لكي يكون القياس أقرب للدقة!.

قد تكون الإجابة هي: بسبب ضعف الأطفال، أو جهل الكبار، أو كليهما!

لأنه يرد سؤال وهو: ما دخل ضرب الزوجة بضرب الطلاب؟! أم هي أهواء

وتأليف أحكام؟![1].

وكذلك نتساءل: إذا كان القياس في هذه الآية يطبق على الطلاب، فهل يجري أيضًا هذا القياس على طلاب الابتدائي أو المتوسط أو الثانوي أو الجامعي أو الماجستير أو الدكتوراه...! أما إذا كان المقصود مجرد كلمة (الضرب) في القرآن الكريم، فقد وردت تلك الكلمة في القرآن الكريم كثيرًا مثل: ضرب الحجر، والرقاب...، وكذلك الضرب في الأرض وفي سبيل الله...!

وهنا نرى أن الكثير ممن يقول باستخدام الضرب أو الإهانة، يستشهد بنصوص في غير موضعها، أو يحمل الآيات والأحاديث أكثر مما تحتمل، أو يجزئ نصوصًا أخرى فيأخذ منها ما يريد ويترك ما لا يتماشى مع حججه.

فماذا نقول فيمن يتمسك بكلام معين ويترك باقي المعنى، مثل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[2]، أو قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ﴾[3]؟!

نسأل الله سبحانه أن يهدينا جميعًا لقول الحق والعمل به.

قال الشيخ سلمان العودة جزاه الله خيرًا: «من الوسطية فهم الدين في أصوله وفروعه وأحكامه على أنه دين ميسر متوافق مع طبيعة الناس متوافق مع الفطرة.

إن من الناس مَن قد يكون عنده شدة في أخذ هذا الدين ولا يكفيه القدر المعتدل، فيقول النبي عليه السلام: «لَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إلا غَلَبَهُ»، يعمل على أن يشد هذا الدين بقوة خارج المعتاد.

إن المشادة في الدين أن يأخذ بعض الناس نصًّا من النصوص القرآنية أو نصًّا من النصوص النبوية، وكأنه لم يأت عن الله أو عن الرسول صلى الله عليه وسلم شيء إلا

---

(١) بل إن البعض يرى أن تعليق السوط للأهل، حجة بل دليل لضرب الأولاد (على غير الصلاة) بل والطلاب بشكل عام!

(٢) سورة النساء، الآية: (٤٣).

(٣) سورة الماعون، الآية: (٤).

هذا النص، فيعتني به ويتكئ عليه، ويكرره مرة بعد أخرى، حتى يغلب عليه هذا النص، وربما جعل في النص معاني لم يردها الله عز وجل، ولم يردها النبي صلى الله عليه وسلم.

إنني أشعر أن سمعة الإسلام في خطر حتى عند المسلمين فضلا عن غير المسلمين، بأمس الحاجة أن يقدم الصورة الإيجابية الصحيحة لا نريد أن يقدم الإسلام بصورة خارجة عن ذاته، وإنما نريد أن نقدم الإسلام بصورة الإسلام التي بعث عليها الرسول صلى الله عليه وسلم دون أن نسمح لمبرراتنا الخاصة أن تؤثر في هذه الصورة، نحن نجد أن نبينا محمدًا عليه أفضل الصلاة والسلام عندما اقترح عليه بعض الصحابة مثل عمر بن الخطاب أن يقتل المنافقين الذين ظهر نفاقهم ومؤامراتهم على الإسلام والمسلمين، كان النبي عليه السلام يرفض ذلك ويقول: «لَا؛ لَا يَتَحَدَّث النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»، المقصود بالناس هنا غير المسلمين أو زعماء الإيمان، أو المنافقون الذين ينتظرون أي فرصة حتى يشوهوا صورة الإسلام، ومن هنا أقول: يجب علينا أن نقوم بالدعوة لله سبحانه وتعالى وتقديم الصورة الصحيحة للإسلام صورة الأخلاق الفاضلة صورة العدالة صورة الهدوء والعدل.

يجب أن نتذكر في نهاية هذه الكلمة قول الله عز وجل: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[(١)]» انتهى[(٢)].

قال الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: «إن الفقه الإسلامي كما قدمه سلفنا خلق حضارة معجزة، أما الفقه الإسلامي كما يقدمه البعض الآن فهو يميت ولا يحيي» انتهى[(٣)].

ضرب الزوجة:

لا يخفي على الجميع - وعلى المربين بشكل خاص - ما للخلافات الزوجية من الأثر الكبير في تدمير نفسية الأولاد، بل إضاعة مستقبلهم، ولأن الزوج هو المسؤول عن قيادة الأسرة، فينبغي أن نفهم تلك المسؤولية بعيدًا عن التسلط ونفهم كيفية التعامل مع

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: (٢١).

(٢) منقول باختصار من الإسلام اليوم.

(٣) كتاب "السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث" لمحمد الغزالي.

الزوجة وخاصة في مسألة ضربها الذي أساء استخدامه البعض، وكذلك استغله أعداء الإسلام في محاولة تشويه هذا الدين العظيم الذي ارتضاه الله تبارك وتعالى لعباده، لهذا سنذكر ببعض ما يجهله البعض.

إن كثيرًا من الناس يتعاملون مع المرأة بين إفراط وتفريط، أما العبد المسلم فينبغي أن يكون وقّافًا عند حدود الله سبحانه وتعالى ولا يتأثر بما يقع فيه البعض، والذين هم على طرفي نقيض، وهم على النحو التالي:

الأول: ينفي الضرب على الإطلاق، أو يكون في نفسه حرج منه.

وهذا بلا شك على خطر في دينه، فمن المعلوم أن من لم يؤمن بشيء من القرآن الكريم يعتبر كافرًا.

والثاني: يطلق العنان في مسألة الضرب.

فيفرح بضرب الزوجة على الإطلاق، ويرى ذلك سنة، وهذا قد يكون راجعًا لجهله أو لاستغلال قوته وضعف المرأة، فيطلق العنان لنزواته وأهوائه وما ترسب من أفكاره.

بل قد يرى أن ذلك من مكارم الأخلاق أو من الرجولة، مع أن حبيبنا ومعلمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عمن يضرب زوجته: «لَيْسَ أُولَئِكَ بِخِيَارِكُمْ»[1].

فينبغي أن يعلم أن ضرب الزوجة علاج فقط، وعلى مبدأ «أن آخر الدواء الكي»، وأن له آدابًا؛ مثل: أن يكون غير مبرح، وألا يكون في الوجه، وألا يقبح، ولا يكون الضرب إلا في قضية النشوز فقط[2]، ويكون بعد الوعظ، وبعد الهجر، ومع كل هذا فإن من يضرب ليس من خيار الناس.

ويبين الله سبحانه وتعالى في بقية الآية أنه لا سبيل عليهن بعد ذلك؛ فيقول: ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾.

---

(١) صححه الألباني.

(٢) قال ابن كثير في تفسيره: «والنشوز هو الارتفاع، فالمرأة الناشز هي المرتفعة على زوجها التاركة لأمره المعرضة عنه المبغضة له».



وكذلك يبين الله سبحانه وتعالى في آخر الآية أن العلو والكبر لله عز وجل، ونستنبط من ذلك أن العبد ينبغي عليه ألا يستغل ذلك فيتعالى أو يتكبر؛ لأن ذلك للخالق سبحانه وتعالى الذي قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾.

والضرب في هذه الآية هو ضرب التأديب غير المبرح، فهو استثناء من الأصل، وفي الحديث: «لا يَضْرِبُ خِيَارُكُمْ».

والضرب إنما أبيح حين يكون فيه صلاح الزوجة واستقامتها من أجل أن تستقيم الحياة الزوجية وحفظها من التفكك والضياع.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تَضْرِبُوا إِمَاءَ الله»، فجاء عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ذَئِرْنَ النساءُ على أزواجِهن! فرَخص في ضربهن، فأطاف بآل رسول الله صلى الله عليه وسلم نساء كثير يشكون أزواجهن، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لَقَدْ طَافَ بِآلِ مُحَمَّدٍ نِسَاءٌ كَثِيرٌ يَشْكُونَ أَزْوَاجَهُنَّ، لَيْسَ أُولَئِكَ بِخِيَارِكُمْ»[1].

قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: «فجعل لهم الضرب، وجعل لهم العفو، وأخبر أن الخيار ترك الضرب»، وقال رحمه الله تعالى: «ولو ترك الضرب كان أحب إلي؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «لَنْ يَضْرِبَ خِيَارُكُمْ»» انتهى[2].

والترفع عن الضرب أفضل وأكمل؛ لحال النبي صلى الله عليه وسلم، فإنه ما ضرب امرأة قط، ولإبقاء المودة والحب والمشاعر المتبادلة.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «بِمَ يَضْرِبُ أَحَدُكُمُ امْرَأَتَهُ ضَرْبَ الفَحْلِ، ثُمَّ لَعَلَّهُ يُعَانِقُهَا»[3].

قال شريح القاضي[4] رحمه الله تعالى:

---

(١) صححه الألباني. و«ذئرن»: أي نشزن عليهم واجترأن؛ يقال: ذئرت المرأة تذأر، فهي ذئر وذائر: أي: ناشز. كتاب (النهاية في غريب الحديث) لابن الأثير.

(٢) كتاب (الأم) للشافعي.

(٣) صحيح البخاري.

(٤) القاضي الفقيه المحدث الشاعر، ولاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قضاء الكوفة، وقيل: إنه أقام على قضائها ستين سنة، توفي سنة ٧٨ هجرية. قال شريح: «إني لأصاب بالمصيبة، فأحمد الله عليها=

رَأَيْتُ رِجَالًا يَضْرِبُونَ نِسَاءَهُمْ فَشَلَّتْ يَمِينِي يَوْمَ أَضْرِبُ زَيْنَبَا
فَزَيْنَبُ شَمْسٌ وَالنِّسَاءُ كَوَاكِبٌ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ تُبْقِ مِنْهُنَّ كَوْكَبَا

فالضرب وسيلة علاج، وليس وسيلة سيطرة وتسلط وتفريغ عقد.

والفرق واضح بين الفحولة أو الهمجية، وبين الرجولة- مع أن ذلك قد يخفى على البعض- وقد قيل عن النساء: «يغلبن الكرام ويغلبهن اللئام».

وأقرب مثال لحال المرأة، هو ما بينه الزوج المثالي الكامل، حبيبنا وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَإِذَا شَهِدَ أَمْرًا فَلْيَتَكَلَّمْ بِخَيْرٍ أَوْ لِيَسْكُتْ، وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاهُ، إِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا»[1].

وهذا من خلقه الكريم، فمن حكمته وبلاغته، قال: «اسْتَوْصُوا» أي: ليوصي كل منكم الآخر، فتستمر هذه الوصية وتتكاثر إلى يوم القيامة، وقال: «اتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ»[2].

ولا شك أن الإسلام هو خير من أكرم المرأة وأعطاها حقوقها، ومن أراد بيان ذلك فليرجع إلى منهج الرسول صلى الله عليه وسلم ورقيه في التعامل مع أهله وعنايته بهم وحسن معاشرته لهم، بل ليقرأ ما ورد في حق المرأة والتوصية بها وتحريم استغلال ضعفها وحسن التعامل معها والتجاوز عن أخطائها؛ فلقد مثل النساء بالقوارير (الزجاج) في الرقة والتأثر، فينبغي أن نراعيها، وكذلك نخاف ونحافظ عليها من الأعداء الذين يظلمونها.

وفي هذه المناسبة يعجب المرء من الإفراط والتفريط في مسألة ظلم المرأة؛ إذ ينقسم

= أربع مرات: أحمد إذ لم يكن أعظم منها، وأحمد إذ رزقني الصبر عليها، وأحمد إذ وفقني للاسترجاع لما أرجو من الثواب، وأحمد إذ لم يجعلها في ديني».

(١) صحيح مسلم.

(٢) يقول الباحث والروائي الألماني ويلكي كولنز، في كتابه "جوهرة القمر" : «لقد جاء محمد بصيانة النساء وحثهن على العفاف، وحذر من السير على خلافهما، مشيرًا إلى ما في هذين من النقص والخسة، وكم لمثل هذا من نظير في شريعته السامية» انتهى، كتاب "الرسول في الدراسات الاستشراقية المنصفة" لمحمد شريف الشيباني.

ظَلَمتُها إلى قسمين؛ هما:

الظالم الأول: متخلف، يحسبها من الرقيق أو من متاع البيت، فهو همجي يستقوي على المرأة فيظلمها بأشكال مختلفة.

الظالم الثاني: متخلف أيضًا ولكن من جانب آخر فهو يراها سلعة أو وسيلة للمتعة واللذة؛ لهذا يبذل جهده لتدمير مستقبلها (في الدنيا والآخرة) وإخراجها من الصلاح والسعادة، إلى الفساد والشقاء، فتجده يبالغ في دفعها للتحرر (الإباحية وليس الحرية)، فهو في كل شاردة وواردة: (المرأة والمرأة)، وكل ذلك بدعوى رفع الظلم عن المرأة، ويكون ذلك بأساليب شيطانية؛ كدعاة التحرر (الإباحية) الذين يصدق فيهم قول الشاعر:

يُعْطِيكَ مِنْ طَرْفِ اللِّسَانِ حَلاوَةً وَيَـرُوغُ مِنْكَ كَمَا يَـرُوغُ الثَّعْلَبُ
يَلْقَاكَ يَحْلِفُ أَنَّهُ بِكَ وَاثِقٌ وَإِذَا تَوَارَى عَنْكَ فَهْوَ العَقْرَبُ

فتجدهم يريدون إفساد النساء بحجة الدفاع عنهن ومساعدتهن[1].

أما مساعدتهن فيما ينفعهن؛ كمساعدة الأرامل والمسنات والمعاقات والمطلقات والفقيرات، فإن هذا لا يعد في مبادئهم المغرضة مساعدة، بل إن هؤلاء النسوة لسن نساء!

أما المسلم الصالح فينظر للمرأة المؤمنة كمثل الجوهرة إذا نظر إليها سرته؛ قال

---

(١) وقد يكون هناك من يدافع عن النساء بطريقة التحرر (الإباحية) بنية طيبة، وذلك إما بسبب كرهه للظلم ولما يسمع عن ظلم المرأة، أو أنه قد مرت عليه حادثة أثرت فيه- وهذا أحسنهم حالًا- ومن ثم تأثر بطريقة الإعلام الهابط وأصبح يردد أقواله، فيقال لهذا وأشكاله:

إن المظلومين غير المرأة كثيرون، فلماذا لم تقف معهم جميعًا؟! ولماذا لم تقف مع جميع النساء؟! لماذا لا تدافع عنها ضد من يريدون إفسادها وجعلها سلعة رخيصة؟! لهذا تنبه ودافع عن المرأة وغيرها بشكل عادل وشامل وحقيقي، وأخيرًا بشرف.

أما صاحب المآرب الأخرى فإنه لا حجة له؛ لهذا تجده يهرف بما يعرف وما لا يعرف.

لهذا يقال له: اتق الله في بنات المسلمين وإفسادهن بحجة الدفاع عنهن، فإن في هذه الدعوة إفساد لبعض النساء بل إفساد لبعض الزوجات على أزواجهن وإضاعة للأطفال، وهذا من أسباب الزيادة الكبيرة في نسب الطلاق وانتشار الفساد؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي صححه الألباني: «من أفسد امرأة على زوجها فليس منا». أما من يحب أن تشيع الفاحشة في المؤمنين، فله عذابان أليمان والعياذ بالله؛ قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ سورة النور، الآية: (١٩).

رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خَيْرُ النِّسَاءِ مَنْ تَسُرُّكَ إِذَا أَبْصَرْتَ، وَتُطِيعُكَ إِذَا أَمَرْتَ، وَتَحْفَظُ غَيْبَتَكَ فِي نَفْسِهَا وَمَالِكَ»(١).

بل المؤمنة خير وأغلى من جميع المجوهرات، وخير مثال على ذلك بنات وزوجات رسول الله عليه الصلاة والسلام؛ لذلك نجد القدوة الخيرة الصالحة في تعامله صلى الله عليه وسلم مع أهله وعنايته بهم وحسن معاشرته لهم.

فكانت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها تقوم وراءه وخدها على خده وتنظر إلى الأحباش وهم يلعبون في المسجد، وكانت ترجل رأسه وهي حائض؛ (أي تسرح شعره)، وكان يأكل معها وهي حائض، ويضع فمه مكان فمها من الإناء.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يضع رأسه في حجر إحداهن، فيتلو القرآن الكريم، وهي حائض.

وكان يجلس عند بعيره فيضع ركبته، وتضع صفية رجلها على ركبته الشريفة حتى تركب.

أما تعامله مع بناته فنكتفي بحديث واحد عن ابنته فاطمة، سيدة نساء أهل الجنة رضي الله عنها:

عن أم المؤمنين، عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «ما رأيت أحدًا كان أشبه سمتًا وهديًا ودلًّا، برسول الله صلى الله عليه وسلم، من فاطمة رضي الله عنها؛ كانت إذا دخلت عليه قام إليها، فأخذ بيدها وقبلها وأجلسها في مجلسه، وكان إذا دخل عليها قامت إليه، فأخذت بيده فقبلته وأجلسته في مجلسها»(٢).

ولقد وصى الإسلام بالنساء؛ قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(٣).

---

(١) صححه الألباني.

(٢) صححه الألباني. وفي رواية: «حديثًا وكلامًا». «دلاًّ»: أي: سيرة وحالة وهيئة. «سمتًا»: هو الخشوع. «هديًا»: أي: طريقة.

(٣) سورة النساء، الآية: (١٩). يقول ابن كثير رحمه الله تعالى: «وقوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾؛=

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً؛ إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ»(١).

ولقد دافع النبي صلى الله عليه وسلم عن حق المرأة دفاعًا قويًا طاهرًا شريفًا، وراعى ضعفها وحرم استغلاله؛ فقال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أُحَرِّجُ حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ: اليَتِيمَ، والمَرْأَةَ»(٢).

وأخيرًا.. فالحياة الزوجية هي سكن للزوجين، ولا تستقيم إلا بقوامة الزوج، ولكن بالقوامة الصالحة الموزونة بميزان الشريعة السمحة المتميزة بالحكمة والتحمل والتضحية، وكل ذلك في إطار المودة والرحمة من الطرفين؛ فالقوامة مسؤولية وليست تسلطًا، فلا إفراط ولا تفريط، بحيث يقصر في ما اؤتمن عليه فيضيع أهله ويترك لهم الحبل على الغارب، أمام الغزو الغربي، بأفكاره المسمومة، وموضاته وماركاته وتقليعاته التافهة ذات البريق المزيف(٣)، وبهذا يضلون بجريهم خلف كل ناعق، حيث أهملهم رئيسهم وقصر في رجولته الحقيقية، بحيث أصبح بيته ليس جنة ملؤها المودة والرحمة والاستقرار، بل كالفندق التافه الممل بسبب البعض، وكالسجن بسبب البعض الآخر، فيخرج الجميع بحثًا عن السعادة التي لن يجدوها في غير بيتهم، فهو في واد وهم في واد آخر، يبحثون عن السعادة في السفر والخروج للأسواق والمطاعم والزيارات...

فالمرأة الضعيفة (في حال تقصير الرجل) ضائعة بين المُفَرِّط والمُفْرِطِ، ولكن العاقلة من تصبر وتحافظ على توازنها وبيتها، محتسبة الأجر عند الله تعالى.

وكذلك الرجل مع المرأة (وهي في الغالب أكثر أخطاء)، يصبر على أخطائها؛ كما وصى بذلك الحبيب صلى الله عليه وسلم؛ فالرجل له من المميزات الذي فضله الله بها (الرجل الحقيقي) الذي من خلالها يستطيع أن يقود أهله يدًا بيد في مواجهة المشاكل

= أي: طيبوا أقوالكم لهن، وحسنوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم، كما تحب ذلك منها فافعل أنت بها مثله؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي»، وكان من أخلاقه صلى الله عليه وسلم أنه جميل العشرة دائم البشر، يداعب أهله، ويتلطف بهم ويوسعهم نفقة ويضاحك نساءه...» انتهى.

(١) صحيح مسلم.

(٢) حسنه الألباني.

(٣) ويعتبر الجري خلفهم والتأثر بهم علامة بارزة من علامات قلة العقل ونقصانه!

وضغوط الحياة دينًا ودنيا، والحذر من المشاكل التي تقع من تسلط الرجل أو من استفزاز المرأة؛ لأنها من أكثر المشاكل.

فالحياة الزوجية هي سكن للزوجين ولا تستقيم إلا بالمودة والرحمة، ولكن الحياة بما فيها من سعادة لا تخلو من الكدر والكبد، فعلى كل من الزوجين أن يلين مع صاحبه حتى يصلا إلى شاطئ النجاة، وبالمحبة والرحمة والحوار القائم على التضحية والاحترام المتبادل من الطرفين تكون السعادة، ولن يكون هناك ما يدعو إلى الشقاق إذا تمسكنا بمنهج نبينا وحبيبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورفق كل منا بالآخر، وما أجمل هذه القاعدة الذهبية التي علمناها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مَا أُعْطِيَ أَهْلُ بَيْتٍ الرِّفْقَ إِلا نَفَعَهُمْ، وَلا مُنِعُوهُ إِلا ضَرَّهُمْ**»[1].

قال راما كريشنا راو[2]: «لا يمكن معرفة شخصية محمد بكل جوانبها، ولكن كل ما في استطاعتي أن أقدمه هو نبذة عن حياته من صور متتابعة جميلة، فهناك محمد النبي، ومحمد المحارب، ومحمد رجل الأعمال، ومحمد رجل السياسة، ومحمد الخطيب، ومحمد المصلح، ومحمد ملاذ اليتامى، وحامي العبيد، ومحمد محرر النساء، ومحمد القاضي، كل هذه الأدوار الرائعة في كل دروب الحياة الإنسانية تؤهله لأن يكون بطلًا».

شبه أخرى:

لا أقول: حجج، ولكن شبه، ولولا إيراد بعضهم إياها لكان ذكرها من باب العبث:

شبهة عدم الاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم!

إن البعض ممن يضرب الطلاب عندما يقال له: إن الرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يضرب أحدًا قط، فإنه يرد قائلا: ذلك الرسول، ولكن أين نحن من الرسول؟

فيقال لمن يقول: أين نحن من الرسول:

إن ثلاثة رهط في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: أين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم؟! ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم رد عليهم ردًّا بليغًا حاسمًا

---

(١) صححه الألباني.

(٢) البروفسور رما كريشنا راو في كتابه: (محمد النبي).

بين به خطأهم وعوج طريقهم؛ حيث قال: «مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[١].

ويكفينا قول الله سبحانه وتعالي: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[٢].

فيا سبحان الله! إذا لم نقتدِ برسول الله صلى الله عليه وسلم فبمن نقتدي؟! وكيف نصلي أو نحج أو نصوم...؟! بل كيف نعيش في هذه الحياة التي تتجاذبها الأفكار المتشعبة والأهواء والميول والفتن...؟! وأخيرًا ينبغي أن نعلم- بل نؤمن- أن الله سبحانه وتعالى لم يرسل رسوله صلى الله عليه وسلم بأمر تعجيزي بحيث يعجز عنه الناس، وإنها أرسله بها يناسب الجميع، بل أرسله بخير ما يناسب الجميع؛ فقد جاء بالحنيفية السمحة، ونؤمن بأن الله سبحانه وتعالى لم يخلقنا عبثًا ولم يتركنا هملًا؛ قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾[٣]؛ وقال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾[٤].

شبهة ضرب العبيد:

ولن نبحث في حكم ضرب العبيد؛ لسببين وجيهين، هما:

١- أنه لا يوجد عبودية- بالمعنى المعروف- في وقتنا الحاضر[٥].

٢- يقال لمن يضرب الأحرار أو يقيسهم على ما ورد في ضرب العبيد: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟!»، ومع ذلك سنورد بعض ما يبين قيمة الإنسان، وكيف كرم الإسلام الإنسان حتى ولو كان عبدًا يباع ويشترى. وسنختار

(١) صحيح البخاري.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: (٢١).

(٣) سورة المؤمنون، الآية: (١١٥).

(٤) سورة القيامة، الآية: (٣٦).

(٥) ومن الطريف أن البعض يتمنى أن العبيد موجودون الآن، لكي يتخذ له عبدًا يخدمه، ولكن هنا نتساءل: هل يتمنى هذا (الإنسان) أن يكون العبيد موجودين ويكون هو أحد هؤلاء العبيد؟! إنه بالطبع سيرفض ذلك لنفسه، ولكن لماذا يرضى لغيره العبودية؟! فلماذا لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه؟! ولماذا ينتقد الصهاينة الذين يقولون: «نحن شعب الله المختار، والبقية مجرد عبيد لنا» لاشك أنها الأنانية والتسلط والطمع والكبر والظلم والإحساس بالنقص... باختصار مجموعة من الصفات السيئة في بعض الأنفس، وينبغي لكل إنسان أن يطهر نفسه منها.

حديثين شريفين من باب واحد في صحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى:

الحديث الأول: أن ابن عمر رضي الله عنهما، دعا بغلام له فرأى بظهره أثرًا، فقال له: أوجعتك؟ قال: لا. قال: فأنت عتيق. قال: ثم أخذ شيئًا من الأرض فقال: ما لي فيه من الأجر ما يزن هذا؛ إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «مَنْ ضَرَبَ غُلَامًا لَهُ حَدًّا لَمْ يَأْتِهِ أَوْ لَطَمَهُ فَإِنَّ كَفَّارَتَهُ أَنْ يُعْتِقَهُ»[١].

الحديث الثاني: عن أبي مسعود الأنصاري، قال: كنت أضرب غلامًا لي فسمعت من خلفي صوتًا: «اعْلَمْ أبا مَسْعُودٍ، لَلَّهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ»، فالتفتُّ فإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله، هو حرٌّ لوجه الله، فقال: «أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ» أو «لَمَسَّتْكَ النَّارُ»[٢].

شبهة «خير الأمور الوسط»: (حكم وأمثال وقصص)

هناك من يتأثر بالحكم والأمثال والقصص تأثرًا خطأً، أو قد لا يفهم المغزى منها، أو يضعها في غير محلها؛ إذ يتخذ منها منهجًا سيئًا في حياته؛ لذا ينبغي بيان بعض ذلك:

فمن الشبه التي يرددها العامة قول أحدهم: أنا لست مع الضرب الشديد، وفي المقابل لست مع عدم الضرب، ولكن خير الأمور الوسط؛ فأنا مع أن يكون الضرب بين هاتين الحالتين! لهذا ينبغي الرد على هذا العامي من جهتين:

الأولى: أنه يتكلم ويحكم في مسائل كبيرة، وهو غير متخصص، فليترك هذا لأهل الاختصاص. وهذه القضية متكررة في العالم الثالث؛ فتلاحظ أن الكل متخصصون في كل شيء، مع أن الأمر على غير ذلك، فهم علماء من غير علم!

الثانية: أن قاعدة «خير الأمور الوسط»، ليست قاعدة مطردة تطبق في جميع الأحوال؛ فالوسط قد يطلق على ما له طرفان مذمومان؛ مثل: البخل والتبذير أو الجبن والتهور؛ فالوسط بينهما خير.

ولكن ليس كل نقطة بين طرفين تعتبر وسطية خيرة؛ فلا شك أن الخير لا يكون في

---

(١) صحيح مسلم.

(٢) صحيح مسلم.

التوسط بين الحق والباطل، أو بين الخير والشر، أو بين الأمانة والخيانة، أو بين الصدق والكذب، أو بين العدل والظلم، وأخيرًا بين التربية الإيجابية والتربية السلبية؛ وهو ما نريد التأكيد عليه[1].

أما من يحتج بأن في الضرب مصلحة وله فوائد، فيقال له: لو فرضنا جدلًا أن في الضرب فوائد فإن هذا العذر ليس مقبولًا على إطلاقه؛ فالضرر إذا كان أكبر من النفع ترك، فتفكَّرْ!، وخير من ذلك، قول الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾[2].

فالضرب إن كان له منافع، فأضراره أكثر؛ كما سيتبين.

وبعد الرد على الشبهة الناتجة عن حكمة «خير الأمور الوسط»، ينبغي أن نعلم ما يأتي:

١- أنه من المستحيل الرد على كل حكمة أو مثل أو قصة؛ لأنه يصعب حصر ذلك لكثرتها، ومثال ذلك من يستدل على استخدام الضرب بقول: «آخر الدواء الكي!».

٢- أنه (وهو الأهم) من الخطأ أن نأخذ حكمةً أو مَثَلًا عابرًا أو قصة، ثم نبني على ذلك أحكامًا دينية أو مناهج تربوية، فندمر جيلًا كاملًا من أجل حكمة أو قصة أو مَثَل!

ولبيان هذه الطريقة التي لا تنطلق من أسس ثابتة، وتؤدي إلى مصائب تربوية، سنستدل بقصة لا ندري عن حقيقتها، والمؤسف أنها تذكر في كثير من كتب طلاب العالم الإسلامي، وهدفها الأساسي التربية على الذل! لأن الطالب الذي يقرؤها سيكون قدوته من يحمل النعال! وفي المقابل نتعرف على قصة مناقضة ولكن من طالب عزيز من طلاب المدرسة النبوية:

---

(١) ينبغي أن يحذر المسلم ويخاف من أن يكون هذا التذبذب ناتجًا من عدم الثبات على الحق لأسباب واهية، وهذا من أفعال المنافقين والعياذ بالله، الذين قال الله سبحانه وتعالى عنهم: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ سورة النساء، الآيتان: (١٤٢، ١٤٣).

(٢) سورة البقرة، الآية: (٢١٩).

حمل نعال المعلم!

كان الخليفة المأمون قد وكل الفراء- عالم النحو- يلقن ابنيه النحو، فلما كان يوم أراد الفراء أن ينهض إلي بعض حوائجه، فابتدرا إلى نعل الفراء يقدمانها له، فتنازعا أيهما يقدمها، ثم اصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما واحدة، ثم أثنى على هذه التربية!

فأقول: القصة رويت في تربية ولدي المأمون، وكذلك رويت في تربية ابني هارون الرشيد الأمين والمأمون.

على أي الحالين، قارن هذه التربية، مع قول المأمون بخَلْقِ القرآن الكريم، وكذلك قتله للعلماء، وتعذيبه للإمام أحمد بن حنبل (فنعم التربية وآثارها!) فهل هذا من نتائج التربية على الذل؟!

لهذا أقول: هل نترك تربية الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ونفتح كتب التاريخ ونأخذ مما هب ودب؟!!!

ولكن إذا كان أحد في شك من هذا العمل القبيح المذل، فما رأيه فيمن يمشي خلف معلمه أو حتى شيخه، مجرد المشي؟!

انظر ماذا قال في ذلك أحد الطلاب المتفوقين في مدرسة العزة والكرامة مدرسة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ قال السفاريني: «قال ابن مسعود رضي الله عنه فيمن يمشي الناس خلفه إكرامًا: إنها ذلة للتابع وفتنة للمتبوع» انتهى[1].

وعن النعل والحذاء والقدم، سأذكر باختصار ثلاثة مشاهد حصلت في عصرنا الحاضر وفي أكثر من بلد:

١- معلم يخلع نعله ويضرب به الطالب على وجهه.

---

(١) كتاب "غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب" للسفاريني، وكذلك ورد أن عمر بن الخطاب عاقب أبي بن كعب لما رأى الناس يمشون خلفه، فقال: ما هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «هذا ذلة للتابع وفتنة للمتبوع». راجع "منهاج السنة" لشيخ الإسلام ابن تيمية. إذن فالمطلوب احترام المعلم وتوقيره من غير إذلال الطالب؛ لأنه لا يلزم من احترام المعلم إذلال الطالب، وهذا ما يلتبس على البعض.

٢- معلم يطلب من طالب أن يربط حذاءه والطالب ينفذ.

٣- معلم يطلب من الطلاب في حالة مزاد: من يريد درجات فليقبل رأسي، ولكن من يريد النجاح فليقبل قدمي، فنتج من هذا المزاد أن بعض الطلاب قبل رأس المعلم والبعض قبل القدم!

أَنَــا لا أَخْــتَــارُ تَـقْـبِـيـلَ يَـدٍ   قَطْعُهَا أَجْمَـلُ مِـنْ تِـلْـكَ القُبَـلْ

ولا شك في أن أغلب هؤلاء المعلمين ضحايا من سبقهم من أصحاب التربية السيئة، ولنتذكر من نعرف من أصحاب التعامل السيئ، وسنجده غالبًا تعرض لشيء من العقاب، والأحداث والقصص الواقعية كثيرة، وهذا أمر ثابت وذكره يطول، وكذلك هناك علوم كثيرة تثبته؛ مثل: علم النفس، والاجتماع، والتاريخ...، وهناك أقوال كثيرة تبينه؛ مثل: «العنف يولد العنف»، «الضحية تتبع جلادها»، «كل فعل له رد فعل»...[1].

شبه الأقوال:

وكذلك الحال ينطبق على شبه الأقوال التي يرددها البعض؛ ومنها ما يأتي:

١- أنا أضرب، وقد تخرج على يدي علماء وأطباء ومهندسون![2].

٢- ضربوني، وها أنا أضرب!

---

(١) تقول إحدى الأمهات: «كلما تعامل ابني مع إخوانه بعنف، عرفت أنه قد حصل له تعامل عنيف من قبل معلميه».

(٢) لقد ذكر أحد الثقات عن معلمهم الذي كان لا يكتفي بضربهم بالعصا على أيديهم وعلى مؤخراتهم وعلى أقدامهم وعلى ظهورهم بل يضرب رؤوسهم على السبورة وعلى الجدران ويمسكهم من شعورهم ويرفعهم بها عن الأرض، ويتفنن في تأديبهم وتربيتهم بزعمه!

ولكن عندما مرت السنين وتقابل أحد الطلاب مع ذلك المعلم في مناسبة انطلق عليه هذا الطالب الذي صار رجلا، وبدأ في سب المعلم وشتمه أمام الناس الذين تدخلوا للفصل بينهم، وكانت حجة هذا المعلم، أنه تخرج من طلابه علماء وأطباء ومهندسون!

فيقال وهل هذه حجة للضرب والإجرام في حق الطلاب، فإذا كانت هذه حجة، فللسارق أن يقول إن السرقة مشروعة لأني سرقت ناسا أصبحوا أغنياء! ولمن يفعل الفواحش أن يقول فعلتها مع ناس أصبحوا صالحين أتقياء... وعلى ذلك قس!

٣- ضربوني، وها أنا من أحسن الناس![1].

٤- الدليل على فائدة استخدام الضرب هو: أن مدارس الضرب خرجت البارزين والعمالقة والفطاحل...!

٥- الضرب يمنح المربين هيبة في نفوس الطلاب أو الأبناء!

هذه بعض الأمثلة، وهناك غيرها الكثير، ولكن للإجابة على هذه الشبة نترك الاستشاري النفسي والتربوي الدكتور مصطفى أبو سعد[2]- جزاه الله خيرًا- يبين ضرر ضرب الوالد لولده[3]، وأن ذلك من سوء التربية، وقد بين هذا تحت عنوان: (ضربوني وها أنذا أضرب!!) فقال: «الكثيرون يرددون باستمرار: لقد كان والداي يضربانني وها أنذا سليم معافى... وهنا نقف وقفات حول هذا التبرير:

هل فعلا نحن معافَوْن؟!

ما مقاييس التعافي والسلامة عندنا؟! أليست كل الاضطرابات واختلال التوازن في الشخصية منتشرة؟!

١- الانطوائيون ممن لا يقدرون على مواجهة الناس كثيرون... وممن لا يتفاعلون مع المجتمع أكثر..

٢- المترددون في اتخاذ أي قرار في حياتهم في ازدياد..

---

(١) يذكر أن أحد الآباء أراد أن يعلم أبنه كيف ينظف أسنانه بالفرشة والمعجون، فبدأ يشرح له ويحاول إقناعه لكي يحافظ على أسنانه من التسوس وتستمر أسنانه سليمة، وكان الجد يستمع لمحاولات الأب للإقناع، فقال الجد لحفيدة: لا تستمع لكلام أبيك ولا تفرش أسنانك، فإني لم أفرش أسناني طوال حياتي، وها أنذا بخير وعافية، ولكن الملاحظة الطريفة، أن هذا الجد ليس في فمه أسنان!

(٢) الدكتور مصطفى أبو سعد: استشاري نفسي وتربوي، دكتوراه في علم النفس التربوي – فرنسا، ماجستير في الإرشاد النفسي (علم النفس العيادي)، دبلوم دراسات عليا في الاتصال والتسويق – إيطاليا، دبلوم اختبار القدرات لدى الأطفال وقياس الذكاء (بينيه)، ماستر تدريب في التنمية الذاتية.

(٣) ولكن قد يقول البعض: إذا كان ذلك الضرب ضارًا من الوالد فكيف بالضرب من غير الوالد؟! وهنا يقال: لا شك في أن ضرب المعلم لأولاد المسلمين أشد ضررا من الوالد لولده؛ ولهذا يكون النهي عنه من باب أولى.

٣- المبدعون لا يكادون يذكرون..

٤- ما نسجله- كأمة- من براءة اختراع في سنة ونحن نعد بالملايين... تسجله بعض الدول المرتزقة ذات الأربعة أو الخمسة ملايين في أسبوع..

٥- الطموح وعلو الهمة يكاد يكون عملة نادرة في حياتنا..

٦- الإتقان والإحسان صفتان نادرتان..

٧- احترام الوقت، والمواعيد، والوفاء بالعهود.. أصبحت سمات للغرب.. فأصبح الواحد منا يقول- لاشعوريًّا- لصاحبه: «موعد غربي.. لا عربي!!».

٨- أبناؤنا يقلدون كل من هب ودب، وانتقلت لنا كل أمراض الأمم، ونحن من فتح الباب على مصراعيه داخل أسرنا؛ لهذا فنحن المسؤولون، وتربيتنا الأولى مسؤولة إلى حد كبير.

هل ننقل اضطهادنا الطفولي لأبنائنا؟!

هناك نسبة ليست قليلة ممن عانت اضطهادًا طفوليًّا وتحاول بشكل أو بآخر نقل هذا الاضطهاد لأبنائها بوعي منا أو دون وعي بذلك.

ولنحذر أن تكون التربية السلبية- التي عادة ما يكون البعض قد خضع لها وتأثر بها- دافعًا لممارسة وارتكاب الأخطاء نفسها مع الأبناء..

كيف كان شعورك يومها؟!

لقد تعرض البعض للضرب المبرح وهو طفل صغير... وهو الآن يردد هذا ويبرر به لجوءه للأسلوب نفسه مع أبنائه...

ونتساءل معًا:

ماذا كان شعورك يومها وأنت تضرب طفل؟!

ماذا كان تصورك اتجاه من يضربك يومها؟!

سوف نفاجأ بالإجابات التي تؤكد كل معاني الكره والشعور بانعدام المحبة،

ونفاجأ كذلك بإجابات المنحرفين وبعض المدمنين بأن أحد أسباب انحرافهم قساوة الآباء. والمبالغة في العقاب والضرب.» انتهى[١].

وقد تكون هذه القضية ليست مسألة حجج وشبه، وإنما تكون هذه الأمور- عند البعض- راجعة إلى أمور أخرى غير التربية وغير الاقتناع، وإنما ترجع لأسباب أخرى؛ كالتقليد والجهل والعقد النفسية والمشاكل والضغوط... كل هذه التراكمات تكون مشحونة في الوالد والمعلم وتفرغ في هذا الضعيف باسم التربية!

وقد ذكر الدكتور مصطفى أبو سعد تحت عنوان (لماذا يقمع الآباء أطفالهم؟)،وبعد أن أورد هذه المعلومة التي تقول: «دراسة تؤكد: ٨٥ ٪ ممن تعرضوا للاضطهاد الطفولي يعيدون ممارسته في حياتهم الأسرية»- قال:

«يمكنك أن تفعل أشياء كثيرة لتقهر البرمجة القديمة وتنتصر عليها، سواء أكان أطفالك ما زالوا صغارا أم أصبحوا اليوم في عداد الراشدين.

إن أول خطوة تتمثل في البدء بتفهم نفسك، وبمعرفة لماذا أصبح القمع جزءا من ممارسات أبوتك.

هنا ثلاثة أسباب لتفسير الأمر هي:

١ - أنت تقول ما قيل لك!

٢ - أنت تعتقد أن ما تفعله هو الشيء الصحيح!

٣- أنت تفرغ شحناتك المدخرة». انتهى باختصار[٢].

أما عن القول بأن الضرب يمنح المربين الهيبة، فيقول: «يدعي البعض أن الضرب يمنح المربين هيبة في نفوس الأبناء.

و نحن نقول: ومن قال: إننا نريد أبناء يهابون المربين آباء كانوا أم مدرسين؟!

إننا- وكما بينا سابقا- نريد الاحترام والتقدير القائمين على المحبة والثقة لا على

(١) كتاب (الوالدية الإيجابية: الحاجات النفسية للطفل) للدكتور مصطفى أبو سعد.

(٢) كتاب (الأطفال المزعجون) للدكتور مصطفى أبو سعد.

الخوف والهيبة والعصا..

إن طبيعة الطفل أنه يحترم ويقدر من يحب لا من يخاف.. والسلوك المطلوب أن نجعل الطفل يحبنا ويخاف غضبنا.. بتوازن.. ومن يغلب جانب الغضب فإنه يولد عند الطفل دوافع سلوكية نابعة من خارج نفسه وذاته.. بينما المطلوب تربويا أن يكون الدافع نابعا من داخل الإنسان (إخلاص- حلاوة..) ويقوم هذا الدافع ويزين بحوافز خارجية (قبول- خوف)». انتهى[١].

وأخيرًا.. هناك مدرسة لا تستعمل الضرب أبدا، ومع ذلك معلمها وطلابها خير الناس وأحسنهم، وهذا ليس ادعاء ولكن بشهادة الله عز وجل، وتلك المدرسة هي المدرسة النبوية. وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله.

الضرب أسلوب انهزامي:

«ضرب الطفل الصغير على سلوكيات مزعجة؛ من مثل العناد وكثرة الحركة وإزعاج الضيوف، أسلوب انهزامي من الكبار وسياسة غير صحيحة في التربية؛ لأنها وسيلة المتسرع، ومن لا يملك الأساليب التربوية الناجحة، ومن لا يقدر على التحكم في انفعالاته وضبط غضبه» انتهى[٢].

* * *

(١) المرجع السابق.

(٢) كتاب (الأطفال المزعجون) للدكتور مصطفى أبو سعد.

أبرز الأدلة على عدم الضرب:

«مَا ضَرَبَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم شَيْئًا قَطُّ»[١].

إن أبرز الأدلة الواردة في عدم الضرب وأوضحها، هذا الحديث الصحيح الصريح عن خير المعلمين وقدوتهم، والذي يرويه الإمام مسلم في صحيحه: عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا قط بيده ولا امرأةً ولا خادمًا، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه، إلا أن يُنتهك شيء من محارم الله؛ فينتقم لله عز وجل»[٢].

وبالرغم من وضوح هذا الدليل، تجد البعض لا يراه دليلًا كافيًا[٣] أو لا يراه واضحًا، أو لا يستسيغه، ومن كانت هذه حاله فليقرأ هذا البيت، ثم ليقرأ ما بعده عن وجوب الاتباع:

قَدْ تُنْكِرُ العَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ وَيُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ المَاءِ مِنْ سَقَمِ

* * *

وجوب اتباع منهج الرسول صلى الله عليه وسلم:

وهنا قد يقول البعض: «ولكني رأيت الشيخ الفلاني يضرب، أو سمعته يقول بالضرب؛ ولهذا فأنا أتبعه»، وهو قد يعلم قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[٤].

ولهذا ينبغي أن ننبه لمسألة هامة وخطيرة، وهي التشدد والتعصب لأقوال الناس على اختلاف درجاتهم العلمية هذا من جهة، ومن جهة أخرى التساهل في اتباع قول الله سبحانه وتعالى، وما صح عن رسوله صلى الله عليه وسلم!

---

(١) صحيح مسلم. قط: أي أبدًا.

(٢) صحيح مسلم.

(٣) قال الشيخ الألباني رحمه الله تعالى: «طالب الحق يكفيه دليل، وصاحب الهوى لا يكفيه ألف دليل؛ الجاهل نعلمه، وصاحب الهوى ليس لنا عليه سبيل».

(٤) سورة الحجرات، الآية: (١).

والذي نتج منه اختلاف المسلمين وتنازعهم؛ حيث حصل بينهم التكفير والتفسيق والتبديع، بل التقاتل، وكذلك فتح المجال لأئمة الضلال لكي يضلوا أتباعهم وينحرفوا بهم بعيدا عن منهج الكتاب والسنة.

فتجد البعض يخالف الدليل، ولكن يعتذر ببعض الحيل؛ مثل قوله: إذا خالف قول شيخي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم اتبعت قول شيخي وقدمته! والسبب أن شيخي يعلم كل الأدلة ومع ذلك حكم بهذا الحكم لسبب وجيه هو أعلم به؛ فلهذا أنا أتبع شيخي وأقدمه على الجميع!

فيقال لهذا وأمثاله- هداهم الله تعالى-: إن الإسلام ليس فيه كهنوت أو رجال دين كالدوغمائية[١]، بل جميع المسلمين يرجعون للكتاب والسنة، فليس بينهم واسطة ولا فاصل، ومكانة الرسول صلى الله عليه وسلم ووجوب اتباعه معروف للجميع شرعًا وعقلا، فهو مرسل من الله سبحانه وتعالى.

وسنختار من كتاب الله الكريم آيات كريمة تشير إلى عظم وأهمية اتباع ذلك المنهج الإسلامي العظيم، وكذلك أقوال بعض علماء الإسلام للتبيين والتذكير فإن الذكرى تنفع المؤمنين:

قال الله عز وجل: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[٢].

قال ابن كثير في تفسيره: «يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد

---

(١) الدوغمائية: تعني ادعاء الحقيقة المطلقة، والتعسف وفرض الرأي بالقوة، بل القطع به بغض النظر عن الحقائق، ويكون ذلك من باب الاستبداد والعصمة والتأييد الإلهي، وليس من باب الإقناع بالبراهين والحجج والأدلة. ويعود أصل هذه التسمية إلى كلمة دوغما أو دوجما الواردة في الفكر الديني النصراني الكاثوليكي، وتعني المبدأ الذي ينسب إليه الصحة المطلقة غير القابلة للنقاش أو الشك، وذلك بسبب مفهوم التقديس الإلهي الذي تدعيه الكنيسة الكاثوليكية والذي يتزعمها البابا الذي تعتبر تعاليمه بمثابة إلهام إلهي، ويعتبر رفض الدوغماتية في نظر الكنيسة هرطقة قد تقود إلى القتل. ومع مرور الزمن صارت هذه الكلمة تطلق لوصف المناهج الفكرية المتعصبة التي ترى أن ما تقوله هو الحق وأن غير ذلك باطل.

(٢) سورة النساء، الآية: (٦٥).

حتى يحكِّم الرسول صلى الله عليه وسلم في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطنا وظاهرا؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾؛ أي: إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجًا مما حكمت به وينقادون له في الظاهر والباطن، فيسلمون لذلك تسليمًا كليًّا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة؛ كما ورد في الحديث: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ» انتهى.

وقال الله عز وجل: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[1].

قال ابن كثير في تفسيره: «هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وأحواله» انتهى.

ومما قال الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله تعالى في وجوب الانقياد التام لقول الله تعالى، وقول رسوله صلى الله عليه وسلم: «وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعدي بن حاتم: «أَلَيْسُوا يُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتُحِلُّونَهُ، وَيُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ؟!» قال: بلى، قال: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ». وقال ابن عباس رضي الله عنه لبعض من جادله في بعض المسائل: «يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله، وتقولون: قال أبو بكر وعمر!» ومعنى هذا: أن العبد يجب عليه الانقياد التام لقول الله تعالى، وقول رسوله، وتقديمهما على قول كل أحد، وهذا أمر معلوم من الدين بالضرورة[2]» انتهى.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: (٢١).

(٢) المقصود قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، سورة التوبة، الآية: (٣١).

قال ابن كثير في تفسر هذه الآية: «وقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾، روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير، من طرق، عن عدي بن حاتم رضي الله عنه؛ أنه لما بلغته دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فر إلى الشام، وكان قد تنصر في الجاهلية، فأسرت أخته وجماعة من قومه، ثم منَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على=

فإذا كان هذا قول ابن عباس في الخليفتين الراشدين، فكيف بمن ترك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لقول من هو دونهم؟!

مع العلم أن علماء المسلمين وأئمتهم المعتبرين، ومنهم الأئمة الأربعة: أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد؛ قد وصوا بالأخذ بما دل عليه الدليل، وترك أقوالهم التي قالوها إذا جاء حديث صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بخلافها.

وقد اشتهر عن الإمام مالك قوله: «كل يؤخذ من قوله ويرد إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم»[1].

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «قال عمر بن عبد العزيز: لا رأي لأحد مع سنة سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم».

وقال الشافعي: «أجمع الناس على أن من استبانت له سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس».

= أخته وأعتقها، فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فتقدم عدي إلى المدينة وكان رئيسًا في قومه طيئ، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحدث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفي عنق عدي صليب من فضة، وهو يقرأ هذه الآية: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ... ﴾، قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم؟ فقال: «بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم»، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا عدي ما تقول؟! أيضرك أن يقال: الله أكبر؟! فهل تعلم شيئا أكبر من الله؟! ما يضرك؟! أيضرك أن يقال: لا إله إلا الله؟! فهل تعلم إلهًا غير الله؟!»، ثم دعاه إلى الإسلام، فأسلم وشهد شهادة الحق، قال: فلقد رأيت وجهه استبشر، ثم قال: «إن اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون»، وهكذا قال حذيفة بن اليمان وعبدالله بن عباس وغيرهما في تفسير: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ... ﴾-: إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا، وقال السدي: استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ﴾؛ أي: الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام، وما حلله فهو الحلال، وما شرعه اتبع، وما حكم به نفذ؛ لا إله إلا هو ولا رب سواه». انتهى.

وانظر: مجموع فتاوى و مقالات ابن باز.

(١) ويروى عن ابن عباس أنه قال: (ما أحد من الناس إلا يؤخذ من قوله ويدع غير النبي صلى الله عليه وسلم). كتاب (الدرر المنتثرة) للسيوطي.

وتواتر عنه أنه قال: «إذا صح الحديث فاضربوا بقولي الحائط»، وصح عنه أنه قال: «إذا رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثًا ولم آخذ به فاعلموا أن عقلي قد ذهب»، وصح عنه أنه قال: «لا قول لأحد مع سنة الرسول صلى الله عليه وسلم» انتهى[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «قد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن الله سبحانه وتعالى فرض على الخلق طاعته وطاعة رسوله، ولم يوجب على هذه الأمة طاعة أحد بعينه في كل ما يأمر به وينهى عنه إلا رسول الله، حتى كان صديق الأمة وأفضلها بعد نبيها يقول: أطيعوني ما أطعت الله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم.

واتفقوا كلهم على أنه ليس أحد معصومًا في كل ما يأمر به وينهى عنه إلا رسول الله؛ ولهذا قال غير واحد من الأئمة: كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه و سلم.

وهؤلاء الأئمة الأربعة رضي الله عنهم قد نهوا الناس عن تقليدهم في كل ما يقولونه وذلك هو الواجب عليهم.

فقال أبو حنيفة: هذا رأيي، وهذا أحسن ما رأيت، فمن جاء برأي خير منه قبلناه.

ولهذا لما اجتمع أفضل أصحابه أبو يوسف بمالك فسأله عن مسألة الصاع وصدقة الخضروات ومسألة الأجناس، فأخبره مالك بما تدل عليه السنة في ذلك؛ فقال: رجعت إلى قولك يا أبا عبد الله، ولو رأى صاحبي ما رأيت لرجع إلى قولك كما رجعتُ.

ومالك كان يقول: «إنما أنا بشر؛ أصيب وأخطئ، فاعرضوا قولي على الكتاب والسنة»، أو كلاما هذا معناه.

والشافعي كان يقول: «إذا صح الحديث فاضربوا بقولي الحائط، وإذا رأيت الحجة موضوعة على الطريق فهي قولي».

وفي مختصر المزني مما ذكر أنه اختصره من مذهب الشافعي لمن أراد معرفة مذهبه، قال: «مع إعلامه نهيه وعن تقليده وتقليد غيره من العلماء».

---

(١) كتاب (إعلام الموقعين عن رب العالمين) لابن القيم.

والإمام أحمد كان يقول: «لا تقلدوني ولا تقلدوا مالكا ولا الشافعي ولا الثوري، وتعلموا كما تعلمنا».

وكان يقول: «من قلة علم الرجل أن يقلد دينه الرجال».

وقال: «لا تقلد دينك الرجال؛ فإنهم لن يسلموا من أن يغلطوا» انتهى كلام ابن تيمية[١].

وقال ابن تيمية أيضًا: «وإذا كان الرجل متبعًا لأبي حنيفة أو مالك أو الشافعي أو أحمد، ورأى في بعض المسائل أن مذهب غيره أقوى، فاتبعه، كان قد أحسن في ذلك ولم يقدح ذلك في دينه ولا عدالته بلا نزاع، بل هذا أولى بالحق وأحب إلى الله ورسوله صلى الله عليه و سلم ممن يتعصب لواحد معين غير النبي صلى الله عليه وسلم، كمن يتعصب لمالك أو الشافعي أو أحمد أو أبي حنيفة، ويرى أن قول هذا المعين هو الصواب الذي ينبغي اتباعه دون قول الإمام الذي خالفه، فمن فعل هذا كان جاهلًا ضالا، بل قد يكون كافرًا؛ فإنه متى اعتقد أنه يجب على الناس اتباع واحد بعينه من هؤلاء الأئمة دون الإمام الآخر، فإنه يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل» انتهى[٢].

ولا يفهم من ذلك أن يتكلم في أمور الدين من هب ودب من الجهال، أو أن يتعامل المسلم مع علماء الإسلام بالزهد فيهم وفي علمهم أو بالجفاء في حقهم، بل على العكس؛ ينبغي على المسلم أن يعرف لهم حقوقهم[٣] من احترام وإجلال وإكرام وتقدير... ولكن من غير غلو؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ»[٤].

(١) كتاب (مجموع الفتاوى) لابن تيمية.

(٢) المرجع السابق.

(٣) والمقصود بالعلماء هم العلماء المخلصون لله سبحانه وتعالى، أما غير المخلصين الذين يتخذون الدين والعلم سلم لأهدافهم الحقيرة، فلا حقوق لهم ولا كرامة لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ تَعَلَّمَ العِلْمَ لِيُبَاهِيَ بِهِ العُلَمَاءَ، أَوْ يُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ، أَدْخَلَهُ اللهُ جَهَنَّمَ» صححه الألباني.

(٤) حسنه الألباني.

وموقف المسلمين ممن سبقونا ينبغي ألا يكون فيه جمود ولا جحود، بل ينبغي أن يستفيدوا مما أجادوا فيه ويبنوا على ذلك ويتقدموا.

وأما الموقف من أخطاء العلماء رحمهم الله، فلا يكون بالتصيد لأخطائهم والفرح بها والتنقص منهم، فلا شك أن جميع الناس تقع منهم الأخطاء؛ فليس هناك عصمة لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن يكون التعامل مع أخطاء الناس- والعلماء بشكل خاص- بعدم الموافقة عليها أو اتباعها أو الدفاع عنها، وإنما تصحيحها مع عدم التطاول على مكانة العلماء الرفيعة أو محاولة الحط منهم، بل ينبغي الاعتراف لهم بالفضل والدعاء لهم بالأجر، مع العلم أن المجتهد إذا اجتهد فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر.

وما أحسن المثال الذي ضربه الإمام الشافعي للمقلد حين قال: «مثل الذي يطلب العلم بلا حجة، كمثل حاطب ليل يحمل حزمة حطب وفيه أفعى تلدغه وهو لا يدري» انتهى[١].

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يقول: «من فارق الدليل ضل السبيل، ولا دليل إلا بما جاء به الرسول صل الله عليه وسلم»[٢].

فعلى المسلمين ألا يخالفوا هدي الرسول صل الله عليه وسلم لأي سبب كان ومهما كانت الحجة، لا لتقليد الآباء والأجداد قائلين: إنا وجدناهم على ذلك وإنا على آثارهم مقتدون، ولا بمسايرة الواقع وأهواء الناس، ولا التمسك بقول أحد من الناس- مهما كان كبيرا- ولا لقدم الأعمال، ولا لوقوع ذلك في القرون الأولى أو في عهد التابعين؛ فقد روى البخاري في صحيحه عن الزهري، يقول: دخلت على أنس ابن مالك رضي الله عنه، بدمشق وهو يبكي، فقلت: ما يبكيك؟ فقال: «لا أعرف شيئًا مما أدركت إلا هذه الصلاة، وهذه الصلاة قد ضيعت!»[٣].

والآية التي تحسم التنازع والخلاف، هي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي

(١) رواه البيهقي في: (المدخل).
(٢) كتاب (مفتاح دار السعادة) لابن القيم.
(٣) صحيح البخاري.

شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[1].

وأخيرًا، ذكر الإمام الشاطبي في كتاب الاعتصام عن تغير الناس وعدم التزامهم بالشرع وأن ما هم عليه ليس بحجة، فقال: «وكنت في أثناء ذلك قد دخلت في بعض خطط الجمهور من الخطابة والإمامة ونحوها، فلما أردت الاستقامة على الطريق وجدت نفسي غريبًا في جمهور أهل الوقت؛ لكون خططهم قد غلبت عليها العوائد ودخلت على سننها الأصلية شوائب من المحدثات الزوائد ولم يكن ذلك بدعًا في الأزمنة المتقدمة فكيف في زماننا هذا؟! فقد روي عن السلف الصالح من التنبيه على ذلك كثير كما روي عن أبي الدرداء، أنه قال: لو خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عليكم ما عرف شيئًا مما كان عليه هو وأصحابه إلا الصلاة! قال الأوزاعي: فكيف لو كان اليوم؟ قال عيسى بن يونس: فكيف لو أدرك الأوزاعي هذا الزمان؟

وعن أم الدرداء قالت: دخل أبو الدراداء وهو غضبان، فقلت: ما أغضبك؟ فقال: والله ما أعرف فيهم شيئًا من أمر محمد إلا أنهم يصلون جميعًا.

وعن أنس بن مالك قال: ما أعرف منكم مما كنت أعهده على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم غير قولكم: لا إله إلا الله! قلنا: بلى، يا أبا حمزة؟ قال: قد صليتم حتى تغرب الشمس، أفكانت تلك صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وعن أنس قال: لو أن رجلا أدرك السلف الأول، ثم بعث اليوم ما عرف من الإسلام شيئًا، قال: ووضع يده على خده ثم قال: إلا هذه الصلاة، ثم قال: أما والله على ذلك لمن عاش في النكر ولم يدرك ذلك السلف الصالح فرأى مبتدعًا يدعو إلى بدعته ورأى صاحب دنيا يدعو إلى دنياه، فعصمه الله من ذلك وجعل قلبه يحن إلى ذلك السلف الصالح يسأل عن سبلهم ويقتص آثارهم ويتبع سبيلهم ليعوض أجرا عظيما وكذلك فكونوا إن شاء الله.

وعن ميمون بن مهران قال: لو أن رجلا أنشر فيكم من السلف، ما عرف غير هذه القبلة.

---

(١) سورة النساء (آية: ٥٩).

وعن سهل بن مالك عن أبيه قال: ما أعرف شيئًا مما أدركت عليه الناس إلا النداء بالصلاة... إلى ما أشبه هذا من الآثار الدالة على أن المحدثات تدخل في المشروعات، وأن ذلك قد كان قبل زماننا وإنما تتكاثر على توالي الدهور إلى الآن» انتهى[1]، مع الملاحظة أن الشاطبي توفي سنة ٧٩٠ هـ رحمه الله!

* * *

(١) كتاب (الاعتصام) للشاطبي.

الأدلة على عدم الضرب والقسوة:

لقد سبق أن ذكرنا أبرز الأدلة الواردة في عدم الضرب وأوضحها، وهو الحديث الذي ورد في صحيح الإمام مسلم؛ أنه صلى الله عليه وسلم لم يضرب أحدًا قط، ولكن مع ذلك سنذكر بعض الأدلة التي تدل على عدم ضرب الطلاب والقسوة عليهم، والتي تبين مبادئ ديننا الإسلامي العظيم الذي يحث على سمو الأخلاق وإيجابيتها في كل جوانبه.

وخير من يترجم تلك المبادئ النبيلة من جميع جوانبها، ويتمثل تلك الأخلاق ويظهرها للناس، هو رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أرسله الله عز وجل بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، فبعثه الله تعالى لذلك الغرض النبيل الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ»[1].

وعلى هذا الأساس العظيم، نتعرف (مقتدين) على جوانب عظيمة من المنهج الكامل لرسول صلى الله عليه وسلم في التربية، وذلك في عدم الضرب والقسوة، وفي معاملته الحسنة مع الجميع مع جميع الناس[2]، حتى معاملته مع الحيوان، وكذلك في طريقة تعامله مع من أخطأ، وحثه على المعاملة الحسنة؛ كالرفق والإحسان الرحمة واللين والعفو والصفح...، وفي المقابل نهيه عن عكسها؛ كالعنف والتسلط والقسوة... وسيأتي بيان ذلك.

وكذلك نستدل على خطأ استعمال الضرب والتسلط والقسوة، بما أثبتته الدراسات والعلوم التربوية والنفسية والاجتماعية الحديثة، والتي يعاديها البعض- مع الأسف- مع أن الحكمة ضالة المؤمن، فأنَّى وجدها فهو أحق بها.

وبعد معرفة منهج النبي صلى الله عليه وسلم سنعرف أن الضرب والقمع والقسوة

---

(١) صححه الألباني.

(٢) وليس هذا خاصًا برسول الله صلى الله عليه وسلم، بل لجميع المسلمين؛ فالمسلم هو خير إنسان يتميز بالتعامل الحسن مع جميع الناس؛ لأن دينه يحثه على ذلك، فهو منبع الأخلاق الحسنة، ويتبن هذا من الحديث البليغ الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ». حسنه الألباني.

شيء دخيل على المسلمين، فشتان بين المدرسة الفرعونية القائمة على العقاب والعنف، والمدرسة النبوية القائمة على الرحمة والسماحة والتيسير.

فكان حريًّا بالمسلمين ألا يُدخلوا بعض تلك المبادئ الفرعونية الجاهلية بينهم، فضلًا عن مناقشتها والدفاع عنها بعد أن أشرق نور الإسلام وقضى على تلك الجاهلية والتخلف. مع العلم أن الحبيب صلى الله عليه وسلم قد حذرنا من النكوص عن منهجه القائم على الحب والتراحم، ومن ذلك قوله في حجة الوداع بعد أن شدد في تحريم دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم وأشهد الناس، قال: «لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»[١].

تعامله صلى الله عليه وسلم مع الناس:

وللذكرى نختار من كتاب الله الكريم ثلاث آيات، تشير إلى طريقة تعامل حبيبنا صلى الله عليه وسلم مع الناس عامة والمؤمنين خاصة:

الآية الأولى: قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[٢].

الآية الثانية: قال الله عز وجل: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾[٣].

الآية الثالثة: قال الله تعالى: ﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾[٤].

يقول المستشرق الألماني برتلي سانت هيلر[٥]: «كان محمد رئيسًا للدولة وساهرًا على حياة الشعب وحريته، وكان يعاقب الأشخاص الذين يجترحون الجنايات حسب

---

(١) صحيح البخاري ومسلم.

(٢) سورة آل عمران، الآية: (١٥٩).

(٣) سورة الأنبياء، الآية: (١٠٧).

(٤) سورة التوبة، الآية: (١٢٨).

(٥) مستشرق ألماني (١٧٩٣-١٨٨٤م)، وذكر ذلك في كتابه (الشرقيون وعقائدهم).

أحوال زمانه وأحوال تلك الجماعات الوحشية التي كان يعيش النبي بين ظهرانيها، فكان النبي داعيًا إلى ديانة الإله الواحد، وكان في دعوته هذه لطيفًا ورحيمًا حتى مع أعدائه، وإن في شخصيته صفتين هما من أجل الصفات التي تحملها النفس البشرية وهما العدالة والرحمة» انتهى.

تعامله مع الأطفال:

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه، يسلم على الأطفال ويمسح على رؤوسهم ويدعو لهم ويلاطفهم (ولا يضربهم).

وسنذكر بعض الأحاديث التي تبين كيفية تعامله صلى الله عليه وسلم مع الأطفال:

عن أنس بن مالك، قال: «ما رأيت أحدًا كان أرحم بالعيال من رسول الله صلى الله عليه وسلم»[1].

وعن أسامة بن زيد رضى الله عنهما: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذني فيقعدني على فخذه، ويقعد الحسن على فخذه الأخرى، ثم يضمهما ثم يقول: «اللَّهُمَّ ارْحَمْهُمَا فَإِنِّي أَرْحَمُهُمَا»[2].

وعن أنس رضي الله عنه قال: رأى النبي صلى الله عليه وسلم النساء والصبيان مقبلين- قال: حسبت أنه قال: من عرس- فقام النبي صلى الله عليه وسلم مُمْثِلًا، فقال: «اللَّهُمَّ أَنْتُمْ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ» قالها ثلاث مرار[3].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى بالصبيان فيدعو لهم بالبركة، ويحنكهم»[4].

وعن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: جاءتني امرأة معها ابنتان تسألني، فلم تجد عندي غير تمرة واحدة! فأعطيتها، فقسَمَتْها بين ابنتيها، ثم قامت

---

(١) صحيح مسلم.

(٢) صحيح البخاري.

(٣) صحيح البخاري. «مُمْثِلاً»، أي: منتصبًا.

(٤) صحيح مسلم.

فخرجت، فدخل النبي صلى الله عليه وسلم فحدثته، فقال: «مَنْ يَلِي مِنْ هَذِهِ البَنَاتِ شَيْئًا فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ، كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ»[١].

وعن أبي قتادة، قال: «خرج علينا النبي صلى الله عليه وسلم وأمامة بنت أبي العاص على عاتقه، فصلى فإذا ركع وضعها، وإذا رفع رفعها»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَبَّل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن بن علي، وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسًا، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: «مَنْ لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ»[٣].

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: تُقبِّلون الصبيان؟! فما نقبلهم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أَوَ أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ؟!»[٤].

خير المعلمين وقدوتهم:

وكذلك نختار من السنة المطهرة حديثين يتبين من خلالهما مدى بعد رسول الله (المُعلِّم) صلى الله عليه وسلم عن الضرب والقسوة:

قال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا ولا مُتَعَنِّتًا، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا وَمُيَسِّرًا»[٥].

وعن أنس رضي الله عنه قال: «خدمتُ النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين بالمدينة، وأنا غلام ليس كل أمري كما يشتهي صاحبي أن أكون عليه، ما قال لي فيها: أف، قط وما قال لي: لم فعلت هذا، أو: ألا فعلت هذا»[٦].

---

(١) صحيح البخاري.

(٢) صحيح البخاري.

(٣) صحيح البخاري.

(٤) صحيح البخاري.

(٥) صحيح مسلم.

(٦) صححه الألباني، ومما قال صاحب عون المعبود في شرح سنن أبي داود: «(ليس كل أمري): أي ليس كل خدمة من خدماتي التي خدمت بها النبي صلى الله عليه وسلم. (كما يشتهي صاحبي):=

ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم:

وكذلك نختار من المدرسة النبوية، ذلك الخطاب العام الموجه لجميع المسلمين من الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي تربى وتعلم في مدرسة النبوة واستن بسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم واقتفى أثره:

روى الإمام أحمد في مسنده: عن أبي فراس، قال: خطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: «ألا إني والله ما أرسل عمالي إليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم، فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إليَّ، فوالذي نفسي بيده! إذن لأقصنه منه» فوثب عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين، أورأيت إن كان رجل من المسلمين على رعية فأدب بعض رعيته[1] أئنك لمقتصه منه؟! قال: «إي والذي نفس عمر بيده! إذن لأقصنه منه؛ وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه، ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تجمروهم فتفتنوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم»[2].

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أيضًا في قصته المشهورة، التي ضُرب فيها القبطيُّ، والتي أطلق فيها تلك الصيحة العمرية التي يرفعها المسلمين نبراسًا أمام طغيان العالم وظلمه، حيث قال لوالي مصر: «متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟!»[3].

= أي النبي صلى الله عليه وسلم. (أن يكون): أي أمري عليه؛ أي على ما يشتهي، أي مما يكون موافقًا لما يشتهيه صاحبي، يريد به النبي صلى الله عليه وسلم، بل كان منها ما يكون مخالفًا لما يشتهيه صلى الله عليه وسلم ومع ذلك لم يقل في شيء مما خالف ما يشتهيه في مدة الخدمة وهي عشر سنين كلمة أف قط، وهذا من كمال خلقه الجميل، (ما قال لي فيها): أي في مدة خدمتي وهي عشر سنين» انتهى.

(١) انظر إلى الخليفة الراشد الذي تربى في مدرسة النبوة، يمنع من الضرب ولو كان للتأديب، بل لو كان من الأمير، فكيف بالضرب من المعلم؟!.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، وحسنه المحدث أحمد شاكر رحمهم الله تعالى. «تجمر»: تحبس. «الغياض»: جمع الغيضة وهي موضع تجتمع فيه الأشجار.

(٣) كتاب (مناقب عمر بن الخطاب) لابن الجوزي.

بل إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فصل أحد المسؤولين من عمله؛ لأنه لا يقبل أولاده، خوفًا من أن يقسو أو يسيء إلى من هو مسؤول عنهم[1].

* * *

(١) روى الدينوري فقال: استعمل عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلا على عمل، فرأى عمر رضي الله عنه يقبل صبيًّا له، فقال: تقبله وأنت أمير المؤمنين؟! لو كنت أنا ما فعلته. فقال عمر رضي الله عنه: «فما ذنبي إن كان قد نزع من قلبك الرحمة، إن الله لا يرحم من عباده إلا الرحماء». قال: ونزعه عن عمله وقال: «أنت لا ترحم ولدك فكيف ترحم الناس». كتاب (المجالسة وجواهر العلم) للدينوري.

الآثار المترتبة على الضرب والقسوة:

وبعد تفنيد حجج القائلين بالضرب وبيان الأدلة على ذلك، نرى أنه ينبغي بيان الآثار المترتبة على الضرب والقسوة؛ لأنه يربي الطفل على الإهانة والخنوع والذل، وهذا ينعكس على مجتمعه فيما بعد- ويعيشه الآن كثير من المسلمين- فالعملية التربوية تقوم على مبدأ الرعاية والتكريم والإصلاح، وليس على الوصاية والتسلط والغلظة والإرغام.

ولا يخفى أن التربية السلبية للطالب تجعل منه إنسانًا يتعامل في حياته العادية ويحل مشاكله بالعنف والتسلط، وليس بالرفق والتفكير المتزن.

ولقد أثبتت تربية النبي صلى الله عليه وسلم الفعلية إمكانية التربية من دون استخدام العنف والضرب للأولاد أو النساء؛ لأن ترك الضرب والعنف يحفظ كرامة الإنسان ويوثق علاقات التواصل والمودة، ويبني الشخصية الإنسانية المعتدلة التي تعامل الناس بالأخلاق الحسنة.

ولقد عاش الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم عمره المبارك وما ضرب بيده أحدًا قط، فربى أولاده وأولاد بناته، وكذلك ربى غيرهم ولم يضرب أحدا منهم قط؛ فهو قدوتنا، فهل من مقتدٍ؟!

وجاء في وصية ابن سحنون الفقيه القيرواني المالكي في وصية لمعلم ابنه: «لا تؤدبه إلا بالمدح ولطيف الكلام، وليس هو ممن يؤدب بالضرب والتعنيف»[1].

وكثيرًا ما نسمع ونقرأ الدعوات الملحّة من العلماء والمتخصصين في التربية وعلم النفس، إلى اجتناب استخدام العقاب في التعليم، لكون العقاب يعد من أسوأ الأساليب التربوية، بل له عواقب نفسية واجتماعية بالغة السوء.

وهذا ما جعل أغلب وزارات التربية في دول العالم- إن لم تكن جميعها- تمنع الضرب والعنف وتدعو المربين لأساليب تربوية بعيدة عن العقاب، لهذا تم إلغاء العقاب البدني بجميع أشكاله ودرجاته؛ لأن ضرره أكبر من نفعه على المستوى القريب

(١) كتاب (رياض النفوس) لأبي بكر المالكي.

والبعيد، ولوجود البدائل الكثيرة التي تغني عن العقاب ويكون أثرها خيرًا منه.

ولهذا؛ فلا بد من التحذير من العنف التربوي بكافة صوره، في الأسرة أو المدرسة أو المجتمع، فضرب الأطفال واستعمال العنف والقسوة والقمع والتسلط (لأي سبب كان) هو العامل الأساسي للمشاكل والعقد النفسية التي تنشأ صغيرة ثم تكبر مع نمو الطفل، الذي يتكون منه المجتمع بكل مشاكله، ولبيان ذلك سيأتي ذكر بعض الآثار والملاحظات المترتبة على ذلك، ثم تبيينها بعد ذلك بشيء من التفصيل والإيضاح، ولكن قبل ذلك نسأل:

من ضرب القطة؟!

إذا رأيت طفلًا يضرب قطة، فمن ضرب القطة؟!

قبل أن تجيب على السؤال.. اسمع القصة كاملة..

مدير متسلط جاء إليه المعلم متأخرًا بسبب ظروفه الخاصة، واعتذر المعلم للمدير، ولكن المدير لم يقبل العذر، أراد المعلم أن يشرح موقفه، لكن المدير رفع صوته على المعلم ووبخه توبيخًا قاسيًا وأمره بالذهاب إلى درسه.

ذهب المعلم وهو في حالة غضب شديد إلى درسه، أقبل إليه أحد الطلاب ليعتذر عن حل الواجب، لكن المعلم دفعه بعيدًا، وأمره بالخروج من الصف.

خرج الطالب باكيًا، مكسور الخاطر، وعندما ذهب الطالب إلى بيته، أقبلت إليه قطته الأليفة تتمسح به، لكنه ضربها برجله وأبعدها عنه.

السؤال: من ضرب القطة؟

هل هو: المدير، أو المعلم، أو الطالب؟

أضرار الضرب والقسوة:

إن لاستخدام الضرب أضرارًا كبيرة على المتعلم، وليس المقصود هو الضرب فقط، فالضرب (الأذى) بالكلام قد لا يقل أثرًا عن (الأذى) الحسي، وكما قيل: «جرح اللسان أشد من جرح السنان»، فكيف بمن يجمع بين الضرب الجسدي والضرب

المعنوي، ولمن يكون هذا الضرب؟

هل هو لعدو محارب؟!

بالتأكيد لا، إنه لطفل عندما خرج إلى هذه الحياة، خرج وهو لا يعلم شيئًا، فهو في أمس الحاجة لمن يعلمه ما ينفعه.

ولكن المشكلة الكبرى عندما يستخدم العقاب لهذا الطفل البريء، فيعاقب، بل يستخدم هذا العقاب في مراحل حياته الطفولية الغضة.

وهنا يتساءل هذا الطفل في نفسه:

لماذا هذا العقاب؟

ومن الذي يعاقبني؟

فيجد الإجابة التي تحز في نفسه:

كُنْتُ مِنْ كُرْبَتِي أَفِرُّ إِلَيْهِمْ فَهُمُ كُرْبَتِي فَأَيْنَ الفِرَارَ؟!

إن ذلك من الإنسان الذي كنت أنتظر منه أن يأخذ بيدي إلى مراقي الفلاح وسبل السعادة، فيحترمني، ويعاملني معاملة تربوية تحقق لي الأمن والطمأنينة والحب، وينمي شخصيتي، ويشعرني بقيمتي، ويرعى مواهبي وإبداعاتي، ويغرس في نفسي الثقة وحب المعرفة، ويكسبني السلوك الحميد والاستقامة والمودة للآخرين، ويتحمل في سبيل ذلك إخفاقاتي وأخطائي، بل ويحل مشاكلي... كنت أنتظر خيرًا ونفعًا كثيرًا، فخاب أملي ولكن ممَّن؟ إنه من أقرب الناس لي نفعًا، إنه من والدي أو من معلمي!!!

وَظُلْمُ ذَوِي القُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً عَلَى النَّفْسِ مِنْ وَقْعِ الحُسَامِ المُهَنَّدِ

وبسبب هذه التربية السلبية تكون النتائج سلبية؛ لأن من تأمل هذه التربية السلبية سيرى فيها آثارا مدمرة تنخر في الفرد، ومن ثم في المجتمع، وتتمثل في إهانة كرامة الطالب بسب الاعتداء عليه؛ مما يشعره بالذل والانكسار والدونية والخنوع، فتتحطم نفسيته المهزومة المحبطة؛ وبهذا يفقد الثقة في نفسه ويفقد التقدير لذاته، فينشأ مكبوتًا مشتت الذهن مضطربًا نفسيًا وعصبيًا....

وهذا يؤدي إلى نزع- أو قتل أو إضعاف- المشاعر والأحاسيس والعواطف الخيرة الحسنة؛ كالحب والإيثار والبذل والتضحية والتسامح والشجاعة...

وفي المقابل تنغرس فيه الأخلاق والعادات السيئة؛ كالخوف والجبن والكذب والنفاق والخجل والحقد والعناد والحسد والكره والاستهزاء والغيبة والنميمة والأنانية، وهذا يظهر بوضوح عند ضرب الطالب أو توبيخه أمام زملائه بألفاظ نابية.

إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيكُنَّ ظِلٌّ وَلا جَنًى فَأَبْعَدَكُنَّ اللهُ مِنْ شَجَرَاتِ

وكل هذا يساعد على زرع بذور الجريمة والفساد في نفسية الطفل، ومن ثم في المجتمع؛ كالحقد والكراهية والتفكير بالانتقام... فعلى من يقع اللوم؟

تَلُومُ عَلَى القَطِيعَةِ مَنْ أَتَاهَا وَأَنْتَ سَنَنْتَهَا لِلنَّاسِ قَبْلِي!

أما من الناحية التعليمية، فإن القسوة تضعف أو تقضي على العلاقات الإيجابية بين المعلم والمتعلم؛ كالحب والتواد والتعاطف...، وتخالف الطرق الإيجابية لتوجيه الطالب بما يتوافق مع اهتماماته ومتطلباته وحاجاته النفسية والفكرية..، وكذلك تضعف الطاقات العقلية؛ كالإبداع والنبوغ والتميز... وبهذا يقل التحصيل العلمي.

وكل ذلك يعمل على ترسيخ ثقافة القمع والعنف وشهوة التسلط وروح الانتقام، والجنوح في حل المشكلات؛ فتنشأ مشكلات الطلاب وتزيد، ومن تلك المشكلات ما يأتي:

أ- مشكلات تخص الطالب نفسه: تكلمنا عن بعضها.

ب- مشكلات الطلاب فيما بينهم: كالشتم والسب والضرب والكره والسخرية والتنابز بالألقاب والغيبة والنميمة والحقد والسرقة... فهذه الصفات مترابطة وبعضها يتسبب في إحداث الأخرى؛ كالنميمة تحدث الكره والحقد والخلاف...

ت- مشكلات بين الطلاب والمعلمين: بكل أشكالها المعنوية والمادية، وبهذا (يحصدون ما زرعوا).

ث - مشكلات بين الطلاب وبين المدرسة: كتحطيم أثاث المدرسة والكتابة عليها

(تفريغ داخلي)، وكذلك (كره المدرسة بكل ما فيها بل كره التعليم والعلم كذلك)[(١)]؛ مما يدفع البعض إلى الغياب والتمرد والهروب من المدرسة واللجوء لأصحاب السوء، ثم لا يلبث أن ينحرف.

ج- مشكلات بين الطالب والبيت: كالخلافات مع الوالدين وضرب الإخوان (والزوجة والأبناء فيما بعد)، والتأثر يكون بالقدوة، أو تفريغ وانتقام وحقد... أو بالجميع.

ح- مشكلات بين الطالب والمجتمع- سبق ذكرها- سواء في مرحلة التعليم أو بعد ذلك، والواقع خير برهان.

إِحْرِصْ عَلَى صَوْنِ القُلُوبِ مِنَ الأَذَى ... فَرُجُوعُهَا بَعْدَ التَّنَافُرِ يَعْسُرُ
إِنَّ القُلُوبَ إِذَا تَنَافَرَ وُدُّهَا ... مِثْلُ الزُّجَاجَةِ كَسْرُهَا لا يُجْبَرُ

الارتباط الشرطي:

نظرية الارتباط الشرطي للعالم الروسي (إيفان بافلوف ١٨٤٩-١٩٣٦):

أجرى بافلوف التجربة التالية:

جاء فيها بكلب، ثم أحضر مقدارًا من اللحم، ثم قرع جرسًا كهربائيًّا يسمعه الكلب قبل وضع اللحم في فمه مباشرة، وبعد تكرار هذه التجربة للعديد من المرات لاحظ أن لعاب الكلب يسيل بمجرد سماع الجرس بدون وضع الطعام في فمه.

---

(١) في محاضرة لأحد المتخصصين في التربية، ألقى على مجموعة من المعلمين حدثا واقعيا، ثم سألهم حوله، ثم بين الموقف التربوي تجاهه، حيث قال: قام أحد الطلاب بحمل طاولته التي يدرس عليها، ثم ذهب بها إلى بهو المدرسة، فألقاها من الدور الثاني.

ثم سأل المعلمين، فقال: لو حصل أمامك هذا الموقف، ماذا ستعمل؟ وكيف ستتصرف مع هذا الطالب؟ فأجاب أكثر المعلمين بأن الحل هو العقاب، ولكنهم اختلفوا في نوع العقاب، مثل الضرب، الطرد من المدرسة، الصراخ، التوبيخ....

ولكن المتخصص التربوي بين لهم أن هذا الطالب يعاني من الكره للمدرسة بجميع ما فيها، فجمع كل هذا الكره وحصره في هذه الطاولة التي أمامه ثم ألقاها محاولًا التخلص مما يعاني.

وليس الحل في أن نعاقبه؛ لأنا سنزيد الطين بلة، ولكن الحل يكمن في أن نزيل هذا الكره؛ ليكون الطالب سويًّا محبًّا للمدرسة وما فيها.

ومع أن هذه التجربة تبدو كأنها ساذجة أو تحصيل حاصل في معطياتها إلا أنها تمثل على المستوى العلمي ابتكارًا في غاية الأهمية والخطورة.

- طعام (مثير طبيعي)- لعاب (استجابة طبيعية)- صوت الجرس (مثير شرطي محايد)- لعاب (استجابة شرطية).

فيؤخذ من هذه التجربة أنه يمكن لأي مثير خارجي محايد أن يكتسب القدرة على التأثير على الإنسان، إذا ما اقترن بمثير آخر من شأنه أن يثير فعلا استجابة طبيعية، وقد تكون هذه المثيرات مقصودة أو غير مقصودة، ولقد استغلت هذه النظرية- وغيرها- في التأثير على الناس والتحكم في توجيههم، فاستغلت من جهات كثيرة؛ مثل الوسائل الإعلامية؛ كالدعايات والإعلانات والبرامج الموجهة...، ولكن هل استغل المعلمون هذه النظرية استغلالًا إيجابيًّا؟

- لا شك أن بعض المعلمين المجتهدين استغلوها استغلالا إيجابيًّا، فجزاهم الله خيرًا، ولكن هناك نوعين آخرين من المعلمين استغلوها استغلالًا سلبيًّا؛ وهم كما يأتي:

النوع الأول: استغلها سلبيًّا بنية سيئة.

النوع الثاني: استغلها سلبيًّا ولكن بجهل.

ولبيان ذلك سنورد صورة لكل نوع:

النوع الأول: طفل يقول: أنا لا أحب محمدًا!

دخل الطفل من إحدى الجنسيات العربية وهو في المرحلة الابتدائية إلى البيت فسألته أمه: كيف قضى يومه في مدرسته الأجنبية؟

قال الطفل: ماما... أنا لا أحب محمدًا!

قالت الأم: ومن محمد؟

قال: الرسول المسلم.

تقول الأم وهي تشكو هذا الموضوع لإذاعة القران الكريم، وكانت عبرتها تخنقها: أحسست بصدمة كبيرة، فنحن عائله ملتزمة، فكيف يخرج ابني بهذا الفكر!

تقول: لم أهتم بتعليمه الصلاة، فهو إلى الآن لم يكمل حتى التاسعة من عمره!

قالت له بعد أن حاولت أن تفهم منه: محمد عليه السلام هو رسولنا وحبيبنا، كيف تقول هذا الكلام؟!

قال: لأنه لا يعطيني الشوكولاتة..!

تقول الأم: استغربت قوله هذا.. وقلت له: وهل رأيته أنت حتى يعطيك؟؟

قال: لا، ولكن اليوم قالت لنا المدرسة: إن محمدًا سوف يأتي بروحه إلى المدرسة.. والمسيح عليه السلام سوف يأتي.. وسنرى من تحبون ومن هو الكريم!! طلبت المعلمة من الأطفال أن يغمضوا أعينهم ويضعوا رؤوسهم على الطاولة.. امتثل التلاميذ لها.. وقالت: الآن سيأتي محمد وسنرى هل يعطيكم هدية أم لا! بعد فترة قالت لهم: افتحوا أعينكم.. وعندها لم يجدوا شيئًا.. فأصاب الأطفال الإحباط..! وقالت: لنرى ماذا سيعطيكم المسيح؟! أغمضوا أعينهم مرة أخرى.. وعندما فتحوها وجدوا الشوكولا..» انتهى[1].

لا شك أن هذه صورة سيئة بنية خبيثة لإفساد المسلمين وإبعادهم عن دينهم بجعلهم يبغضون الإسلام، وهذا من أخطار المدارس الأجنبية.

النوع الثاني: جريمة في حق أبناء الجالية المسلمة بالغرب:

ذكر الاستشاري النفسي والتربوي الدكتور مصطفي أبو سعد في كتابه (الأطفال المزعجون)، رسالة من أحد المسلمين المقيمين في بريطانيا يسأله عن طريقة يقوم بها بعض الإخوة المشرفين على تحفيظ القرآن فيقول: «لقد ذكرت في مجلة «الفرقان» العدد رقم «٤١١» للسنة الحادية عشرة تحت عنوان «المسجد ورسالته التربوية» الحلقة «٣٢»، عن مكانة المسجد في تنشئة الأجيال وأثرها على شخصية الإنسان المسلم، فبارك الله فيك على هذه اللفتة القيمة، وكم نحتاج هذا في بلاد الغرب، حيث يقضي أولادنا معظم وقتهم في المدارس الحكومية.

فهنا تبرز أهمية ارتباط أولادنا بحلقات تحفيظ القرآن الكريم في المراكز الإسلامية

---

(١) منتديات وزارة التربية والتعليم.

المتاحة هنا على سبيل المثال في بريطانيا، ولكنني لاحظت أن بعض الإخوة المشرفين على تحفيظ القرآن يستعمل الضرب وأحيانًا الضرب بقسوة، أو العقوبة الجماعية، حتى إنك لترى الطفل يبكي بين يديه ويتوسل إليه، ولكن دون فائدة والأطفال الآخرون يجلسون مرعوبين وكأن على رؤوسهم الطير، والعصا التي يستخدمها الأخ تكاد بطولها تصل إلى كل أنحاء الغرفة التي يدرس بها، ومن الغريب أن بعض الآباء راضون عن ذلك؛ لأنهم يرون أن الأطفال يحفظون أكثر عند الأخ الذي يستخدم الضرب مقارنة بالذي لا يستخدم العصا؛ فالغاية تبرر الوسيلة.

لذلك تجد الأطفال يبكون قبل دخول المركز خوفًا من المعلم، ولكنهم يجبرون على ذلك، وفي المقابل ترى الطفل مسرورًا بذهابه إلى مدارس أهل الكتاب.

الحجة عندهم في الضرب هو ما ألفوه من الكُتّاب قديمًا، حيث كان الشيخ يستعمل الضرب نوعًا من العقوبة.

فالسؤال هنا: ما تأثير هذه الطريقة في التعليم على الأطفال من النواحي الآتية:

١- التأثير النفسي على الطفل وربط تحفيظ القرآن بالضرب، وارتباط ذهابه إلى المدرسة النصرانية باللعب والمرح.

٢- التأثير على شخصية الطفل وتعامله مع المجتمع لحيرته بين نقيضين.

٣- التأثير على شخصيته عندما يصبح شابًا في المجتمع الغربي، ألا يؤثر ذلك سلبًا على أطفالنا؟

أرجو- إن أمكن- الإجابة عن ذلك في عددكم القادم حتى تكون الفائدة عامة، وجزاكم الله كل خير» انتهى السؤال.

فأجاب الدكتور مصطفي أبو سعد بإجابة يبين فيها ألمه من تلك الطريقة، وما ينبغي عمله تجاه أبناء المسلمين، وقال في آخرها: «استخدام العصا في هذه الأحوال يعتبر جريمة في حق أبناء الجالية المسلمة بالغرب، لاسيما من قبل المحفظين والمراقبين وذلك للآثار السلبية على شخصية الطفل؛ ومنها:

أ- ربط حفظ القرآن بالعقاب والعصا، وفي ذلك زرع لكراهية القرآن في نفوس الأطفال.

ب- استعمال العصا في المسجد مقابل الأساليب التشويقية المتبعة في المدارس الغربية يجعل الطفل يميل ولاءً ومحبةً وعاطفةً للمدرس الغربي غير المسلم، ويكره المعلم المسلم، وفي ذلك بلاء عظيم لمستقبل الطفل وأخلاقه وأفكاره وعقيدته..

ج- مقارنة الطفل بين الأسلوبين المتبعين في المدارس الغربية والإسلامية، تجعل ميله للأولى ويغلب نوع التربية التي يتلقاها منها على حساب تربية المسجد» انتهى[(١)].

وهنا يعجب المرء من أن بعض المعلمين- هداهم الله- لا يكتفون بضرب أبناء المسلمين في بلاد المسلمين، بل يتبعونهم خارج العالم الإسلامي ويضربونهم هناك!

ألا يكفي أن الكثير من أبناء العالم الإسلامي يكره التعليم، لدرجة أن البعض يقفز من الدور الثاني فيتكسر، ومع ذلك يصدرون تربيتهم السلبية إلى أبناء المسلمين في الخارج![(٢)].

ومع هذا، لا نشك أن هذا العمل السلبي صادر من جهل وليس من سوء نية، كما في النوع الأول؛ فلهذا لابد من أن يجتمع العلم وحسن النية.

* * *

---

(١) كتاب (الأطفال المزعجون) لمصطفي أبو سعد.

(٢) وقد مر معنا قول الدكتور أمجد قورشة الداعية الإسلامي: «للأسف، خلافاتنا في بلداننا، أمراضنا الفكرية والسلوكية والأخلاقية نحملها إلى هناك».

أقوال المتخصصين:

وختامًا نذكر أقوال بعض المتخصصين:

ذكر الأستاذ مصطفى أبو سعد الدكتور في علم النفس التربوي، بعض النتائج السلبية للضرب؛ فقال:

«**من أضرار الضرب ١٥ نتيجة سلبية**[1]:

١- ضرب الطفل يولد كراهية لديه تجاه ضاربه؛ مما يقتل المشاعر الإيجابية المفترض أن تجمع بينهما وتقربهما بعضهما من بعض..

٢- اللجوء إلى الضرب يجعل العلاقة بين الطفل وضاربه علاقة خوف لا احترام وتقدير.

٣- الضرب ينشئ أبناء انقياديين لكل من يملك سلطة وصلاحيات أو يكبرهم سنًّا أو أكثرهم قوة.. هذا الانقياد يضعف الشخصية لدى الأبناء ويجعلهم شخصية أسهل للانقياد والطاعة العمياء، لاسيما عند الكبر مع رفقاء السوء..

٤- الضرب يقتل التربية المعيارية القائمة على الاقتناع وبناء المعايير الضرورية لفهم الأمور والتمييز بين الخطأ والصواب والحق والباطل..

٥- الضرب يلغي الحوار والأخذ والعطاء في الحديث والمناقشة بين الكبار والصغار ويضيع فرص التفاهم وفهم الأطفال ودوافع سلوكهم ونفسياتهم وحاجاتهم..

٦- الضرب يفقر الطفل ويحرمه من حاجاته النفسية للقبول والطمأنينة والمحبة..

٧- الضرب يعطي أنموذجًا سيئًا للأبناء ويحرمهم من عملية الاقتداء..

٨- الضرب يزيد حدة العناد عند غالبية الأطفال ويجعل منهم عدوانيين..

٩- الضرب قد يضعف الطفل ويحطم شعوره المعنوي بقيمته الذاتية فيجعل منه منطويًا على ذاته، خجولًا لا يقدر على التأقلم والتكيف مع الحياة الاجتماعية..

---

(١) هذه النتائج السلبية بسبب الضرب (الأذى) الجسدي فقط، فكيف بمن يجمع بين الأذى الجسدي والمعنوي؟!

١٠- الضرب يبعد الطفل عن تعلم المهارات الحياتية: (فهم الذات- الثقة بالنفس- الطموح- النجاح...) ويجعل منه إنسانًا عاجزًا عن اكتساب المهارات الاجتماعية (التعامل مع الآخرين أطفالًا كانوا أم كبارًا).

١١- اللجوء إلى الضرب هو لجوء لأدنى المهارات التربوية وأقلها نجاعة ونجاحًا.

١٢- الضرب يعالج ظاهر السلوك ويغفل أصله؛ ولذلك فنتائج الضرب عادة ما تكون مؤقتة ولا تدوم عبر الأيام.

١٣- الضرب لا يصحح الأفكار ولا يجعل السلوك مستقيمًا.

١٤- الضرب يقوي دافع السلوك الخارجية على حساب الدافع الداخلي الذي هو الأهم دينيًا ونفسيًا.. فهو يبعد عن الإخلاص ويقرب من الرياء والخوف من الناس.. فيجعل الطفل يترك العمل خوفًا من العقاب، ويقوم بالعمل من أجل الكبار.. وكلاهما انحراف عن دوافع السلوك السوي الذي ينبغي أن يكون نابعًا من داخل الطفل (اقتناعًا- حبًا- إخلاصًا- طموحًا- طمعًا في النجاح وتحقيق الأهداف، وخوفًا من الخسارة الذاتية).

١٥- الضرب قد يدفع الطفل إلى الجرأة على الأب والتصريح بمخالفته والإصرار على الخطأ» انتهى[١].

وتحت عنوان: (الضرب أسلوب انهزامي)، قال الدكتور مصطفى أبو سعد: «ضرب الطفل الصغير على سلوكيات مزعجة؛ من مثل العناد وكثرة الحركة وإزعاج الضيوف... أسلوب انهزامي من الكبار وسياسة غير صحيحة في التربية؛ لأنها وسيلة المتسرع ومن لا يملك الأساليب التربوية الناجحة ومن لا يقدر على التحكم في انفعالاته وضبط غضبه» انتهى[٢].

ويقول الدكتور عبدالرحمن العيسوي أستاذ علم النفس: «إن الضرب أو الإيذاء البدني، سواء كان بحسن نية أو بغيرها فهو أسلوب مرفوض من الناحية النفسية

(١) كتاب (الأطفال المزعجون) للدكتور مصطفى أبو سعد.

(٢) المرجع السابق.

والتربوية؛ وذلك لأنه يؤدي إلى كراهية التلميذ للمادة ومعلمها، بل إلى كراهية المدرسة برمتها، كما أنه يولد في التلميذ الشعور بالتعقيد قبل المدرسة، وقد يدفعه إلى الشعور بالجبن والخوف والخضوع والاستسلام، وقد يؤدي به إلى الهروب من المدرسة والعزوف عن تلقي العلم، وقد يؤدي به في بعض الحالات الأخرى إلى تقمص الضرب واتخاذه منهجًا في حياته»[١].

ويقول الدكتور محمد بن أحمد الرشيد[٢] تحت عنوان: (خيار المربين لا يضربون):

«نحن نريد الاحترام القائم على المحبة والثقة، لا على الخوف القائم على العصا!! والنفوس مجبولة على حب من أحسن إليها لا حب من يضربها، حتى ولو كان أبًا أو أمًّا!! وأنا أعرف حالات عديدة انعدمت فيها المحبة الفطرية من نفوس بعض الأولاد لآبائهم، وما ذلك إلا لقسوتهم عليهم، كما أعرف آباء لم يرفعوا على أولادهم يدًا ولا عصًا ومع ذلك يتمتعون بتوقير أبنائهم، ومحبتهم واحترامهم.

إن حرمان الطفل من بعض المكافآت أو الامتيازات التي يتمتع بها، قد يكون من أجدى أنواع العقاب ملاءمة لنفسية الأطفال في المراحل الأولى من دراستهم، وإذا كان هذا العقاب عادلًا فسينمي شعور الطفل بالعدالة، ولن ينجم عنه حقد أو نقمة.

إن الجو المشحون بالانفعال والتوتر له أسوأ الأثر على الشخصية في سنوات الطفولة والمراهقة، وقد يؤدي إلى الاضطراب النفسي والانفعالي والاجتماعي، وهذا قد يكون سببًا لمعاناة فردية واجتماعية كبيرة في المستقبل.

يقول الإمام الغزالي رحمه الله في «الإحياء» في حديثه عن وظائف المعلم ما معناه: «الوظيفة الرابعة: وهي من دقائق صناعة التعليم أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن، ولا يصرح، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ؛ لأن التصريح قد يدفع المتعلم إلى الجرأة على مؤدبه، والتصريح بمخالفته، والإصرار على الخطأ...».

وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إِنَّ الرِّفْقَ لا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إلا زَانَهُ،

---

(١) كتاب (اضطرابات الطفولة والمراهقة وعلاجها) لعبد الرحمن العيسوي.

(٢) دكتور في إدارة التعليم العالي- جامعة أوكلاهوما (الولايات المتحدة) ووزير سابق للتربية والتعليم.

ولا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إلا شَانَهُ»، وفي رواية: «إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لا يُعْطِي عَلَى العُنْفِ، وَمَا لا يُعْطِي عَلَى سِوَاهُ».

فمن أولى بالرفق من تلك الثمرات الطيبة، الرقيقة، البريئة، التي يتعامل المربون معها؟ ومن أولى بالرفق من فلذات أكباد الآباء والأمهات؟ ومتى يكون الرفق أوجب ما يكون مع هؤلاء الصغار؟ بل مع المتعلمين جميعًا لنحبب إليهم طلب العلم والحرص على المزيد من نهله.

إننا في عصر كثرت فيه المغريات، وتنوعت أساليب الترفيه والتسلية تنوعًا لم يعرف له التاريخ مثيلًا، وأصبحت الدعاية والإعلان فنًّا، وعلمًا يدرس في الجامعات والمعاهد، يعتمد على دراسات نفسية واجتماعية عميقة جادة، كل ذلك أدى إلى انصراف الطالب عن الكد والجد، والسهر في طلب العلم والمعرفة، إلى مشاهدة أفلام الفيديو والقنوات الفضائية والانترنت طلبًا للمتعة والتسلية، وما لم نوجد في نفوس أبنائنا الأشواق العارمة للتعلم، والحب العميق للمعرفة، والرغبة الطامحة إلى التفوق، فلن نصل إلى ما نصبو إليه من سيادة وريادة. وبعد هذا فإنه لا بد من التأكيد على أمور ثلاثة هي:

١- أنه لا يلجأ إلى العقاب البدني أو النفسي إلا قليلو الجدارة من المعلمين.

٢- أن الغالب والأعم هو أن طالب المرحلة الابتدائية هو الذي يقع عليه الأذى وقليل جدًّا حدوث ذلك للطالب في المراحل المتقدمة من التعليم.

٣- لا يوجد في أي نظام تعليمي في عصرنا الحاضر من يجعل من الضرب وما شابهه وسيلة تربوية تعليمية، بل إن ذلك ممنوع عالميًّا في كل المؤسسات التعليمية» انتهى[1].

وتحت عنوان: (الضرب دليل فشل المعلم)، يقول الدكتور محمد بن عبدالمحسن التويجري رئيس قسم علم النفس في كلية العلوم الاجتماعية:

«إن الضرب هو الوسيلة السهلة والتي تؤتي نتائج سريعة لمعاقبة الطالب على سلوك معين غير مقبول، هذا من وجهة نظر المعلم، ولكن الضرب ما هو إلا مهدئ أو مسكن مثل حبة «البانادول أو الأسبرين» وبمجرد زوال ألم الضرب، فإن الطالب

(١) باختصار من جريدة الرياض، رقم العدد: (١٤٠٥٠).

يصبح مهيأ للعودة للسلوك غير المرغوب فيه».

ويعتبر التويجري المعلم الذي يستخدم الضرب فاشلا بكل المقاييس؛ لأن المعلم الذي تتوافر فيه السمات الشخصية اللازمة والواجب توافرها في المعلم الناجح لن تجد العصا أو غيرها من وسائل العقاب إلى يده سبيلًا.

ويضيف أن من أهم الآثار المترتبة على الضرب: اهتزاز شخصية الطالب وفقدانه الثقة في نفسه، وتعطل ظهور مهاراته وفكره الإبداعي، إلى جانب عدوانيته وبروز سلوك الضدية لديه، كذلك يصبح لدى التلميذ كره للمدرسة وكل ما يتعلق بالعملية التربوية من العوامل الأخرى، إضافة إلى تأصل السلوك غير المرغوب فيه من باب التحدي في بداية الأمر ثم يصبح سمة شخصية»[(١)].

ويرى الدكتور ألفن فروم، اختصاصي العلاج النفسي أن ضرب الطفل سياسة انهزامية لأنه:

١- يجعل الطفل يخاف من ضاربه ويكرهه.

٢- يعلم الطفل الطاعة العمياء بدلًا عن المناقشة والفهم والتقبل عن اقتناع.

٣- أن التعبير عن المزاج الانفعالي في أثناء الضرب يعطي أنموذجًا سيئًا للاقتداء به.

٤- الضرب القاسي هو أدنى الأساليب التربوية مهارة وأصالة.

٥- وجد في بعض الأحيان أن الضرب يزيد الطفل عنادًا، وبذلك يثبت السلوك الذي نسعى إلى تغييره.

٦- إن هدف التربية هو تصحيح الأفكار والسمو بالرغبات لينشأ عنه سلوك مستقيم لا تعديل السلوك ظاهريًّا فقط»[(٢)].

وقال ماسلو[(٣)]: «إن الذين لا يحصلون على الحب، لن يكون بمقدورهم إعطاء

---

(١) باختصار من منتدى وزارة التربية والتعليم.

(٢) مجلة المعرفة.

(٣) إبراهام ماسلو، عالم نفس أمريكي، اشتهر بنظريته تدرج الحاجات، دكتوراه في الطب النفسي.

الحب للآخرين عندما يصبحون أشخاصًا بالغين»[١].

وقال جان جاك روسو[٢]: «ليس في وسعنا أن نعلم إنسانًا المحبة كما نعلمه القراءة والكتابة، وإنما نعلمه إياها بالمعاملة الطيبة والقدوة الحسنة»[٣].

هل سلطة المعلمين المطلقة مفسدة مطلقة؟

يقول لورد آكتون[٤]: «كل سلطة مفسدة، والسلطة المطلقة مفسدة مطلقة» انتهى.

لا شك أن مبدأ المراقبة المتسلطة للمعلمين من قبل الإدارة سيئ جدًّا، وفيها تحطيم للإنتاج والإبداع، ولكن في المقابل لا تعطى لهم السلطة المطلقة في ضرب الطلاب واستغلالهم وإهانتهم[٥]:

ولكن الحل يكمن باختصار في:

١- معرفة قيمة الإنسان وكرامته التي أهينت منذ نشأته.

٢- تحسين الإدارة السيئة المتسلطة؛ لأن المعلم السيئ معروف للجميع الإدارة والطلاب وأولياء الأمور...

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ

٣- إعداد المعلمين إعدادًا جيدًا، وكذالك إعطاؤهم حقوقهم المادية والمعنوية.

---

(١) مجلة المعلم.

(٢) جان جاك روسو (١٧١٢- ١٧٨٨) فيلسوف سويسري، من أشهر كتبه كتاب (العقد الاجتماعي)، أثرت أفكاره السياسية في الثورة الفرنسية، من أقواله: «الناس يولدون أحرارًا، ولكنهم يستعبدون أينما ذهبوا»، «لو كان العالم في كفة وأمي في كفة لاخترت أمي»، «إن القلب نفسه يدق في كل الصدور الإنسانية»، «القوانين الجيدة تؤدي لخلق قوانين أفضل، والقوانين السيئة تؤدي إلى قوانين أسوأ».

(٣) مجلة المعلم.

(٤) لورد آكتون: مؤرخ بريطاني ١٨٣٤م-١٩٠٢م، من أقواله عن رجال الكنيسة الذين استغلوا سلطاتهم: «إن البابوات لم يكونوا قتلة على أعلى مستوى فحسب، وإنما جعلوا القتل أساسًا شرعيًّا للكنيسة المسيحية وشرطًا من شروط الخلاص».

(٥) وسيأتي الحديث عن الإدارة المتسلطة والمعلم السيئ.

ولكن الخطورة تكمن في التسلط والاستبداد من الأعلى إلى الأدنى، من المدير إلى المعلم والطلاب، ومن المعلم إلى الطلاب.

وهذه المعاني والتميز والطبقي والمستغل... لا توجد في الإسلام الصافي وغير المشوه من قبل أصحاب المصالح والنفوس المريضة.

وقد ذكرنا وسنذكر منهج الرسول صلى الله عليه وسلم ومنهج الخلفاء والتابعين لهم بإحسان الذي رفع قيمة الإنسان وفي المقابل حجَّم- بل منع- أن يكون هناك أي استغلال أو تميز للسلطة.

وبهذا تفوق على الشرق والغرب، بل بين للعالم أن الظلم ليس من شيم النفوس، بل هو من حقارة النفوس المريضة، ويقينًا أن من يكون قلبه خاليًا من الإيمان فإنه مريض بلا شك؛ فلذلك يبغي الانتباه لذلك.

كتب استشاري الطب النفسي إبراهيم بن حسن الخضير في جريدة الرياض تحت عنوان: (هل الظلم من شيم النفوس؟)؛ قال فيه: (قبل قرون عديدة، قال الشاعر العربي الكبير، أبو الطيب المتنبي:

وَالظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النُّفُوسِ فَإِنْ تَجِدْ ذَا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لا يَظْلِمُ

هل هذه المقولة تنطبق حقيقة على النفوس جميعها؟ وهل من لا يظلم فلديه علة تجعله لا يظلم؟

الأمثال في التاريخ كثيرة؛ فقد فوجئ الكثيرون بتغير شخصيات تغيرًا جذريًّا! فمن شخص طيب القلب، هادئ الطباع، مسالم لا يحب سفك دم الحيوانات، تحول بعض الأشخاص إلى النقيض عند تسلمهم السلطة وأصبحوا في مراكز الحكم!

أجرت جامعة ستانفورد كاليفورنيا بحثًا، وقامت بإنشاء سجن وهمي، لدراسة نفوس الطلاب عندما يكونون سجانين وعندما يكونون سجناء، واختاروا أربعة وعشرين طالبًا وطالبة من المتطوعين، وقسموهم إلى فئتين: «حراس» و«مساجين» وهم فتيان وفتيات يتمتعون بأخلاق عالية، رفيعة.

بعد أسبوع واحد، اضطروا إلى إيقاف التجربة؛ لأن الحراس الذين كانوا يتمتعون

بأخلاق رفيعة وعالية، تحولوا إلى وحوش حقيقية، وبات استخدامهم للتعذيب وإهانة زملائهم أمرًا روتينيًّا، بل إنهم كانوا يقومون بتعذيب زملائهم تعذيبًا جنسيًّا، ولا يرون غضاضة في ذلك. بعد إيقاف التجربة كان على الطلبة الذين شاركوا فيها أن يتلقوا العلاج النفسي لمدة غير قصيرة؛ للتخلص مما علق بأنفسهم من صفات لم يكن أحدٌ يصدق بأن هذه الصفات سوف تصبح جزءًا من طبيعة شخصية المتطوعين. فعلى الرغم من الاختيار التطوعي وانتقاء الأشخاص على أنهم من ذوي الأخلاق الرفيعة الحميدة، إلا أن الوضع جعلهم يصبحون جلادين بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة.. وعلى الرغم من أنها تجربة دراسية في علم النفس، وأن السجناء زملاء لهم في الجامعة إلا أن ذلك لم يمنعهم من ارتكاب أبشع أنواع التعذيب ضد زملائهم.

هذه التجربة تجعلنا نفكر: كيف يتغير الناس بهذه السهولة عندما تأتيهم السلطة، خاصة إذا لم يكونوا مؤهلين ومعدين لها؟!

إن التعامل مع السلطة، أمر من أكثر الأمور خطورة، فالسلطة تجلب معها كل ما يتمناه الرجل.. خاصة إذا كانت سلطة مطلقة.. فالسلطة المطلقة مفسدة مطلقة بلا شك.

لذلك في جميع دول العالم المتحضر توجد أجهزة للحد من سلطات الأفراد أيًّا كانوا، وتعطى السلطة للمؤسسات، وتراقب هذه المؤسسات من مؤسسات أكثر وأكبر مسؤولية؛ ذلك لأنهم عرفوا بأن النفس البشرية ضعيفة، تميل إلى حب الذات، وحب السلطة، وحب المال، والأخطر هو حب الظلم الذي يعتقد الناس أن بيت أبي الطيب المتنبي غير صحيح.. الحقيقة المرة، أن قلة قليلة من الناس لا تظلم، وهؤلاء لا ينطبق عليهم المثل، ولا تقام على سلوكياتهم النظريات، فالحقيقة المرة هي أن الإنسان إذا عرف أن لا أحد يردعه فإنه مستعد لأن يبطش بالآخرين بكل برود، وكل ثقة!

ولعل تجربة جامعة ستانفورد تكون درسًا، لمن يعتقد بأن الأخلاق والمبادئ لا تتغير.. فهؤلاء الطلبة، تم تقسيمهم عشوائيًّا، وبعد أسبوع فقط تم إيقاف التجربة نظرًا لما ارتكبه الزملاء في حق زملائهم الذين كانوا يمثلون دور السجناء.

إذا أردت أن تعرف أكثر، فاقرأ كتب التاريخ، وانظر أيضا حولك كيف صنع الطغاة من أنفسهم معذبين للآخرين في الأرض حتى جاء الدور عليهم فأصبحوا هم في نفس مكان الضحية، ليس هذا فحسب، ولكن انظر حولك وتأمل كم شخصًا عرفته غيره المنصب، إن المال جاء مفاجأة سارة عليه، أضحى وبالًا على من حوله!» انتهى[1].

* * *

(١) باختصار وتصرف من النسخة الإلكترونية من صحيفة الرياض رقم العدد: (١٣٦٧٥).

الرفق بالحيوان:

قال الله سبحانه وتعالى عن حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾(١).

تصور معي- يا أخي ويا أختي في الله- هذا المنهج الذي يرسم لنا وصفًا جميلًا عن الرحمة المهداة والنعمة المسداة، حبيبنا ومعلمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ومن الأمثلة على ذلك مواقفه الرحيمة الرفيقة بالحيوانات، وفي المقابل قارن بينها وبين معاملة البعض مع الطلاب وخاصة أبناء المسلمين، مع أن الرحمة للعموم ففي كل كبد رطبة أجر؛ فهو ﴿ رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾.

ومن المعلوم أن الإنسان أكرم من الحيوان؛ فقد قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾(٢).

وعلى هذا الأساس، سأذكر بعض القصص والمشاهد، من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وتعامله مع الحيوان، بهدف المقارنة بين الحيوان من جهة، والابن أو الطالب من جهة أخرى، وفي ذلك رسالة واضحة وبليغة للآباء والمعلمين الظلمة هداهم الله، أو من يعاند ويرى أن في الضرب والقسوة والشدة خيرًا، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم حث على الرفق حذر من تركه.

اتقوا الله في هذه البهائم:

مر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعير قد لحق ظهره ببطنه، فقال: «اتَّقُوا اللهَ في

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: (١٠٧). يقول المستشرق الإسباني جان ليك (١٨٢٢-١٨٩٧) في كتابه: (العرب): «وحياة محمد التاريخية لا يمكن أن توصف بأحسن مما وصفها الله بذاته بألفاظ قليلة، بين بها سبب بعث النبي (محمد): ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾، وقد برهن بذاته على أن لديه أعظم الرحمات لكل ضعيف، ولكل محتاج إلى المساعدة، كان محمد رحمة حقيقة لليتامى والفقراء وابن السبيل والمنكوبين والضعفاء والعمال وأصحاب الكد والعناء، وإني بلهفة وشوق أصلي عليه وعلى أتباعه». انتهى باختصار من كتاب (الرسول في الدراسات الاستشراقية المنصفة) لمحمد شريف الشيباني.

(٢) سورة الإسراء، الآية: (٧٠).

هذه البَهَائِمِ المُعْجَمَةِ فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً وَكُلُوهَا صَالِحَةً»(١).

غفر الله لرجل بسبب كلب:

عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ العَطَشُ، فَوَجَدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الكَلْبَ مِنَ العَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ بِي، فَنَزَلَ البِئْرَ فَمَلأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، فَسَقَى الكَلْبَ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ». قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجرًا؟، فقال: «فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ»(٢).

دخلت النار بسبب هرة:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ؛ لا هِيَ أَطْعَمَتْهَا ولا سَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا، ولا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ»(٣).

غفر الله لبَغِيٍّ بسبب كلب:

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ كَادَ يَقْتُلُهُ العَطَشُ، إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَنَزَعَتْ مُوقَهَا فَسَقَتْهُ، فَغُفِرَ لَهَا بِهِ»(٤).

حتى الحيوانات تشتكي إلى الرحمة المهداة:

الجمل يشتكي:

عن يعلى بن مرة الثقفي رضي الله تعالى عنه، قال: ثلاثة أشياء رأيتهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم: بينا نحن نسير معه إذ مررنا ببعير يُسْنَى عليه، فلما رآه البعير جرجر ووضع جرانه، فوقف عليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «أَيْنَ صَاحِبُ هَذَا البَعِيرِ؟!»،

---

(١) صححه الألباني.

(٢) صحيح البخاري.

(٣) صحيح البخاري.

(٤) صحيح البخاري. «يطيف»: أي يديم المرور حول البئر. «بركية»: البئر. «بغي»: الزانية. «موقها»: هو الخف، وقيل: ما يلبس فوق الخف.

فجاء، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «بِعْنِيهِ»، فقال: بل أهبه لك، وإنه لأهل بيت ما لهم معيشة غيره، قال: «أَمَّا إِذْ ذَكَرْتَ هَذَا مِنْ أَمْرِهِ فَإِنَّهُ شَكَا كَثْرَةَ العَمَلِ وَقِلَّةَ العَلَفِ، فَأَحْسِنُوا إِلَيْهِ».

قال: ثم سرنا، فنزلنا منزلًا، فنام النبي صلى الله عليه وسلم، فجاءت شجرة تشق الأرض حتى غشيته، ثم رجعت إلى مكانها، فلما استيقظ ذُكِرَتْ له فقال: «هِيَ شَجَرَةٌ اسْتَأْذَنَتْ رَبَّهَا عَزَّ وَجَلَّ أَنْ تُسَلِّمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَأَذِنَ لَهَا».

قال: ثم سرنا، فمررنا بماء، فأتته امرأة بابن لها به جِنة، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم بمنخره فقال: «اخْرُجْ، إِنِّي مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ» قال: ثم سرنا، فلما رجعنا من سفرنا مررنا بذلك الماء، فأتته المرأة بجزور ولبن، فأمرها أن ترد الجزور، وأمر أصحابه، فشرب من اللبن، فسألها عن الصبي فقالت: والذي بعثك بالحق ما رأينا منه ريبًا بعدك[1].

الجمل يبكي:

عن عبد الله بن جعفر، قال: أردفني رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفه ذات يوم فأسر إلي حديثًا لا أحدث به أحدًا من الناس، وكان أحب ما استتر به رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته هدفًا أو حائش نخل.

قال: فدخل حائطًا لرجل من الأنصار، فإذا جمل، فلما رأى النبيَّ صلى الله عليه وسلم حن وذرفت عيناه، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم فمسح ذفراه فسكت، فقال: «مَنْ رَبُّ هَذَا الجَمَلِ؟ لِمَنْ هَذَا الجَمَلُ؟»، فجاء فتى من الأنصار فقال: لي، يا رسول الله، فقال: «أَفَلا تَتَّقِي اللهَ فِي هَذِهِ البَهِيمَةِ التي مَلَّكَكَ اللهُ إِيَّاهَا؟! فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ»[2].

الحمامة تشتكي:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حمرة معها فرخان، فأخذنا فرخيها فجاءت الحمرة،

(١) صححه الألباني.

(٢) صححه الألباني. «تدئبه»: أي تكده وتتعبه.

فجعلت تفرش، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا؟! رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا»[١].

جَاءَتْ إِلَيْكَ حَمَامَةٌ مُشْتَاقَةٌ   تَشْكُو إِلَيْكَ بِقَلْبِ صَبٍّ وَاجِفِ
مَنْ أَخْبَرَ الوَرْقَاءَ أَنْ مَقَامَكُمْ   حَرَمٌ وَأَنَّكَ مَنْزِلٌ لِلْخَائِفِ؟!

العصفور:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ إِنْسَانٍ يَقْتُلُ عُصْفُورًا فَمَا فَوْقَهَا بِغَيْرِ حَقِّهَا، إلا سَأَلَهُ اللهُ عَنْهَا يَوْمَ القِيَامَةِ»؛ قيل: يا رسول الله، وما حقُّها؟ قال: «حَقُّهَا أَنْ يَذْبَحَهَا فَيَأْكُلَهَا، ولا يَقْطَعَ رَأْسَهَا فَيَرْمِيَ بِهِ»[٢].

الهرة:

روت عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصغي للهرة الإناء فتشرب، ثم يتوضأ بفضلها[٣].

البعير:

ركبت عائشة بعيرًا، فكانت فيه صعوبة فجعلت تردده، فقال لها الرسول صلى الله عليه وسلم: «عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ؛ إِنَّ الرِّفْقَ لا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إلا زَانَهُ، ولا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إلا شَانَهُ»[٤].

الدجاجة:

عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه دخل على يحيى بن سعيد وغلام من بني يحيى رابط دجاجة يرميها، فمشى إليها ابن عمر حتى حلها، ثم أقبل بها وبالغلام معه فقال: «ازجروا غلامكم عن أن يصبر هذا الطير للقتل؛ فإني سمعت النبي صلى الله عليه

---

(١) صححه الألباني. «تفرش»: أي ترفرف بجناحيها و تقترب من الأرض.

(٢) حسنه الألباني.

(٣) صححه الألباني. «يصغي للهرة الإناء فتشرب» أي: يميله لها لتشرب منه بسهولة. «يتوضأ بفضلها» أي: بما فضل من شربها.

(٤) صحيح مسلم.

وسلم نهى أن تصبر بهيمة أو غيرها للقتل»[١].

لاحظ أنه لم يضربه ولم يأمر بضربه.

الشاة:

مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل واضع رجله على صفحة شاة وهو يحد شفرته وهي تلحظ إليه ببصرها، فقال: «أَفَلا قَبْلَ هَذَا؟! أَتُرِيدُ أَنْ تُمِيتَهَا مَوْتَتَيْنِ؟!»[٢].

الضرب في الوجه:

عن جابر، أن النبي صلى الله عليه وسلم مر عليه بحمار قد وسم في وجهه، فقال: «أَمَا بَلَغَكُمْ أَنِّي قَدْ لَعَنْتُ مَنْ وَسَمَ البَهِيمَةَ فِي وَجْهِهَا أَوْ ضَرَبَهَا فِي وَجْهِهَا؟!» فنهى عن ذلك[٣].

(قارن) ثم (قارن) ثم (قارن). إن كان هذا (الملعون) أخطأ في حق بهيمة مثل (الحمار) فلعن بسبب ذلك، فما بالك بمن أخطأ في حق الإنسان الذي كرمه الله عز وجل، ولكن البعض هداهم الله بفعلهم الشنيع يرتكبون جريمة كبيرة ويُهينون الطالب ويُذِلونه.

«لغفر لكم كثيرًا»:

قال رسول الله النبي صلى الله عليه وسلم: «لَوْ غَفَرَ لَكُمْ مَا تَأْتُونَ إِلَى البَهَائِمِ لَغَفَرَ لَكُمْ كَثِيرًا»[٤].

فكيف بأبناء المسلمين؟

لعن الحيوان:

حتى سب الحيوان وشتمه!

وروى الإمام مسلم في باب (النهى عن لعن الدواب وغيرها): عن عمران بن

---

(١) صحيح البخاري.

(٢) صححه الألباني.

(٣) صححه الألباني.

(٤) حسنه الألباني.

حصين رضي الله عنه، قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره وامرأة من الأنصار على ناقة، فضجرت فلعنتها، فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَدَعُوهَا؛ فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ». قال عمران: فكأني أراها الآن تمشي في الناس ما يعرض لها أحد[١].

ولم يكتف الإسلام بالرفق والإحسان في تعامله مع الحيوان في حال حياته، بل شمل جميع الحالات، حتى في حالة الذبح الشرعي؛ حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ؛ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»[٢].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ رَحِمَ وَلَوْ ذَبِيحَةَ عُصْفُورٍ، رَحِمَهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ»[٣]. وقال رجل: يا رسول الله، إني لأذبح الشاة فأرحمها، قال: «وَالشَّاةُ إِنْ رَحِمْتَهَا رَحِمَكَ اللهُ»[٤].

قول الألباني في الرفق بالحيوان:

وختامًا.. فقد ذكر المحدث الألباني رحمه الله تعالى، بعض الآثار في الرفق بالحيوان ثم علق عليها، وسنختار من ذلك ما يأتي:

أ- عن وهب بن كيسان: أن ابن عمر رأى راعي غنم في مكان قبيح، و قد رأى ابن عمر مكانًا أمثل منه، فقال ابن عمر: ويحك يا راعي! حوِّلها؛ فإني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «كُلُّ رَاعٍ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ». سنده حسن، والمرفوع متفق عليه.

ب- كان لأبي الدرداء جمل يقال له: (دمون)، فكان إذا استعاروه منه، قال: لا تحملوا عليه إلا كذا وكذا، فإنه لا يطيق أكثر من ذلك، فلما حضرته الوفاة قال: يا دمون! لا تخاصمني غدًا عند ربي؛ فإني لم أكن أحمل عليك إلا ما تطيق.

---

(١) صحيح مسلم.

(٢) صحيح مسلم.

(٣) حسنه الألباني.

(٤) صححه الألباني.

ج- كان لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه غلام يعمل على بغل له، يأتيه بدرهم كل يوم، فجاء يومًا بدرهم ونصف، فقال: أما بدا لك؟ قال: نفقت السوق، قال: لا، ولكنك أتعبت البغل! أَجِمَّهُ ثلاثة أيام.

ثم بعد ذالك قال الشيخ الألباني رحمه الله تعالى: «تلك هي بعض الآثار التي وقفت عليها حتى الآن، وهي تدل على مبلغ تأثر المسلمين الأولين بتوجيهات النبي صلى الله عليه وسلم في الرفق بالحيوان، وهي في الحقيقة قل من جل، ونقطة من بحر، وفي ذلك بيان واضح أن الإسلام هو الذي وضع للناس مبدأ (الرفق بالحيوان)، خلافًا لما يظنه بعض الجهال بالإسلام أنه من وضع الكفار الأوروبيين، بل ذلك من الآداب التي تلقوها عن المسلمين الأولين، ثم توسعوا فيها، ونظموها تنظيمًا دقيقًا، وتبنتها دولهم حتى صار الرفق بالحيوان من مزاياهم اليوم، حتى توهم الجهال أنه من خصوصياتهم! وغرهم في ذلك أنه لا يكاد يرى هذا النظام مطبقًا في دولة من دول الإسلام، وكانوا هم أحق بها وأهلها!» انتهى كلام الألباني رحمه الله تعالى[١].

فمن خلال تلك الأحاديث والآثار الكثيرة التي وردت في تعامل الحبيب صلى الله عليه وسلم، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين، يتضح أن الإسلام دين الإحسان والرحمة والرفق والرأفة، ويتبين منها رقي الإسلام في تعامله مع الحيوان، والذي يظنه بعض الجاهلين بالإسلام أنه من وضع الغرب الكافر؛ كما قال الشيخ الألباني.

وكذلك فإن كلام الشيخ عن حال الحيوانات يصدق في حال تربية الطلاب، حتى وصل الأمر بالبعض منهم إلى تمني أن يرتقي مستوى بعض المسلمين في تعاملهم مع أبنائهم وطلابهم، إلى مستوى تعامل الغرب مع حيواناتهم !

أغايَةُ الدِّينِ أن تُحْفُوا شَوَارِبَكُمْ   يَا أُمَّةً ضَحِكَتْ مِنْ جَهْلِهَا الأُمَمُ

وهنا يرد تساؤل: لماذا وصلنا إلى هذا الحد؟!

والجواب البين الذي لا شك فيه: أنه الجهل والبعد عن الدين بشموله وصدقه[٢].

---

(١) كتاب (سلسلة الأحاديث الصحيحة) للألباني، «أَجِمَّهُ»: أي أَرِحْهُ.

(٢) كتب غوته الشاعر الألماني الكبير (١٧٤٩-١٨٣٢م). عن الإسلام والمسلمين مصححًا بعض المفاهيم فقال: «وهكذا نرى أن هذا المذهب (الإسلام) لا يفتقر إلى شيء، وأننا لا نفوقهم بشيء=

ومن أسباب ذلك عجز العلماء وجهل العامة، ومثال على ذلك ما نشاهد من أمراض وتخلف في مجتمعاتنا الإسلامية.

ولكن الأشد من ذلك، عندما نجد المتخلفين عن الإسلام الأصيل وحضارته الراقية، يدافعون عن تخلفهم وجهلهم بكل ما أوتوا من قوة، حتى وصل الأمر بالبعض إلى تحريف الإسلام الأصيل.

ومثال على ذلك: الضرب؛ إذا أجبروا إجبارا على ألا يضربوا أحدا قط وأذعنوا- غصبًا ورغمًا عن أنوفهم- قال بعضهم معترفا: إن الإسلام قد سبقهم إلى ذلك بألف وأربعمئة سنة، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يضرب شيئًا قط!.

فنسأل الله سبحان الله وتعالى، ألا يُستشهد لهذه الحال بهذه الآية: ﴿ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[1]؛ لأنه لم يرضخ إلا بعد أن أجبر! ولكن نسأل الله سبحان الله وتعالى، أن يُستشهد لهذه الحال بهذه الآية: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[2].

أسأل الله أن يغفر لنا ويعفو عنا جميعًا.

وكذلك الحال يصدق في حقوق المرأة، بل في حق الإنسان في العالم الإسلامي مع الأسف! فما حقوقه؟ بل ما قيمته؟

* * *

= على الرغم من تعدد مذاهبنا، ولا يستطيع أحد أن يتقدمهم في شيء» انتهى.

(١) سورة يونس، الآية: (٩١).

(٢) سورة يوسف، الآية: (٩٢).

قيمة الإنسان في العالم الإسلامي:

قد مر معنا قيمة الحيوان في الإسلام، وتعامل الرسول صلى الله عليه وسلم مع الحيوان، لدرجة أنه لعن من يضرب وجهه، وأن تعامل الحضارة الغربية مع الحيوان يرجع في أصله إلى الإسلام، وكما قال الشيخ الألباني رحمه الله تعالى: «إن الإسلام هو الذي وضع للناس مبدأ (الرفق بالحيوان)، خلافًا لما يظنه بعض الجهال بالإسلام أنه من وضع الكفار الأوروبيين».

فإذا كانت هذه حقوق الحيوان في الإسلام وهذه قيمته، فما حقوق الإنسان في الإسلام وما قيمته؟

لا شك أن قيمته أكرم بكثير، بل يقال عن حقوقه أكثر مما سبق وقيل عن مقارنة حقوق الحيوان بين الإسلام والغرب ووضعه في العالم الإسلامي.

ولكن لماذا قيمة الإنسان في عالمنا الإسلامي في الحضيض، مع أن الله تبارك وتعالى هو الذي كرمه فقال: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾؟![1].

وبعبارة أوضح: لماذا هذا الرخص في قيمة الإنسان بجميع صوره؛ كالطالب أو المريض أو المستهلك أو المراجع....؟

قد تكون الإجابة معقدة، لكن أبرز ما فيها- فيما يخص هذا الكتاب- أن الإنسان نشأ وتربى منذ طفولته على أنه لا قيمة له، فإذا كان هو لا قيمة له، فغيره من باب أولى.

لهذا؛ فكثير ممن تربى في بلدان العالم الثالث وتعلم في مدارسه- مهما نال من الشهادات والمراتب- سيجد في نفسه احتقارًا لقيمة الإنسان، بل قد يزيد على ذلك من نال على الشهادات والمراتب، بحيث يجد كبرًا في نفسه واحتقارًا لغيره!

ولتجلية هذا الأمر وتوضيحه سنبين بعض الأمثلة- بعيدًا عن المبالغة- لكي يتبين أهمية دور المعلمين، وأن التربية هي الأساس في رفع قيمة الإنسان، وأن المهن الأخرى تابعة لهم في ذلك.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: (٧٠).

ولا شك أن المهندسين والأطباء... المخلصين سيفرحون بهذا الدفاع عنهم وعن مهنهم.

وأما غير المخلصين أو من يرون في أنفسهم الكبر ولغيرهم الاحتقار، فإنهم سيغضبون من هذا النقد، فنسأل الله تعالى لهم الهداية.

المهندسون:

ولنضرب مثلًا بالمهندسين؛ إذ يلاحظ على البعض التخلف في بناء المدارس- وكذلك بناء المستشفيات- في بلدان العالم الثالث، ومن رأى مدارس الغرب النموذجية ومدارسنا عرف الفرق، ولا شك أن ذلك التخلف في هذا الجانب يرجع إلى المهندسين بالدرجة الأولى، فيلاحظ مثلا- والأمثلة كثيرة- في إنشاء المدارس، استخدام زجاج النوافذ المكون من (طبقة واحدة)، بحيث تكون النوافذ مصدر قوي للبرودة في الشتاء، والحرارة في الصيف! وهذا بلا شك يؤثر على الطالب.

مع العلم أن زجاج النوافذ في بعض المباني في ألمانيا مثلا، يتكون من ثلاث طبقات، ويكون بين تلك الطبقات غاز خاص[1]، ففي تلك الدول يستخدم العزل الحراري لحظائر الحيوانات، فهل يستخدم في دول العالم الثالث لمدارس الطلاب؟!

لاشك أن هذا النقص ليس في عدم معرفة المهندسين بالعزل الحراري، فالعزل الحراري يعرفه العمال!

لهذا يتبادر إلى الذهن هذا السؤال الخاص بالمدارس:

لماذا لم يطور مهندسو العالم الإسلامي مدارسهم؟

فيقال: قد يكون السبب فيما يأتي:

١- أنهم لا يعلمون كيفية بناء المدارس النموذجية!

٢- أنهم يعلمون ولكن التكلفة المادية للمدارس النموذجية كبيرة، وفي المقابل هم يرون أن قيمة الطلاب في العالم الثالث أرخص!

---

(١) مثل غاز الأرجون (Argon).

ومما سبق تتضح ملامح الإجابة المؤسفة، فيقال في كلا الحالتين: إنها مصيبة:

فَإِنْ كُنْتَ لا تَـدْرِي فَتِلْكَ مُصِيبَةٌ وَإِنْ كُنْتَ تَـدْرِي فَالمُصِيبَةُ أَعْظَمُ

وكما قال أحد المعلمين: إني أخشى أن يكون التصميم والبناء لمدارس الطلاب في العالم الثالث، أقل من مستوى التصميم والبناء لأماكن تربية الحيوانات في الدول المتطورة، ومن شك في ذلك فليقرأ عن تصميم وبناء مزارع تربية الأبقار مثلا، وعن أماكنها وطرق حلبها مع مراعاة حالة الجو والحالة النفسية للأبقار![١].

أما الطلاب في العالم الثالث فقد يعانون في فصولهم من الحرارة أو البرودة، والتي بمثلها يموت بعض الناس في الغرب وقد يكون بأقل من ذلك، بل لا يرضون بذلك على حيواناتهم، فكيف بطلابنا المساكين، هذا زيادة على سوء التربية.

لهذا نتساءل: كيف يتعلمون؟ وكيف يفهمون؟ وكيف يتخرجون؟ فماذا ننتظر منهم؟!

وأعيد: لا شك أن المهندسين المخلصين سيفرحون بهذا الدفاع عنهم وعن مهنهم، وكذلك كشف زيف المفسدين.

الأطباء:

وليست المسؤولية تقع على المهندسين فقط، بل على الجميع ومنهم الأطباء بالطبع فهم لا يخرجون من تلك القاعدة وهذه نتيجة طبيعية للتربية في العالم الثالث.

بل تقع أخطاء وكوارث من بعض الأطباء في حقوق المرضى، فمثلا مريض يقرر الأطباء قطع رجله المريضة، ثم بعد الخروج من غرفة العمليات، يكتشف المريض أن الرِّجل المقطوعة هي السليمة، ولكن أمام هذا الخطأ الشنيع يكفي الاعتذار من الخطأ (غير المقصود)! وليس ذلك خاص بالأرجل بل يحصل للعيون والأسنان...

وكذلك بعد إجراء العمليات الباطنية، قد يكتشف بعض المرضى في بطونهم بعض أدوات الطبيب؛ كالمقص أو القطن...!، وهناك قصص حقيقية وكثيرة ومتنوعة ومتكررة، فحدث ولا حرج، وهذا فقط ما يكتشفه المرضى، وإلا فإن الخافي أعظم.

---

(١) يقال: إن بعض الدول تعطي دولارين إعانة للبقرة الحلوب في اليوم؛ وهو أكثر مما يصرف على الطفل في بعض دول العالم الثالث!

زيادة على ذلك: طريقة تعامل المريض مع الطبيب والعكس، فيلاحظ أن بعض المرضى يكلم الطبيب بتودد وبلطف مع الدعاء له.

وهذا جيد، ولكن المشكلة أن يكون ذلك بدونية وبطريقة تذلل واسترحام وخضوع يغلفها الاستجداء والنفاق.

وفي المقابل يلاحظ العكس على بعض الأطباء، فهو يكلم المريض بتكرم وتعطف وإحسان مع التأمين على الدعاء له.

وهذا جيد، ولكن المشكلة أن يكون ذلك بتعالٍ وبطريقة تمنن وتكبر يغلفها الاحتقار للمريض.

وقد لا تكون هذه الصور في التعامل مع بعض الأطباء بل مع بعض الممرضين.

مع أن وظيفة الطبيب إنما هي تقديم خدمة يأخذ عليها أجرًا، أي أنه لم يأت إلا من أجل خدمة المريض، وليس العكس.

أما المريض المسكين الذي عاش في هذه البيئة الممسوخة، فإنه لكي يأخذ (بعض حقه) لابد له من التذلل والخنوع.

ولكن الإسلام لا يأمر بعكس الصورة، بل بالاحترام المتبادل وتأدية الطبيب عمله على أكمل وجه وبلا منة ولا تعالٍ، لكي يستحق الأجر من المريض وقبل ذلك من الله سبحانه، وكذلك المريض يستمع بأدب لتوجيهات الطبيب. فالعملية تقديم خدمات.

وأعيد: لا شك أن الأطباء المخلصين سيفرحون بهذا الدفاع عنهم وعن مهنهم، وكذلك كشف زيف المفسدين.

الموظفون:

وكذلك حال الموظفين، فيلاحظ على البعض: الخضوع والنفاق والذل والهوان... مع مديره، والعكس مع المراجع إضافة إلى بعض التجهم والاستهتار[١]، وكذلك الحال

---

(١) مع العلم بأن بعض الشركات تعطي التعليمات لموظفيها بأن يستقبلوا المراجع أو العميل بالابتسام- زيادة على حسن التعامل- بل تعطي الموظف مخالفة إذا لم يبتسم!

ينطبق على بعض التجار في إهمالهم حقوق المستهلكين، وكذلك بعض المزارعين.. وهكذا.

الخلاصة:

إن بعض أصحاب الشهادات العليا بالرغم من علمهم وذكائهم وثقافتهم، إلا أنهم قد يسلكون طرقًا لا تتفق مع وظائفهم ومستوى تعليمهم، فيمارسون عادات سيئة ذميمة لا تتناسب مع أخلاق الإسلام وقيمه! لأن تلك العادات غرست في نفوسهم منذ الصغر فنمت وكبرت فيهم، وتعذر تخلصهم منها، فقد تربوا على ذلك، وقديما قيل:

وَيَنْشَأُ نَاشِئُ الفِتْيَانِ فِينَا ... عَلَى مَا كَانَ عَوَّدَهُ أَبُوهُ

وَمَا دَانَ الفَتَى بِحِجًى وَلَكِنْ ... يُعَوِّدُهُ التَّدَيُّنَ أَقْرَبُوهُ

وهذا قديمًا، أما الآن فالطالب يكون مع المعلم أكثر من أبيه.

فمن الصعب أن يتخلصوا من عاداتهم السيئة التي تربوا عليها من الصغر واستمروا عليها مدة طويلة!

ولهذا يصدق في حقهم قول الشاعر:

هَذَا جَنَاهُ أَبِي عَلَيْـ ... ـيَ وَمَا جَنَيْتُ عَلَى أَحَدْ

يقول الإمام الغزالي: «الصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة ساذجة، خالية من كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما نقش، ومائل إلى كل ما يمال به إليه، فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة أبواه، وكل معلم له ومؤدب، وإن عود الشر، وأهمل إهمال البهائم، شقي وهلك، وكان الوزر في رقبة القيم عليه، والوالي له» انتهى[١].

فبعد ذلك إذا ضرب المعلم الطالب، وإذا لم يعرف المهندس قيمة من يستخدم المنشأة، وإذا لم يعرف الطبيب قيمة المريض، وكذلك يقال في حق القاضي والشيخ والإعلامي والتاجر والمزارع والعامل والموظف... إذا أساء هؤلاء التعامل، هل يعذرون؛ لأن التربية السيئة غلبت عليهم، ولأنهم لم يتعلموا المنهج النبوي؟

أم لا يعذرون لأن الظلم لا يقبله الدين ولا العقل ولا الفطرة، فلا عذر لأحد؟!

---

(١) كتاب (إحياء علوم الدين) للغزالي.

لا شك أن القول الثاني هو الصحيح، ولكن اللوم الأكبر يقع على المربين الذين زرعوا تلك الأشواك، ومن المعلوم أن ما تزرعه اليوم تحصده غدا، أي أنك ستحصد ما زرعت، وكما قيل: إنك لا تجني من الشوك العنب، فكل إناء بما فيه ينضح.

فالهندسة ليست أرقامًا وزوايا وأشكالًا هندسية فقط، بل إيمان وتقوى وأخلاق ومشاعر، وكذلك بقية الوظائف تقاس على ذلك.

ولا ننسى أن هذا الوصف لأصحاب المهن ليس على إطلاقه، فهم كالمعلمين فيهم المحسن وفيهم المسيء كما قلنا فيما سبق وما سيأتي، ولكن مع الأسف إذا نظرنا لحال العالم الإسلامي رأينا مظاهر لا تتناسب مع الدين الإسلامي الكامل فأين الخلل؟

نظرة أخرى:

ولنُلْقِ نظرة أخرى على قيمة الإنسان في العالم الإسلامي، ولكنها بشكل عام، مع مقارنته بقيمة الأجنبي بل الغربي بصفة أخص، حيث إن له شأنًا آخر وقيمة عالية، فهو يعامل معاملة مختلفة بحيث نجد أن الكثيرين يقدمونه على أبناء جنسهم، حتى صارت قيمته عند البعض تساوي ألفا من بني جنسه ويصدق فيهم قول الشاعر:

وَالنَّاسُ أَلْفٌ مِنْهُمُ كَوَاحِدٍ وَوَاحِدٌ كَالأَلْفِ إِنْ أَمْرٌ عَنَى

وللدلالة على هذا نضرب مثالًا على الفنادق التي يقال: إنها البيت الثاني، لنرى كيف سيُعامَل إنسانُ العالم الإسلامي بل العربي الذي يتحدث لغة القرآن، وفي المقابل كيف سيعامل الأجنبي، ومع الملاحظة أن الفندق وموظفيه من نفس العالم الثالث مع الأسف.

لا شك أنه سيجد من تكريم الأجنبي واحتقار المسلم والعربي العجب، ولبيان هذا سنذكر صورًا من صور هذه القيمة المتناقضة ثم الأسباب:

من صور التعامل:

١ - عند الاتصال بموظف الاستقبال من الهاتف- وقبل أن يذهب للفندق- فإنه لن يرد عليك باللغة العربية بل سيرد باللغة الأجنبية[١].

---

(١) في الغالب هي اللغة الإنجليزية، وقد تكون الفرنسية أو غيرها؛ وذلك بحسب المستعمر للبلد أو بحسب من يخضعون له أصحاب هذا البلد!

٢- عند دخول الفندق يلاحظ أن تعامل موظفي الفندق يختلف بين الاثنين منذ الاستقبال ومرورًا بتنظيف الغرف وإجابة الطلبات وحل المشاكل.. ونهاية بالتوديع!

٣- الكتابة تكون باللغة الأجنبية؛ مثل كتابة الفواتير والحجوزات والتواريخ... بل يصل الأمر إلى كتابة التعليمات على جميع أرجاء الفندق بداية من الاستقبال (welcome) (مرحبا)، ونهاية بالصابون والشامبو، وتكون هذه طريقة تعاملهم إلا في حالات خاصة فإنهم يكتبون باللغة العربية وهذه الحالات مثل: التحذيرات والممنوعات والتهديد والوعيد...!

ما الأسباب؟

إن الأسباب ترجع إلى سببين رئيسين السبب الأول داخلي يحس به الشخص، والسبب الثاني ظاهري يراه الآخرون ويلاحظونه على هذا الشخص. أو إذا جاز التعبير يقال: (نفسي واجتماعي)، وكلها يتركز حلها وينشأ من التربية والتعليم:

السبب الأول: أن هذا الموظف تربى على أنه هو وأشكاله لا قيمة لهم! فقد قال أحد الذين مسخت كرامتهم متعذرًا ومبررًا: إن لغتنا لا تصلح ولا تجاري لغة العصر وأن اللغة الأجنبية هي العالمية وإن هؤلاء الغربيين لهم قيمتهم العالية، فهم أهل العلم والحضارة!

السبب الثاني: أن هذا الشخص وأشكاله لا قيمة لهم ولا يقدِّرهم غيرهم لأن الملاحظ على الكثير منهم أنه محطم ممسوخ لا قيمة له، وهذا يلاحظ من خلال حالته المادية وكلامه ودرجة صوته وثقافته وأسلوبه في إبداء رأيه وفي طريقة تعبيره وفي نقاشه ومواعيده وأمانته وصدقه وفي حكمه على الناس لا قيمة للنظام ولا للوقت...[1].

ولكن رغم هذا كله يرد عليهم من ناحيتين: الأولى شرعية، والثانية عملية؛ وباختصار:

الناحية الشرعية:

ويرد على هذه الشخصية الانهزامية أو المهزومة بل المستسلمة ومن ثم الخانعة الذليلة المهانة وبالتالي الحزينة، فيقال: إن خالق الناس بجميع أصنافهم بل خالق

(١) ولا ننسى المقولة الشهيرة: «وجدت في أوروبا إسلامًا بلا مسلمين، وفي بلدي مسلمين بلا إسلام!».

السماوات والأرض وما بينهما قال لنا: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[١].

الناحية العملية:

إن تمسكنا بلغتنا لا يعتبر من التحجر والتخلف، بل هو من التطور والتحضر، وانظر إلى دول أقل منا دينًا وحضارة وتاريخًا ومساحة وسكانًا، ومع ذلك رفعوا أنفسهم ولغتهم فارتفعوا ودرسوا علومهم بلغتهم فصارت لهم قيمة مرموقة؛ كاليابان وكوريا...

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ العِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ ... وَلَوْ عَظَّمُوهُ في النُّفُوسِ لَعُظِّمَا

وَلَكِنْ أَهَانُوهُ فَهَانُوا وَدَنَّسُوا ... مُحَيَّاهُ بِالأَطْمَاعِ حَتَّى تَجَهَّمَا

بل إن هناك أقليات في دول أجنبية بل إنجليزية ومع ذلك حافظوا على لغتهم، بل رفعوها وفرضوها فرضًا وفي كل مجال، مثل (إقليم كويبك الفرنسي في دولة كندا الإنجليزية، حيث صارت لغة رسمية معترفًا بها، بل إن الملاحظ أن أغلب التعليمات أو المعلومات- إن لم يكن جميعها- لا تكتب باللغة الإنجليزية فقط بل تكتب باللغتين وفي أي مكان تذهب إليه[٢].

رحم الله الشاعر الذي أحس بهذا الخذلان[٣] فقال:

أَرَى لِرِجَالِ الغَرْبِ عِزًّا وَمِنْعَةً ... وَكَمْ عَزَّ أَقْوَامٌ بِعِزِّ لُغَاتِ

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٣٩).

(٢) وبالطبع جميع الناس هناك لهم الاحترام ولهم القيمة.

(٣) وهذا البيت من قصيدة طويلة للشاعر حافظ إبراهيم، ومما قال فيها عن اللغة العربية:

وَسِعْتُ كِتَابَ الله لَفْظًا وَغَايَةً ... وَمَا ضِقْتُ عَنْ آيٍ بِهِ وَعِظَاتِ

فَكَيْفَ أَضِيقُ اليَوْمَ عَنْ وَصْفِ آلَةٍ ... وَتَنْسِيقِ أَسْمَاءٍ لِمُخْتَرَعَاتِ

أَرَى لِرِجَالِ الغَرْبِ عِزًّا وَمِنْعَةً ... وَكَمْ عَزَّ أَقْوَامٌ بِعِزِّ لُغَاتِ

أَتَوْا أَهْلَهُمْ بِالمُعْجِزَاتِ تَفَنُّنًا ... فَيَا لَيْتَكُمْ تَأْتُونَ بِالكَلِمَاتِ

أَيُطْرِبُكُمْ مِنْ جَانِبِ الغَرْبِ نَاعِبٌ ... يُنَادِي بِوَأْدِي في رَبِيعِ حَيَاتِي

أَيَهْجُرُنِي قَوْمِي عَفَا اللهُ عَنْهُمُ ... إِلَى لُغَةٍ لَمْ تَتَّصِلْ بِرُوَاةِ

سَرَتْ لَوْثَةُ الإِفْرِنْجِ فِيهَا كَمَا سَرَى ... لُعَابُ الأَفَاعِي في مَسِيلِ فُرَاتِ

فَجَاءَتْ كَثَوْبٍ ضَمَّ سَبْعِينَ رُقْعَةً ... مُشَكَّلَةَ الأَلْوَانِ مُخْتَلِفَاتِ

يقول دوغلاس آرثر[١]: «لو أحسن عرض الإسلام على الناس لأمكن به حل كافة المشكلات، ولأمكن تلبية الحاجات الاجتماعية والروحية والسياسية للذين يعيشون في ظل الرأس مالية والشيوعية على السواء، فقد فشل هذان النظامان في حل مشكلات الإنسان، أما الإسلام فسوف يقدم السلام للأشقياء، والأمل والهدى للحيارى والضالين، وهكذا فالإسلام لديه أعظم الإمكانيات لتحدي هذا العالم وتعبئة طاقات الإنسان لتحقيق أعلى مستوى من الإنتاج والكفاية».



(١) دوغلاس ماك آرثر (Douglas MacArthur) جنرال أمريكي من أبرز القادة العسكريين الأمريكيين في القرن العشرين.

الباب الرابع
علاج الأخطاء





يناقش هذا الباب علاج الأخطاء التربوية بشكل عام، ويبين من هو المعالج الأول في ذلك، ثم يعرض الصور الإيجابية والسلبية، وبعد ذلك يوضحها بذكر الطرق التي ينبغي اتباعها لعلاج هذه الأخطاء والطرق التي تقللها أو تمنع حدوثها.

ويبين هدي الرسول صلى الله عليه وسلم مع من أخطأ، ثم يعرض صورًا سلبية تبين نوعيات مختلفة من الأخطاء التربوية وأضرارها، ثم يعرض صورًا تربوية غربية ليبين أنه من الممكن تربية الناس بصورة حسنة، بل أن ذلك واقعٌ فعلا وفي أناس أقل شأنًا من المسلمين، ثم يذكر الطرق التي ينبغي اتباعها لعلاج هذه الأخطاء، وآداب استخدام العقوبة، ووسائل تقليل العقاب، ثم يذكر بعض الطرق التي تقلل حدوث الأخطاء أو تمنعها، ومنها:

- جعل التعليم (تعلُّمًا).
- عدم إيذاء الطلاب بالطرق التقليدية.
- تعديل السلوك.
- تعليم النظام.
- قيمة الكلام.

ملاحظة هامة: كما ذكرنا أن القارئ الكريم سيلاحظ أن علاج الأخطاء يتركز على العقاب، مع أن العقاب يعتبر طريقة واحدة من أكثر من أربعين طريقة من الطرق المتبعة في تغيير السلوك[1]، وكذلك هناك سبب آخر وهو إساءة استخدام العقاب وسيلةً تربويةً لتغيير السلوك؛ أي: (عقاب فقط وبطريقة سيئة).

(١) وسيأتي ذكر بعضها.

ولذلك سيكون في هذا الباب ذكر لبعض الوسائل التي تغني عن استخدام العقاب أو التقليل منه، ولكن سنتوسع قليلًا ونركز على ثلاث وسائل تقلل حدوث الأخطاء وتريح المعلمين في عملية التربية والتعليم، وهذه الوسائل هي:

١- التعلم

٢- تغيير السلوك

٣- النظام

* * *

من المعالج؟ وكيف؟

ينبغي لنا قبل علاج الأخطاء وحل المشاكل أن نحس بها ونعرفها ونحددها، ثم نبحث عن المعالج الذي يصف العلاج الشافي لها وينقذنا منها.

ولا شك أنا إذا بحثنا عن المعالج لن نجد بعد الله سبحانه وتعالى، خيرًا من رسوله صلى الله عليه وسلم الذي أرسله لهداية العالم كله، فهو خير رسول وخير هاد، وهو المنقذ الذي أرسله الله بالهدى ودين الحق؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾[1].

---

(١) سورة الأحزاب، الآيتان: (٤٥، ٤٦)، قال ابن كثير في تفسيره: «قال الإمام أحمد: عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة؟ قال: أجل والله! إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وحرزا للأميين، فأنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله، فيفتح بها أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا. وقد رواه البخاري.

وقال وهب بن منبه: إن الله تعالى أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له شعياء: أن قم في قومك بني إسرائيل، فإني منطق لسانك بوحي وأبعث أميًّا من الأميين، أبعثه ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، لو يمر إلى جنب سراج لم يطفئه من سكينته، ولو يمشي على القصب لم يسمع من تحت قدميه، أبعثه مبشرًا ونذيرًا، لا يقول الخنا، أفتح به أعينًا كمهًا وآذانًا صمًّا وقلوبًا غلفًا، أسدده لكل أمر جميل، وأهب له كل خلق كريم، وأجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة منطقه، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والحق شريعته، والعدل سيرته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه، أهدي به بعد الضلال، وأعلم به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخمالة، وأعرف به بعد النكرة، وأكثر به بعد القلة، وأغني به بعد العيلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين أمم متفرقة وقلوب مختلفة وأهواء متشتتة، وأستنقذ به فئامًا من الناس عظيمة من الهلكة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، موحدين مؤمنين مخلصين، مصدقين لما جاءت به رسلي، ألهمهم التسبيح والتحميد والثناء والتكبير والتوحيد في مساجدهم ومجالسهم ومضاجعهم ومنقلبهم ومثواهم، يصلون لي قيامًا وقعودًا، ويقاتلون في سبيل الله صفوفًا وزحوفًا، ويخرجون من ديارهم ابتغاء مرضاتي ألوفًا، يطهرون الوجوه والأطراف، ويشدون الثياب في الأنصاف، قربانهم دماؤهم، وأناجيلهم في صدورهم، رهبان بالليل، ليوث بالنهار، وأجعل في أهل بيته وذريته السابقين والصديقين والشهداء والصالحين أمته من بعده، يهدون بالحق وبه يعدلون، =

يقول برناردشو [١]: «لو تولى العالم الأوروبي رجلٌ مثل محمد لشفاه من علله كافة، بل يجب أن يدعى منقذ الإنسانية، إني أعتقد أن الديانة المحمدية هي الديانة الوحيدة التي تجمع كل الشرائط اللازمة وتكون موافقة لكل مرافق الحياة، لقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولًا لدى أوروبا غدًا، وقد بدا يكون مقبولًا لديها اليوم، ما أحوج العالم اليوم إلى رجل كمحمد يحل مشاكل العالم».

ويقول: «إن رجال الدين في القرون الوسطى، ونتيجة للجهل أو التعصب، قد رسموا لدين محمد صورة قاتمة، لقد كانوا يعتبرونه عدوًّا للمسيحية، لكنني اطلعت على أمر هذا الرجل، فوجدته أعجوبة خارقة، وتوصلت إلى أنه لم يكن عدوًّا للمسيحية، بل يجب أن يسمى منقذ البشرية، وفي رأيي أنه لو تولى أمر العالم اليوم، لوفق في حل مشكلاتنا بما يؤمن السلام والسعادة التي يرنو البشر إليها».

* * *

= وأعز من نصرهم، وأؤيد من دعا لهم، وأجعل دائرة السوء على من خالفهم أو بغى عليهم أو أراد أن ينتزع شيئًا مما في أيديهم، أجعلهم ورثة لنبيهم والداعية إلى ربهم، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويوفون بعهدهم، أختم بهم الخير الذي بدأته بأولهم، ذلك فضلي أوتيه من أشاء، وأنا ذو الفضل العظيم. هكذا رواه ابن أبي حاتم عن وهب بن منبه اليماني رحمه الله» انتهى باختصار.

(١) جورج برنارد شو، مؤلف ومفكر إيرلندي مشهور، ولد سنة ١٨٥٦م، وتوفي سنة ١٩٥٠م، ولد في دبلن، وانتقل إلى لندن حين أصبح في العشرينات.

ويعد من أشهر الكتاب المسرحيين في العالم، حاز على جائزة نوبل في الأدب وجائزة الأوسكار، يقال: إن له مؤلَّفًا أسماه (محمد)، وقد أحرقته السلطة البريطانية.

وأنه عندما كتب مسرحية (جان دارك) حاول أن يمرر من خلالها أفكاره عن الجهاد والاستشهاد في الإسلام.

وكان المثل الأعلى للشخصية الدينية عند برناردشو هو محمد صلى الله عليه وسلم، فهو يتمثل في النبي العربي تلك الحماسة الدينية وذلك الجهاد في سبيل التحرر من السلطة، وهو يرى أن خير ما في حياة النبي أنه لم يدع سلطة دينية سخرها في مأرب ديني، ولم يحاول أن يسيطر على قول المؤمنين، ولا أن يحول بين المؤمن وربه، ولم يفرض على المسلمين أن يتخذوه وسيلة لله تعالى.

هديه صلى الله عليه وسلم مع من أخطأ:

إذا علمنا أن الحبيب صلى الله عليه وسلم لم يضرب ولم يهن ولم يشتم... فلنر موقفه صلى الله عليه وسلم مع من أخطأ، وكيف واجه الأخطاء وحلها بأحسن الحلول وأجداها، مع أنه لم يستخدم الطرق السلبية بجميع أنواعها، بل على العكس استخدم خير الطرق الإيجابية، فكيف يكون ذلك؟! (لنتعلم من خير معلم ولنقتدِ به):

ثم ضحك ثم أمر له بعطاء:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة، حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد، مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء[١].

فنظرت إليه وهو يضحك:

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، من أحسن الناس خلقًا، فأرسلني يومًا لحاجة، فقلت: والله لا أذهب. وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله صلى الله عليه وسلم، فخرجت حتى أمر على صبيان وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قبض بقفاي من ورائي، قال: فنظرت إليه وهو يضحك، فقال: «يَا أُنَيْسُ، أَذَهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ؟». قال: قلت: نعم، أنا أذهب، يا رسول الله[٢].

لنتأمل في بعض الجوانب التربوية من هذا المربي للمتربي:

أولًا: أنه المربي الكبير بكل المقاييس، فهو الحاكم العالم القائد القاضي...، ولكن قبل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثانيًا: المتربي كذلك صغير بالمقاييس الدنيوية، فهو صبي وكذلك خادم، ليس ابنًا

---

(١) صحيح البخاري ومسلم.

(٢) صحيح مسلم.

أو طالبًا.

كيف تعامل مع هذا الصبي الخادم (أنس) الذي قال: «والله لا أذهب!»؟

إن الحبيب صلى الله عليه وسلم لم يؤدبه تأديبًا سلبيًّا، بل قام وذهب إليه، وقال: «يا أنيس» تصغير «أنس» للشفقة والمرحمة، وكذلك داعبه وأخذ بقفاه وهو يضحك رفقًا به، ولم يعاقبه يوبخه أو يعاتبه، بل سأله: «أَذَهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ؟» وفي نفس الوقت بين له النظام، وأن ذلك أمر، فالأجدر أن يلتزم به.

ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه:

عن معاوية بن الحكم السلمي، قال: بينا أنا أصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ عطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم فقلت: واثكل أمياه! ما شأنكم تنظرون إلي؟! فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتونني، لكني سكت. فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبأبي هو وأمي! ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه؛ فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني، قال: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلاةَ لا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلامِ النَّاسِ؛ إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ»- أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم- قلت: يا رسول الله، إني حديث عهد بجاهلية وقد جاء الله بالإسلام، وإن منا رجالًا يأتون الكهان؟ قال: «فَلا تَأْتِهِمْ». قال: ومنا رجال يتطيرون؟ قال: «ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ، فَلا يَصُدَّنَّهُمْ». قال ابن الصباح: «لا يَصُدَّنَّكُمْ». قال: قلت: ومنا رجال يخطون؟ قال: «كَانَ نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ يَخُطُّ فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَاكَ». قال: وكانت لي جارية ترعى غنمًا لي قِبَلَ أُحُد والجوانية، فاطلعت ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمها، وأنا رجل من بني آدم آسف كما يأسفون، لكني صككتها صكة، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعظم ذلك عليَّ، قلت: يا رسول الله، أفلا أعتقها؟ قال: «ائْتِنِي بِهَا»، فأتيته بها فقال لها: «أَيْنَ اللهُ؟»، قالت: في السماء، قال: «مَنْ أَنَا؟»، قالت: أنت رسول الله، قال: «أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»[1].

(١) صحيح مسلم. «كهر»: نهر ووبخ. «يخطون»: "يخط" أي: يأتي ضربًا من الكهانة يخط فيه على الأرض خطوطًا، ومعناه: من وافق خطه خط النبي فهو مباح له، ولكن لا طريق لنا إلى العلم اليقيني بالموافقة؛ فلا يباح، والمقصود: أنه حرام. «آسف كما يأسفون» أي: أغضب كما يغضبون.=

ونقف عند هذا الحديث الشريف ونقارن بين الموقفين السابقين الذين وقعا للصحابي الجليل معاوية بن الحكم رضي الله عنه، وكيف عامل الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك الصحابي في كلا الموقفين.

ففي الموقف الأول، وهو: (كلامه في الصلاة)، لم يعنفه الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يوبخه، وذلك قد يكون لجهله.

وفي الموقف الثاني، وهو: (ضربه الجارية)، عامله الرسول صلى الله عليه وسلم بإنكار ذلك الفعل عليه، ويؤخذ هذا من قوله: «فعظم ذلك عليّ».

وإنكار الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الفعل؛ وهو ضربه الجارية، قد يكون راجعًا إلى أن هذا الصنيع ليس من الأمور التي تجهل عادة، فالرفق والإحسان إلى الناس من الأمور التي فطر الله الناس عليها؛ وليست من باب العلم المكتسب. وفي المقابل نقارن، بين عملين:

١- فعل الصحابي الجليل لتكفير خطئه الذي وقع فيه وهو (الضرب)، فتأثر بذلك، فأتى رسول الله متعذرًا بالغضب الذي دفعه إلى ذلك، وموقف الرسول صلى الله عليه وسلم الذي عظم ذلك، والذي بسببه أعتق الجارية، وأقره الحبيب صلى الله عليه وسلم على ذلك.

٢- موقف بعض المربين والمعلمين هداهم الله في وقتنا الحاضر، إذ يوجد من يضرب لدرجة التعذيب بما في ذلك ضرب الوجه، مع العلم أنه ملعون من يفعل ذلك بالحيوان، فكيف بالإنسان المكرم؟! وكيف بذلك في أماكن العلم؟! ومع الأسف نلاحظ أن القائلين بالضرب هداهم الله، يتدرجون في تأييدهم للضرب؛ فهم على درجات؛ فمنهم من يقول به كآخر دواء، ومنهم من يقول به في حال التأديب وليس التعليم، ومنهم من يقول باستخدامه عقابًا على الإطلاق، ومنهم من يقول: إنه (سُنّة)! فهل ذلك راجع إلى:

= «صككتها صكة» أي: لطمتها لطمة؛ أي: ضربتها بيدي مبسوطة. «فعظم ذلك» أي: كبر النبي ذلك الأمر أو الضرب علي؛ أي: إنكار الرسول صلى الله عليه وسلم على الصحابي ضربه للجارية وتعظيمه لذلك الأمر أي: ضربه إياها «فليتنبه».

- تخلف (متراكم).

- جهل[1].

- أمراض وعقد نفسية واجتماعية.

نسأل الله تعالى أن يغفر لنا ويهدينا ويعفو عنا جميعًا فليس منا أحد معصوم.

رجل- وليس طفلًا- يبول في المسجد!

وروى البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود وابن ماجه وأحمد وابن حبان وغيرهم، حديث الأعرابي الذي بال في المسجد وكيف تعامل معه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

واخترت من تلك الروايات، ثلاث روايات صحيحة، تبين بعض الجوانب المشرقة لمنهج الرسول صلى الله عليه وسلم في التعليم:

روى الإمام مسلم: عن أنس بن مالك، قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: مه مه. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تُزْرِمُوهُ دَعُوهُ». فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه فقال له: «إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلا الْقَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ الله عَزَّ وَجَلَّ وَالصَّلاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ»- أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم- قال: فأمر رجلًا من القوم فجاء بدلو من ماء فشنه عليه[2].

وفي رواية للترمذي، قال: دخل أعرابي المسجد، والنبي صلى الله عليه وسلم جالس، فصلى، فلما فرغ قال: اللهم ارحمني ومحمدًا، ولا ترحم معنا أحدًا، فالتفت إليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «لَقَدْ تَحَجَّرْتَ وَاسِعًا»، فلم يلبث أن بال في المسجد، فأسرع إليه الناس، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أَهْرِيقُوا عَلَيْهِ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ، أَوْ دَلْوًا

---

(١) والمقصود بالجهل: الجهل المركب، وليس الجهل البسيط؛ لأن الجاهل البسيط يعرف سوء ذلك العمل وفساده بفطرته.

(٢) صحيح البخاري ومسلم. «لا تزرموه» : أي: لا تقطعوا عليه بوله.

مِنْ مَاءٍ»، ثم قال: «إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَـمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ»[١].

وفي رواية الإمام أحمد: قال: يقول الأعرابي بعد أن فقه: فقام النبي صلى الله عليه وسلم إليَّ- بأبي هو وأمي!- فلم يسب ولم يؤنب ولم يضرب[٢].

وفي هذا الحديث، أذكر خمس ملاحظات تربوية، على عظم ذلك المنهج النبوي:

١- كيفية دعاء الأعرابي، وكيف علمه النبي صلى الله عليه وسلم؛ ففي رواية: فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «لَقَدِ احْتَظَرْتَ وَاسِعًا»[٣].

٢- الموقف من هذا العمل الشنيع وهو (التبول في المسجد) وكيف أمرهم بترك الرجل، يكمل بوله، حيث قال: «لا تُزْرِمُوهُ، دَعُوهُ».

٣- موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من الصحابة رضي الله عنهم، وتنبيههم؛ حيث قال: «إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ».

٤- كيفية تعامل الرسول صلى الله عليه وسلم مع الأعرابي ورأفته ورفقه به وتعليمه ما يلزمه من غير تعنيف.

٥- درجة استجابة الأعرابي وتعلمه وتأثره، بحيث تفقه، حيث قال: بأبي هو وأمي فلم يسب ولم يؤنب ولم يضرب).

واغدراه!

روى الإمام أحمد عن عائشة، قالت: ابتاع رسول الله صلى الله عليه وسلم من رجل من الأعراب جزورًا- أو جزائر- بوسق من تمر الذخرة، وتمر الذخرة العجوة، فرجع به رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته، والتمس له التمر، فلم يجده، فخرج إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: «يَا عَبْدَالله، إِنَّا قَدِ ابْتَعْنَا مِنْكَ جَزُورًا- أَوْ جَزَائِرَ- بِوَسْقٍ مِنْ تَمْرِ الذخرةِ، فَالتَمَسْنَاهُ فَلَمْ نَجِدْهُ»، قال: فقال الأعرابي: واغدراه! قالت: فنهمه الناس، وقالوا: قاتلك الله! أيغدر رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! قالت: فقال

(١) صححه الألباني. «سجلا»: أي: الدلو فيها ماء.

(٢) حسنه الألباني.

(٣) صححها الألباني. أو «لَقَدْ تَحَجَّرْتَ وَاسِعًا»؛ يعني: رحمة الله عز وجل.

رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دَعُوهُ؛ فَإِنَّ لِصَاحِبِ الحَقِّ مَقَالًا»، ثم عاد له رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «يَا عَبْدَالله، إِنَّا ابْتَعْنَا مِنْكَ جَزَائِرَكَ وَنَحْنُ نَظُنُّ أَنَّ عِنْدَنَا مَا سَمَّيْنَا لَكَ، فَالْتَمَسْنَاهُ فَلَمْ نَجِدْهُ».

فقال الأعرابي: واغدراه! فنهمه الناس، وقالوا: قاتلك الله! أيغدر رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دَعُوهُ فَإِنَّ لِصَاحِبِ الحَقِّ مَقَالًا»، فردد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين أو ثلاثًا، فلما رآه لا يفقه عنه قال لرجل من أصحابه: «اذْهَبْ إِلَى خُوَيْلَةَ بِنْتِ حَكِيمِ بْنِ أُمَيَّةَ، فَقُلْ لَهَا: رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم يَقُولُ لَكِ: إِنْ كَانَ عِنْدَكِ وَسْقٌ مِنْ تَمْرِ الذَخرةِ فَأَسْلِفِينَاهُ حَتَّى نُؤَدِّيَهُ إِلَيْكِ إِنْ شَاءَ اللهُ».

فذهب إليها الرجل، ثم رجع فقال: قالت: نعم، هو عندي يا رسول الله، فابعث من يقبضه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للرجل: «اذْهَبْ بِهِ فَأَوْفِهِ الَّذِي لَهُ». قال: فذهب به فأوفاه الذي له، قالت: فمر الأعرابي برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في أصحابه، فقال: جزاك الله خيرًا، فقد أوفيت وأطيبت، قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أُولَئِكَ خِيَارُ عِبَادِ الله عِنْدَ الله يَوْمَ القِيَامَةِ: المُوفُونَ المُطِيبُونَ»(١).

انظر كيف اتهم الأعرابي أوفى الناس قاطبة- بأبي هو وأمي!- صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك كيف عامله مع عدم فهمه؟!

ثم انظر موقف الأعرابي بعد ذلك، حيث قال: جزاك الله خيرًا، فقد أوفيت وأطيبت.

بهذا الحلم والرفق والسماحة والوفاء والكرم، أنقذ الله عز وجل به الناس، من الضلال إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور؛ صدق الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾.

(اسْتَقِدْ):

بل أشد من ذلك، أنه عرض القصاص من نفسه صلى الله عليه وسلم في عدة

---

(١) حسنه الألباني. «الجزور»: هو الواحد من الإبل، يتناول الذكر والأنثى، إلا أن اللفظة مؤنثة. كتاب(فيض القدير) للمناوي. «فنهمه الناس»: أي: زجروه.

مواقف؛ منها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عدل صفوف أصحابه يوم بدر، وفي يده قدح يعدل به القوم، فمر بسواد بن غزية حليف بني عدي بن النجار، وهو مستنتل من الصف، فطعن في بطنه بالقدح، وقال: «اسْتَوِ يَا سَوَادُ»، فقال: يا رسول الله، أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدني، قال: فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بطنه، وقال: «اسْتَقِدْ» قال: فاعتنقه فقبل بطنه، فقال: «مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا يَا سَوَادُ؟» قال: يا رسول الله، حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير، وقال له: «اسْتَوِ يَا سَوَادُ»[1].

★ ★ ★

(١) حسنه الألباني. معاني الكلمات: «مستنتل»: أي: متقدم. «فأقدني»: أي: يطلب أن يقتص من رسول الله صلى الله عليه وسلم. «استقد»: أي: اقتص.

صور تربوية سلبية:

سأعرض مجموعة من الصور التربوية السلبية، الهدف من ذكرها بيان الخلل والمعالجة، مع الحرص على أن تكون صورًا حقيقية ومتنوعة وشاملة ومختصرة ومعبرة، وأخيرا- وهو الأهم- هادفة، وقد تكون أحداث تلك الصور مختصرة وصغيرة لكن معانيها كبيرة.

فمن خلال تلك الصور نتعرف على مشاكل بعض المعلمين الطبيعية المعلنة، وليست الجرائم السرية أو القصص الشاذة، ومن خلال تلك العينات المتكررة تتبين بعض الآثار السيئة على العالم الإسلامي، والتي يتمنى الجميع إصلاحها، وهي:

- معلم يقتل «إسلام».
- أنا كسلانة!
- لعائشة لعب.
- من الغبي؟
- مشهد تربوي.
- هل مستقبل الطلاب مشرق؟
- مهندس شاورما.
- الكرم الحاتمي.
- ذكريات معلمين: (حملت سكينا لأنتقم!)، (الثور!)، (طالب لا يبكي!)، (برشلونة!).
- دمون.
- فبهت المعلم.
- صاحب (بار).
- صلوا يا حمير!
- صور غربية:

(مديرة مدرسة صادقة)، (مرشد سياحي)، (بيل غيتس)، (علاج النوم).

معلم يقتل إسلام! وطالب يتكسر من أجل (الهرب) من التعليم!

إن الصحف مليئة بالأخبار التي تبين جزءًا من حال التعليم المتخلف في العالم الإسلامي، ولكن هذه نبذة لا غير للإشارة لبيان ذلك الحال:

نقلت صحيفة «المصري اليوم» تحت عنوان: (مدرس يقتل تلميذًا بالإسكندرية لأنه لم يحل الواجب): «لم يعرف... «٣٧ سنة» أنه سيرسل ابنه صباح أمس إلي المدرسة الابتدائية، مثلما يفعل كل صباح، فيعود إليه جثة هامدة. لم يكن يعرف أن قوانين «العقوبات المدرسية» تطورت، وتشددت، وأصبح القتل عقوبة «عدم حل الواجب». وقف إسلام «١١ سنة» في فصله، بينما مدرس الرياضيات... يعنفه، ويوبخه، لأنه «لم يحل جزءا من الواجب»، فهم بضربه بالمسطرة، ولما لم يستجب التلميذ قرر عقابه «انفراديًا» خارج الفصل، وضربه بقسوة في بطنه، أصيب بعدها إسلام بإغماء، وانتقل إلى مستشفى يعاني ضيقًا بالتنفس والنبض واتساعًا في حدقة العين، حتى توفي نتيجة هبوط حاد في الدورة الدموية والقلب، وفشل وظائف التنفس والمخ.، اعترف المدرس بارتكاب الواقعة، وقال: إنه ضرب إسلام بغرض «تأديبه فقط وليس قتله».

وفي الإسكندرية أيضا، أصيب الطالب... (١٦ سنة)، طالب بمدرسة...، بكسر في العنق والظهر والجمجمة ونزيف في البطن، أثناء محاولته القفز من الدور الثاني للهروب من المدرسة [1].

ثم بعد ذلك بأيام قليلة ذكرت صحيفة دنيا الوطن، هذا الخبر الذي نقلته بشيء من الاختصار، تحت عنوان:

مدرس... يجبر تلاميذه على خلع ملابسهم ليضربهم على مؤخراتهم، حيث قالت: «لم تمض سوى أيام قليلة على واقعة مقتل تلميذ على يد مدرس بسبب عدم أدائه للواجبات المدرسية، حتى تفجرت العديد من وقائع ضرب وإهانة تلاميذ المدارس، وآخرها دارت أحداثها أمس الثلاثاء ٤-١١-٢٠٠٨ في محافظة.... حيث قام مدرس مواد اجتماعية بمدرسة إعدادية بمعاقبة ٤ تلاميذ بالصف الثالث الإعدادي بسبب

(١) صحيفة (المصري اليوم) رقم العدد: (١٥٩٨).

شقاوتهم وأرغمهم على خلع ملابسهم أمام زملائهم ثم ضربهم بالعصا على مؤخراتهم.

يذكر أن أسر التلاميذ المجني عليهم لم يقوموا بالإبلاغ عن الواقعة، ولكن التلاميذ هم الذين قاموا بذلك بعد الاعتداء عليهم، كما لم تقم إدارة المدرسة باتخاذ أية إجراءات ضد المدرس المتهم».

(ضرب بخرطوم المياه):

أرجعت دراسة حقوقية أجراها «المركز المصري للحق في التعليم» حالات العنف بالمدارس إلى عدة أسباب أهمها الاعتماد على التلقين وسيلة وحيدة لتوصيل المعلومة، ولجوء المدرسين للعقاب البدني، وإساءة المعاملة للسيطرة على الطلاب، وضعف الرقابة الحكومية على المدارس.

على صعيد آخر، تقدم ولي أمر تلميذة بالصف الخامس الابتدائي بمدرسة لغات، بمحافظة...، ببلاغ إلى المحافظ وقسم شرطة.... ضد مدرس لغة إنجليزية لضرب ابنته ضربًا مبرحًا مستخدمًا خرطوم مياه مما أحدث آثارًا بجسد طفلته التي تدعى «.....» وأدخلها في حالة اكتئاب.

وقال والد التلميذة: إن الضرب أحدث آثارا بجسد طفلته تشبه آثار الجَلد؛ مما أدخل ابنته في حالة اكتئاب شديدة وتوجس دائم من الآخرين.

وفي التفاصيل، ذكرت صحف مصرية أن الأب قال: إن المدرس المذكور اعتاد ضرب ابنته، وأنه أبلغ إدارة المدرسة بالواقعة، وبدورها حذرت المدرس، لكن دون جدوى.

وأشار الأب في مذكرته لمحافظ..... إلى أن استمرار هذا الأسلوب في التعامل مع ابنته سوف يضطره إلى منع أبنائه من الذهاب إلى المدرسة التي وصفها بـ«مكان الموت والمهانة» خوفا على حياتهم»[1].

أنا كسلانة

- معلمة تعاقب تلميذاتها المقصرات، بأن تكتب كل منهن في ورقة عبارة: «أنا

---

(١) صحيفة دنيا الوطن الإلكترونية، بتاريخ ٥- ١١- ٢٠٠٨م.

كسلانة» وتعلقها على ظهرها، ثم تتنقل الطالبة في الساحة بين بقية الطالبات بهذا الشكل![1].

وهنا عدة ملاحظات:

١- تفنن بعض المعلمين في العقاب والقسوة والتسلط والإهانة والإذلال، وليس العكس!

٢- ماذا لو عملت المديرة بالمعلمة نفس العقاب، في حالة تقصيرها، خاصة أن المعلمة بالغة مكلفة، بعكس الطفلة الصغيرة؟!

٣- تخيل الآثار الواقعة على الطالبات المهانات وزميلاتهن المتعاطفات؛ مثل: تحطيم الشخصية، والخجل، والكبت، وزرع الحقد، والحسد والانتقام، وكره المدرسة...، أو المقاومة من البعض والمكابرة ونزع الحياء، أو التحطيم وإقناع الطالبة أنها كسلانة والاستمرار على ذلك، أو تعويد بقية الطالبات على السخرية والاستهزاء...

٤- قد يكون له أثر في الطاعة الإجبارية والخضوع من البعض، ولكن تلك التربية سلبية وليست تربية إيجابية.

٥- وفي المقابل هل هذا منهج حبيبنا صلى الله عليه وسلم في التربية، أو على الأقل هل هذا المنهج التربوي الحديث، أم هي تراكمات التخلف؟!

يحسن أن نذكر ثلاثة أحاديث، وتوصية لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، تبين الدين المشرق في الرد على هذه هذا المواقف وغيرها، حيث يقع المسلمون في تربية البنات بين إفراط وتفريط، بين البعد عن الدين، وتعليم الموسيقى والاختلاط... وقلة الأدب، وبين التنطع والغلظة والجفاء.

لعائشة لعب:

الحديث الأول: عن عائشة رضي الله قالت: كنت ألعب بالبنات عند النبي صلى الله عليه وسلم، وكان لي صواحب يلعبن معي، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا

---

(١) ومثل هذا العقاب صدر من معلم، حيث إن لديه مجموعة من صور النجوم ذات الألوان المتعددة، ومن يعاقبه يلصق على جبهته نجمة طوال اليوم، يدور بها أمام الطلاب!

دخل يتقمعن منه، فيسربهن إلى فيلعبن معي»[١] .

الحديث الثاني: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك أو خيبر، وفي سهوتها ستر، فهبت ريح فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة، لعب، فقال: «مَا هَذَا يَا عَائِشَةُ؟»، قالت: بناتي. ورأى بينهن فرسًا له جناحان من رقاع، فقال: «مَا هَذَا الَّذِي أَرَى وَسْطَهُنَّ؟!». قالت: فرس. قال: «وَمَا هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ؟!». قالت: جناحان. قال: «فَرَسٌ لَهُ جَنَاحَانِ!». قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلًا لها أجنحة؟! قالت: فضحك حتى رأيت نواجذه[٢].

الحديث الثالث: عن عائشة قالت: دخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث، فاضطجع على الفراش وحول وجهه، ودخل أبو بكر فانتهرني، وقال: مزمارة الشيطان عند النبي صلى الله عليه وسلم؟! فأقبل عليه رسول الله عليه السلام فقال: «دَعْهُمَا»، فلما غفل غمزتهما فخرجتا، وكان يوم عيد يلعب السودان بالدرق والحراب، فإما سألت النبي صلى الله عليه وسلم وإما قال: «تَشْتَهِينَ تَنْظُرِينَ؟» فقلت: نعم، فأقامني وراءه، خدي على خده، وهو يقول: «دُونَكُمْ يَا بَنِي أَرْفِدَةَ» حتى إذا مللت، قال: «حَسْبُكِ؟!» قلت: نعم، قال: «فَاذْهَبِي»[٣].

وفي رواية لمسلم: عن عائشة، أن أبا بكر، دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى تغنيان وتضربان، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مسجى بثوبه، فانتهرهما أبو بكر، فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه وقال: «دَعْهُمَا يا أَبَا بَكْرٍ؛ فَإِنَّهَا أَيَّامُ عِيدٍ». وقالت: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسترني بردائه، وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون وأنا جارية، فاقدروا قدر الجارية العربة الحديثة السن[٤] .

(١) صحيح البخاري. قوله: «فيسربهن إلي» أي: يرسلهن؛ قال ابن حجر في "الفتح": «واستدل بهذا الحديث على جواز اتخاذ صور البنات واللعب من أجل لعب البنات بهن، وخص ذلك من عموم النهي عن اتخاذ الصور».

(٢) صححه الألباني.

(٣) صحيح البخاري.

(٤) صحيح مسلم.

من الغبي؟

بعض المعلمين يتعجب من أسئلة بعض الطلاب وخاصة في المرحلة الابتدائية، فيكرر وصفهم بالغباء، أو يقول: إنها أسئلة غبية، أو: إن من يسألها أغبياء، وإن الإجابة عليها معروفة....

ولكن هذا المعلم لو عرف المستوى المناسب لهؤلاء الطلاب، والفروق الفردية بينهم، لعرف أنها مناسبة، فلا شك أن أسئلة طلاب المرحلة الابتدائية تختلف عن أسئلة المرحلة الثانوية، والثانوية تختلف عن طلاب المرحلة الجامعية، وهذا من البديهي معرفته، فمن الخطأ على المعلم أن يقيس الطالب بنفسه. لذلك نتساءل في هذه الحال: من الغبي؟!

مشهد تربوي:

الكتاتيب في العالم الإسلامي، بعضها يعكس جانبًا من جوانب التخلف التربوي الذي ابتعد عن المنهج النبوي،

ذلك التراث التعليمي الذي تنقله لنا وسائل الإعلام والمتاحف بحيث يعرضون هذا التراث على شكل مشاهد تمثيلية ساخرة، وتتنافس دول العالم الثالث في إبراز ذلك ونشره للجميع، فتبين مساوئ ذلك التراث التعليمي (العريق)، لا لحلها ولكن للتشويه و(نشر الغسيل).

فإذا ذهبت لتلك المتاحف تجد الناس يتفرجون بمن فيهم الغربي والياباني وغيرهم، ولكن الغربي المتحضر له وضع خاص، بحيث يبرز له المشهد التعليمي بصورة أوضح، لينظر إلى ذلك المشهد، فماذا يرى:

يجلس المعلم بشكل (كاريكاتوري) ويلبس لبسًا تقليديًّا رثًّا، وبوجه عابس ومقطب، لا يعرف الابتسام، يركب لحية، ويحمل عصا بشكل مخيف، يلقن الطلاب بغباء، والطلاب يرددون خلفه بشكل أغبى، وهم بملابسهم الرثة يهزون رؤوسهم، وفي كل لحظة يقرع أحدهم بالعصا.

ثم بعد لحظات يأمر المعلم بعض الطلاب بالإمساك بأحد الطلاب وتقييد رجليه بما يسمى (الفلكة) أو(الفلقة) (وسيلة من وسائل التربية والتعليم!!)، ثم يبدأ المعلم

بالاعتداء عليه بالضرب وبعض الطلاب ممسك بالفلقة، والطالب لا يملك فرارًا أو دفاعًا عن نفسه، إنما الصراخ والرجاء والاسترحام والتذلل، وبعد الضرب يأمر المعلم بإطلاق سراح الطالب.

ويذهب الطالب إلى مكانه- بعد الضرب الشديد على قدميه- بمنظر مضحك، بحيث يحبي على يديه وركبتيه، وبشكل أشبه ما يكون بالحيوان أو الرضيع أو الساجد، والمشاهدون يضحكون!!!، بل بعضهم يعلق: ما أجمل تلك الأيام، فيرد عليه الآخر: كان للتعليم والمعلم قيمة!

أما الغربي الراقي المتطور (في نظرهم)، فينظر إلى الجميع، ثم ينظر إلى المعلم فيضحك (على أشكالهم وتعليمهم ومبادئهم)، فيبادله المعلم بضحكة كلها سذاجة وتخلف!

ولسان حال المعلم يقول: هذا تراثنا العريق! وهذا تعليمنا للقراءة والكتابة، وهذه قيمة الطالب عندنا، وهذا تعليمنا لكتاب ربنا سبحانه، (نعلمه بالضرب)!.

هل مستقبل الطلاب مشرق؟!

في أوقات الاختبارات وخاصة الشهادة الثانوية، تحدث أمور عجيبة، بل من السخرية أن تحدث في هذا العصر.

حالة استنفار في المجتمعات الإسلامية تذكرنا بالحروب والكوارث، فهم في وضع من الأسى والتشتت والفوضى (ليست الخلاقة، بل الهدامة) فهم في نشاط منقطع النظير، ولكن لا يحسدون عليه.

مثل: الدروس الخصوصية، وكثرة المراقبين، واللجان، والتقارير، والتحقيقات، والشمع الأحمر، والسهر، والمنبهات، والمنشطات، والأسئلة المسربة، والغش، والبكاء والإغماءات، والحرمان من الاختبار...

فلسان حالهم في ذلك التشديد يقول: إن الطلاب (رجال المستقبل)، والمعلمين (المربين)، كلهم لا يوثق بهم، فهم متهمون بالخيانة (العظمى)! ومع ذلك لابد أن نحافظ على مستوانا، ونستمر في صدارة الأمم!

فالجميع متهمون، والأكثرية خونة. مع أن الدول المتحضرة يعتبرون المجرم بريئًا

حتى تثبت إدانته!!! وكذلك لا نسمع عندهم بشيء من ذلك الاستنفار، فهل ذلك راجع إلى التسيب أو الإهمال أم التخلف؟

ومع ذلك كله، فإنا نلاحظ أنه- في الغالب - إذا نجح الطلاب عندنا لا يوثق في شهاداتهم، وإذا تخرجوا فلا يجدون عملًا، ومن يجدون العمل لا يعملون في تخصصاتهم، وإن عملوا فإن الأداء رديء، والواقع خير مثال!

وسنذكر صورة واقعية حدثت وتحدث في كثير من المدارس، بل قياسًا على تربيتهم المتخلفة، تتنافس المدارس لهذا المستوى من الانضباط والتخطيط:

يقول المعلم: كلفت بالمراقبة في فصل فيه عشرون طالبا في المرحلة الثانوية.

كان من المفترض أن يعامل الطلاب كمسلمين يمثلون رجال المستقبل الذين سيحملون الأمانة ويتسلمون العهدة ممن سبقهم، أو على الأقل يعاملون كأي بني آدم مكرم، لكن الواقع هو:

(بعض الاحتياطات)

١- تفتيش الطلاب قبل الدخول للفصول.

٢- تغيير مقاعد الطلاب: طالب في مستوى وبجانبه طالب في مستوى آخر.

٣- في الفصل مراقبان اثنان.

٤- بين الفصول ملاحظان اثنان.

٥- كذلك مشرفان اثنان من إدارة التعليم[1].

٦- مدير المدرسة يدور بين الفصول.

٧- مدقق يدقق على أسماء المراقبين وجودهم في الفصول.

٨- كنترول مكون من ثلاثة يتسلم أوراق الإجابة ويعد الأوراق.

٩- قد يأتي موجه أو غيره، وبشكل مفاجئ ليكشف على الجميع.

---

(١) يلاحظ: (اثنان) (اثنان)، لكي يراقب أحدهما الآخر، لعدم الثقة في الواحد!

يقول المعلم: لاحظت أحد المشرفين يتلصص من النافذة، وعند ذلك أغلقتها.

يقول المعلم: لقد استحييت من الطلاب لكي لا تجرح مشاعرهم، مع أني أظنها ميتة، فحالتهم يرثى لها.

مع أني أعتبر هذه التصرفات السلبية أمرًا معتادًا من البعض، وذلك لفهمه التربوي بشكل مختلف أو متخلف، ولكن المشرف جاء مرة أخرى وفتحها!

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[١].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّكَ إِنِ اتَّبَعْتَ عَوْرَاتِ النَّاسِ أَفْسَدتَّهُمْ، أَوْ كِدتَّ أَنْ تُفْسِدَهُمْ»[٢]، وفي الأثر: «لا تُفَتِّشُوا النَّاسَ فَتُفْسِدُوهُمْ»[٣].

ولمعرفة مدى خطورة هذه التصرفات، ننظر لرأي أحد المتخصصين، الذي بين خطورتها بل وصفها بـ(الأخطر) حيث قال الدكتور في علم النفس التربوي إبراهيم الخليفي جزاه الله خيرًا: «أخطر ما يضعف مجتمعاتنا هو سوء ظن الكبار في الصغار، وسوء توقعات الكبار من الصغار.

ولردم الهوة، على الكبار أن يغيروا نظرتهم للجيل الجديد، ويستبدلوا النقد والتركيز على الأخطاء بالتشجيع والتقدير والتركيز على الحسنات، والمشاركة في الرأي على اتخاذ القرارات» انتهى[٤].

ونلاحظ أن هذه التربية بعيدة كل البعد عن التربية النبوية، وهي كذلك بعيدة عن التربية الحديثة، وبهذا نعرف مدى التخلف التربوي.

(رجال المستقبل)

ماذا ننتظر من هؤلاء الطلاب عند تخرجهم وتخلصهم من جيوش المراقبين

(١) سورة البقرة، الآية: (١٨٩).

(٢) صححه الألباني.

(٣) المعجم الكبير للطبراني.

(٤) كتاب (في بيتنا مكار) للدكتور إبراهيم محمد الخليفي الأستاذ المشارك في علم النفس التربوي.



وعتادهم وقد أصبحوا أحرارًا، هل نأمنهم على شيء؟! (الواقع خير جواب).

ملاحظات:

- الاختبار أو الامتحان أو الفحص.
- مراقب في ثانوية.
- معلم أو أكثر يراقبون.
- مراقبون يراقبون مراقبين.
- مراقبون يراقبون مراقبي المراقبين.
- كل المراقبين متهمون مع أنهم مربون!

- أن المجرم الذي يقبض عليه هو الذي يعتبر متهمًا. ولكن في نفس الوقت يعتبر بريئًا؛ (فالمتهم بريء حتى تثبت إدانته).

- هل كل هؤلاء المربين يعتبرون أشد من المجرمين؟!

- لحفظ ماء الوجه، يقول كل واحد منهم: إني لست المقصود.

- لتجميل وجه تلك الفضائح التربوية، يغلفونها بأسماء ناعمة، أو أسماء مغلفة؛ مثل: مراقب، ملاحظ، موجه، مشرف، مرشد، مدقق، منظم، ملاحظ المراقبين، رئيس الملاحظين، كنترول، رئيس كنترول، رئيس لجنة، رئيس اللجان.....

- الجميع يراقبون ويحاولون السيطرة على هذا الطالب (المجرم أو المتهم في نظرهم).

- كل ما سبق دليل على سوء التربية مع الأسف، من كبير المراقبين إلى الضحية (الطالب).

- يلاحظ بشكل عام، أن الغش واستعداداته (الطاقم من مراقبين وغيرهم)، أمور تنتشر في المجتمعات المتخلفة (تربويًا).

مثالان:

وسنبين بمثالين (دون تحديد الأسماء) لمعرفة مستوى نظرنا لقضية الغش وسيطرتها

على الأفكار والحلول ومستوى الأمانة والخيانة...

دولتان تتنافسان على المقدمة والمؤخرة:

الدولة الأولى: دولة إسلامية مثال للتخلف والفشل مع الأسف، فهي تنافس دول العالم، أحيانا على صدارة القائمة وعلى ذيل القائمة وأحيانا- وذلك على حسب المجالات- من جهة على الفقر والمرض. ومن جهة أخرى على الصناعة والاختراعات.

الدولة الثانية: دولة متقدمة وكذلك تنافس دول العالم، ولكن في الجهة المعاكسة للدولة السابقة.

الدولة الأولى حصل فيها مظاهرة للسماح بالغش في الاختبارات!

الدولة الثانية (ليس فيها اختبارات) أي: ليجتاز الطالب المراحل لا يحتاج إلى تلك (الفوضى المنظمة) أو (التنظيم الفوضوي).

ومع الأسف ذلك الرقي في التربية يصعب الاقتناع به فضلا عن تطبيقه، (عند الكثيرين).

وتلك الصعوبة ليست عند العامة، بل عند بعض التربويين.

ولن نذكر آيات وأحاديث تبين ذلك؛ فمنهج الرسول صلى الله عليه وسلم واضح في ذلك.

ويسأل البعض: هل يمكن تطبيق ذلك المنهج الراقي؟ وهل سنراه في مجتمعاتنا الإسلامية؟

والجواب صعب؛ لأن تطبيقه بعيد من جهة، وقريب من جهة أخرى:

الجهة الأولى: بعيد إذا رأيت الكثير ما زال يناقش أو رأيته مقتنعًا بقضية تعداها الزمن، فهي فاشلة من ناحية الدين ومن ناحية التربية الحديثة، وهي قضية ضرب الطلاب.

الجهة الثانية: قريب إذا رأيت اهتمام الناس بقيمة التربية وانتشار الكتب التي

تستخلص التربية الإيجابية الراقية من منهج النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك زيادة الوعي عند عامة المسلمين- والمربين على وجه الخصوص- وحبهم الكبير لذلك المنهج النبوي، وفي المقابل بعدهم عن ما يعارض ذلك المنهج، من مظاهر التخلف التي لحقت به وبهم.

قال أحد مديري المدارس الثقات: التحقت بدورة لمديري المدارس، ولكي تجتاز هذه الدورة يجب أن تنجح في الاختبار، يقول: وفي نهاية الدورة وفي قاعة الاختبار رأيت كثيرًا من مديري المدارس يغشون في الاختبار![1] يقول الراوي: وبعد ذلك المشهد رأيت أحد هؤلاء المديرين في مكان آخر يتكلم عن النظام والأمانة!

وتذكرت قول أحد المعلمين من العالم الثالث حينما قال: يشتهر عندنا قول: «التعليم مسرح كبير، كلٌّ يمثل دوره بإتقان»[2].

وَرَاعِي الشَّاةِ يَحْمِي الذِّئْبَ عَنْهَا ... فَكَيْفَ إِذَا الرُّعَاةُ لَهَا الذِّئَابُ

* * *

مهندس شاورما!

يقول أحد المعلمين: عندما ذهبت بالسيارة للمطعم لشراء (شاورما) جاءني العامل، وعرفت أن هذا العامل يحمل شهادة (هندسة كمبيوتر)، وعندها تأثرت، وذهب خيالي إلى عدة صور:

١- يتعلم نحو ست عشرة سنة (تعليم).

٢- ما مر به من العقاب المدرسي والمراقبة والذل والمنة والتسجيل في الجامعة وفلسفة دكاترة العالم الثالث.

٣- الخسارة المادية والمعنوية، للطالب وأهله وأمته.

---

(١) وهذا المشهد حدث أكثر من مرة، ويتكرر مع الأسف، والسبب أن الجميع ضحايا بسبب التربية السيئة.

(٢) لهذا تجد التشدق والتفيهق والتفلسف يبدو واضحًا على أغلب المسؤولين عن التربية والتعليم عند حديثهم عن (التربية والتعليم) مع أن ذلك كله يعتبر تمثيلًا في مسرح فاشل.

٤- يحمل شهادة (هندسة كمبيوتر) ويعمل (عامل شاورما)! فكيف بغيره؟!

٥- هذا الخريج (لا يحمل واسطة).

٦- هذه الحالة لا تراها في الدول المتحضرة.

٧- وأخيرًا تذكرت:

- حال (أمه).

- حال أبيه المكدود الذي لا يعلم إلا الله سبحانه وتعالى ما بذل في سبيل حصول ابنه على هذه الشهادة.

- حال إخوانه الذين يشاهدونه وهم في مرحلة الدراسة وحال طموحهم.

- حال من يعرفه.

- وأخيرًا حاله هو المسكين.

الكرم الحاتمي (من مال الغير)

يقول أحد المعلمين:

تقيم بعض المدارس أنشطة تربوية؛ مثل اليوم المفتوح، ويطلب من الطلاب المشاركة بإحضار بعض الأكلات، ثم المشاركة في أكلها.

ولكن في عالمنا النامي، تكون العناوين براقة ولكن المضمون عكس ذلك.

وسأنقل بعض المشاهدات والملاحظات، التي رأيتها من بعض المعلمين والتي هي في نظري مضحكة ومحزنة في نفس الوقت، فهي من باب: (شر البلية ما يضحك)، إلا أن فيها الكثير من المعاني العميقة:

- إن تلك المشاهد ليست خاصة بمدرستنا، بل تتكرر في كثير من مدارس العالم النامي، وقد تكون بشكل أفظع عند البعض:

- الذي يحضر الأكلات هم الطلاب فقط.

- يكون هناك تقييم لأحسن أكلة (الهدف نبيل!).

- يبدأ المعلمون بالأكل من إفطار الطلاب، وذلك لعظم مكانة المعلم!.

- يرسل بعض المعلمين أجزاء من بعض الأكلات اللذيذة إلى بعض الزملاء الأعزاء عليهم ليتذوقوا منها، وبالطبع المرسَل بها طالب.

- رأيت معلمًا يعطي عاملا في المدرسة أكلة كاملة، فما كان من الطالب صاحب الأكلة، إلا أن اعترض قائلا: إني لا أسمح أن يأخذها، فأنا لم أحضرها له، فما كان من هذا المعلم الكريم، إلا أن يوجِّهَ الطالب (تربويًّا): يا بخيل، يا لئيم يا... (من يقصد؟!)، ولكن الطالب أصر، وأصر المعلم، وهنا تدخل أحد المعلمين، وقال: لا يجوز أخذ أكلته غصبًا عنه، وحينها ترك المعلم ذلك الطالب، متأسفًا من انحطاط التربية والتعليم لهذه الدرجة!.

- وإحقاقًا للحق، بعض المعلمين صام ذلك اليوم، ولم يشاركهم في الأكل، مستندًا لقول الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم: «**أَفَلا قَعَدتَّ في بَيْتِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ فَتَنْظُرَ أَيُهْدَى إِلَيْكَ أَمْ لا**»[1].

- بعض الطلاب لم يرَ من أكلته التي أحضرها، إلا الإناء وهو فارغ.

- عند مناقشة بعض المعلمين قال بعضهم: هذه أمور تربوية يتعود الطلاب من خلالها على احترام معلميهم، والأمر بسيط.

ولكن يتبادر إلى الذهن سؤال يفرض نفسه: لماذا لا يزيد المعلمين من احترامهم وتقديرهم ويحضرون بعض الأكلات، أو ينظمون حفلا آخر، بحيث تكون الأكلات من المعلمين المحترمين، خاصة أنهم يتسلمون رواتب، وكذلك الأمر بسيط في سبيل التربية؟!.

- طبعا الطلاب يتنافسون في التوزيع على معلميهم المحترمين (الكبير يأكل حق الصغير، والقوي يأكل حق الضعيف)! كيف لا وقد غرسوا فيهم أنهم الكل في الكل، وأن الطالب الذي لا يتزلف لهم ويخضع وينافق، لا يعتبر طالبًا مثاليًّا!

- ليس المعلمون شاذين في هذا الأمر عن المجتمع، ولكن تلك شريحة مصغرة من المجتمع، ويرجع ذلك لأسباب، منها: (التربية). وفي المقابل سنرى صورتين لخليفة للمسلمين وليس معلمًا:

---

(١) صحيح مسلم.

الصورة الأولى:

كتب محمود الهباش مقالًا تحت عنوان (آه يا بغلة عمر!!) قال فيه: «عمر الذي أرسل أحد الولاة إليه ذات يوم بهدية من الحلوى المميزة، التي اشتهرت بها مدينته، فلما قدم رسول الوالي بالحلوى، دخل المدينة بعد صلاة العشاء، فكره أن يذهب مباشرة إلى بيت عمر خشية إزعاجه، ظنا منه أنه ينام ليله ويلهو نهاره، كشأن اللاهين الذين سيأتون في مستقبل الزمان، فذهب إلى المسجد ليبيت ليلته فيه، على أمل أن يلتقي عمر في صلاة الفجر، فلما وصل المسجد وجده خاليًا إلا من رجل قائم يصلي فيه، فلما اقترب منه، إذا هو عمر نفسه، فلما فرغ من صلاته سأله الرجل: يا أمير المؤمنين، ألا تنام؟! فرد عليه قائلا: «يا هذا، أنا إن نمت نهاري أضعت رعيتي، وإن نمت ليلي أضعت نفسي عند ربي»، فلما قدم الرجل إليه الهدية التي يحملها، وذاقها أعجبه طعمها، فقال للرجل: «أكل المسلمين يشبع من هذا؟» فقال الرجل: لا، إنما هذا للخاصة من الناس، فلفظها من فيه، وقال: «لا حاجة لي بها، كيف ألقى ربي إذا أكلت شيئا لم يشبع منه أطفال المسلمين»، ثم أمر الرجل أن يعود بها إلى الوالي، وأرسل إليه يقول: «أما بعد، فليس هذا من كد أبيك ولا من كد أمك، فأشبع المسلمين مما تشبع منه في رحلك، ولا أسمع أنك ذقتها حتى يشبع منها أهل مدينتك، والسلام»، فأين عمر اليوم من ولاة استأثروا دون أطفالنا بكل شيء؟!»[1].

الصورة الثانية:

وقف الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المنبر عام المجاعة وقد جاع الناس وقرقر بطنه من الجوع، فالتفت إلى بطنه وقطع الخطبة وقال له: «قرقر أو لا تقرقر، والله لا تشبع حتى يشبع أطفال المسلمين»، ولكن البعض يعكسها فيقول: والله لا يشبع أطفال المسلمين حتى أشبع!

ذكريات معلمين:

تحدثت مع عدد من المعلمين عن ظلم المعلمين للطلاب، وتطرقنا لذكريات الظلم الذي يقع على الطلاب في المدارس، فبدأ المعلمون يذكرون ما وقع لهم شخصيًا وأعتقد

(١) دنيا الرأي، تاريخ النشر ٢٩ - ٣- ٢٠٠٧م.

أنهم صادقون، فاخترت من ذلك ثلاث قصص هي:

١ - حملت سكينًا لأنتقم من المعلم!

٢ - الثور.

٣ - طالب لا يبكي!

ويلاحظ أن تلك الذكريات قديمة، وأن الظلم لا ينسى بل تكون آثاره سلبية ومتنوعة، فمثلا كلهم يستخدم الضرب.

حملت سكينًا لأنتقم من المعلم!

يقول أحدهم: في المرحلة الابتدائية، وفي العاشرة من عمري، كنت أنافس على المركز الأول. وحدث مرة أن ضربني أحد المعلمين في الفصل ضربًا شديدًا، بحيث ضربني بيديه حتى سقطت على الأرض، ثم استمر يطأ بطني بأقدامه.فتأثرت تأثرًا شديدًا، ولكن بعد الخروج من المدرسة، حملت سكينًا واتجهت إلى المكان الذي يوجد فيه، حيث إنه يكون بعد العصر في محل في أحد الشوارع، ولكني لم أجده واستمر ذلك أسبوعا أو أكثر وأنا أترصد له، ولكني لم أجده والحمد لله.

يقول: وما زلت أكرهه كرها شديدا، لدرجة أني أكره كل تلك العائلة التي ينتسب إليها ذلك المعلم!

(للحادثة أكثر من ثلاثين سنة)!

الثور:

وحدثني زميلي المعلم فقال: في أول يوم أذهب فيه إلى المدرسة، عندما دخلت في الفصل، قال لي المعلم: أين كتبك وأين حقيبتك؟

وأنا ليس معي شيء، بل لم أسمع بهاتين المفردتين قبل ذلك.

يقول زميلي: ضربني المعلم ضربًا شديدًا، فأصابني الدوار وهربت من الفصل وأنا أبكي وأستفرغ، فقابلني المدير وضمني ومسح دموعي، وهو يشتم المعلم واصفا إياه بالثور.

(للحادثة أكثر من أربعين سنة)!

طالب لا يبكي!

يقول المعلم صالح: عندما كنت في المرحلة الابتدائية في العاشرة من عمري وكنت لا أبكي بسبب ضرب المعلمين لي، فقال الطلاب لأحد المعلمين: يا أستاذ، صالح لا يبكي بسبب الضرب! يقول صالح: فقال أنا أجعله يبكي، فأخذ العصا وجعل يضربني وهو متحمس على أن يجعلني أبكي، فجعل يضرب ويضرب ويضرب.

سألت المعلم صالح: تذكر كم ضربك؟ قال: نحو خمس عشرة أو عشرين ضربة!

(للحادثة أكثر من ثلاثين سنة)!

ملاحظتان:

الملاحظة الأولى: لا شك أن المعلم لا يريد من عمله هذا كسر إرادة الطالب وتحطيمه وجعله ذليلا في حياته؛ لأن المعلم لا يفهم عمق هذه المعاني- مع الأسف- وإنما الذي يفهمه بحكم تربيته: أن الطالب ليس له قيمة!

ولكن أين الرحمة؟ وهل مثله لا يعرف مثل هذه الأحاديث:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ لا يَرْحَمِ النَّاسَ، لا يَرْحَمْهُ اللهُ»[١].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَنْ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَرَاحَمُوا»، قالوا: يا رسول الله، كلنا رحيم؟ قال: «إِنَّهُ لَيْسَ بِرَحْمَةِ أَحَدِكُمْ صَاحِبَهُ، وَلَكِنَّهَا رَحْمَةُ العَامَّةِ»[٢].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا»[٣].

الملاحظة الثانية: عن التربية السلبية أو التقليدية في العالم الثالث.

إن التربية والتعليم بالطرق التقليدية القديمة، التي تتمثل في الدخول إلى الفصل بالعصا، والتهديد والوعيد و(الضرب بيد من حديد) و(عقابًا له وردعًا لأمثاله)، مع

(١) صحيح البخاري ومسلم.

(٢) حسنه الألباني.

(٣) صححه الألباني.

اللعن والسب والشتم وشيء من السخرية؛

إن هذه طريقة سهلة خاصة في نظر من يفتقد الإيمان والخلق الحسن، بحيث يرى البعض أن ضبط الفصل يحتاج إلى معاملة قريبة من معاملة محاكم التفتيش في القرون الوسطى، والتي تعتبر في قسوتها أقل مستوى من معاملة الحيوانات، خاصة الحيوانات في العهد النبوي، والخلفاء الراشدين، والتي تعتبر أكرم وأشرف من تعامل بعض المعلمين في وقتنا الحاضر، خاصة ما يدور في أفكارهم من انتقادات واحتجاجات (تربوية) على التربية الحديثة السخيفة في نظرهم والتي هي في الحقيقة أقرب إلى التربية النبوية!

برشلونة!

جلس مجموعة من المعلمين في الاستراحة بين الحصص يتناقشون في الرياضة، وتطرقوا للنوادي الرياضية في إسبانيا، مثل نادي (ريال مدريد) ونادي (برشلونة)، وذكروا اللاعبين بتشجيع وإعجاب ومحبة وتقدير، فقال أحد المعلمين: أتحداكم أن تذكروا اسم جامعة واحدة في إسبانيا؟

الجواب: لا أحد يعرف، فما بالك بالطلاب!

إِذَا كَانَ رَبُّ البَيْتِ بِالدُّفِّ ضَارِبًا   فَشِيمَةُ أَهْلِ البَيْتِ كُلِّهِمُ الرَّقْصُ

والمبكي المضحك أن الإسبان الكفار طردوا أجدادهم المسلمين الذين كانوا في إسبانيا (الأندلس) بعد أن ركلوهم بأقدامهم خارج إسبانيا بعد تعذيبهم، ولكن بعد ذلك ماذا عمل المسلمون؟

- صار بعض أبناء المسلمين يعجبون ويشجعون أقدام أبناء من ركلوا أجدادهم! فلم تصل الحقارة والانحطاط إلى تقدير رؤوسهم، بل انحدروا إلى أسفل ما فيهم (الأقدام)، فصارت أعين هؤلاء عند أحذية أولئك، بتشجيع وإعجاب ومحبة وتقدير![1].

---

(١) إن الإسبان كل سنة يحتفلون بانتصارهم على المسلمين، وقد يشارك هؤلاء في هذه الاحتفالات! ولكن ينبغي أن يعلموا أن بعضهم لا يريدونهم حتى الآن، بل قد يطردونهم مرة أخرى من حفلهم، لأنهم لم ينسوا ماضيهم.

(لحادثة طرد آخر مسلم أكثر من أربعمئة (٤٠٠) سنة)[١].

وهنا نسأل الله سبحانه وتعالى ألا يتكرر الموقف ويأتي اليوم الذي يشجع الطلاب أو المعلمون، نوادي يهودية، مثل نادي (أورشليم) أو نادي (تل أبيب) أو نادي (كريات شمونا)، بحجة أنهم يحبون (اللعبة الحلوة!) وبهذا تتكرر المأساة ويحمل البعض أسماء الصهاينة أو صورهم على ظهورهم وصدورهم، وكل هذا العمل ليس لعلمائهم بل للاعبيهم![٢]، وكما قيل: التاريخ يعيد نفسه.

قَـدْ رَجَـوْنَـا مِـنَ المَـغَـانِـمِ حَـظًّـا وَوَرَدْنَـا الـوَغَـى فَـكُـنَّـا الـغَـنَـائِـمْ

* * *

(دمون):

قال ابن المبارك: كان لأبي الدرداء جمل يقال له: دمون، فكان إذا أعاره قال: هو يحمل كذا وكذا، فلا تحملوا عليه إلا كذا وكذا، فلما كان ثم انقضاء هلاكه، قال: «دمون لا تخاصمني ثم ربي- أي عند ربي- فإني كنت لا أحملك إلا طاقتك» انتهى[٣].

ويقال لمثل هؤلاء المعلمين السلبيين هداهم الله: انظر إلى كرامة (دمون) وانظر لكرامة طلابك، ومن جهة أخرى انظر إلى الذي يربي (دمون) وانظر لنفسك، وبعد ذلك قارن وتدبر.

ينبغي توضيح الأشخاص:

دمون = جمل.

مربيه = صحابي جليل رضي الله عنه.

---

(١) لقد سقطت غرناطة، آخر الممالك الإسلامية، في يد النصارى عام ١٤٩٢م، أما آخر المسلمين فقد تم طردهم بالقوة بقرار من الملك الإسباني فيليب الثالث سنة١٦٠٩م.

(٢) مع العلم أنه قد وردت الفتاوى التي تنهى عن لبس الملابس الرياضية التي تحمل أسماء أو صورًا أو شعارات خاصة باللاعبين الكفار أو أنديتهم، أو شرائها أو بيعها، والتي تصل إلى حد التحريم، واستثني من هذا العلامات التجارية المباحة أو ما يسمى بـ(الماركات) التي لا بأس بها.

(٣) كتاب (الزهد) لابن المبارك.

الطفل = مسلم سليم الفطرة.

مربيه = معلم سلبي هداه الله.

فبهت المعلم

قال طالب في السابعة أو الثامنة من عمره، لمعلمه السلبي مستنكرًا ومنبهًا: لا تضربنا يا أستاذ، أو قال: لا تعاملنا هكذا، فما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك.

قال المعلم: لم يكن عند الرسول مثلكم!

قال التلميذ: كان عنده المشركون!!!

فبهت المعلم.

فالتربية والتعليم نوع من أنواع الدعوة، وعلى هذا الأساس: كم من معلم أساء للدعوة؟!

وسأذكر صورتين تبين أثر الأسلوب السيئ في الدعوة، على الأمة:

صاحب (بار)

(البار) مكان لبيع وتناول الخمر، دخل على صاحب البار رجل يدعوه إلى أن يتقي الله، فما كان من صاحب البار إلا أن بصق في وجه الداعية، وشتمه، فمسح الرجل أثر البصقة على وجهه، وذهب وهو يدعو له بالهداية، ولكن صاحب البار تأثر تأثرًا شديدًا، فناداه وقال له: اسمع يا أخي، كنت طفلًا صغيرًا أمشي في الطريق، فجاء رجل وصفعني على وجهي، وأمرني بالصلاة، ومنذ تلك الحادثة، لم أسجد لله سجدة، منذ خمسين سنة!

وقريب من هذه الأفعال من يدخل المسجد فيرى طفلًا في الصف فيسحبه بعدة حجج، وليس هنا مجال البحث في ذلك، ولكن يكفي حديث ابن عباس الذي سيأتي.

صلوا يا حمير!

يقول رجل: مررت وأنا ذاهب للصلاة، على مجموعة من الفلاحين يجنون الثمر من الشجر (ولكنهم لا يرونني)، فقلت لهم: صلوا يا حمير!

فردوا على الصاع صاعين، وقالوا بغضب: وهل الحمير تصلي؟ لكن أنت الحمار والكلب..

يقول: فأحسست بخطئي وندمت، ثم رجعت من نفس الطريق، وقلت لهم مغيرًا صوتي وبصوت حنون: يا إخواني لقد حان وقت الصلاة جزاكم الله خيرًا، فقالوا: سنذهب للصلاة جزاك الله خيرًا، أنت أحسن من حمار خسيس مر منذ قليل.

* * *

صور غربية:

إننا لا نحب أن نذكر صورًا حسنة من الغرب أو الدول المتطورة، وصورًا سيئة من البلاد الإسلامية، فيصبح الكتاب سبًّا لبعض إخواننا المسلمين جزاهم الله خيرًا ووفقهم، ومدح للكفار هداهم الله ووفق من أسلم منهم، وأما من لم يسلم منهم ومات على كفره فلا شك أن مأواه جهنم خالدًا فيها، كما بين لنا ربنا سبحانه وتعالى.

وإنا نعرف أن هنا وهناك العكس، بل هنا أحسن وأنصع، حيث لا يعدل الإيمان خير، ولا يعدل الكفر شر، ولكن نتكلم بحكم الغالب من الناحية التربوية، ولكي نعرف شدة ما نحن فيه من التخلف وبعد المسافة بيننا وبين التطور، ومدى حاجتنا الماسة للانتقال ليس إلى التطور بل إلى قمة التطور، وذلك باتباع المنهج النبوي العظيم.

كتب الشيخ الدكتور عائض القرني- وفقه الله تعالى- في جريدة الشرق الأوسط تحت عنوان: «نحن العرب قساة جفاة»، فقال:

«أكتب هذه المقالة من باريس في رحلة علاج الركبتين، وأخشى أن أتهم بميلي إلى الغرب وأنا أكتب عنهم شهادة حق وإنصاف، ووالله إن غبار حذاء محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) أحب إلي من أميركا وأوروبا مجتمعتين، ولكن الاعتراف بحسنات الآخرين منهج قرآني، يقول تعالى: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾، وقد أقمت في باريس أراجع الأطباء وأدخل المكتبات وأشاهد الناس وأنظر إلى تعاملهم، فأجد رقة الحضارة، وتهذيب الطباع، ولطف المشاعر، وحفاوة اللقاء، وحسن التأدب مع الآخر، أصوات هادئة، حياة منظمة، التزام بالمواعيد، ترتيب في شؤون الحياة، أما نحن العرب فقد سبقني ابن خلدون لوصفنا بالتوحش والغلظة، وأنا أفخر بأني عربي؛ لأن القرآن عربي والنبي عربي، ولولا أن الوحي هذب أتباعه لبقينا في مراتع هبل واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى. ولكننا لم نزل نحن العرب من الجفاء والقسوة بقدر ابتعادنا عن الشرع المطهر، نحن مجتمع غلظة وفظاظة إلا من رحم الله، فبعض المشايخ وطلبة العلم وأنا منهم جفاة في الخلق، وتصحر في النفوس، حتى إن بعض العلماء إذا سألته اكفهر وعبس وبسر، الجندي يمارس عمله بقسوة ويختال ببدلته على الناس، من الأزواج زوج شجاع مهيب وأسد هصور على زوجته وخارج البيت نعامة فتخاء، من الزوجات زوجة

عقرب تلدغ وحية تسعى، من المسؤولين من يحمل بين جنبيه نفس النمرود بن كنعان كبرًا وخيلاء، حتى إنه إذا سلم على الناس يرى أن الجميل له، وإذا جلس معهم أدى ذلك تفضلًا وتكرمًا منه، الشرطي صاحب عبارات مؤذية، الأستاذ جاف مع طلابه، فنحن بحاجة لمعهد لتدريب الناس على حسن الخلق وبحاجة لمؤسسة لتخريج مسؤولين يحملون الرقة والرحمة والتواضع، وبحاجة لمركز لتدريس العسكر اللياقة مع الناس، وبحاجة لكلية لتعليم الأزواج والزوجات فن الحياة الزوجية.

المجتمع عندنا يحتاج إلى تطبيق صارم وصادق للشريعة لنخرج من القسوة والجفاء الذي ظهر على وجوهنا وتعاملنا. في البلاد العربية يلقاك غالب العرب بوجوه عليها غبرة ترهقها قترة، من حزن وكبر وطفش وزهق ونزق وقلق، ضقنا بأنفسنا وبالناس وبالحياة، لذلك تجد في غالب سياراتنا عصي وهراوات لوقت الحاجة وساعة المنازلة والاختلاف مع الآخرين، وهذا الحكم وافقني عليه من رافقني من الدعاة، وكلما قلت: ما السبب؟ قالوا: الحضارة ترقق الطباع، نسأل الرجل الفرنسي عن الطريق ونحن في سيارتنا فيوقف سيارته ويخرج الخارطة وينزل من سيارته ويصف لك الطريق وأنت جالس في سيارتك، نمشي في الشارع والأمطار تهطل علينا فيرفع أحد المارة مظلته على رؤوسنا، نزدحم عند دخول الفندق أو المستشفى فيؤثرونك مع كلمة التأسف، أجد كثيرًا من الأحاديث النبوية تطبق هنا، احترام متبادل، عبارات راقية، أساليب حضارية في التعامل، بينما تجد أبناء يعرب إذا غضبوا لعنوا وشتموا وأقذعوا وأفحشوا، أين منهج القرآن: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا۟ ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾، ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾، ﴿ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾، ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝١٨ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾، وفي الحديث: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ»، و«الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»، و«لا تَبَاغَضُوا ولا تَقَاطَعُوا ولا تَحَاسَدُوا». عندنا شريعة ربانية مباركة لكن التطبيق ضعيف، يقول عالم هندي: «المرعى أخضر، ولكن العنز مريضة»» انتهى[١].

وقال بعض المسلمين عندما رأى أخلاقهم العالية في تعاملهم معه: «دخلت

(١) جريدة الشرق الأوسط، رقم العدد: (١٠٦٧٠).

للمستشفى لإجراء عملية، وكنت دائمًا أردد لمن يزورني أن هؤلاء القوم إذا وجدوا من يرشدهم ويوجههم ويعلمهم ويلقنهم شهادة أن لا اله إلا الله وأن محمدا رسول الله، سوف يسبقوننا إلى أبواب الجنة».

والأقوال والقصص في ذلك كثيرة، ولكن رغم صدق الشيخ، ورغم مبالغة البعض في وصف الغرب والثناء عليهم، إلا أنهم مهما بلغوا فإن ذلك لا يجعلهم خيرًا من المسلمين؛ فقد بين الله تعالى أن العبد المؤمن خير من المشرك ولو أعجبنا، حيث قال: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[1].

فمع تطورهم وتفوقهم في بعض الجوانب، إلا أنه ينبغي أن نعلم ثلاثة أمور أساسية هي:

١ - أن المسلم خير من غيره في جميع الأحوال[2].

٢ - أن الخير كله والتفوق يكمن في الاتباع الحقيقي للإسلام.

٣ - ألا نغتر بهم مهما حصل منهم؛ فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾[3].

٤ - بالرغم من تقدمهم إلا أن فيهم نقصًا كبيرًا، فلا يقارن تطورهم بكمال الإسلام.

«إن التشريع في الغرب ناقص بالنسبة للتعاليم الإسلامية، وإننا - أهل أوروبا - بجميع مفاهيمنا لم نصل بعد إلى ما وصل إليه محمد، وسوف لا يتقدم عليه أحد». غوته.

فالقصد هو التنبيه للأخطاء وإصلاحها، وفي المقابل الاستفادة مما وصل إليه التطور، بجميع أشكاله المادية والمعنوية.

---

(١) سورة البقرة، الآية: (٢٢١).

(٢) ينبغي أن نعلم أن فيهم الكثير من الفساد الاجتماعي، بل في جميع الأمور، فهم ليسوا نماذج يقتدي بها في كل شيء، وكما قيل: «ليس بعد الكفر ذنب».

(٣) سورة آل عمران، الآيتان: (١٩٦ و١٩٧).

ولا تكون الاستفادة بالصناعات فقط، ولكن من كل ما يستفاد منه، فالحكمة ضالة المؤمن.

فمثلا: (الحج) نأخذ مناسكه من الشريعة الإسلامية، ولكن وسيلة الذهاب للحج نستفيد منهم ولا نكابر، فلا أظن أن أحدًا يريد الاعتماد على قدراته والاستغناء عن الحضارة والذهاب للحج على الدواب!

وكذلك التطور من الناحية المعنوية التي يفتقدها الكثير من نخب المجتمع؛ كالمهندسين والأطباء ورجال الأعمال..

فمن الناحية التربوية نجد أن التطور الحاصل في الدول المتقدمة له فوائد كثيرة؛ منها:

١ - أن التربية الإيجابية التي على منهج النبوة ممكنة، والغرب على كفرهم أقرب لهذه التربية من كثير من المسلمين.

وفي ذلك رد بليغ لمن يقول: إن هذه التربية غير واقعية أو أنها مثالية، أو يقول: إنك تتحدث عن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ولكن أين نحن منهم، أو يقول: أنت تتحدث عن المدينة الفاضلة لأفلاطون.

٢ - أن في تقدمهم دافعًا كبيرًا للمسلمين على أن يسبقوهم ويكونوا في الصدارة، وهذا المكان الطبيعي لمن يحمل هذا الدين العظيم.

٣ - أن كلامنا عنهم ليس من باب اختيار ما هم عليه، فهذا منهي عنه: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾، بل من باب الرجوع إلى الأصل، ومن باب الحكمة ضالة المؤمن، والمسلم لا يرضى أن يكون تابعًا لغير رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٤ - الرد على الفاشلين والمعاندين ومختلقي الأعذار، فعندما نطالب مثلا بتطبيق التربية الإيجابية وترك الضرب وترك العنف وترك الرسائل السلبية...، يقولون: هذا غير ممكن، هذا لا يصلح لمجتمعنا، هذا لا يمكن تطبيقه، وعلى هذا الأساس لا يمكن ضبط الطلاب، ولن ينجح الطلاب، ولن يفهم الطلاب...

والرد عليهم: التجربة خير برهان، هذا مطبق فعلا، بل أنجح من التعليم التقليدي،

وهذا في آلاف المدارس، فالواقع يثبت عكس قولهم، فكيف بالمنهج الإسلامي، أما المكابر فليس له حل إلا أن يترك التربية لأهلها، أو يترك اللوم والأعذار ويربي أبناء المسلمين تربية إيجابية على منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم، والحمد لله على كل حال.

فنقول لمن يعارض المنهج الإسلامي، قول الشاعر:

أَقِلُّوا عَلَيْهِمْ لا أَبَا لأَبِيكُمُ ... مِنَ اللَّوْمِ أَوْ سُدُّوا المَكَانَ الَّذِي سَدُّوا

أُولَئِكَ قَوْمٌ إِنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا البِنَا ... وَإِنْ عَاهَدُوا أَوْفَوْا وَإِنْ عَقَدُوا شَدُّوا

ونقول لمن يريد المنهج الغربي أن يقوده، قال الشاعر:

أَعْمَى يَقُودُ بَصِيرًا لا أَبَا لَكُمُ ... قَدْ ضَلَّ مَنْ كَانَتِ العُمْيَانُ تَهْدِيهِ

وعلى هذا الأساس سأذكر أربع صور لها معانٍ كبيرة، والصور كثيرة مع الأسف[1]، ولكن نكتفي بما يأتي:

الصورة الأولى: مديرة مدرسة صادقة:

نشرت الصحف، خبر مديرة مدرسة قدمت استقالتها، وسبب الاستقالة هو: هروب أحد الطلاب من المدرسة.

فقدمت الاستقالة معللة ذلك بأن الطالب كره المدرسة ولم تعد المكان المحبب والمناسب له، وأن المدرسة أصبحت سيئة في نظره، وهذا راجع إلى تقصيرها!

ملاحظتان:

١- لو استشعر المديرون والمعلمون هذا الشعور (الغريب والشاذ في نظرهم)، كم سيبقى من مدير ومعلم في مدرسته في العالم الإسلامي؟!

٢- هل يوجد في العالم الإسلامي أحد يحب المدرسة، سواء المعلمون أو الطلاب؟ وكم عددهم؟ وكم نسبتهم؟

بل إن كثيرًا من الطلاب، عندما يدخل عليهم كثير من المعلمين، يقولون بلسان الحال:

---

(١) أقول مع الأسف: إذا قارناها بحال المسلمين، وإلا فالمسلم لا يحب الشر لأحد، بل يحب الخير لجميع الناس، بل يريد للجميع خيرًا من ذلك؛ وهو: أن يسلموا فيرضى الله تعالى عنهم ويدخلهم الجنة.

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الحُرِّ أَنْ يَرَى عَـدُوًّا لَـهُ مَا مِـنْ صَدَاقَتِـهِ بُدُّ

بل يتمنى كثير من الطلاب، أن تحترق المدرسة أو تنهدم!

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى المَوْتَ شَافِيًا وَحَسْبُ المَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا

وهذا واقع مشاهد، في الكثير من مدارس العالم الإسلامي مع الأسف.

الصورة الثانية: مرشد سياحي:

حدثني صديقي: أنه ذهب لإحدى الدول الأوروبية، وركب في حافلة سياحية مكشوفة تتجول بهم في المدينة، للتعرف على معالمها.

وبدأ المرشد السياحي بملابسه المعروفة، يشرح ويعرف: هذا مبنى كذا، وهذا كذا، ومر على مبنى فقال: وهذه الجامعة التي أدرِّس (أعلم) فيها! يقول صاحبي: تعجبت من ذلك، ثم سألته بعد نهاية الجولة عن خبره، فقال: أنا دكتور فيزياء في تلك الجامعة، وفي الإجازة عندي وقت فراغ أحب أن أخدم فيه المجتمع!

ملاحظتان:

١- كم من المعلمين والدكاترة الذين يخدمون مجتمعاتهم، أو يفعلون ما ينفع طلابهم (راجع موقف حرج)![1].

٢- دكتور فيزياء وبهذا التواضع! يلاحظ أن بعض المعلمين يرى أن العالم كله (وليس المجتمع)، مقصر في حقه، فكيف بالدكتور في العالم الثالث الذي يرى بعضهم أن تلك الدال (د) هي رأس ماله وشرفه في هذه الحياة الدنيا، فالبعض يرى نفسه بدونها لاشيء (نكرة).

فهو يحمل تلك الـ(د) حتى بين أصحابه، فمن يشرفه يناديه بـ(د)، ومن يهينه يناديه باسمه أو بكنيته، وهذا ينطبق علي كثير من الألقاب مثل (يا دكتور) (يا مهندس) (يا شيخ) (يا...).

مع أن الله عز وجل نهى عن الكبر، وكذلك كرم بني أدم وزاد المسلمين عزة

---

(١) هم كثر ولله الحمد، ولكن المأمول أكثر.

وتكريما، إلا أن الأمر بلغ بالبعض إلى الزيادة في الكبر، وفي المقابل بلغ بالبعض الآخر إلى الزيادة في التذلل والحقارة، لدرجة أن الكلام لا يكون بينهم مباشرة فهو مثلا لا يقول: (يا دكتور) (يا مهندس) (يا شيخ) (يا...)، بل يوجه الخطاب للسعادة أو للسماحة! فيقول: يا سعادة، ويا معالي، ويا فضيلة، ويا سماحة!

بل إن البعض من هؤلاء، عندما ينسب قولا لأحد أسياده لا يقول: قال الدكتور أو قال الشيخ...، بل يقول: قال سعادته أو قال سماحته أو فضيلته...، مع أن الصحابة ومن تبعهم رضي الله عنهم أفضل الناس ذوقا ومنطقا، الذين تربوا في مدرسة المساواة والحرية والكرامة كانوا يقولون لخير البشر صلى الله عليه وسلم: رسول الله، أما غيره فيقولون: قال عمر بن الخطاب[١]، قال عبدالله بن مسعود، قال الشافعي... مع الدعاء لهم[٢].

وإن كان هناك أسياد فالصحابة هم الأسياد بعد سيدنا وحبيبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنها أمراض دخلت على المسلمين من الأديان المحرفة مثل قول النصارى: قداسة البابا، أو غبطة البطريرك، أو قول: قال قداسته...!

فاتبعوهم وتركوا قول العزيز الحكيم: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[٣].

---

(١) قد يحتج البعض بقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وهذه الحجة يرد عليها عمر بن الخطاب نفسه رضي الله عنه وأرضاه، حيث يتبين من رده أن هذه الألقاب تقال في العمل أو ما يخصه، أما خارج ذلك فالناس سواسية، فلنتنبه إلى هذا الفهم والتربية الراقية الكريمة من هذا الصحابي الجليل مع أنه قبل الخلافة وبعدها يستحق ألقابًا أكبر من صاحب السماحة والفضيلة.. ولكنها التربية النبوية.
لما طعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لابنه عبد الله: «اذهب إلى أم المؤمنين عائشة فقل لها: يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام، ولا تقل: أمير المؤمنين، فإني لست للمؤمنين بأمير، فقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه» صحيح ابن حبان.
قال الراوي: «فلما توفي رضوان الله عليه خرجنا به نمشي فسلم عبد الله بن عمر فقال: يستأذن عمر، فقالت: أدخلوه، فأدخل فوضع هناك مع صاحبيه» صحيح ابن حبان.

(٢) وكذلك لا تمييز في الدعاء، فبعد الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته رضي الله عنهم لا نميز بين بقية المسلمين، مثل دام ظله الوارف، أو قدس سره، أو طيب الله ثراه... والمقصود أن الناس سواسية. فهل نرقى لهذه الحرية والكرامة والحضارة التي ربانا الإسلام عليها؟ أم ننزل للحقارة التي نهانا الإسلام عنها؟

(٣) سورة الحجرات، الآية: (١٠).

والأدلة على الكرامة والمساواة والعزة وعدم الخضوع لغير الله عز وجل كثيرة جدا، ولكن سأذكر حديثا واحدا يبين تلك المعاني وأكثر، بل يحذر من استعمال الشيطان واستغلاله للبعض في تعظيم المخلوق![1].

روى أبو داود في "سننه": عن مطرف، قال: قال أبي: انطلقت في وفد بني عامر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقلنا: أنت سيدنا. فقال: «السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى». قلنا: وأفضلنا فضلا وأعظمنا طولا. فقال: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، ولا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ»[2].

وسيأتي بعض التفصيل في هذا الموضوع.

فتجد البعض منهم إذا أراد التعريف بنفسه[3] يبدأ بهذه الامتيازات الطارئة، بل إذا كتب مقالا لا يخص تخصصه صدّره بها.

فمثلا يكون تخصصه في التاريخ ويكتب في الفيزياء أو العكس، ومع ذلك يصدر اسمه بالدكتور![4].

وقد ترجع هذه العقد إلى سببين أساسيين؛ هما:

الأول: أنهم تربوا على القمع والذل والإهانة، فهم يعوضون هذا النقص الذي في أنفسهم!

الثاني: أن الإنسان في العالم الثالث ليس له قيمه، وهم بهذه الألقاب يريدون أن تكون لهم قيمة!

والعلاج الكبير الذي يحل هذه العقد يتمثل في التربية الصالحة الكريمة، وفي من سبقنا خير مثال.

---

(١) أما من يحتج بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «أنزلوا الناس منازلهم» فسنبين ضعف الحديث ومعناه إن شاء الله تعالى.

(٢) صححه الألباني.

(٣) الناقص في نظره؛ لأنه لا يرضى باسمه المجرد، فهو بهذا يرى اسمه نكرة أو ناقصًا!

(٤) ولا شك أنه لا بأس بالألقاب المعرفة بالشخص إذا كان الكلام في موقف يستدعي بيان علمه كقول: قال الإمام، أو قال الشيخ، أو قال الدكتور، أو قال المهندس، لكن من غير تعظيم أو ادعاء أو استعلاء، فالفرق واضح ولله الحمد.

ملاحظة:

إن هذا الكلام لا ينطبق على الجميع، فمنهم من هو أكمل أطهر وأنقى وأشرف من هذه الألقاب، بل لا يحب ولا يرضى بالانتساب لها إلا في عمله.

فهم مع علمهم وتقواهم وشرفهم، يناديهم الناس، بأسمائهم أو كناهم، وخير مثال على ذلك: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم وأرضاهم، وجمعنا معهم في جنات النعيم، مع حبيبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله تعالى: «إن ((منح الامتياز)) بغير حق، يفسد الأخلاق، ويجلب الغرور والاستعلاء، ويغر الجاهلين بمن يضرهم في دينهم ودنياهم. ولهذا ترى العقلاء يأنفون من هذه الامتيازات السخيفة، وتأبى نفوسهم من هذه اللوثة الأعجمية الوافدة» انتهى[1].

الصورة الثالثة: بيل قيتس:

(بيل قيتس) أغنى رجل في العالم، تبرع بنصف ثروته للأعمال الخيرية، ثم بعد ذلك ترك العمل، (وليس أي عمل)، ولم يتفرغ لملذاته (كطموح الكثيرين، بل هي هدفهم في هذه الحياة)، بل تفرغ للأعمال الخيرية.

(لا تعليق).

الصورة الرابعة: النوم في الفصل:

واقعة حدثت لطالبين في المرحلة الابتدائية، ولكن طريقة المعالجة تختلف.

الطريقة الأولى: في العالم النامي:

حدثني صديقي أن ابنه نام في الفصل.

المعالجة: صرخ المعلم في أذن الطالب بصوت قوي وهو نائم!

يقول أبوه: لقد حدث لابني بعد ذلك مشاكل في صحته الجسدية والنفسية، وفي نومه ويقظته، وإلى الآن هو يعاني منها.

(١) كتاب (تصنيف الناس بين الظن واليقين) لبكر أبو زيد.

تلك (الصرخة) المعالجة، منذ اثنتي عشرة سنة!

الطريقة الثانية: خارج العالم النامي:

حدثني صديقي عن أخيه، أن ابنه نام في الفصل.

المعالجة: نقلو ابني إلى مكان آخر فنام حتى أخذ كفايته من النوم، ثم بعد ذلك درَّسه المعلم ما فاته من الحصص التي نام عنها ولم يحضرها.

وعندما حضرت لكي آخذ ابني بعد خروجه، أخبروني بذلك، وانتهت المشكلة.

* * *

صورة باهرة:

ولكي نبين أن الخير في الأمة الإسلامية التي هي خير الأمم، وأن المسلم فيه خير كثير، بل هو خير من غيره في جميع المجالات إذا تمسك بدينه، والأمثلة على ذلك كثيرة ولله الحمد، ولكن سأذكر شخصًا في آخر الكتاب أحسبه كذلك والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحدًا.

الصادقون يريدون الحل:

يتساءل الكثير (الصادقون): ماذا نعمل؟ إذا تركنا الضرب والقسوة، لن نستطيع ضبط الطلاب، ومن ثم التعليم بكل جوانبه؛ كإلقاء الدرس وحل الواجبات؟!

والجواب على ذلك هو: إن التعليم بلا ضرب وقسوة، أمر يسير من جهة، وصعب من جهة أخرى!

يسير لأنه يتلخص في منهج الرسول صلى الله عليه وسلم، وكذلك في الاستفادة من النظريات التربوية الحديثة (فليس في ذلك صعوبة فهو مطبق معمول به).

ولكن الصعوبة تكمن في معرفة المنهج النبوي والنظريات التربوية الحديثة من جهة، وتطبيقها من جهة أخرى، بحيث يحتاج ذلك إلى مهارة عالية لا يتقنها كل أحد، خاصة من كانت تربيته قائمة على الضرب والقسوة والتراكمات الهمجية الجاهلية في التربية.

لأنه من كانت هذه حاله لن يقتنع بجدواها، وإذا اقتنع فمن الصعب عليه تطبيقها؛ لأن كل إناء بما فيه ينضح، وعلى هذا الأساس تكون الصعوبة مضاعفة.

ويزيد الأمر صعوبة كذلك، أن يعلم المعلم في بيئة تعودت على العنف، بحيث يصعب التأثير في الطلاب، فمن تعود على الضرب والقسوة والعنف، حتى مسخت فطرته وتبلد إحساسه وماتت مشاعره وقسا قلبه وامتلأ حقدًا وانتقامًا...، سيعتاد على تلك الطريقة، لهذا لن يفهم لغتك لأنك تخاطبه بلغة لا يفهمها، فكيف تؤثر فيه الكلمة الرقيقة الراقية بعد العصا، والرفق بعد القسوة، واللين بعد الشدة، بل لقد تربى على ذلك لأنه يعيش تربية سلبية تقوم على العنف والتسلط، ولا يعرف طريق التربية الإيجابية.

لهذا سيكون في نقله من السلب إلى الإيجاب صعوبة، فلن يندمج بسهولة، لأنه فقير لم تعطَ له حقوقه في إبداء الرأي والنقد والاعتراض وتخفيف الوصاية والمراقبة....، وكذلك فقير إلى التعامل الحسن؛ مثل الحب والتسامح والرحمة والتقدير...

إن الكلام في مجال الحاجات الإنسانية والحرمان منها يطول، فقد تكلم عنها علماء النفس والتربية، مع أن آثار الحرمان أمرها معروف نكتفي منها بقول ابن رجب الحنبلي رحمه الله في جامع العلوم والحكم حيث قال: «قال بعض السلف: لأَنْ تمد يدك إلى فم التنين فيقضمها، خير لك من أن تمدها إلى يد غني قد عالج الفقر» انتهي.

وكذلك يزيد هذه الحالة صعوبة، بل يزيده مصيبة، إذا بدأت تضمد الجراح وتبني، وغيرك يهدم ويفسد في نفس الوقت!

مَتَى يَبْلُغُ البُنْيَانُ يَوْمًا تَمَامَهُ ... إِذَا كُنْتَ تَبْنِيهِ وَغَيْرُكَ يَهْدِمُ

ولكن على كل حال، وكما قيل: الأجر على قدر المشقة، فالمجاهدة في اتباع المنهج التربوي للحبيب صلى الله عليه وسلم، والإحسان- مع الاحتساب- في تربية أبناء الأمة الإسلامية، كل ذلك يؤدي إلى الأجر والهداية والإعانة والتوفيق بإذنه تعالى؛ قال الله عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[1]. وفي الحديث الصحيح: «الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، خَيْرٌ مِنَ الَّذِي لا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ».

وكل المصاعب ليست عذرا للاستسلام واليأس وإعلان الفشل والركون إليه؛ قال الشاعر:

وَإِذَا كَانَتِ النُّفُوسُ كِبَارًا ... تَعِبَتْ فِي مُرَادِهَا الأَجْسَادُ

وقال الآخر:

وَمَنْ يَتَهَيَّبْ صُعُودَ الجِبَالِ ... يَعِشْ أَبَدَ الدَّهْرِ بَيْنَ الحُفَرْ

ورغم كل ذلك، هناك جوانب في تلك التربية النبوية تفوق تربية العنف والتسلط، فلا يصح إلا الصحيح، ومن علم سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم كيف ضحى

(١) سورة العنكبوت، الآية (٦٩).

وتحمل وعانى من أذى ومصاعب وابتلاءات في سبيل الدعوة والتربية وإصلاح الناس وبناء الأمة، ثم ما كان له بعد ذلك من النجاح والفلاح الباهر، فحصل على الخير الكثير من جميع الجهات.

من عرف ذلك واستنار بسيرته واقتدى به، هان عليه الأمر، والعاقبة للمتقين؛ قال الله عز وجل: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1].

الخلاصة:

إن التربية والتعليم ليس حماسًا فقط، ولا علمًا فقط، ولا احتسابًا وإيمانًا وتقوى فقط..، بل له شروط وآداب، وكذلك صبر واحتساب، وإتقان وإخلاص، وعلم وجهد، وفن وذوق ومهارة، فمن يجد في نفسه ذلك فليتوكل على الله تعالى، أما من يعجز عن ذلك، فلا يأثم بتربيته لأبناء المسلمين، وليستبدل ذلك بعمل يتقنه، فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.

فالذي لا يحسن هذه الرسالة العظيمة، يَشقى في نفسه ويُشقي غيره، فلا تكابر يا أخي المعلم، فأنت راعٍ لهؤلاء الطلاب، والراعي مسؤول عن رعيته؛ كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»[2]، فإذا لم تحسن في عملك وتخلص وتتقن، فإن ذلك يعتبر غشًّا، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إلا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ»[3].

وسرح نظرك في حياتك الدراسية: كم من المعلمين الذين أتقنوا عملهم بشكل متكامل (تربية وتعليمًا)؟! قليل مع الأسف، وانظر لحال الأمة الإسلامية.

لهذا يجب علينا أن نتقي الله في تلك الأجيال المسلمة، أما أن نستمر في تخريج أجيال تدفع إلى التخلف والفشل، وتلك الأجيال تخرج أجيالا أخرى وهكذا، فهذا هو (الغش) و(الظلم).

---

(١) سورة القصص، الآية: (٨٣).

(٢) صحيح البخاري.

(٣) صحيح مسلم.

نصائح عند معالجة الأخطاء:

للتعامل مع الطالب المخطئ ومعالجة أخطائه، ينبغي عليك ملاحظة النقاط التالية:

كن مبتسمًا، بعيدًا عن التكلف والعبوس وتقطيب الجبين والشدة والزجر والتأنيب والتهديد والوعيد والتجريح... ولا يستمع الطالب منك إلا خيرًا، وضع نفسك موضع المخطئ، واستفسر عن الخطأ مع إحسان الظن، وأنصت له جيدًا، واستخدم الرفق ولا تلمه؛ لأن اللوم لا يأتي بنتائج إيجابية في الغالب، واجعل الخطأ هينًا ويسيرًا ولا تضخمه، ولا تفتش عن الأخطاء الخفية، ولا تذكر أخطاء الماضي، واذكر جوانب الصواب، وامدحه عليها، مع إقناعه بأن ما فعله خطأ، ثم ابحث معه عن الحل وساعده ليتوصل للحل، وابن عنده الثقة لإصلاحه بنفسه، مع الحرص على تجنب القسوة والجدال في ذلك، بل استخدم الرفق والعبارات الطيبة اللطيفة، وأحسن مثال: وصف الكلمة الطيبة[1] بالشجرة الطيبة التي تثمر بالخير، وعكسها الكلمة الخبيثة التي تنتج الشر، فالكلمة السلبية لها كلمة طيبة مرادفة لها تؤدي نفس المعنى، ولكن الكلمة الطيبة تبني وعكسها تهدم.

تَقُولُ هَـذَا جَـنَاءُ النَّحْلِ تَمْدَحُـهُ   وَإِنْ ذَمَمْتَ تَقُلْ قَـيْءُ الزَّنَابِيرِ

ولا شك إن الخطأ سلوك بشري يقع فيه الجميع، ولكن وسيلة تغييره الصحيحة تكمن في الرفق، فالرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه، والطالب لن يتخلى عن السلوك السلبي إلا بالمعاملة الإيجابية، وإن أكره إجبارًا بالمعاملة السلبية، فإنه سيتركه ظاهريًا، بل قد يكون له سلوك أسوأ منه في الباطن، وإذا ظهر بعضه فإنما هو كالجزء اليسير من قمة جبل الجليد الذي يخفي أكثر مما يظهر.

والمثل الصيني يقول: «نقطة من عسل تصيد ما لا يصيد برميل من العلقم».

***

---

(١) وخير كلمة هي شهادة أن "لا إله إلا الله"؛ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ ﴾، سورة إبراهيم، الآيات: (٢٤-٢٦).

آداب استخدام العقوبة:

بعض المبادئ التي ينبغي ملاحظتها لاستخدام العقوبة، مع الأخذ في الاعتبار منع وقوع الخطأ، بمعالجته قبل وقوعه وكذلك عدم تكراره:

١ – تحديد الأهداف المراد تحقيقها، قبل استخدام الثواب والعقاب.

٢ – حفظ الكرامة الإنسانية وصيانتها في حالة العقاب.

٣ – الهدف من العقوبة الإصلاح وليس الانتقام.

٤ – عدم الحكم بالعقوبة أو تنفيذها في حالة الغضب.

٥ – استخدام العقاب في أضيق الحالات.

٦ – مراعاة الفروق الفردية.

٧ – مراعاة اختلاف الحالات.

٨ – بيان سبب العقوبة وفهمه.

٩ – مراعاة اقتناع الطالب بالعقاب.

١٠ – مراعاة العدل في العقوبة.

١١ – مراعاة الجمع والتوازن بين الحزم والحب، عند العقاب.

١٢ – مراعاة الوضوح والصراحة.

١٣ – مراعاة ألا يكون ضرر العقاب أكثر من نفعه.

١٤ – الحذر من ترك أثر سيئ بسبب العقاب.

١٥ – الحذر من استخدام الاختبارات والواجبات عقابًا.

١٦ – الحذر من رفع الصوت والتهكم والتحقير والإهانة في أثناء تطبيق العقوبة.

١٧ – الحذر من المقارنة بين الأقران.

١٨ – الحذر من أن تكون العقوبات مكافآت عند بعض الطلاب، كإخراجه من

الفصل.

١٩- العقاب لا يكون جسديًّا.

٢٠- الحرص في حالة التحذير والإنذار أو العقاب، ألا يكون فيه تنفير.

وسائل تقليل العقاب:

بعض المبادئ والوسائل الناجحة، للتقليل من العقاب أو إلغائه:

١ - أسلوب الثواب أقوى أثرًا من العقاب.

٢- الإكثار من الثواب.

٣- معالجة وتقليل العوامل التي تؤدي لفعل الخطأ الذي بسببه يستخدم العقاب، وكذلك مراعاة مقولة: «محاربة الجريمة قبل وقوعها» أو «معالجة أسباب الجريمة قبل وقوعها».

٤ - «إذا أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع».

٥- عدم النهي عن شيء إلا لضرورة.

٦- توضيح الشيء المنهي عنه.

٧- الحرص على جعل النهي مقبولا مثل عرض الشيء المنهي عنه بشكل اقتراح أو تمنٍّ، وليس تسلطًا، مع الإقناع وبيان السبب والفائدة من ذلك وأنه من صالح الطالب.

٨- الحزم- البعيد عن التسلط- وكذلك الانضباط والاهتمام وعدم التناقض، يعود الطالب على الالتزام في التنفيذ.

٩- منع وقوع الخطأ أو معالجته أو تعديل السلوك، بطرق غير مباشرة؛ كالقدوة والرحلة الترفيهية والكتاب والقصة والحكمة والمثل والسؤال..

١٠- تغيير السلوك الإنساني بأساليب مباشرة كثيرة، غير العقوبة؛ كالموعظة، والصمت والمصارحة...

١١- الحرص على أن يكون ترك السلوك السلبي لقناعة داخلية، لا خوفًا من العقوبة.

١٢- الحرص على الإقناع العقلي والحوار الموضوعي.

١٣- تعزيز السلوكيات الإيجابية بالثواب والثناء.

١٤- الإكثار من العفو والتسامح لتقوية جوانب الحب والحياء والتنافس...

١٥- بناء علاقات حميمة من التواد والحنان والصداقة والتفاهم والتعاون...

١٦- غرس وترسيخ المهارات الإيجابية كالتفكير العلمي، والثقة بالنفس، والاحترام المتبادل، وآداب التعامل.

١٧- تنمية الشعور بتحمل المسؤولية والتحكم في الذات.

١٨- فتح المجال للاعتذار والتراجع عن الخطأ، وتصويبه.

١٩- إلغاء العقوبة واستخدام العفو بغرض التربية؛ مثل: هل صليت الفجر هذا اليوم في جماعة؟ أو: هل ساعدت اليوم أحدًا من إخوانك الطلاب؟ أو: هل ختمت القرآن هذا الشهر؟. من باب: «الحسنات يذهبن السيئات».

٢٠- الستر على الطالب في حالة الإحساس بالخطأ والندم عليه.

٢١- قلب الخطأ إلى محاولة جيدة، فعندما يجيب أحد الطلاب إجابة خطأ على السؤال، نشجعه على المشاركة وبذل الجهد.

٢٢- التغاضي عن الأخطاء غير المقصودة، فالهدف عدم تصيد الأخطاء.

٢٣- استخدم أسلوب التلميح الرمزي أو اللفظي.

٢٤- الحرص على شغلهم بالخير قبل أن ينشغلوا بالشر أو بما لا ينفع.

٢٥- الحرص على جعل الطلاب يحبون المعلم والمادة والفصل.

٢٦- استخدام وسائل الإثارة وشد الانتباه والمتعة والمرح بالوسائل التعليمية غير التقليدية وكذلك القصص والألغاز....

٢٧- عدم التزمت، وكسر الملل بالمزاح الموزون والمسابقات الفكرية والحركية المناسبة في الفصل، والنقاشات المحببة المفيدة البعيدة عن الدرس.

٢٨- ملاحظة عدم رفع الصوت عاليًا- من المعلم والطالب- لأنه مدعاة للمشاكسة والخروج عن حدود الأدب.

٢٩- حول الفصل إلى جنة بدل السجن؛ فالطيور لا تحب الأقفاص.

٣٠- إدارة الفصل إدارة تقوم على الشورى (الديمقراطية)[١]، بعيدًا عن الإدارة الفوضوية المتسيبة، أو التسلطية المكروهة، أو التقليدية المملة.

٣١- عرض الحالات المستعصية على المرشد الطلابي أو الطبيب، مع التشاور مع الوالدين.

٣٢- هناك أمور يغفل أو يتساهل فيها البعض ولكن فيها الخير الكثير؛ مثل:

أ- قبل الدخول: نستعين بالله سبحانه وتعالى ونتوكل عليه، مع التقرب إلى الله عز وجل بهذه العبادة واحتساب الأجر عنده.

ب- عند الدخول: نسلم على الطلاب بحب، مع التبسم لهم.

ت- عند بداية الدرس نسمي باسم الله ونحمده سبحانه وتعالى ونصلي على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ث- عند الختام: نقول كفارة المجلس[٢].

---

(١) المقصود بالديمقراطية التي لا تتعارض مع الشريعة، أما من يقول: «إن في الديمقراطية قولا يخالف الشرع؛ وهو: أن الديمقراطية تطبيق حكم الأغلبية ولو كان ضد الشرع! والصحيح أن الحكم لله سبحانه وتعالى؛ فلهذا نلغيها كلها!»؛ فيقال: إن هذا لا يقبل على إطلاقه، وهذا كالقول: «إن الفيزياء فيها قول: إن المادة لا تفنى ولا تستحدث! والصحيح أن الله سبحانه وتعالى يخلق ويفني؛ فلهذا نلغيها كلها!»، وأمثال هذا كثير.

ومن المعلوم أنه لا حكم إلا لله سبحانه وتعالى، ولكن من الذي يعطى هذا الدور ليتولى هذا الأمر؟ فمن المعطِي ومن المعطَى؟ وبيان هذا الأمر يطول شرحه، ولكن المقصود هو التنظيم، وتعويد الطلاب على احترام الأغلبية، وعدم الاستبداد أو الاستئثار بالرأي؛ كالتصويت لاختيار عريف الفصل أو لأمرٍ يختلف عليه الطلاب.

(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ فَكَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ، فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ؛ إِلَّا غَفَرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ» صححه الألباني.

ج- قبل الخروج: نودع الطلاب ونسلم عليهم، مع التبسم لهم.

٣٣- وأخيرًا ينبغي للمعلم ملاحظة أمرين أساسيين في التربية والتعليم يغفل عنهما الكثير مما يتسبب في إفشال التربية والتعليم من جهة، ومن جهة أخرى يفتح المجال واسعًا للأسباب التي تحدث العقاب:

الأول: (التنشئة والبناء):

التركيز على التربية الإيجابية، بتنمية الإيجابيات وتهميش العقاب.

ومن تفكر في التربية السليمة، عرف أن الأساس فيها هو التنشئة والبناء، وليس التعديل أو العقاب الذي يعالج حدثًا طارئًا أو يعاقب على خطأ عارض؛ لأن هذه الأخطاء تمثل حالات شاذة خارجة عن الأصل (التنشئة والبناء).

لهذا ينبغي أن نركز على الأصل ولا نغفله، بسبب الجري وراء نظريات التعديل والعقاب، وتضييع الوقت والجهد في ذلك (للمعلم والطالب).

الثاني: (التعلم، وليس التعليم)

يتناقش كثير من أصحاب التربية التقليدية في قضية الحفظ والفهم، وما المقدم: التحفيظ أو التفهيم؟ ويتفقون على أن القمة في ذلك تتمثل في الحفظ والفهم معًا، ولبيان قصور تلك النظرة نحتاج إلى أن نبين أن التعليم يدور حول ثلاث احتمالات؛ هي: ١- حفظ بلا فهم. ٢- فهم بلا حفظ. ٣- حفظ وفهم.

فهل هذا هو التعليم المطلوب لأبناء الأمة؟ للإجابة نحتاج إلى بعض التفصيل:

التعلم والتعليم:

الفرق بين التعليم والتعلم هو: أن التعليم جزء من التعلم؛ لأن التعلم هو الأصل فهو يشمل التعليم وغيره؛ فالتعليم (التقليدي) هو توصيل معلومات معينة للطالب، ولمعرفة مدى استيعاب الطالب، يطلب منه استرجاع هذه المعلومات، وغالبًا ما ينتهي دور المعلومات بمجرد أدائه الامتحان أو نسيانها.

فلهذا نجد الحرص مركّزًا على تلقين وغرس المعارف، لذلك تجد وزارات معارف لا

وزارات تربية، مع أن الاسم ليس دليلًا. أما التعلم فهو ما يقوم به المتعلم من جهد بهدف تنمية نفسه في جميع الاتجاهات؛ فمجال التعلم أوسع لأن المتعلم (الطالب) هو المحور الأساسي، فلهذا يكون الاهتمام بشخصيته من جميع الجوانب: كإشباع الحاجات، وبناء المهارات والطاقات وتنميتها، وكذلك الاهتمام بالنواحي التعليمية التي يكون الطالب فيها عنصرًا نشطًا إيجابيًّا فعالًا؛ لهذا فإن التعلم يهتم بالإبداع والقدرة على التفكير السليم وتحمل المسؤولية والاعتماد على النفس ومواجهة المشاكل وحلها والتحليل والاستنتاج والاستنباط... وكذلك حرية إبداء الرأي والتعبير عنه- ولو أخطأ- والنقد والنقاش والاستفسار والمحاورة والمشاركة... وكذلك التدريب، وتنمية الخبرات، والجوانب المهارية، وصقل المواهب، وتهذيب السلوك. أما من النواحي التعليمية فينبغي أن تكون المعلومات مناسبة لسن الطالب وبيئته وميوله وظروفه وواقعه... وينبغي أن يكون الطالب فيها عنصرًا إيجابيًّا فعالًا، فهو الذي يأخذ المعلومة ويكتسبها، فيراعى التنوع في ذلك؛ مثل: إعداد البحوث، والرحلات، واللعب، والتطبيقات العملية، والتجارب، والمحاورة والنقاش، والبرامج الوثائقية، والقصص، والمسابقات، والأنشطة..... ونلاحظ من كل ما سبق، أن عملية التعلم تجعل الطالب مشغولا بما يتعلمه مقتنعًا به، فلهذا يبتعد عن المشاكل، بل يسعى إلى حلها، وبهذا نكون ابتعدنا عن العقاب ووسائله. إذن المطلوب هو تعليم التعلم، وليس الاقتصار على تعليم المعلومات وحفظها.

التعليم التقليدي:

هو طريقة بدائية لتوصيل معلومات معينة للطالب، فالمعلم يحرص على تلقين المعلومات وفرضها على الطالب، فالمعلم مرسل والطالب مستقبل. فهو يرسل مجموعة من المعلومات مهما كانت- وغالبًا ما تكون جامدة مجردة- بطريقة الإلقاء والتلقين والترديد وفي جو من الصرامة والتسلط والخوف والتهديد، ولكي يدخل هذه المعلومات الجاهزة في رأس الطالب لابد من التفنن في العقاب بأشكاله المختلفة. وما على الطالب إلا الخضوع والطاعة والاستسلام. وعلى الطالب أن يتقبل كل ذلك بسلبية تامة، لأن دوره يتمثل في الترديد والحفظ مع فهم بعض المعلومات. فالطالب الذي يردد الأجوبة الجاهزة بالطريقة المرسومة له، سيكون في القمة.

الوسائل التي تجعل الطالب يدخل هذا القالب:

ولكي يكون هذا الطالب كغيره من الطلاب، فلا بد من عسفه وترويضه وجعله طرفًا مستقبلًا فقط ليس له إرادة، لهذا لا بد من استخدام وسائل عديدة للتغلب عليه وتحطيم طاقاته وميوله وطموحه وتميزه ومشاعره ورغباته، وكذلك منعه من إشباع حاجاته، وإذا تحدى وجب أن تقتل روح التحدي فيه بشتى الوسائل. فلهذا لابد من أن تصبح المدرسة كالسجن، وأن يكون المعلم كالسجان، لأن المعلم والطالب طرفان (المعلم طرف والطالب طرف) فلا بد من المواجهة، ولا بد من تغلب الطرف الأول ليسيطر ويروض كما يشاء[١].

ولضمان السيطرة لابد من تحديد المواقع، وأحيانًا لابد من استخدام العنف!

أما في الحالات الاعتيادية فستسير الأمور وفق الترتيب التالي[٢]:

المعلم الكبير والطالب الصغير.

المعلم القوي والطالب الضعيف.

المعلم الأعلى والطالب الأدنى.

المعلم الملقن والطالب المتلقن.

المعلم المتكلم والطالب المستمع.

المعلم المتحرك والطالب الساكن.

المعلم الآمر والطالب المطيع...... إلخ.

وقد يكون المعلم هو المخدوم والطالب الخادم.

حتى علموه أن يقوم للمعلم، وعلموه أن المعلم كاد أن يكون رسولا، وكذلك لقنوا الطالب: «من علمني حرفًا صرت له عبدًا»[٣].

---

(١) وليس مثل (التعلم)، فالطالب هو المحور الذي يعتمد على نفسه ويتعلم ويبحث ويتعرف ويكتشف ويفكر ويعبر ويحل ويواجه وينقد ويقرر... والمعلم يرشد ويوجه ويأخذ بيد الطالب للأحسن.

(٢) وقد يكون هذا في أكثر المدارس.

(٣) مع العلم أن الوضع تغير في العالم الراقي حتى صار أقرب إلى المنهج النبوي من منهج السيطرة =

ولقد رد الشاعر بقصيدة عصماء في وصف طالب العلم الأبي، على من يريد إذلاله بسبب العلم فقال قصيدة طويلة اخترت منها ستة أبيات:

يَقُولُونَ لِي فِيكَ انْقِبَاضٌ وَإِنَّمَا ... رَأَوْا رَجُلًا عَنْ مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحْجَمَا

وَلَمْ أَبْتَذِلْ فِي خِدْمَةِ العِلْمِ مُهْجَتِي ... لأَخْـدُمَ مَنْ لاقَيْتُ لَكِنْ لأُخْدَمَا

أَأَشْقَى بِهِ غَرْسًا وَأَجْنِيهِ ذِلَّةً ... إِذَنْ فَاتِّبَاعُ الجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَمَا

وَإِنِّي لَـرَاضٍ عَـنْ فَتًى مُتَعَفِّفٍ ... يَـرُوحُ وَيَغْدُو لَيْسَ يَمْلِكُ دِرْهَمَا

يَبِيتُ يُرَاعِي النَّجْمَ مِنْ سُوءِ حَالِهِ ... وَيُصْبِحُ طَلْقًا ضَاحِكًا مُتَبَسِّمَا

وَلا يَسْأَلُ الْمُثْرِينَ مَا بِأَكُفِّهِمْ ... وَلَوْ مَاتَ جُوعًا عِفَّةً وَتَكَرُّمَا

بل البعض لا يكتفي بذلك في المدرسة، وإنما يعطيه مزيدا من واجبات الحفظ والكتابة في البيت، خاصة في الإجازات، بل يطلب من أهله أن يعلموه ويحفظوه![1].

= والتخلف القائم على التسلط، فيجب أن يفهم أي متسلط أن هذا من الظلم والجهل والتخلف؛ لأن الطالب هو الأساس وأن الجميع- من معلمين وما يقدم لهم من مقابل مادي ومعنوي، وكذلك المدارس وكل ما فيها، بل وزارات وكليات التربية وإعداد المناهج والكتب...- كل هذا وأكثر لخدمة الطالب وتقديم ما ينفعه، وفي المقابل لا حاجة لما سبق كله لو أن الطالب غير موجود.

وكذلك الأمر ينطبق على الجميع، فمثلًا: المريض هو الأساس والجميع- من أطباء وما يقدم لهم من مقابل مادي ومعنوي وكذلك المستشفيات وكل ما فيها بل وزارات الصحة وكليات الطب والأدوية وسيارات الإسعاف...- كل هذا وأكثر لخدمة المريض وتقديم ما ينفعه، وفي المقابل لا حاجة لما سبق كله لو أن المريض غير موجود.

وهنا يرد سؤال وهو: إذا صار مبدأ تقديم الخدمات للطالب أو المريض هو الأساس- والبقية مكملون أو تابعون له- أليس في عكس هذا المبدأ دليل علي التخلف والتسلط والظلم؟!

والأمثلة تنطبق على المستهلكين والمراجعين والساكنين والمسافرين..... فهل يعطى كل ذي حق حقه؟! أعلم أن هذه المفاهيم واضحة لا تحتاج إلى نقاش، ولكن ما العمل إذا كان البعض يؤمن ويسلم بها، ولكنه في نفس الوقت يعمل عكسها؟!

لهذا تجده أحيانًا يكون في هذا الاتجاه وأحيانًا يكون في عكسه، فهو مذبذب تتقاذفه الأهواء والمبادئ. لذا ينبغي ضبط هذا كله والعمل على قاعدة صحيحة لا تهزها الأهواء والمصالح الشخصية الأنانية الظالمة.

(١) وممن رد على المعلم الذي يطلب من أهله أن يعلموه، الشيخ علي الطنطاوي وهو من المربين العظام من أهل الشام رحمه الله تعالى، حيث قال ما معناه: «إذا كنا سنعلم ابننا نحن، فما دورك أيها المعلم؟ ولماذا أرسلنا ابننا إلى المدرسة؟».

ولكن هل يتقبل الطالب؟

(نعم) بسب كل ما سبق وأكثر، وبسبب ضعفه وجهله، وكذلك من أجل حث الأهل على هذا التعليم، لكي ينال الشهادة التي ستفتح له أبواب المجد والمستقبل المشرق، لهذه الأسباب وغيرها سيتقبل الطالب وينصاع، فيكون طالبا مستمعا مطيعا أليفا هادئا غير مزعج، ولا شك أن الطالب من قبل أن يستسلم لهزيمته (مسخه) سيقاوم مقاومة شديدة، لهذا سينتج من خلال هذا العسف والترويض مشاكل كثيرة وكذلك وسائل كثيرة للعقوبة بسبب هذا التعليم العقيم.

ولكن في المقابل وبعد هذه العملية التعليمية المرهقة والمملة، سيدفع الطالب الضريبة من نفسه ومجتمعه، فلا شك أن ما سبق سينعكس سلبا على شخصيته. فمن السلبيات: الخواء الفكري، وتبلد المشاعر، والخنوع، والاتكالية، واللامبالاة، والمسايرة.... وسينتج منه النفاق، والتزلف، والكذب.... وكذلك سيؤدي إلى انفصال بين الفكر والواقع؛ فينشأ جيل يكره العلم والعمل من جهة، ويعيش الواقع السيئ من جهة أخرى؛ لذلك دائما تجد أن المفروض شيء والواقع شيء آخر. وسيستمر هذا الواقع السيئ على الطالب والمجتمع، لأنه لا يستطيع تغييره، بل لا يستطيع تغيير نفسه لأنه لا يملك الإرادة ولا الإمكانات، فهي لم تُنَمَّ، بل قتلت، وحتى لو أراد تغيير الواقع، فإن ذلك التغيير سيكون بطريقة مرتجلة فوضوية تقودها الانفعالات لا العقل، وبهذا سيدمر نفسه ويدمر غيره.

وأقرب مثال على هذه الشخصية المرسومة التي ليس لها الإرادة ولا الإمكانات، ذلك القطار الذي يمشي على سكة الحديد، فالقطار لو خرج عن سكته المحددة، سيدمر ما في طريقه وسيدمر نفسه. والشواهد على أضرار هذه التربية كثيرة، حيث إن لها آثارا قريبة وبعيدة، على مستوى الطلاب ومستوى الأمة، ولكن سنأخذ شاهدا على ضرر من أضرارها: طريقة تربية الطالب على أن يسأل المعلومات ويستقبلها، لا أن يأخذها بنفسه ويكتسبها (الاكتساب خير من السؤال). وكما يقول المثل الصيني: «لا تطعمني كل يوم سمكة، ولكن علمني كيف أصطاد».

إن هذه الطريقة تربي الشخص على أن يكون عالة، فكما تبين مما سبق أن الطالب

ينشأ لا يملك الإرادة ولا الإمكانات، فكذلك هذه حال الأمة تأكل ما لا تزرع، وتلبس ما لا تصنع، فنرى الكثير يتمنى ما في يد الغير أو يمد يده إلى غيره[١]، أو يتمنى أن يخدم في المصانع أو يكون عاملا فيها[٢]، ولكن أن ينشئ المصانع ويطور ويخترع فهذا صعب أو مستحيل، لأن التربية تمنع ذلك؛ فهو تربى على التلقين والسؤال، فالطالب مجرد مستقبل (عالة)، ولقد بين لنا الرسول صلى الله عليه وسلم كيف نعتمد على أنفسنا، بل بايع على ذلك، فهل نتبعه ونتعلم ونعمل؟ أم نتبع من يقول: إن المتعلم عبد لمن علمه حرفًا؟! ولا يفهم من ذلك أن هذه دعوة للتقليل من مكانة المعلم أو من توقيره واحترامه، بل على العكس، إن من مشاكل الكبرى للتعليم: التقصير في حقوق المعلمين من ناحية الإعداد وإعطائه حقوقه المادية والمعنوية، فالمعلم يتولى منصبًا من أعظم المناصب التي تحتاجها الأمة، بل التي تربي الأمة.

ومن الأذى والظلم الذي يلحق بالمعلم أن يكون طرفًا مع الطالب، أو يكون الخصمَ أو السجان، مع أن مكانته هي الإرشاد والتوجيه، فهو يعمل بروح الجسد الواحد أو الفريق أو الأسرة الواحدة وكل ذلك في جو من الحب الأخوي، فهو بمثابة الوالد أو الأخ الكبير.

الخلاصة:

أن المطلوب ليس تلقين المعارف، وإنما المطلوب أن يتعلم الطالب كيف يعيش عيشة صالحة حرة كريمة. ومن جانب آخر يشغل الطالب بالخير، فلا يلتفت إلى المشاكلم والعقوبات، وكما قيل: «اشغل من تعول بالخير، لكي لا يشغلوك بالشر».

* * *

---

(١) ومن الكنوز التي وصلتنا في التربية قول علي بن أبي طالب لابنه رضي الله عنهما في وصية قال في مطلعها: «يا بني، إن استطعت ألا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل» كتاب (أدب الدنيا والدين) للماوردي.

(٢) وهذا ملاحظ في التزلف للتجار والهروب للدول الصناعية وتمني الثروات الطائلة بلا عمل، وقد قيل: «من اتكل على زاد غيره طال جوعه» مع أن الاعتماد على النفس والاستغناء عن الغير من من مكارم الأخلاق ومما يفتخر به كريمو النفس؛ قال الشاعر:

قَدْ يَأْكُلُونَ لِفَرْطِ الجُوعِ أَنْفُسَهُمْ   لَكِنَّهُمْ فِي قُدُورِ الغَيْرِ مَا أَكَلُوا

بدائل العقاب الجسدي:

هناك بدائل للعقاب الجسدي، لكن ينبغي أن تستخدم بشروط وآداب؛ مثل:

١- الوقت المستقطع[١].

٢- الإعراض والهجر الجميل؛ فقد كان صلى الله عليه وسلم إذا اطلع على أحد من أهل بيته كذب كذبة لم يزل معرضًا عنه حتى يحدث توبة، وهنا يتبين لطف التأديب وانتهائه بالتوبة[٢].

٣- منع المكافآت.

---

(١) الوقت المستقطع هو: طريقة لضبط السلوك، وهو أسلوب يغني عن العنف ويساعد الطالب على الهدوء والمراجعة لتصحيح السلوك والبعد عن الأخطاء، وهو مقاطعة قصيرة لنشاطات الطالب فيبعد عن مجال اللعب والمتعة والمرح لوقت معين، فلا دعم ولا مكافأة ولا اهتمام... وخلال هذه الطريقة ينقل الطالب من الدعم والمكافأة والاهتمام إلى وضعه لفترة قصيرة في منطقة هادئة ومملة.
ولكل عمر ما يناسبه؛ فمثلا عندما يكرر الطفل الصغير الخطأ ولا تجدي معه الحلول الأخرى، يجلس على مقعد صغير في مكان محدد وممل بعيد عن الألعاب والتسلية والمتعة..
وينبه على السلوك الذي من أجله وضع في هذا المكان.. ويترك لوقت محدد وقصير (دقيقة واحدة فقط لكل سنة من عمر الطفل)؛ ليفكر في خطئه ويعتذر، وبعدها ينتهي الوقت المستقطع.
وينبغي مراعاة ما يأتي:
- أن يكون ذلك محفوفًا بالحب والاقتناع والتفهم لما ينبغي عمله مستقبلًا بعيدًا عن الجدل وطول المناقشة.
- أن الوقت المستقطع ليس عقابًا، بل هو عبارة عن طريقة تساعد الطلاب على الهدوء وتجميع الأفكار وتصحيح السلوك.
- أن يعرف الطالب أن هذا الإجراء، لسلوك الطالب، وليس للطالب نفسه.
- أن الوقت المستقطع دقيقة واحدة فقط لكل سنة من عمر الطالب.
ومن الأخطاء في استخدامه: - الإكثار من استخدامه. - زيادة الوقت. - فهم الطالب أن ذلك بغض من المعلم له. - اختيار المكان السيئ للأطفال من بعض الأمهات، مثل غرفته الخاصة، أو في دورة المياه (الحمام)، أو في الأماكن المظلمة أو الموحشة....
يحسن الرجوع إلى كتاب حل الوقت المستقطع (تايم-أوت) للمؤلف البروفيسور لين كلارك. ترجمة إبراهيم راشد.

(٢) عن أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: «كان إذا اطلع على أحد من أهل بيته كذب كذبة، لم يزل معرضًا عنه حتى يحدث توبة» صححه الألباني.

٤- الحرمان.

٥- التصحيح الإيجابي.

٦- سحب بعض الامتيازات والكماليات.

الاستخدام السيئ للثواب:

وكما أن العقاب له مساوئ وأضرار على الطالب، فكذلك الثواب أيضا له مساوئ وأضرار إذا لم يستخدم بطريقة صحيحة.

وَوَضْعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالعُلا   مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

لهذا ينبغي الحذر لكي لا تكون النتيجة عكسية، وعلى هذا الأساس نذكر بعض الملاحظات باختصار:

١- معرفة أن الحوافز وسيلة لا غاية، وما عند الله عز وجل خير وأبقى.

٢- (العدل).

٣- جعل الثناء مركزًا على الفعل لا على الطالب؛ كالقول مثلًا للطالب بعد الصلاة أو الإجابة الصحيحة: «أنا معجب بعملك هذا» بدل «أنا معجب بك»؛ لأن الجملة الأولى: تزرع الحرص والاجتهاد، وفي نفس الوقت: التنافس للأحسن. والجملة الثانية تزرع العجب والغرور، وفي نفس الوقت: غيرة زملائه.

فالجملة الأولى: مشروطة، والجملة الثانية: ذاتية.

٤- الحذر من الإفراط في الثناء.

٥- الحذر من استخدام الثناء بشكل يثير الخصومات، ويزرع الشحناء والبغضاء بين الطلاب أو يدفع بالمتعلم إلى هاوية الغرور والتكبر.

٦- الإكثار من الثناء والجوائز في البدايات، ثم التقليل منها تدريجيًا لكي لا يتعلق الاهتمام بالجائزة بدل العمل المتقن؛ لأن الغاية عالية.

٧- الحذر من تحول تفكير الطالب إلى إرضاء المعلم.

٨- الحذر من المبالغة في الثناء بحيث يصيب الطالب بالغرور ويفقد مصداقية المعلم؛ مثل: «هذا أحسن ما رأيت في حياتي».

٩- الحرص على أن يحقق الثواب الثقة بالنفس والاستمرار في الطريق الصحيح.

١٠- ألا تكون نشوة الفرح تصفيق وصفير وفوضى، بل شكر لله سبحانه على توفيقه، وهذا مشاهد.

١١- الحذر من توظيف الدين للحزن والعقاب، وغيره للسرور والفرح والثواب!

١٢- الحذر من جعل الأهداف أو المسابقات تعجيزية أو للنخبة؛ فتسبب الفتور والتجاهل واليأس.

١٣- (المحافظة على الابتسام).

١٤- عند تقديم الجوائز ينبغي مراعاة ما يأتي:

أ- الحذر من تركيز الهدايا على مجموعة معينة، فيجب مراعاة الفروق الفردية.

ب- ليس المقصود بالجائزة الناحية المادية.

ت- الحذر من غلبة الطابع المادي على الجوائز.

ث- الحذر من ملل الطالب من الجوائز.

ج- الحذر من سوء الجوائز؛ كالتافهة، والمكررة...

ح- الحذر من توظيف الجائزة للتباهي والتفاخر وتحطيم الخصم وإذلاله، بل العكس.

خ- الحرص على أن تكون الجائزة مناسبة للطالب.

د- وأخيرًا الحذر من جعل الجوائز وسيلة لتكريس تربية التسلط والتعالي والطبقية؛ كجعل المدير أو المعلم يوزع الجوائز بطريقة توحي للطلاب ولغيرهم بالمن والدونية، مثل:

- توزيع الجوائز على (شرف) المدير!

- وقوف الطلاب الذين سيستلمون الجوائز مصطفين، كل طالب خلف زميله، ويتقدمون للمدير بخضوع، كل طالب يسلم عليه ويأخذ منه الجائزة وينصرف!

وقد تكون الجائزة على شكل قلادة، بحيث يتقدم الطالب وينحني ويخفض رأسه للمدير، ثم يقوم المدير بإدخال رأسه في هذه القلادة، ثم يرفع الطالب رأسه وينصرف.

وكذلك ترتيب الجلوس في الحفلات المدرسية أو غيرها[١]، بحيث تستمر تربية التسلط والتعالي والطبقية والتفرقة في بعض المدارس، بحيث يتصدر المدير الصفوف فيكون في الوسط وبجانبيه الوكلاء ثم المعلمين ثم الطلاب، بل قد يكون أعضاء هيئة التدريس في الصف الأول والبقية في الخلف!

وكذلك جلوس الموظفين في الحفلات، فلا يجوز للموظف الصغير أن يجلس إلى جانب المدير أو أمامه، وقس على ذلك[٢].

ولكن لو جلس الجميع؛ المدير والمعلمون والطلاب بعضهم مع بعض بنظام ومن غير تفرقة واستغلال، فمن يأتي يجلس حيث ينتهي به المجلس.

ففي هذه الحال ستتحقق الكثير من الجوانب التربوية الإيجابية؛ مثل: التواضع

---

(١) والملاحظ انتشار هذه العادات في بعض المجتمعات الإسلامية، بل وصل ذلك إلى الحفلات الاجتماعية، كحفلات الأقارب أو أهل الحي... بحيث تخصص أماكن معينة لبعض المدعوين، بل يختلف الاستقبال والمعاملة بين الغني والفقير، وصاحب المكانة الاجتماعية وغيره. حتى إن درجات الموظفين تؤثر في ذلك، لدرجة أن البعض وضع لها بروتوكولات، وقد تسجل الأسماء على المقاعد، مع أنها مجرد حفلات! لهذا ينبغي للمسلم أن يضرب بهذه البروتوكولات الجاهلية عُرض الحائط.

(٢) حتى وصل الأمر إلى اللباس، فهناك من يرى أن يكون للبعض لباس يتميزون به عن غيرهم، فهناك من يرى أنه ينبغي أن يكون في الإسلام رجال دين ولهم لباس خاص يميزهم، وهناك من يرى التميز عن غيره بالنسب أو الجنس أو المنصب... وغير ذلك من الأقوال الشاذة، حتى وصل الأمر إلى السلام! فهناك من يرى أن مركزه فوق مستوى الآخرين؛ ولهذا فمن واجب الناس أن تتلقاه بالتحية قبل أن يبدأهم بها! مع أن الإسلام جعل للسلام آدابًا، وهذا من كمال الدين الذي بين لنا كل ما نحتاج إليه، فما ترك شيئًا من أمور الناس إلا جعل له أسسًا وآدابًا؛ فقد روى الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**يُسَلِّمُ الصَّغِيرُ عَلَى الكَبِيرِ، وَالمارُّ عَلَى القَاعِدِ، وَالقَلِيلُ عَلَى الكَثِيرِ**»، وفي رواية: «**يُسَلِّمُ الرَّاكِبُ عَلَى الماشِي، وَالماشِي عَلَى القَاعِدِ، وَالقَلِيلُ عَلَى الكَثِيرِ**». وليس القصد حصر ما ورد في آداب السلام، ولكن القصد من ذلك بيان أن الإسلام جاء واضحًا نقيًا بعيدًا عن التسلط والطبقية والتكبر، وجعل من يريد عكس ذلك شاذ عن الإسلام مهما عمل، بل جعل احتقار الناس من الكبر الذي من كان في قلبه حبة منه لا يدخل الجنة، فالحمد لله على هذا الدين الذي أعز به المسلمين وطهرهم من الشذوذ.

والعدل، وكذلك معرفة المشاكل والمشاركة في حلها، وبث المشاعر الطيبة؛ كالأخوة والحب والقرب والمساواة والملاطفة....

وهذا ما كان يفعله الصحابة رضي الله عنهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان أحدهم إذا جاء إلى المجلس لم يتكلف الجلوس في المقدمة أو المزاحمة، بل كانوا يجلسون حيث ينتهي بهم المجلس؛ فعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: كنا إذا أتينا النبي صلى الله عليه وسلم جلس أحدنا حيث ينتهي[١].

وقد بوب البخاري في صحيحه: باب: يجلس حيث ينتهي به المجلس[٢]، وقد تكون هذه الأمور والترتيبات واضحة يسيرة على بعض من رأى الدول المتقدمة تعملها، ولكن الصعوبة تكمن فيمن تعود على التفرقة حتى استمرأها، فصار لا يرى فيها بأسًا، بل قد يرى أنها هي الأصل!

ولكن كل هذه الأعذار لا قيمة لها، أمام عزة المسلم وكرامته وحرصه على تربية أجيال المسلمين التربية الصحيحة.

وقد سبق- وسيأتي- ما فيه بيان واضح للتربية النبوية الراقية الكريمة، وكذلك تعامل الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ومساواتهم مع غيرهم من العامة، وأنه لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، والتقوى علمها عند الله عز وجل؛ ولهذا فالناس سواسية كأسنان المشط، وهذا ما أوحاه الله سبحانه وتعالى، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»[٣].

فالتعامل والعلاقات تقوم على المبادئ والقيم الإيمانية والحضارية، وليس على مبدأ القوي والضعيف، أو الأعلى والأدنى، أو الكريم والحقير...

وقد يحتج البعض بما ذكر عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننزل الناس منازلهم.

(١) صححه الألباني.

(٢) أما إذا كان العمل يستدعي التنظيم، كالاجتماعات الرسمية، فهذا الأمر يختلف، وليس هذا موضوع النقاش، والله أعلم.

(٣) صحيح مسلم.

فيقال: إن الحديث قد ضعفه الألباني، ولو صح جدلًا فليس المفهوم منه مناقضة عموم الآيات والأحاديث، بل قد يكون الغرض منه بيان حفظ المكانة في التعامل؛ فالمعلم يعلم الطالب وله مكانته في ذلك من ناحية التربية والتوجيه والإرشاد، وكذلك الطبيب مع الممرض، والمدير مع الموظف، والمهندس مع العامل، فكل منهم له منزلته ومكانته التي يوجه ويؤدي من خلالها عمله على أكمل وجه، بعيدًا عن التعالي واستغلال المنصب.

والفرق واضح بينهما، مع أن البعض يغالط فيستغل ذلك استغلالا سيئًا متجاوزًا بذلك اختصاصات عمله، وواقعنا فيه الكثير من الصور المحزنة، بل المخزية المخالفة لعموم الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التي تبين ذلك بوضوح تام. ولكن المشكلة تكمن في أمرين هما:

١ - التداخل في المفاهيم، بسبب الجهل الناتج من التراكمات البعيدة عن الكرامة والمساواة، فيرى المدير في نفسه أنه أفضل من الموظف، والطبيب أنه أفضل من الممرض، والمهندس والعامل... وما يترتب على ذلك من أمور أخرى، وكل ذلك يراه البعض طبيعيا، بل هو الأصل، بل قد يلحقه بالدين، فيلتمس في سبيل ذلك بعض الأقوال، أو يلحقه بالأصول العربية الكريمة ويستخدم في ذلك الأشعار والقصص....

وكل ذلك ناتج من التراكمات السلبية، بحيث يرى أن الخطأ هو عين الصواب.

يُقْضَى عَلَى المَرْءِ فِي أَيَّامِ مِحْنَتِهِ   حَتَّى يَرَى حَسَنًا مَا لَيْسَ بِالحَسَنِ

٢- هناك من يعرف الحق ولكن رغم ذلك يستغل التسلط والمكانة لتحصيل الأطماع الدنيوية، وذلك يرجع للأهواء والأمراض التي في قلوب البعض ونفسياتهم وكذلك عدم فهم المجتمع الذي لا يحجم الأطماع الشاذة.

ولكن رغم ذلك سيكون الحل - بإذن الله - في يد المربين المتعلمين، الذين سيبذلون الجهد ويحرصون على تربية الطلاب تربية نبوية سليمة، بعيدًا عن تراكمات الجهل والأمراض.

الخاتمة:

في صحيح البخاري: مر رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟» قالوا: حريٌّ إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، وإن قال أن يستمع. ثم سكت، فمر رجل من فقراء المسلمين، فقال: «مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟» قالوا: حريٌّ إن خطب ألا ينكح، وإن شفع ألا يشفع، وإن قال ألا يستمع. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا»(١).

أوردنا هذا الحديث لأن البعض يرى- رغم ما سبق- أنه لا بد من تمييز البعض وأن هذا أمر واقع، بل من الأمور المسلم بها في المجتمعات!

فيقال له: انظر لمن كسر الأصنام المادية وأخرج الناس من الظلمات إلى النور ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، انظر كيف أخرج هذا (الأمر الواقع المسلم به عند الناس) إلى العلن ثم كسره وبين أنه لا قيمة له، وبهذا كسر أصنام الفخر والتميز بالمناصب(٢).

مَجْدُنَا مَلْحَمَةٌ عُنْوَانُهَا   نَحْنُ فِي بَدْرٍ قَتَلْنَا الوَثَنَا

فينبغي ألا يغتر الناس بأصحاب المميزات (المزعومة) بحيث يخضعون لهم ويعلونهم ويخفضون غيرهم؛ فالناس سواء، ولكن ينبغي ألا يفهم من هذا الكلام أن يكون الإنسان جلفًا جافيًا لا يحترم أحدًا ولا يقدر العلم وأهله، بل الاحترام للجميع وخاصة العالم والكبير في العمر، وقد ذكرنا الحديث الذي يبين حقوقهم(٣).

* * *

---

(١) صحيح البخاري.

(٢) وهنا ينبغي أن نأخذ المساواة والكرامة وحقوق الإنسان من هذا النبع الصافي، ولا ننتظر حتى يأتي من يستورد هذه المعاني من الغرب. وكذلك لا نريد أن نرجع إلى ما بدأ به غيرنا من قرون التخلف المظلمة لكي ننادي بالمساواة.

(٣) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لم يُجِلَّ كَبِيرَنَا، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ» حسنه الألباني.

صور من مدرسة النبوة:

وبعد عرض بعض الصور المحزنة، والكلام عن معالجة الأخطاء والعقاب والثواب، سنعرض صورتين من مدرسة النبوة[١]، لكي نتعلم من هذه النماذج، الطرق المثلى في التربية وكيفية علاج الأخطاء، والسنة حافلة بالصور التي تدل على عظم شأن التربية وأهميتها في الإسلام:

الصورة الأولى: ائذن لي بالزنى!

عن أبي أمامة قال: إن فتى شابًّا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنى، فأقبل القوم عليه فزجروه، قالوا: مه مه! فقال له: «ادْنُهْ»، فدنا منه قريبًا، قال: فجلس، قال: «أَتُحِبُّهُ لأُمِّكَ؟!»، قال: لا و الله، جعلني الله فداءك، قال: «وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لأُمَّهَاتِهِمْ». قال: «أَفَتُحِبُّهُ لابْنَتِكَ؟!» قال: لا والله، يا رسول الله، جعلني الله فداءك. قال: «وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ». قال: «أَفَتُحِبُّهُ لأُخْتِكِ؟!». قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: «وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لأَخَوَاتِهِمْ». قال: «أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟!» قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: «وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ». قال: «أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟!». قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: «وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالاتِهِمْ». قال: فوضع يده عليه، وقال: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ». فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[٢].

وهنا نقف عدة وقفات:

١ - معرفة الصحابة عطف الحبيب وتيسيره على المسلمين وحل مشاكلهم مهما كانت.

٢ - فهم شباب الصحابة لطريقة النقاش في المدرسة النبوية، (ولو لم يفهم ذلك لما تجرأ فطلب من أطهر الخلق الإذن بالزنى)، وفعلا صار فهمه صحيحا حيث رباهم النبي صلى الله عليه وسلم، على الرفق والشورى والحوار الحر، وليست المدرسة

---

(١) وقد سبق ذكر بعض تلك الصور؛ مثل: الذي بال في المسجد، والذي تكلم في الصلاة، وأنس رضي الله عنه عندما قال: «والله لا أذهب»، والذي جبذه بردائه......

(٢) صححه الألباني.

الفرعونية التي تقوم على: «ما أريكم إلا ما أرى».

٣- المناقشة الرشيدة وعرض الأفكار بكل أدب واحترام؛ مثل: «أتحبه»، والرد: «لا والله، جعلني الله فداءك»، فأتاح له الفرصة كاملة لعرض مشاكله وأفكاره بكل حرية، وبهذا لن يبحث عن مصادر أخرى لعرض مشاكله.

٤- حسن معاملته؛ كتقريبه منه، حيث قال له: «ادْنُهْ»، فدنا منه قريبا، فلم يبعده بل احتواه بحميمية ورفق، بل أجلسه عنده، وناقشه.

٥- طريقة نقاشه مع الفتى، فلم يأمره وينهَهُ ويعرفه بالأدلة على حرمة الزنى؛ لأن مشكلته ليست مشكلة معرفية، بل مشكلة سلوكية؛ لهذا أعاد صياغة تفكيره، وبين له جوانب لم تكن في باله وهذا نوع من (البرمجة العصبية) التي بدأ العلم الحديث في اكتشافها.

٦- (وضع يده عليه).

٧- دعا له دعاءً حنونًا بدأه بالمغفرة: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ».

٨- (فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء).

٩- صدق الله الكريم الذي أكرمنا بحبيبه صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾.

الصورة الثانية: أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟

عن سهل بن سعد رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتي بشراب فشرب منه، وعن يمينه غلام وعن يساره الأشياخ.، فقال للغلام: «أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أُعْطِيَ هَؤُلاءِ؟»، فقال الغلام: والله يا رسول الله لا أوثر بنصيبي منك أحدًا، قال: فتلّه رسول الله صلى الله عليه وسلم في يده[1].

وهذا الحديث من معالم المنهج النبوي في تربية الأجيال، فقد أعطى كل ذي حق حقه، صغيرًا كان أو كبيرًا، ولكن لنتأمل هذا المنهج النبوي العظيم، من الناحية التربوية ونقارنها مع تربية المعلمين للطلاب:

---

(١) صحيح البخاري. «تله في يده»: أي: أعطاه إياه.

١- ترتيب الجلوس بجانب الرسول صلى الله عليه وسلم.

٢- الرسول صلى الله عليه وسلم يحفظ حق الغلام مقابل الأشياخ.

٣- الرسول صلى الله عليه وسلم يعرِّف الغلام حقه.

٤- الرسول لله صلى الله عليه وسلم يستأذن غلامًا.

٥- الغلام يرفض؛ (لسبب وجيه).

٦- رسول لله صلى الله عليه وسلم يعطي الغلام حقه بيده الشريفة.

وهنا يتبين منهج الرسول الحبيب صلى الله عليه وسلم في تربية الأطفال على العزة والكرامة، وتعريفهم ما لهم من حقوق، وأنه من حقهم ألا يتنازلوا عنها، فتربوا على الجرأة والشجاعة منذ نعومة أظفارهم.

إن هذا الغلام هو عبدالله بن عباس الذي أصبح فيما بعد، حبر الأمة وترجمان القرآن، الذي تكلم في المجلس غير هياب ولا مرتبك، والرسول صلى الله عليه وسلم لا ينهاه ولا يزجره، بل يعطيه الإناء بيده الشريفة، ليشرب قبل من كان يريد أن يقدمه إليهم.

وقارن ذلك بتربية الطلاب على الرهبة والخوف من المعلم والمدير، وتعويدهم على الطاعة العمياء، وعدم النقاش فضلا عن الاعتراض.

فالطلاب مجرد متلقين للأوامر والنواهي ليس لهم قيمه، فإذا أمروهم بأمر، فإنه يجب على الطلاب الطاعة والتنفيذ بلا مناقشة ولا مراجعة، وأحيانا بلا فهم للحكمة مما يعملون، فالرأي هو رأيهم وفيه الرشاد، والبقية قطيع عليهم أن يهزوا رؤوسهم للتنفيذ.

ولا شك أن المنهج الراشد يتمثل في أن يشاور المعلم طلابه داخل الفصل ويناقشهم، مقتديًا برسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أمره الله تعالى بالشورى فقال له: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾[1]، وكذلك قال الله تعالى عنهم: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾[2].

وليحذر من أن يقتدي بفرعون، الذي قال الله تعالى عنه: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٥٩).

(٢) سورة الشورى، الآية: (٣٨).

مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾[١].

وكذلك قال عنه وعن قومه المطيعين له طاعة عمياء: ﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ ﴾[٢].

* * *

---

(١) سورة غافر، الآية: (٢٩).

(٢) سورة الزخرف، الآية: (٥٤).

تعديل السلوك:

إن المعلم الذي يؤمن بالرسالة السامية للتربية ويحمل الأفكار الإيجابية، لا يمكن أن ينجح في عمله ولن يؤثر في طلابه ما لم يكن على مستوى مناسب من الانضباط، وضبط الطلاب يحتاج إلى مهارات يتحتم على كل معلم أن يتعلمها ويتقنها، ومن أهم هذه المهارات: تعديل السلوك، فما تعديل السلوك؟ وكيف نعدل سلوك الطلاب؟

وهذا ما كنا سنذكره في الكتاب القادم؛ لأن كل ما قلنا قد يكون تأسيسًا ومدخلا لتأصيل أكثر للمعلم والمربي.

مع العلم أن المعلومات والمعارف والمهارات التي تتحدث عن تعديل السلوك، لا تكفي من دون إتقان العناصر الأخرى في عملية التربية والتعليم؛ مثل: طرق الإقناع، والإلقاء، والحوار، وإيصال المعلومة، والبرمجة العصبية، ولغة الجسد... فهي منظومة متكاملة إذا توافرت في المعلم فإنه بلا شك سيكون متميزًا ناجحًا بإذن الله سبحانه وتعالى.

ولكن سنورد هذا الموضوع في هذا الكتاب بسبب حاجة بعض المعلمين الماسة لتعديل السلوك عند الطلاب وإدارة الصف وكذلك لأهميته، مع أن هناك مواضيع أهم منه، فما تعديل السلوك؟

ما تعديل السلوك؟

إن عملية تعديل السلوك لها خطوات وطرق وأساليب وشروط ومدعمات وخصائص ومجالات وأبعاد وأهداف وأنواع....

وشرح كل ذلك يطول، ولكن نريد أن نعرف ما تعديل السلوك؟ ونذكر بعض أنواعه، ثم نستعرض أحد الكتب التي تبين بعض جوانبه بطريقة عملية.

والهدف من ذلك أن نعرف الطرق الكثيرة لتعديل سلوك الطلاب من جهة، ومن جهة أخرى نعرف التقصير الكبير الذي يقع فيه كثير من معلمي العالم الثالث، ويفوت عليهم الفرصة في حل مشاكلهم بأقصر وأسهل السبل وأنجحها تربويًّا، حيث إنه يلاحظ ندرة استخدامها في العالم الثالث، وكذلك يلاحظ أن تعديل السلوك يتركز في طريقتين؛ هما العقاب والتلقين، ومع ذلك قد تستخدم الطريقتان بأساليب غير تربوية؛

مثل: العقاب بالضرب، والتلقين بالصراخ!

السلوك: يعرف السلوك الإنساني بأنه: «كل ما يصدر من الفرد من أفعال ظاهرة أو غير ظاهرة».

التعديل: هو عملية إحداث أو تقوية السلوك المرغوب فيه وزيادة حدوثه مستقبلا من ناحية، وإزالة أو إضعاف السلوك غير المرغوب فيه من ناحية أخرى.

أهم أنواع تعديل السلوك:

١ - التعزيز: ومن أهم أنواعه: التعزيز الإيجابي، والتعزيز السلبي.

٢ - العقاب.

٣ - الإطفاء: أو التجاهل.

٤ - التعميم: بنوعيه: تعميم المثير، وتعميم الاستجابة.

٥ - النمذجة: أو الاقتداء.

٦ - التشكل: أو التكوين.

٧ - التسلسل: أو التدرج.

٨ - التلقين: وأبرز أنواعه: التلقين اللفظي.

٩ - السحب التدريجي: أو التبديلي، أو تغيير المنبه.

١٠ - تقليل الحساسية التدريجي: أو التحصين التدريجي.

١١ - الإفاضة.

١٢ - الغمر[١].

١٣ - توكيد الذات.

---

(١) هذه الأنواع الثلاثة: تقليل الحساسية التدريجي والإفاضة والغمر، تعتبر متشابهة؛ لأنها تصدر من فكرة واحدة، ولكن الاختلاف بينها أنها تتدرج بطريقة متصاعدة، ولهذا كل نوع يعالج الحالة المناسبة له.

١٤ - ضبط الذات[١].

١٥ - الممارسة السالبة.

١٦ - الكف المتبادل: أو التبادل[٢].

١٧ - التمييز.

١٨ - لعب الأدوار.

١٩ - القراءة.

٢٠ - استخدام الأنشطة.

٢١ - إتاحة المعلومات.

٢٢ - اتخاذ القرارات.

٢٣ - التنفير.

٢٤ - وقف الأفكار.

٢٥ - حل المشكلات.

٢٦ - التدريب على التعليم الذاتي: (النصح الذاتي)[٣].

٢٧ - التحصين ضد الضغوط.

٢٨ - التعاقد السلوكي: أو الاتفاق المنظم للسلوك.

٢٩ - الكرسي الخالي.

---

(١) وتعتبر هذه الطريقة من أحسن طرق تعديل السلوك؛ لأنه يعتمد على تعديل سلوكيات الفرد نفسه بنفسه، وذلك عن طريق إحداث تغيرات في المتغيرات الداخلية والخارجية المؤثرة في السلوك المراد تعديله؛ مثل: أن يعتذر الطالب عن مشاهدة مباراة كروية لكي يذاكر دروسه، أو أن يمتنع الفرد عن تناول وجبة طعام دسمة كي لا يزيد وزنه.

(٢) استبدال عادة سلوكية بعادة أخرى.

(٣) لأن السلوك يصدر من تأثير أو أثر معلومات.

٣٠- التغيير باللعب.

٣١- تكلفة الاستجابة.

٣٢- الإقصاء.

٣٣- تصحيح الأخطاء.

٣٤- الاسترخاء.

٣٥- التنفيس الانفعالي.

٣٦- الواقعية.

٣٧- التعايش.

٣٨- الإرشاد المختصر.

٣٩- الإشباع.

٤٠- تغيير المثير[١].

٤١- الحرمان.

ولكي نختصر ونحصر المعلومات ونستفيد ممن سبق، سنختار كتابًا قيّمًا يتحدث في هذا الموضوع.

والكتب المؤلفة في هذا الموضوع كثيرة، وسنذكر منها عشرة كتب:

١- تعديل السلوك الإنساني،تأليف: أ.د. جمال محمد الخطيب.

٢- الأطفال المزعجون![٢]،تأليف: د. مصطفى أبو سعد.

٣- العلاج النفسي وتعديل السلوك الإنساني بطريقة الأضداد،تأليف: يوسف مدن.

٤- الأنشطة التربوية في مواجهة المشكلات السلوكية للطلاب،تأليف: عصام

(١) تغيير أو إزالة الظروف التي يحدث فيها السلوك غير المرغوب فيه.

(٢) برنامج عملي تدريبي في مهارات تعديل السلوك لدى الطفل.

توفيق قمر .

٥- إدارة السلوك[1]،تأليف: بيتر هوك وآندي فاس .

٦- غرس السلوك النقدي لدى الطلاب،تأليف: روي فان دين برينك.

٧- كيف يمكن تحسين سلوك الطلاب وغرس احترام الذات داخل الفصل، تأليف: جايلس باور، إيما برادشو، ترودي نيوتن .

٨- كيف يمكن غرس السلوك الإيجابي وتحفيز الطلاب،تأليف: إيدي ماكنامارا .

٩- أسرار تفكير المراهق،تأليف: شيريل فينشتاين.

١٠- معالجة سلوكيات الطلاب داخل الفصل،تأليف: ساندرا نويل، ديفيد جيفري .

وهذه الكتب وغيرها لا تقل عن الكتاب الذي اخترناه، ولكن ليس من المناسب اختصار هذه الكتب أو ذكر ترجمة لكل كتاب، فمثلا:

كتاب (الأطفال المزعجون) للدكتور مصطفى أبو سعد، فيه فوائد عظيمة وقد ذكرنا بعضها، أو كتاب إدارة السلوك لبيتر هوك وآندي فاس، كذلك فيه فوائد وسنذكر منه أربع نقاط، ثم نشرع في كتابنا الذي اخترناه لأنه يتميز بعدة مميزات ستتعرف عليها بعد قليل إن شاء الله تعالى، وإليك النقاط المختارة من كتاب إدارة السلوك لبيتر هوك وآندي فاس:

١- التأثير لا السيطرة:

تذكر أنه لا يمكنك أن تسيطر بشكل مباشر على سلوك الأطفال.

يمكنك أن تسيطر على بعض- وليس كل- الجوانب التي تمتلك تأثيرا عليها إلى حد ما وهي (المقدمات)، على سبيل المثال:

- الطريقة التي تعرض بها عمل الأطفال ومكان ذلك.

- الطريقة التي تستهل بها المحادثات.

(١) باقة من التلميحات والأساليب والأدوات لتحقيق الهدوء داخل الفصل وجعل التلاميذ يتسمون بالهدوء والتركيز.

- الطريقة التي توزع بها أماكن جلوس الأطفال في الفصل وتحدد بها روتينا ثابتا يتم الالتزام به أثناء دخولهم الفصل، إلخ.

كما أنك تمتلك سيطرة محددة على مقدمات أخرى؛ مثل المسكن السيئ، وقلة ما لدى الأبوين من مهارات مناسبة للتربية.....

ومع ذلك، فلديك سيطرة كاملة على الطريقة التي تختار أن تستجيب بها عاطفيًّا لسلوك الطفل؛ فعن طريق السيطرة على استجابتك والتحكم فيها، يمكنك أن تؤثر على سلوك الأطفال، ولكن لا يمكنك السيطرة عليه.

٢- العقاب:

أهم رسالة هنا هي أن العقاب لا يغير السلوك.

* العقاب الفعال يقيد السلوك فقط لفترة كافية تسمح لك بمكافأة الطفل على سلوكه المرغوب الجديد.

* تشديد العقاب ليس هو ما يجعله فعالا في تقييد سلوك الطفل، وإنما حتميته؛ أو بعبارة أخرى: تأكد الطفل من أنك سوف تفعل شيئًا حياله بالفعل.

* يجب أن يكون العقاب داخل الفصل متدرجًا، على سبيل المثال:

- تحذير الطفل.

- تغيير مكانه.

- تأخير خروجه خمس دقائق بعد انتهاء الحصة.

- إخبار والديه أو من يقومون على رعايته.

- طرده من الفصل.

٣- المكافآت:

أهم رسالة هنا هي أن المكافآت تغير السلوك.

- التقييم العاطفي هو أكثر صور المكافآت فعالية: الابتسامة، وتوجيه الشكر،

والإيماءات مثل رفع الإبهام علامة على الموافقة أو القبول.

- المكافآت المادية أو الملموسة (رسم نجوم في كراسة الطفل، أو منحه ملصقات، أو طوابع بريد) ليست فعالة على المدى الطويل إلا إذا ارتبطت بالتقييم العاطفي.

- عندما تمنح الطفل مكافأة أو جائزة، لا يجب أبدا أن تقوم بسحبها منه مرة أخرى. فإذا ما صدر عنه سلوك سيئ بعد أن أعطيته مكافأة ما، فعليك بتطبيق العقاب المناسب.

- يجب أن يتم منح الجوائز والمكافآت بإنصاف، وألا تستخدم «رشوة» مع الأطفال الأكثر إزعاجًا وإثارة للمشكلات.

- الأطفال في سن السادسة عشرة يستجيبون للمكافآت والجوائز بنفس الطريقة التي يستجيب بها الأطفال في سن السادسة، بشرط أن تتناسب هذه المكافآت والجوائز مع أعمارهم.

٤ - استثمر لتتلقى العائد:

هناك قاعدة أساسية في العلاقات الإنسانية تقول: «إذا أردت أن تتلقى شيئا ما، فمن الأفضل أن تمنحه في البداية». وهذا المبدأ ينطبق على كل المستويات في معاملاتك مع الأطفال.

- إذا أظهرت الاحترام تجاه أطفالك، فمن المرجح بشكل أكبر أن يبادروا باحترامك أنت أيضا.

- إذا اخترت أن تتعامل مع الأطفال بطريقة عاقلة هادئة، فمن غير المحتمل أن يتحول الأمر إلى مواجهة أو تحد.

- إذا خصصت الوقت الكافي لكي تفهم أطفالك على اعتبار أنهم أشخاص وليسوا (ماكينات تعلم) صغيرة، فمن المحتمل بشكل أكبر أن تكون قادرا على إقامة علاقات طيبة معهم.

- إذا أظهرت منهجا حازما ولكنه عادل لضبط السلوك، فمن المحتمل بشكل أكبر أن يرقى أطفالك إلى مستوى توقعاتك منهم فيما يتعلق بالسلوك.

- إذا قمت بالترحيب بهم بابتسامة وبعبارة (صباح الخير) عن تسجيل الحضور في بداية اليوم، فمن المرجح بشكل كبير أن تحصل منهم على رد ودود بدلا من الهمهمة والتمتمة المعتادة.

* * *

الكتاب الذي اخترناه:

اسم الكتاب «١٠٠ فكرة لإدارة سلوك الطلاب والطالبات».

اسم المؤلف: جوني ينغ.

مقدمة الكتاب:

ينبغي أن نعلم أن هذا الكتاب يتكون من مئة فكرة تساعد المعلم في ضبط صفه، وهذه الأفكار مقسمة على سبعة فصول، ولكن قبل أن نبدأ في هذا الكتاب سنقف عند مقدمته التي لها أهمية كبيرة؛ لأنها فتحت لنا أبوابًا نستطيع أن نتعرف من خلالها على هذا المعلم الناجح كعينة من المعلمين الذين لم يتخصصوا أصلا في التعليم ولكنه مع ذلك استطاع أن يتخصص وينجح وبجدارة، ثم نذكر بعض أسباب نجاح المعلم الذي ألف الكتاب، ثم مضمون الكتاب

فماذا تقول هذه المقدمة؟ وما هذه الأبواب التي تفتح لنا كيفية النجاح وبجدارة؟:

كان المؤلف يعمل في منصب إداري في أحد البنوك ولمدة ستة عشر عامًا، ولكن بسبب حبه للتعليم التحق بإحدى الجامعات المفتوحة بدوام جزئي، وخضع للتدريب لكي يصبح (معلمًا مؤهلًا)، كما أنه كان على مدى سنتين يذهب إلى الجامعة أسبوعيًّا ويقدم دروسًا نموذجية.

وبعد حصوله على الشهادة قام بتدريس الموظفين في البنك، وكذلك فتح فصولا لتعليم الكبار في المساء لمدة من الزمن.

ثم يقول بعد ذلك: «وهكذا وطئت قدمي بكل ثقة أول مدرسة عملت فيها»، ومع ذلك يقول: «وقد وافقوا على إعطائي فرصة التجربة مع أنني لم أكن أملك المؤهلات الكافية!» ولنقارن كل هذا الإعداد مع إعداد المعلمين في العالم الثالث.

ولكنه بعد ذلك يتحدث عن بدايته الفعلية في التعليم وعن أول صف دخله، ثم يبين كيف كانت معاناته، وماذا عمل ليكون مبدعًا بذاته، فيقول: «وبكل صراحة أقول: لقد كانت تلك الدروس عبارة عن ساحة معركة، وصحيح أنني كنت أعرف مادتي

حق المعرفة، ولكن المشكلة هي أنني لم أكن أعرف كيف أدرسها، لقد كان الطلاب يشعرون بالملل في درسي، وكنت طوال الوقت أصرخ وأوجه عشرات التهديدات، وأطلق العقوبات بالجملة، وفي نهاية كل درس تراني منهكًا ومحبطًا».

وهذا ما يحصل للكثير من المعلمين، ولكن هذا المعلم لم يتوقف عند هذه النقطة الهامة لأنها تعتبر مفترق طرق، فالمعلمون في هذه الحال على ثلاث طرق:

الطريق الأول: عدم الاستسلام، بل إحسان العمل؛ وهو: (الانتصار).

الطريق الثاني: الانهزام، وترك التعليم، وهو: (الانسحاب).

الطريق الثالث: الانهزام، ولكن مع ذلك الإساءة للتعليم؛ وهو: (الخيانة).

ولكن هذا المعلم لم يضعف ولم يرفع الراية البيضاء ولم يستسلم للواقع، ولم يحرف مساره متأففًا، فيستمر في عقاب هؤلاء الطلاب السيئين (في نظره) فيضرب ويتسلط ويهين ويتذمر ويرفع صوته ويسب ويلقي باللوم على الطلاب وغيرهم، بل على فساد أبناء هذا الزمن....

وإنما كان ذلك دافعًا إيجابيًّا ليفكر ويعمل ويطور ويحسن عمله.

ويواصل حديثه قائلا: «مما دفعني حقًّا للتفكير بجدية في الاتجاه إلى عمل مختلف تمامًا، لأنني في الحقيقة لم أكن أدري ماذا أفعل»، وهكذا بدأ من الصفر - كما يقول- فماذا عمل؟

من خلال مقدمة الكتاب يبين المعلم النقاط الأساسية التي مر بها قبل أن يؤلف هذا الكتاب، ولكنا سنستفيد من هذه المقدمة ونركز على النقاط الهامة التي جعلت منه معلمًا ناجحًا لنعرف أسباب ذلك النجاح، ثم نكمل ما قال في مقدمته.

من أسباب نجاح المعلم الذي ألف الكتاب

- يتميز هذا المعلم بالدافع الداخلي وحب المهنة وخدمة الجيل، حيث قال: «حلم حياتي بأن أكون مدرسًا لم يفارقني طوال تلك السنين، لقد أحببت أن يكون لي تأثير على جيل كامل».

- يحضر حصص المعلمين من ذوي الخبرات العالية.

- يسأل المعلمين المحترفين ويستفيد من خبراتهم.

- يحرص ويجتهد ويدون الملاحظات- بشكل مستمر- في دفتر خاص يستفيد منه فيما بعد، وهذا على مدى سنوات عديدة ملأ خلالها عشرات الدفاتر بمئات الأفكار.

- لا يعتد برأيه، حيث إنه كان يعتقد أنه يحسن التدريس، ولكنه تراجع وأعاد ترتيب نفسه وبدأ من الصفر.

- بالرغم من نجاحه إلا أنه يرى أنه مازال يحتاج إلى التطوير لتحسين العمل، ويرجع ذلك لعظمة التعليم.

- بعد زيادة خبرته صار يجري بعض التعديلات على أفكاره.

- يستفيد من الحصص الناجحة ويسجل سر نجاحها.

- لم يستسلم، بل يأسف عند رؤيته الكثير من المعلمين الذين يرفعون الراية البيضاء ويتركون المهنة وهم في حضيض الإحباط(١).

- لم يتراجع؛ لأنه أدرك قيمة من قيم التعليم، وهي: أن التعليم مهنة كغيره من المهن له سر ومفتاح خاص.

- ومن نجاحاته أنه يستمتع بالتعليم ويمتع الطلاب.

- بحث عن الكتب المعينة له في هذا المجال ولكنه لم يجد.

- عرف أن الكتب الأكاديمية الضخمة غير مجدية وعرف نقاط فشلها.

- اجتهد في مساعدته للمعلمين الجدد والقدامى.

- تتميز أفكاره بأنها جميعها مجربة في البيئة الصفية.

وأخيرًا.. ختم بمقولة لها معنى جميل لما فيها من أهداف عميقة وهي: «أرجو أن يكون كتابي هذا مصدر فائدة للمعلمين، ليقدموا أفضل ما لديهم، حتى يحصلوا على أفضل ما عند الطلاب».

---

(١) وهؤلاء الذين يتركون التعليم، خير من الذين يستمرون في التعليم مع استمرار فشلهم.

وإليك تكملة المقدمة:

«ومن خلال حضوري حصص بعض المعلمين من ذوي الخبرة، أدركت أن البعض يبلي بلاء أفضل بكثير من غيره، فبدأت أسأل هؤلاء المعلمين الكثير من الأسئلة، وأدون ملحوظاتهم على دفتر ملحوظاتي الأول الذي تبعه العديد فيما بعد، وأدركت حينئذ أنني كنت أظن نفسي أحسن التدريس! إلا أنني في الحقيقة كان علي أن أبدأ من الصفر.

واتخذتها عادة أن أدون الملحوظات المفيدة للمعلمين المحترفين، فكنت أسأل أحدهم مثلا: «ماذا تفعل إذا استأذنك أحد الطلاب للذهاب إلى الحمام؟ لأنك إن سمحت لواحد بالذهاب فسيأتيك الجميع مستأذنين، وإن قلت: «لا» فقد يبللون أنفسهم». فيجيبني قائلا: «اطلب منه أن يصبر لمدة عشر دقائق أخرى، فإذا لم يزل مضطرا اسمح له بالذهاب». وهكذا كنت أدون الملحوظة على دفتري.

وعلى مدى سنوات عديدة امتلأت عشرات الدفاتر بمئات الأفكار، وما زلت أفعل ذلك حتى الآن. وهذه هي عظمة التعليم؛ إذ لا تنفك تتعلم.

ومع ازدياد خبرتي بدأت باستخراج أفكاري الخاصة وإدخال بعض التعديلات على الملحوظات القديمة.

وحين تكون إحدى الحصص الدراسية ناجحة فإنني أجلس بعدها متأملا لأعرف السبب وراء كونها كذلك، ثم أدون جوهر السبب في نجاح الدرس.

وللأسف رأيت الكثير من المدرسين يرفعون الرايات البيضاء، ويتركون هذه المهنة وهم في حضيض الإحباط.

أما بالنسبة لي فقد مضى علي اثنا عشر عاما في التدريس ولم أتراجع؛ لأنني أدركت منذ البداية أن التدريس مثله مثل أي مهنة أخرى له سر ومفتاح خاص.

هذا لا يعني أن جميع دروسي كانت متميزة، وما من مدرس يمكنه أن يدعي ذلك، إلا أنني في الوقت الذي كنت أتعلم المزيد عن هذه المهنة وأحاول تطبيق ما أتوصل إليه من أفكار، كنت أستمتع بالتجربة أكثر فأكثر، وأعتقد أن طلابي كانوا يشعرون كذلك

أيضًا.

وفيما بعد قمت باستخلاص أفضل مئة فكرة في كيفية التعامل مع الطلاب الذين يتسم سلوكهم بالرغبة في التحدي والمشاكسة.

أذكر أنني عندما بدأت بالتدريس كنت أتمنى أن تقع عيني على كتاب يقدم لي نصائح علمية في كيفية التدريس بطريقة أكثر فعالية وجدوى، بعد أن فقدت الأمل في تلك الكتب الأكاديمية التنظيرية الضخمة التي لم يكن لها على ما يبدو أي صلة بالتجربة الصفية الواقعية، وهذا هو مقصدي من وراء جمع أفكاري في كتيب يساعد المعلمين الجدد، وأرجو أن يساعد القدامى أيضا.

ويكمن جمال هذه الأفكار في أنها جميعها مجربة في البيئة الصفية، كما أن بعض هذه الأفكار يحتوي على أمثلة واقعية لبعض الكلمات التي يمكن للمدرس أن يقولها في حالات محددة، وهناك أيضا بعض التعليقات التي وضعت لتنبيه المعلم من الوقوع في بعض المآزق، كما أن هناك بعض الطرق لتعليم الطلاب الذين يميل سلوكهم إلى التحدي والمشاكسة.

وأخيرا أرجو أن يكون كتابي هذا مصدر فائدة للمعلمين، ليقدموا أفضل ما لديهم، حتى يحصلوا على أفضل ما عند الطلاب.

أقدم كتابي هذا راجيًا أن ينال إعجاب القارئ».

جوني يونغ

وإليك مضمون الكتاب، ولكن سنذكر من المئة فكرة سبعًا وثلاثين فكرة فقط، وسنذكرها باختصار:

الفصل الأول: اعرف طلابك:

١- معرفة أسمائهم[1].

٢- معرفة اهتمامات طلابك.

---

(١) وذكر بعض الطرق لحفظ أسمائهم.

٣- إثارة الحافز التعليمي لديهم من خلال معرفة أهدافهم في الحياة.

٤- تعزيز شعور الطالب بأهمية عمله.

غالبا ما يكون الطلاب المشاكسون ضعيفي الثقة بالنفس، ويشعرون بأن ما يقومون به ليس له قيمة أو فائدة.

وضح له بكل صدق وتحديد كيف يحسن أداءه، وأظهر له أنك تقدر جهوده، فقد تكون الشخص الوحيد في حياته الذي من الممكن أن يعطيه الثقة في نفسه من خلال تغذية إيجابية.

قد تواجه في البداية بعض الطلاب الذين لا يصدقون تقديرك الظاهر لأعمالهم، فلا تستسلم، وضح لهم كيف أن أداءهم يتحسن من خلال المقارنة بين ما سبق والآن، ومع مرور الوقت ستكسب ثقتهم.

إن هذه العملية طويلة وشاقة، وسيعرفون إذا ما كنت صادقا معهم في ذلك أو لَا.

٥- التحلي بروح الدعابة:

التحلي بروح الدعابة طريقة رائعة في خلق جو صفي محبب، إلا أن هناك أمرين عليك أن تحذر منهما:

أ- لا تستخدم أسلوب الدعابة ما لم تكن واثقًا من أن زمام الأمور في يديك، وأن الصف لن يخرج عن سيطرتك، لكي لا تقع في مآزق تسعى أصلا لتجنبها.

ب – كن حذرا فيما تقول، اجعل مزاحك إما على شخصك أو على الموضوع الذي تدرسه، وتجنب التعليقات التي تمس شخص الطالب حتى وإن كنت مازحًا؛ لأن ذلك قد يؤدي إلى عواقب مريعة، مع أن القصد الدعابة وعدم الإيذاء. وحالما تلقي أي نكتة استجمع انتباه الطلاب بأسرع ما يمكن.

٦- صديق أم عدو:

يميل بعض المعلمين للتودد إلى طلابهم أكثر من اللازم، ولكن كن على حذر؛ فدورك في الصف هو القيادة، فالإفراط في التودد واللين يجعل الطلاب لا يقومون بما

تطلب، أما مع المشاكسين فيتحول الأمر إلى كارثة.

ولكن عليك بالتوسط، فإذا كنت صارمًا جدًّا فستضع نفسك في مواجهة معهم، وإذا كنت لينًا جدًّا فسيرى الطلاب فيك لقمة سائغة.

ولذلك ارسم لنفسك شخصية متوسطة تلتزم بها، وحالما يتعود عليها الطلاب فإنهم سيدركون بأنفسهم ذلك وسيسيرون على ذلك ويفضلونه لأنهم سيعرفون حدودهم، ويمكنهم من توقع مواقفك.

٧- موقفك يساعد:

إذا كان موقفك يتميز باللطف والتفاؤل والاهتمام، والتزمت بهذا دائمًا، فستجد مدى التأثير الهائل على الطلاب.

إذا تحكم في مزاجك وسيطر على مشاعرك، وهذا يتطلب منك مرونة عالية لترجع إلى شعور التفاؤل والابتهاج.

فإذا شعرت بالسأم والضيق قبل درسك فتظاهر بأنك سعيد لمدة خمس إلى عشر دقائق، وستلاحظ أن شيئًا ما قد تغير، لقد أصبحت فعلا سعيدًا.

٨- نجم اليوم!

من الطرق الرائعة لتعرف طلابك، وتقدم بعض التسلية في الصف أن تتبع أسلوب (نجم اليوم).

وهو أن تختار من طلابك نجمًا تعلنه في آخر الدرس، وإن اختياره عائد لعدة أسباب؛ مثل: جهده، تميز أدائه، مدى استجابته في الدرس.

الفصل الثاني: كيف تحافظ على هدوئك في وجه العاصفة الصفية؟

٩- قوة التنظيم:

عندما يحتاج أحد الطلاب إلى (قلم) فإنه قد يحدث ضجة أو جدالًا، وهذا ما يدفعك إلى أن تعيره قلمك الغالي الذي في يدك.

لابد أن كل معلم قد مر بموقف مشابه، ومفتاح تجنب هذه المواقف واضح

وبسيط: إنه التنظيم.

حاول أن تخصص وقتًا إضافيًّا لتضع مخططًا تفصيليًّا لبرنامجك التنظيمي.

فكر بدقة في الأشياء التي ستحتاجها، واكتب قائمة رئيسية خاصة بكل صف، وفي كل صف عليك أن يكون معك: حقيبة واحدة فيها لوازمك الأساسية من تحضير وسجل درجات وغير ذلك، وما تتوقع أن يحتاجه الطلاب لتأدية الأنشطة المطلوبة في الدرس.

فإن فعلت ذلك فستجري أمورك بسهولة ويسر، وستزيد من فرص نجاح درسك.

١٠- كن إيجابيًّا!

من العادات الرائعة أن تجعل جو الدرس مشجعًا من خلال استعمال عبارات إيجابية، فعوضا عن أن تقول مثل: «لقد نبهتك مسبقًا أن تكف عن الكلام، ولكنك مصر على إزعاجي» عليك أن تقول: «ممتاز! يبدو أن أغلب الطلاب قد التزم الصمت. إلا أن هناك بعض الطلاب ممن لم يسكت بعد، وأنا ما زلت أنتظر»[1].

إن هذا الأسلوب يساهم في تحقيق النتائج التي تريدها، وينشر جوا إيجابيًّا.

ويمكنك استخدام هذه الطريقة في جميع التعليمات الصفية ولأي نوع من أنواع السلوك.

ومع نبرة صوتك الحازم يبقى مضمون الرسالة: «جيد، هذا هو المطلوب!».

١١- توقف عن الصراخ!

ماذا لو فعلت كل ما بوسعك لضبط الصف وجذب انتباهه، ومع ذلك ما يزال الصف في حالة فوضى؟ من الطبيعي حينئذ أن تبدأ بالصراخ.

ولكن ماذا تفعل إذا قمت بالصراخ عليهم بما يكفي، ومع ذلك لم يعرك الصف أي اهتمام؟

أذكر أنني عندما بدأت بالتدريس كنت أصرخ وأصرخ، إلا أنني وجدت في النهاية أن الصراخ قد استنفد قواي واستهلكني، ويا ليته نفع فعلا!

---

(١) لا تجعل عبارتك تصف السلوك السيئ، لكن صف ما تريده بشكل إيجابي.

والأسوأ من ذلك هو أن صوتي قد تأذى، وصار الدرس الذي يليه أصعب وأقسى. ولكن مع مرور السنين قمت بتطوير عدة استراتيجيات وأساليب تعتقني من حاجتي إلى الصراخ.

أ- قف وانتظر، وفي عينيك نظرة محددة (انظر الفكرة ١٤ للتوضيح).

ب- اخفض صوتك حتى يستصعب على الطلاب سماعك مما يضطرهم إلى الإنصات.

ت- ارفع يدك عاليًا وانتظر حتى يسكت الطلاب.

ويبقى للصراخ أثره المذهل، ولكن ليس أي صراخ، إنه الصراخ المدروس.

فبعد أن تتبع كل الطرق المذكورة أعلاه وما يزال أحد الطلاب يشاغب، فما عليك إلا أن تصرخ عليه بكلمة واحدة مثل: «ماذا بعد؟»، وعد بعد ذلك مباشرة إلى نبرة صوتك المنخفضة. فإذا كانت تلك الصرخة مدروسة، وأتت في وقتها المناسب، ووجهت توجيهًا صحيحًا فستكون أفضل بكثير من الصراخ طوال الدرس.

١٢- أهمية لغة الجسد:

كثر الحديث عن لغة الجسد، وكيف أنها تعبر الكثير عن صاحبها.

في الصف ستجد أن للغة جسدك وإدراكك أهمية فعالة؛

لذا قمت بوضع بعض الأفكار العملية التي قد تنفعك فيما يتعلق بضبط السلوك المشاكس. لا تنس أنك منذ أن تدخل غرفة الصف أنت على المسرح أمام أزواج من العيون تراقبك، وتقيمك: هل أنت لين؟ عصبي؟ هل أنت على قدر جيد من الخبرة؟ هذه هي نوعية المعلومات التي تكشفها لغة جسدك باستمرار.

وهنا تذكر أن:

أ- تكون نظراتك وحركاتك واثقة.

ب- تقف مستقيمًا ولا تحني ظهرك.

ت- تتجول بعينيك متفحصًا الطلاب باستمرار.

ث- تظهر لهم دائمًا أنك على علم بما يجري من حولك.

ج- تتخذ إشارات يفهمون من خلالها ماذا تريد منهم (انظر الفكرة ١٣ للتوضيح).

ح- تتحرك بين الطلاب بكل ثقة.

خ- تكون جميع لوازمك في متناول يدك حتى لا تتوه داخل حقيبتك بحيث لا تراقب ما يجري في الصف.

د- تكون على مرأى من الطلاب عندما تشير إلى السبورة أو غيرها.

ذ- تقف في مكان يمكِّنك من التحكم بكامل الصف وتوجيه التعليمات.

ر- وإذا وقفت في آخر الصف والتفت أحد الطلاب ليرى ماذا تفعل، فأشر إليه بأن يعود إلى عمله، واستمر في وقوفك الواثق.

ز- تجنب العجلة والارتباك في حركتك.

١٣- روعة الإشارات:

في أغلب الأحيان ترى المعلمين يتكلمون كثيرًا ولكن الطلاب لا يلقون بالًا لكثير مما يقولون! لذا أنصحك أن تقلل الكلام وتوفر الجهد من خلال اتخاذ مجموعة بسيطة من الإشارات.

وإليك أمثلة اختبرتها بنفسي ونفعتني:

أ- ارفع إحدى يديك عاليًا، وضع سبابة اليد الأخرى على فمك لبعض الوقت في بداية الدرس، أو كلما أردت أن يصغي الطلاب إليك، وستجد أنها طريقة جيدة لجذب انتباههم دونما الحاجة إلى الصراخ.

ب- إذا كان أحد الطلاب منشغلًا عن أداء ما كلفته به، فنبهه إلى ذلك بأن تشير بإصبعك إلى كتابه.

ت- يمكنك كتابة التعليمات على السبورة، خاصة في بداية الدرس؛ مثل: اكتب العنوان، انسخ الجملة على دفترك.

وهناك العديد من الأمثلة ولكن المهم فيها جميعًا:

- أن تستمر عليها.

- أن تجعل إشاراتك الصامتة واضحة وبسيطة.

- عندما تداوم على استعمالها سيعتاد الطلاب عليها ويتجاوبون معها.

وهذا يكفيك فيه أن تريح صوتك من الصراخ.

١٤ - تنمية (النظرة):

للنظرة أهمية خاصة للمعلم، ومن المفيد أن تدرب نفسك عليها مسبقًا، والنظرة أساسًا طريقة لتُري الطلاب- من غير كلام- أنك غير راضٍ عما يجري.

وإذا استعملتها بالشكل والوقت المناسب، فإنها ستؤدي دورًا رائعًا، ولكن لا تكثر منها.

ولنضرب مثالًا على ذلك:

إذا قاطعك أحد الطلاب، توقف ولو في وسط الجملة، وحدق به.

ولكن عليك أن تنتبه أن تكون النظرة لمدة محددة؛ لأنها إذا زادت ستجر تعليقات سيئة، وإذا قصرت لن يكون لها تأثير قوي مؤثر.

وكطريقة للتوقيت قل في نفسك عندما تنظر إلى أحدهم: «مئة ألف وواحد، مئة ألف واثنان، مئة ألف وثلاثة»، وبعد ذلك أبعد نظرك وتابع شرحك، وأضمنُ لك أنك ستجد هذه الطريقة قوية التأثير.

١٥ - كن مهذبا تكن قويا[١]:

إذا أساء الطلاب الأدب معك فعليك أن تبقى مهذبًا وهادئًا وتحسن الرد عليهم[٢].

---

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب) رواه البخاري ومسلم، أي ليس القوي هو الذي يصرع الناس كثيرا بقوته ويغلبهم، وإنما الذي يغضب فيشتد غضبه ولكنه يصرع غضبه.

(٢) لا تجاريه في أسلوبه غير المؤدب؛ لأن ذلك سيجعله يتمادى، ومهما نزلت لمستوى متدنٍّ في عباراتك،=

فبهذه الطريقة أنت تذكرهم باستمرار بـ«لكوني مؤدبًا معكم، أريدكم أن تكونوا مؤدبين معي».

فإذا التزمت بهذا المستوى، فستمتص انفعالاتهم بأدبك وسيحترمونك على ذلك.

١٦ - قوة الثبات والاستمرارية:

إن الثبات ضروري جدًّا، حتى يعلموا أنك حقًّا تعني ما تقول.

وجوهر هذه الطريقة هو أن تحدد المعايير والحدود التي من الممكن الالتزام بها، فكن واقعيًّا في تحديد الأهداف، ولا تبالغ في الواجبات، ولا تكثر من العقوبات... وارسم حدودًا معقولة، ولكن تأكد من أنك تستطيع أن تلتزم بها.

فإذا كنت ثابتًا على منهجك، سيعرف الطلاب ذلك، وهذا ما سيبني ثقة طويلة الأمد بينكم، وسيساعد كثيرًا على إدارة الصف.

١٧ - كن لطيفًا:

عندما تجد نفسك في مواجهة الطلاب المشاكسين ستغضب، وخصوصًا إذا رأيت درسك الذي أعددته ينهار.

ضع منبهًا ذهنيًّا تكرره في نفسك ككلمة «لطيف»[1] مثلاً؛ لكي تذكرك في وقت الحاجة لكي تكون لطيفًا وثابتًا على منهجك.

ومهما جرى لا تنفعل، ولا تخرج عن طورك؛ لأنك إن فعلت فإن الطلاب «خبراء في إزعاج المعلمين» سيتمسكون بذلك ويلاحقونك كضبع يتسلل خلف أسد جريح.

تظاهر بالهدوء وقل كلمات تدل على الثقة؛ مثل: «حسنا! أرى معظمكم يعمل بشكل جيد. أما بالنسبة لكم أنتم هناك، فابذلوا مزيدًا من الجهد».

مثل هذه العبارات تعطي رسائل قوية بأنك واثق وتسيطر على الأمور.

كن لطيفًا وثابتًا، وستكسب في النهاية.

= فأنت الخاسر؛ باعتبارك المعلم المحترم القدوة، وهذا المشاكس هو الذي أنزلك.

(١) أو «لا تغضب».

١٨ - أسلوب (صرف الانتباه):

قد يجرك بعض المشاكسين إلى جدال لا طائل منه، وقد يحاول أن يحصل على دعم من زملائه.

وهنا ستكون المواجهة المتزنة بأن تغير مسار انتباه الطلاب، بإقرار الطالب وتحويل الانتباه مباشرة لما كانوا يقومون به، أو تحول الانتباه إلى ما يقوم به طالب آخر.

وبهذا لا تتجاهل الطالب المشاغب، وفي الوقت ذاته لا تقع في فخ الجدال المشوش على سير الدرس، وتبقي السلوك الصفي في مساره الصحيح.

١٩ - ردود أفعالك:

من المفيد أن تفكر مسبقًا في ردود أفعالك التي ستتخذها تجاه المشكلات التي تتوقع حدوثها، أو على الأقل المشكلات الشائعة؛ مثل:

تأخر الطلاب، والكلام أثناء الدرس، وعدم كتابة الواجب، وعدم إحضار القلم والدفتر...

تخطيطك مسبقًا للاستجابة المناسبة سيمنحك الثقة واليقظة والحنكة.

سجل تصرفاتك الناجحة لتساعدك في المستقبل.

٢٠ - حكمة التفكير مرتين:

قد تتفوه في لحظة إرهاق وضيق بتعليق بسيط لم تفكر في نتيجته، فتدمر كل ما كنت تسعى لبنائه. زلة لسان سهلة قد تسبب لك الكثير من المتاعب؛ إذ لن تعدم وجود طالب يستغل الموقف فيجعل من الحبة قبة فتحدث الفوضى.

الحل: تعود على التفكير بنتيجة ما ستقول، قبل أن تقول ذلك فعلًا.

إن من البديهي أن نفعل ذلك، إلا أنه من الغريب أن ينسى المعلمون ذلك.

٢١ - عبارات سحرية:

إليك بعض العبارات الممتازة التي استعملتها مع الطلاب المشاكسين:

- لجذب الانتباه، أمسك شيئًا وقل: هل يستطيع أحدكم أن يقول لي ما هذا؟

- إذا أردت تحذيرهم من عقوبةٍ ما، فقل: حسنًا، أنا لا أرغب عادة في عمل ذلك ولكنكم لم تتركوا أمامي خيارًا آخر.

- لجذب المزيد من الطلاب للإجابة قل: هيا! ماذا دهاكم؟! فقط ثلاثة طلاب يعرفون الجواب؟ بالتأكيد لا. هيا، أريد المزيد.

- لتخفيف الضجيج قل: اخفضوا أصواتكم: خمسة، أربعة، ثلاثة، اثنان، واحد.

الفصل الثالث: كيف تبقي الأمور في مسارها الصحيح داخل الصف؟

٢٢ - ارفع من معنويات الطلاب:

اذكر في بداية الدرس النقاط الإيجابية للدرس السابق.

كأن تثني على طالب على وصوله المبكر دائمًا، أو قلة حركته، أو حسن تأديته لواجباته... كما تبرز سعادتك بذلك، وهذا يرفع المعنويات، ويكون علاقة جيدة، ويشعرهم بالاهتمام...

٢٣ - كيف تجعل بداية الدرس رائعة؟

قد يكون من الصعب أن تبدأ الدرس بداية موفقة، توقظ الرغبة فيهم للبدء بالدرس. فكم من المعلمين يبدأ درسه بتأوه، بل قد رأيت من المعلمين من يبدأ درسه بكتابة أسماء الطلاب المعاقبين على السبورة، وهذا خطأ كبير. ولكن هناك طريقة ممتازة وهي تذكيرهم بالأشياء الجيدة التي قاموا بها في الدرس السابق.

وما إن يستلموا منك الرسالة المحفزة حتى يصبح بإمكانك أن تبدأ درسك مباشرة.

٢٤ - استعمال بطاقات توضيحية كبيرة:

كتابة إجابات قصيرة عبارة عن كلمة أو كلمتين على بطاقات بقياس ورق التصوير، وتوزع على الطلاب، ثم تسألهم مناسبة لما معهم من إجابات على أن يرفع الطالب الإجابة الصحيحة عاليًا.

من محاسنها أنها تثير دافعية التعلم، وتستقطب التركيز، وسهلة بالنسبة إليهم،

ومحسوسة، وصامتة.

٢٥- كيفية إعطاء الواجبات وجمعها:

توزيع الدفاتر وجمعها عملٌ بسيط لكنه قد يسبب الفوضى في الصف، وقد يكون انشغالك أو بإدارة ظهرك سببًا لحدوث المشاكل. ولكن اعمل نظامًا تعاونيًّا بحيث يتولى ذلك مجموعة من الطلاب، بحيث ترشح طالبًا يجمع الرتل الذي يشرف عليه. وقبل الجمع تأكد من وضعهم للأقلام، ومن كفاية الوقت قبل ضرب الجرس...

٢٦- الثلاثة السحرية:

بدلًا من أن يقوم الصف كله بعمل تدريب أو نشاط واحد، قدم لهم عدة خيارات على ألا تتجاوز ثلاثة خيارات، حتى لا يؤدي إلى حالة من التشتت والفوضى.

لقد وجدت من خلال خبرتي، حب الطلاب للعمل، عندما تمنحهم الخيارات، ولعل ذلك مرده لشعورهم بالاستقلالية.

٢٧- جمال أسئلة الاختيار المتعدد:

من الصعب أحيانًا جعل الطلاب يبدؤون بالعمل، وهذا أحد أهم أسباب سلبيتهم.

عندما تكون الأنشطة المطلوبة منهم صعبة جدًّا أو سهلة جدًّا، ينتشر الرفض المبدئي؛ فيصاب المعلم بالإحباط.

ابدأ بورقة عمل تعتمد على الاختيار ثم الكتابة، وهكذا تستطيع أن تعطيهم أنشطة أصعب وأدق.

٢٨- المزيد من المساعدة لك ولطلابك:

إذا وجدت أن بعض الطلاب يعاني من صعوبة في البدء بالحل، فساعدهم بورقة عمل إضافية تقسم السؤال إلى جزئيات، وإذا لزم الأمر ضع مثالًا محلولًا يساعده على البدء.

لا يضق صدرك عن بذل بعض الوقت في تحضير أوراق العمل المحببة للطلاب،

وأعطهم الأوراق الداعمة، ولكن لا تعطهم بسهولة، وإلا صار الكل يريد ذلك.

وهذا يخلصك من التجول بين الطلاب لتقديم المساعدة، وعند استعمالها بعناية ستكون بمثابة معلم مساعد في الصف.

٢٩- استخدام الوسائل السمعية:

سجل مقطعًا من القراءة مثلًا على شريط لمدة خمس دقائق، وفي الوقت ذلك حضر نسخة مكتوبة للنص، واطلب منهم متابعة القراءة وهم يستمعون.

مثل هذا التغيير يثير الاهتمام، ويعطي فرصة للمراقبة والتوجيه الصامت.

وكذلك الأمر مع الوسائل المرئية، والطلاب يحبون هذه الوسائل، فإن مثل هذا الدرس سيجد مكانه الثابت في ذاكرة الطلاب.

٣٠- الدرس المستقل بذاته:

يرغب بعض المعلمين في إعطاء درس جديد بعد الدرس السابق في نفس الحصة، إما لانتهاء الدرس الأول في وقت قصير أو غير هذا.

وهذا قد يسبب بعض المشكلات؛ كعدم توفر وسائل الدرس الجديد، أو عدم اكتمال كتابة الدرس السابق، أو استنفاد الدافعية.

والحل هو إعطاء درس مستقل في كل حصة، مع تضمين بعض التمارين التي تربط الدرس الحالي بالدروس السابقة، وبهذا تفيد من فاتهم الدرس، وتعطي فرصة للمتحمسين للمراجعة.

٣١- أنشطة التجسير:

الانتقال من نشاط إلى آخر في الدرس قد يسبب بعض المشكلات؛ فالبعض يريد الاستمرار.

إلا أن هناك طريقة جيدة للانتقال باستخدام نشاط «مجسر».

اطلب من الطلاب أن يخرج إليك أحد المتطوعين، يذكر ثلاث أفكار رئيسة عن الموضوع السابق، فإذا تلعثم الطالب وتوقف، فاطلب من آخر أن يساعده، أو ساعده

بنفسك، وبهذه الطريقة تختم العمل السابق، ثم قدم الفقرة الجديدة.

٣٢- كيف تغير الأنشطة؟

وهي ربط للفكرة السابقة، وهي أن يعتاد الطلاب على إشارة واضحة ومرتبة ومنظمة، كتنبيه بالتوقف والانتقال للعمل الآخر، وذلك بالعبارة المحفزة أو بوسيلة بارزة أمامهم... فيعتاد الطلاب من خلالها على الانتقال من نشاط لآخر بسهولة، وهذا يزيد مستوى الكفاءة ويخفف الضغط.

٣٣- الاستراحة الرائعة:

من الجيد أن تعطي الطلاب استراحة، ولكن لا تكثر منها حتى لا ينتظروها منك كل حصة. فإذا قام الطلاب بأداء عملهم بشكل جيد، فقل: «أحسنتم اليوم»، وأعطهم ثلاث دقائق ليتحدثوا بهدوء فيما بينهم.

حينما تقوم بالإعداد للفقرة التالية، وحالما ينتهي الوقت أعطهم إشارة واضحة بالعودة للدرس، وسيقدر الطلاب مساعدتهم فيتعاونون معك.

ولتكن الاستراحة بشرطين:

أ- ألا يزيد الضجيج عن الحد المعقول.

ب- أن ينتبه الطلاب إليك عندما تبدأ الفقرة التالية.

٣٤- التأني في إعطاء الدرس:

من مشكلات المعلمين الشائعة سرعة إعطائهم الدرس استجابة لرغبة الطلاب؛ ولذلك سلبيات مثل: الإرهاق، وخفض مستوى الجودة؛ ولذا يجب على المعلم التأكد من عدم التسرع في إعطاء الدرس، والاتزان في القيام بالأعمال، وعدم المقاطعة عند مساعدة أحد الطلاب، وإقناع الطلاب بأنك لا تستطيع القيام بعدة أعمال في وقت واحد.

٣٥- التعزيز المرئي:

من الأفكار الجيدة لتغيير السلوك، أن تقوم بتعليق لوحات توضيحية، فمثلًا إذا نادى طالب بصوت عالٍ، وتكلم من دون استئذان، فتشير إلى لوحة (رفع اليد قبل التكلم).

وهنا نكتفي بهذه الأفكار، ولكن سنورد الفكرتين (٦١) و(٩٠) وسأنقلهما بالنص، ثم أذكر باقي عناوين الأفكار:

٦١- نقل طالب من مكانه:

لا بد أنك لاحظت أن نقل طالب من مكانه قد يسبب بعض المشكلات؛ فقد تطلب من أحد الطلاب أن يغير مكانه فيرفض، فماذا تفعل؟ لاسيما أن الصف كله يراقب الموقف، ترى هل تتورط في جدال معه؟ و على الأغلب ستكون أنت الخاسر في النهاية.

أولًا قبل كل شيء، ارجع إلى فقرة «القواعد الذهبية لخطة توزيع جلوس الطلاب» (الفكرة رقم ٨٦).

وإليك ما تفعل في مثل هذه الحالة: احرص أولًا على توجيه عدة تحذيرات للطالب، فإذا استمر في تجاهل طلبك، فاتجه إلى المقعد الذي تريده أن يجلس فيه واسحب الكرسي بعيدًا عن الطاولة، ثم اذهب حيث يجلس ومد يدك المفتوحة إليه (على بعد نصف متر تقريبًا) بينما تشير بيدك الأخرى إلى المقعد الآخر، وكرر طلبك مرة أخرى، ثم انتظر، ولا تنس أن تحافظ على هدوئك.

وفي هذه اللحظة قد يبدأ الطالب بمجادلتك، ولكن وبكل بساطة أعد طلبك، ولكن في هذه المرة أضف قائلا: «أنا أحاول أن أكمل درسي وأنت تعيقني عن ذلك، أنا بانتظار استجابتك!» حافظ على هدوئك، وتكلم بصوت منخفض وحازم، وإذا لم يزل الطالب جالسًا في مكانه كرر طلبك مرة أخرى. ومن المدهش كم من الطلاب يستجيبون فعلًا عند هذه المرحلة؛ إذ ثمة ضغط نفسي قوي على الطالب عند هذه النقطة، وفي حالات نادرة يرفض الطالب أن يتحرك من مكانه بعد كل ذلك. عندئذ قل: «حسنًا، لن أضيع وقتًا أكثر من ذلك معك، يجب أن أتابع الدرس من أجل زملائك، وسيكون لي معك شأن آخر في نهاية الحصة»، ثم تابع درسك. ولكن احرص على رؤية الطالب في نهاية الحصة وفرض عقوبة مناسبة عليه؛ كحرمانه من حضور الدرس القادم مثلًا.

٦٢- تذكير الطلاب بأسباب السلوك الجيد:

لماذا يجب أن تكون المدرسة ساحة معركة بين المدرسين والطلاب؟ لم لا تكون

ساحة عمل مشترك يتعاون فيها المدرسون والطلاب على تحقيق هدف معين؟ إنها الفلسفة الخفية التي تقبع تحت أفكار هذا الكتاب.

والفكرة الجيدة هنا هي أن تذكر الطلاب باستمرار بالأسباب التي من أجلها يجب عليهم أن يلتزموا بقوانين المدرسة.

فهذا يساعدهم على الالتزام بها عندما يدركوا أهميتها، وهذا أفضل من مجرد إعطائهم الأوامر دون شرح الأسباب، كما أنه يجعلهم يشعرون أنك حقًّا تقف في صفهم.

وإليك بقية الأفكار:

٣٦- جدول متابعة السلوك.

٣٧- ملفات الإنجاز.

٣٨- إدارة النقاش.

٣٩- التذكير برفع الأيدي.

٤٠- وقت التعليمات.

٤١- توجيه الأسئلة للصف.

٤٢- كيف تتعامل مع الإجابة الخاطئة؟

٤٣- طريقة بديلة عن توجيه الأسئلة.

٤٤- الاستفادة من الأفكار الجيدة في المواد الأخرى.

٤٥- منع المشاجرات.

٤٦- ماذا تفعل بعد درس سيئ؟

٤٧- إعادة دمج رؤوس الشغب في الصف.

٤٨- إدارة الامتحانات.

٤٩- كيف تجعل طلابك يكتبون واجباتهم؟

٥٠- ضع واجبات مسلية.

٥١- التصحيح.

٥٢- التحكم في نهاية الدرس.

الفصل الرابع: معالجة المشكلات الشائعة:

٥٣- مساعدة الحالات الفردية.

٥٤- الحصول على الدعم.

٥٥- استراتيجية العين العمياء.

٥٦- السلوك السيئ الخفي.

٥٧- التنمر داخل الصف.

٥٨- القاعدة الذهبية للاختلاف في الرأي.

٥٩- كيف تتفادى خطر (الغرباء)؟

٦٠- سحر (المساومة).

٦١- نقل طالب من مكانه.

٦٣- الزي الموحد.

٦٣- الهاتف الجوال.

٦٤- التغلب على سآمة الروتين.

٦٥- (ليس لدي قلم!).

٦٦- (لقد قمنا بذلك من قبل).

٦٧- (أشعر بتوعك).

٦٨- الكلام عن مدرس آخر.

٦٩- تعلق المراهق.

٧٠- تعليقات مسيئة في الشارع.

الفصل الخامس: إصدار المكافآت والعقوبات:

٧١- عقوبة الاحتجاز في المدرسة بعد انتهاء الدوام.

٧٢- استهداف رؤوس الشغب.

٧٣- سلم العواقب.

٧٤- مدح الطلاب.

٧٥- السحب على جائزة.

٧٦- العقوبة المناسبة.

٧٧- الفصل بين الطالب وبين سلوكه.

٧٨- إعطاء الجوائز.

٧٩- الترفيه بالفيديو.

الفصل السادس: وعلى نطاق أوسع...

٨٠- إنشاء نادٍ بعد المدرسة.

٨١- المدرس المساعد.

٨٢- ضيف في الدرس!

٨٣- الاتصال بولي الأمر.

٨٤- توثيق الاتفاق مع ولي الأمر.

٨٥- هيكلة الصف.

٨٦- القواعد الذهبية لمخططات الجلوس.

٨٧- إبقاء الطلاب في مقاعدهم.

٨٨- القاعدة الذهبية لنقل مجموعة.

٨٩- الانفراد بأحد الطلاب.

٩٠- تذكير الطلاب بأسباب السلوك الجيد.

الفصل السابع: كيف تدير نفسك؟

٩١- الجدولان.

٩٢- أولويات.

٩٣- الاسترخاء.

٩٤- التمارين الرياضية.

٩٥- أمسيتك.

٩٦- كيف تصبح تلميذًا من جديد؟

٩٧- خفف من سرعة وتيرتك.

٩٨- أصدقاؤك.

٩٩- حمام دافئ.

١٠٠- سجل بسيط لأداء الأعمال.

وبهذا ينتهي الكتاب والحمد لله.

* * *

النظام:

كان العرب قبل الإسلام ينقصهم حسن التنظيم وليس لهم حضارة، فهم يعيشون في جاهلية متخلفين عن كثير من الأمم، ولكن عندما جاء الإسلام، انقلب الحال؛ فصاروا خير الأمم وأحسنها؛ إذ علمهم كيف يقفون في صف واحد، ورباهم على النظام ودقة الوقت، والمحافظة على المواعيد، حتى صار إخلاف الوعد من علامات النفاق العملي الذي ذمه صلى الله عليه وسلم.

وهكذا رباهم الإسلام على النظام والانضباط والمحافظة عليه، والأدلة على ذلك كثيرة جدًّا، ولكن سنستدل في هذه المرة بأقوال أعداء الإسلام ليتبين من ذلك أمران؛ هما:

١ - أن النظام له أهمية كبيرة.

٢ - أن المحافظة على النظام من شعائر الإسلام.

قائدان من أخطر القادة الذين حاربوا المسلمين: القائد الأول: (رستم)[١]، والقائد الثاني: (موشي ديان)[٢].

أما الأول وهو: (رستم)، فإنه أراد أن يعرف حال المسلمين قبل المعركة، فنظر إلى المسلمين وهم يؤدون الصلاة، فرأى المسلمين يصفون في صفوفًا متراصة خلف إمام واحد، ولاحظ حركتهم المنظمة خلف الإمام، فإذا كبر كبروا، وإذا ركع ركعوا، وإذا سجد سجدوا، مع أن عددهم بالآلاف.

وقارن رستم حالتهم هذه بحالة العرب المتخلفة قبل الإسلام[٣]، وعند ذلك عض

---

(١) الذي قاد جيوش الكفر لمحاربة المسلمين في معركة القادسية، وكان على قيادة الجيوش الإسلامية الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص، وكان حاكم المسلمين هو عمر بن الخطاب؛ رضي الله عنهما.

(٢) وزير الحرب الإسرائيلي الذي قاد جيوش الكفر في معركة سبعة وستين (١٩٦٧م) والذي انهزمت فيها الكثير من الجيوش العربية.

(٣) لا يخفى على العاقل الدرجة التي وصلوا لها من التخلف والضلال والضياع والهمجية، مثل: عبادة الأحجار، وقتل الأولاد، ووأد البنات، والإساءة إلى الجار، والاستقواء على الضعيف، وأكل حقوقه، والعنصرية، والتفاخر (مع التذلل لكسرى وقيصر)، والتعصب القبلي، وأكل الميتة، وشرب الدم. =

رستم على أصابعه وقال قولته المشهورة: «لقد علم محمد الكلاب الأدب»[١].

وأما الثاني وهو: (موشي ديان)، فإنه يعرف حالة العرب المتخلفة، لهذا بعد أن انتصر على العرب، أجاب على من سأله عن رد فعل العرب، فقال ساخرًا ومستخفًّا بهم: «لن نحسب للعرب حسابًا إلا إذا تعلموا كيفية الوقوف في الصف بنظام لركوب الباصات»، يقول ذلك الكلام وهو في قمة فخره بالنصر وفي قمة احتقاره للعرب.

= ومن خير من يصف الحالين، حال الجاهلية وحال الإسلام: جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، عندما قال للنجاشي ملك الحبشة: «أيها الملك، كنا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف؛ حتى بعث الله إلينا رسولًا منا نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا لتوحيد الله وألا نشرك به شيئًا، ونخلع ما كنا نعبد من الأصنام، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وأمرنا بالصلاة والصيام....» وعدد عليه أمور الإسلام، وقال جعفر: «فآمنا به، وصدقناه، وحرمنا ما حرم علينا، وحللنا ما أحل لنا...» صححه الألباني.

ويقول المستشرق والمؤرخ الفرنسي رينيه غروسيه صاحب كتابي (الحروب الصليبية)، و(مدنيات من الشرق) في مؤلفه الأخير: «كان محمد لما قام بهذه الدعوة شابًّا كريمًا نجدًا، ملآن حماسة لكل قضية شريفة، وكان أرفع جدًّا من الوسط الذي يعيش فيه، وقد كان العرب يوم دعاهم إلى الله منغمسين في الوثنية، وعبادة الحجارة، فعزم على نقلهم من تلك الوثنية إلى التوحيد الخالص البحت، وكانوا يهتفون بالفوضى، وقتال بعضهم بعضًا فأراد أن تؤسس لهم حكومة ديمقراطية موحدة، وكانت لهم عادات وحشية همجية صرفة، فأراد أن يلطف أخلاقهم، ويهذب من خشونتهم» انتهى كتاب "الرسول في الدراسات الاستشراقية المنصفة" لمحمد شريف الشيباني.

وقال المستشرق جوزيف هيل يقول في كتابه الحضارة العربية): «لقد أخرج محمد للوجود أمة، ومكن لعبادة الله في الأرض، ووضع أسس العدالة والمساواة الاجتماعية، وأحل النظام والتناسق والطاعة والعزة في أقوام لا تعرف غير الفوضى». انتهى.

(١) يروى أن رجلاً إيطاليًّا أسلم وذكر أن سبب إسلامه أنه رأى في إحدى الساحات في إيطاليا مجموعة كبيرة من المسلمين اصطفوا للصلاة، وعلل ذلك قائلا: إني قائد لمجموعة من الجنود وإني أجد صعوبة ووقتًا طويلًا في تنظيمهم لكي يصطفوا، وهؤلاء المسلمين في وقت قصير وبسهولة كونوا صفًا منظمًا، إن هذا لا يصدر إلا من دين عظيم من عند الله سبحانه وتعالى، وكذلك حدثت حالة مشابهة لتلك الحالة مع ضابط روسي.

بل إن مجموعة من الخبراء العالميين المتخصصين في توجيه المجموعات والحشود البشرية، عندما درسوا الفوضى في تحركات الحجاج حول الحرم، لاحظوا حركة المصلين تغيرت عندما حان وقت الصلاة، فتعجبوا من سرعة وسهولة وانتظام المصلين في صفوف مرتبة وبطريقة منظمة.

وهذا التدهور في دركات التخلف لاحظه العالم المؤرخ ابن خلدون في مقدمته، وبين المراحل التي مرت بالعرب؛ وهي: التخلف قبل الإسلام، ثم رقيهم بالإسلام على جميع الأمم، ثم التدهور بَعد بُعدهم عن الإسلام.

وسأنقل ما قال ولكن بترتيب واختصار:

المرحلة الأولى: مرحلة الفوضى والتخلف:

بين سبب التخلف فقال في الفصل الثامن والعشرين: «والسبب في ذلك أنهم أكثر بداوة من سائر الأمم وأبعد مجالًا في القفر...» وذكر مظاهر التخلف القائم على الفوضى وأنهم يفسدون أنفسهم وكذلك يفسدون الأمم الأخرى، ثم قال بعد ذلك: «فتبقى تلك الأمة كأنها فوضى، مستطيلة أيدي بعضها على بعض، فلا يستقيم لها عمران، وتخرب سريعًا؛ شأن الفوضى كما قدمنا».

المرحلة الثانية: مرحلة الانتقال من حالة التخلف والفوضى إلى الحالة الراقية المنظمة:

ثم بين أن انتقال العرب من حال التخلف والفوضى إلى حالة الرقي والتنظيم، يرجع إلى تمسكهم بالإسلام، بل بين حال الانتقال إلى مرحلة الرقي فقال: «وإنما يصيرون إليها بعد انقلاب طباعهم، وتبدلها بصبغة دينية تمحو ذلك منهم، وتجعل الوازع لهم من أنفسهم، وتحملهم على دفاع الناس بعضهم عن بعض كما ذكرناه. واعتبر ذلك بدولتهم في الملة لما شدد لهم الدين أمر السياسة بالشريعة وأحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهرًا وباطنًا، وتتابع فيها الخلفاء، عظم حينئذ ملكهم وقوي سلطانهم.

كان رستم إذا رأى المسلمين يجتمعون للصلاة يقول: أكل عمرُ كبدي؛ يعلم الكلاب الآداب».

المرحلة الثالثة: مرحلة العودة إلى الفوضى والتخلف:

ثم بين هذا العالِم عودة العرب إلى تخلفهم (كما كانوا) وذلك بسبب بعدهم عن المدرسة النبوية، فقال: «ثم إنهم بعد ذلك انقطعت منهم عن الدولة أجيال نبذوا الدين، فنسوا السياسة، ورجعوا إلى قفرهم، وجهلوا شأن عصبيتهم مع أهل الدولة ببعدهم

عن الانقياد وإعطاء النصفة، فتوحشوا كما كانوا» انتهى[١].

ولما للنظام من أهمية بالغة في إصلاح المجتمع بشكل عام والطلاب بشكل خاص، سنذكر ثلاث صور تبين أهميته:

الصورة الأولى:

في دولة من الدول الأوروبية وفي مواقف أحد المساجد الكبيرة التي تقام فيها صلاة الجمعة، يسمح المسؤول القائم بتنظيم السير للمسلمين الذين يصلون بإيقاف سياراتهم في المواقف كيفما شاؤوا، فلا يطبق عليهم النظام لمدة أربع ساعات، ساعتان قبل الصلاة وساعتان بعدها.

ويعلل ذلك السماح للمسلمين بقوله: بما أنكم أيها المسلمون لكم وضع خاص (فوضويون) فلذلك سنمنحكم هذا الوقت ولن نطبق عليكم النظام وسنعفيكم من المخالفات، ولكن بعد الأربع ساعات سيعود المكان مرتبًا كما كان قبل ذلك الوقت.

وهنا نسأل عن هذه الحال وعن تصرف هذا المسؤول في مراعاة ظروف المسلمين وعدم إعطائهم المخالفات بسبب وقوفهم غير المنظم:

١- هل هذا التصرف مناسب؟

٢- هل هذا التصرف ينم عن استهتار؟

٣- هل هذا التصرف حث لهم على التمادي في ذلك، وجعل السكان يرون كل يوم جمعة، صورة من صور التخلف عند المسلمين من خلال هذه الفوضى؟

٤- لو كنت تمثل المسلمين، هل ستشكر هذا المسؤول، أم ستطلب منه مخالفة المخطئ، وتعليمه النظام؟

---

(١) مقدمة ابن خلدون. انظر إلى هذا العالم الكبير الذي عرف أن التطور والرقي مرتبط بالتمسك بالإسلام، وأن في تركه عودة إلى التخلف والفوضى، وقارنه بطرفي النقيض من المتخلفين الذين يتشدقون بكلام يزيد الأمة في تخلفها، وهم: الأول: ينكر التخلف ويرى أن ما يعمله هو الصحيح! الثاني: يقر بالتخلف ولكن يرى أن الباعث من هذا التخلف يرجع إلى التمسك بالعروبة!

٥- هل هذه المناظر منتشرة في عالمنا الإسلامي؟

٦- وأخيرًا هل هذا من تعاليم الإسلام؟

ولكن سأجيب عن السؤال الأخير لكي نبين أن الإسلام لا يدعو إلى الفوضى، بل العكس؛ إذ هو يدعو إلى النظام، وسنستدل بحديث واحد يخص هذا الموقف، لنعرف مدى الدقة الباهرة في الالتزام بالنظام، ولن يكون الدليل في الوقوف للصلاة وإيذاء الغير، بل سيكون في تنظيم المشي إلى الصلاة، ولو كان ذلك على حساب التأخر عن الصلاة، مع أنها أهم أركان الإسلام بعد الشهادتين:

قال صلى الله عليه وسلم: «إِذَا سَمِعْتُمُ الإِقَامَةَ فَامْشُوا إلى الصَّلاةِ، وَعَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ وَالوَقَارِ، وَلا تُسْرِعُوا، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا»(١).

وليست السكينة في الكسل والتهاوت، وإنما السكينة في طمأنينة القلب واستقراره.

الصورة الثانية:

مكتبة منظمة: تحتاج لبعض الجهد عندما تريد وضع كتاب في مكانه، ولكنك عندما تريده ستأخذه بكل سهولة.

مكتبه غير منظمة: لا تحتاج لجهد عندما تريد وضع كتاب، بل ضعه في أي مكان، ولكن ستحتاج لجهود كبيرة وأوقات طويلة لكي تجد هذا الكتاب.

الصورة الثالثة:

القيادة المرورية: (القيادة فن وذوق وأخلاق)، كثيرًا ما نسمع هذه العبارة أو نقرؤها، ولكن التطبيق قليل، وهذا راجع إلى أسباب يطول شرحها، ولكن من أهمها عدم التربية على الالتزام بالنظام والتعود عليه؛ فعند الالتزام به يحصل تحسن في أمور كثيرة؛ لأنه يساعد في تقليل الازدحام، ويقلل الحوادث، ويريح الأعصاب، ويصبح درسًا مستمرًّا ومتكررًا للجميع في الحرص على اتباع النظام، ويحفظ حقوق الجميع... وكذلك الحال في المصانع والمزارع والمعامل والمختبرات.

---

(١) صحيح البخاري.

شمول النظام:

والنظام كلمة عامة تشمل أمورًا كثيرة؛ مثل: التفكير، والمواعيد، وتنظيم الأعمال، وتنظيم الوقت، وأدب الحديث، والنقاش، وأوقات الكلام، والسكوت، والمشي، وصعود الدرج، والنزول منه[١]، والتنقل، والدخول والخروج، وحل الواجبات المدرسية، وتصحيحها، ورمي الأوراق والنفايات في سلة المهملات...

ولو تكلمنا عن مظاهر الفوضى بالنسبة للطلاب والمعلمين، ثم عن مظاهرها في المجتمع، لطال الحديث، ولتبين عظم الأثر الذي يتركه النظام بالنسبة لوجوده أو عدمه؛ لأن المحافظة على النظام لا تبدأ من الخروج من المنزل، بل من القيام من النوم إن لم يكن في طريقة النوم الصحيحة.

النظام شعور قبل أن يكون شعارًا:

إن النظام ليس كلمة تقال أو شعارًا يرفع، بل هو منهج حياة يؤمن به الإنسان ويعمل به، بل ويلتزم به في جميع أموره الصغيرة والكبيرة، حتى يتشرب ذلك شعوريًّا ولاشعوريًّا، وسأذكر مشهدين (حقيقيين) يبينان مدى الأهمية في صدق الالتزام بالنظام:

المشهد الأول:

معلم يطلب من الطلاب ألا يرموا القمامة على الأرض، وأن يضعوها في سلة المهملات ويكرر ذلك التوجيه، ومع ذلك لا فائدة، ولكن أحد الطلاب همس في أذنه قائلًا: لا تتعب نفسك يا أستاذ، فلن يستمع إليك أحد، فتساءل المعلم متعجبا: لماذا؟!

فقال الطالب: لأنك لم تلتزم بذلك، انظر إلى هذا المنديل الذي رميته على الأرض!

وعندها عرف المعلم من هو غير المنظم!

المشهد الثاني:

أب يشتكي لصديقه فيقول: إن أبنائي مشاغبون ويفسدون أثاث المنْزل ويعملون

---

(١) بحيث يلتزم الذين يصعدون بالجانب الأيمن، ويلتزم من ينزلون بالجانب الأيسر، وكذلك الحال بالنسبة لمن يمشي في الطريق.

ويعملون...

ولكن هذا الصديق بادر الأب قائلا: إن أبناءك يستلهمون ذلك منك، فتعجب الأب قائلًا: كيف ذلك؟!

قال الصديق: طوال حديثك معي وأنا ألاحظ هذا المفتاح الذي في يدك لم يتوقف عن العبث وإفساد قماش الكرسي الذي تجلس عليه!

وبهذا يتبين أنك الأولى والأحوج إلى تنظيم أفعالك وتهذيبها.

تحذير:

ينبغي الحذر من أن يستخدم النظام بشكل سيئ أو منفر أو مخادع، كما في كثير من المجتمعات المتخلفة؛ لذلك ينبغي أن يراعى فيه أمور كثيرة؛ مثل:

أ- الحرص على أن يكون النظام سهلًا وسلسًا ومدروسًا ومقنعًا...، بعيدًا عن المشقة والتعقيد والارتجالية والعنجهية....

ب- ألا يستخدم النظام وسيلة للفساد؛ كالتعجيز من أجل مآرب أخرى؛ مثل الابتزاز أو لمنع البعض وتمرير البعض الآخر...

ت- الحرص على أن يكون النظام منظمًا ومنظمًا، وليس فوضى منظمة أو تنظيمًا فوضويًا، بحيث يستغل الضعيف ويظلم، كما يفعل مع الطلاب بحيث يصبح هذا النظام شريعة غابة أو غابة من الشرائع.

ج- وأخيرا ألا يكون تعليم النظام وحل المشاكل بالعقوبات والقسوة والعنف، حيث يرى كثير من المعلمين وغيرهم أن العقوبات هي الوسيلة الوحيدة لتعليم النظام وحل المشكلات التي تقابلهم في الحياة بشكل عام، وليس في التعليم فقط.

لهذا إذا استمعت كلام العامة، عند مناقشة مشاكل المرور أو البلدية أو الأمن...، فإنك ستلاحظ أن آراءهم للحل تتركز على العقاب فقط، ولكن قد يختلفون على نوع العقاب، هل هو الغرامة المالية، أو السجن أو بهما معًا.

مع أن هناك طرقًا متعددة لحل المشاكل أهمها معالجة أسبابها، والتثقيف بمضارها

والإقلاع عنها، ومثال بسيط على ذلك، البصق ورمي القمامة في الأماكن العامة، وعلاجه يتلخص في:

أ- العلاج لأمراض الناس، وخاصة الصدرية.

ب- توفير صناديق لوضع المهملات، في كل مكان.

ت- تنظيف الطرقات والأماكن العامة، فلا مكان للمخالفة.

ث- بث الوعي عند الناس بالفوائد والمضار من ذلك العمل.

ج- وقبل ذلك التربية على احترام النظام والنظافة من العلم قبل الطالب.

ح- القدوة الحسنة.

وعند ذلك ستتلاشى وتنتهي تلك المشكلة، وبلا عقاب.

أما إذا أهملنا ذلك كله، واكتفينا بالعقاب، فستزداد المشاكل، وقد لا يجدي عملنا شيئًا، أو يكون له جوانب عكسية.

خاصة إذا بصق المعلم أو الأب في وجه الطالب، ثم بعد ذلك يعاقب الطالب إذا بصق على الأرض! فكيف به إذا نشأ وتربى على ذلك؟!

إذن فالسبب في ذلك يرجع إلى التربية القائمة على ترسيخ ثقافة القمع والعنف والتسلط وروح الانتقام في حل المشكلات.

فلا يوجد في تلك الثقافة معنى للرفق، وقد تبين أن (الرفق) ما نزع من شيء إلا شانه.

لهذا تستمر المشاكل وتسوء الحال، والمشاكل تلد مشاكل، والعقاب يلد عقابًا، وهكذا، فنعيش في مشاكل وعقوبات، وانظر إلى مشاكل عالمنا الإسلامي!

الخلاصة:

إن النظام يجعل العملية التعليمية والتربوية تسير بنجاح وبشكل سلس مريح، بعيد عن الإزعاج والفوضى والمشاكل، والحال كذلك بالنسبة للعالم الإسلامي، فهل تمسكنا بالمنهج الإسلامي الذي يرفعنا من الحضيض إلى القمة؟

يقول البروفيسور شيريل عميد كلية الحقوق بجامعة فيينا: «إن البشرية لتفتخر بانتساب محمد صلى الله عليه وسلم إليها، ذلك الأمي الذي استطاع أن يأتي بشريعة سنكون نحن الأوربيين أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قيمتها بعد ألفي عام...».

* * *

قيمة الكلام:

إن من أهم وسائل التعليم: الإرسال من المعلم والاستقبال من الطالب (مرسل ومستقبل)، والكلام يتصدر هذا المجال في القديم والحديث.

والكلام له أصول وآداب[١] لا بد أن يلتزم بها المتكلم ليكون له قيمة[٢].

فمثلًا: الكلام القائم على العلم له قيمة عالية، بعكس الكلام القائم على الجهل الذي لا قيمة له، بل قد يكون ضارًّا.

وهذا قد يعرفه الجميع، ولكن الذي قد يلتبس على البعض هو الكلام العلمي الذي قد يكون لا قيمة له، أو قد يكون ضارًّا، وهذا مجاله واسع[٣]، ولكن سنختار ثلاثة مواضيع تهم المعلم وتحتاج إلى تنبيه؛ وهي:

١- الاهتمام بطريقة الكلام.

٢- كثرة الكلام.

٣- متى وكيف تقول: «لا».

***

(١) مثل أن يكون خطاب المعلم موجهًا إلى الروح والعقل والقلب.

(٢) ومن أدب الحديث أن لكل مقام مقالاً، ففي بعض المجالس المحترمة للمعلمين وغيرهم تجد البعض ينزل بها إلى أمور لا تليق؛ كالحديث عن الجنس.
فيقال لمن يتحدث في هذا: إذا صرت مع زوجتك فتحدث واعمل ما بدا لك، أما في تلك المجالس فارفعها عن ذلك، ودعنا من مشاكلك النفسية الجنسية.
وفي صحيح البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو، قال: لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشًا ولا متفحشًا، وإنه كان يقول: «إن خياركم أحاسنكم أخلاقًا».
وعن الأحنف بن قيس قال: جنبوا مجالسنا ذكر النساء والطعام، إني أبغض الرجل يكون وصافًا لفرجه وبطنه. انتهى كتاب (سير أعلام النبلاء) للذهبي.

(٣) مثل أن يتكلم المعلم عن مواضيع علمية لا تناسب الطلاب، فإنها قد تضرهم؛ روى البخاري في صحيحه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟!»، وأورده مسلم في مقدمة صحيحه عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم، إلا كان لبعضهم فتنة».

الاهتمام بطريقة الكلام:

يلاحظ أن أكبر انتقاد يوجه للطلاب يتمثل في أن الطلاب لا يعرفون فن الخطابة، ولا إلقاء الكلمات الرنانة والخطب العصماء.

وهذا الانتقاد مع الأسف يوجه من غالبية الناس في العالم الثالث بما فيهم المعلمين!

وهذا الانتقاد يكشف أمرين هامين:

الأول: أن سوء التربية هو السبب في تحطيم الطالب وإخراجه بهذا الشكل.

والثاني: (وهو الأهم) أن الخطابة والاهتمام بالكلام له قيمة ولكن ليس هدفًا، ولكن هذا الاهتمام به بهذا الشكل، يدل على عدم معرفة الأولويات، وكذلك يدل على الدرجة المتدنية من التفكير التربوي.

لأن الأهم من ذلك والذي لم يتحقق، هو بناء الطالب المتعلم، الصالح في نفسه وفي مجتمعه والمصلح لهما، وليس المتكلم!

فأعطني طبيبًا ماهرًا مخلص لا يحسن الكلام، ولا أريد طبيبًا عكس ذلك ولكنه متكلم! وكذلك أعطني مهندسًا ماهرًا مخلصًا لا يحسن الكلام، ولا أريد مهندسًا عكس ذلك ولكنه متكلم، وكذلك مدير مصنع، أو عامل، أو موظف، أو تاجر.

إذن المشكلة تكمن في أولويات ثقافة المجتمع وأهدافه التربوية، القائمة على الكلام، فكثير منهم أصحاب كلام وليس عمل، (مجرد ظاهرة صوتية)، وبهذا يريدون أن يربوا الجيل الذي بعده على الكلام، فهو الهدف الأول في نظر البعض، مع أن ذلك من صفات المنافقين:

قال الله تعالى في وصف المنافقين: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ البَلِيغَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ

(١) سورة المنافقون، الآية: (٤). قال ابن كثير في تفسيره عنهم: «ذوي فصاحة وألسنة، وإذا سمعهم السامع يصغي إلى قولهم لبلاغتهم».

بِلِسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ البَقَرَةُ»[١].

ومن الحكم البليغة: «فعل رجل في ألف رجل، أبلغ من قول ألف رجل لرجل».

كثرة الكلام:

ومع الاهتمام بالكلام، هناك أمر آخر وهو: كثرة الكلام وتكريره، وهذا بلا شك يؤدي إلى رد فعل عكسي (الضغط يولد الانفجار):

فالملاحظ أن بعض المعلمين يرى نفسه الواعظ والمخلص العظيم، فيعطي الطلاب كمًّا كبيرًا من النصائح المتكلفة المكررة والتوجيهات التي يرى أنه يصلح بها المجتمع، مع أنه قد يكون فعل العكس!

ثم يخرج ويدخل الواعظ والمصلح الآخر فيعيد نفس الأسطوانة، ثم الآخر...، وفي الغد كذلك، وهكذا لمدة أسابيع وأشهر وسنوات، مجرد كلام (مكرر) حفظه الطالب حتى مل منه وكرهه، والمشكلة أن كثيرًا من المعلمين يناقضون قولهم بفعلهم[٢]، فتكون المشكلة مضاعفة، فيصاب الطالب بالملل والسآمة والنفاق.

ولا شك أن هذا أسلوب فاشل في توجيه الطلاب- وغيرهم- والحل يكمن في أساليب كثيرة للتوجيه؛ مثل: القدوة والتوجيهات غير المباشرة؛ كالقصة والكتاب والحكمة...

ونذكر بعض الأدلة والأقوال التي يتبين من خلالها عقم هذا الأسلوب من جهة،

---

(١) صححه الألباني.

(٢) أذكر أن أحد المعلمين أراد أن يطلب من أحد الطلاب أن يذهب ويشتري له من مقصف الطلاب (البوفيه) متخطيًا النظام، فنصحه أحد المعلمين بأن يذهب بنفسه، بل يقف بنفسه ملتزمًا بالنظام مع الطلاب، وفعلًا ذهب المعلم ووقف في الطابور واشترى بنفسه وأكل وجبته هنيئة مريئة، أما من يأكل الأكلة عن طريق الظلم فإنه قد يأكل حرامًا وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل الجنة لحم نبت من السحت، وكل لحم نبت من السحت كانت النار أولى به» صححه الألباني

وأدعوك أيها المعلم الكريم، إلى تطبيق هذا العمل السليم، وخاصة في مدرسة يطبق فيها العمل السيئ، وحينها ستتعجب من ردود أفعال الطلاب؛ لأنك ستلاحظ أن منهم من يريد تقبيل رأسك، ومنهم من يقدمك على نفسه، ومنهم من يراقب المشهد مسرورًا معجبًا، وفي الحقيقة هذا العمل خير من آلاف النصائح والمحاضرات التي يعقبها ما يناقضها.

ومن جهة أخرى تتبين عظمة هذا الدين الذي كشف خطورة هذا الأسلوب من الناحية التربوية، والذي يغفل عنه الكثير: كان عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه، يذكِّر الناس في كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبدالرحمن لوددت أنك ذكرتنا كل يوم، قال: «أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملكم، وإني أتخولكم بالموعظة كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولنا[١] بها، مخافة السآمة علينا» انتهى[٢].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المنبر: «أيها الناس لا تبغضوا الله عز وجل إلى عباده»، فقال قائل: وكيف ذلك، أصلحك الله؟ قال: «يجلس أحدكم قاصًّا فيطوّل على الناس حتى يبغض إليهم ما هم فيه، ويقوم أحدكم إمامًا فيطوّل على الناس حتى يبغض إليهم ما هم فيه» انتهى[٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: «حدث الناس، كل جمعة مرة، فإن أبيت فمرتين، فإن أكثرت فثلاث مرار، ولا تمل الناس هذا القرآن، ولا ألفينك تأتي القوم وهم في حديث من حديثهم فتقص عليهم، فتقطع عليهم حديثهم فتملهم، ولكن أنصت، فإذا أمروك فحدثهم وهم يشتهونه، فانظر السجع من الدعاء فاجتنبه؛ فإني عهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لا يفعلون إلا ذلك» انتهى[٤].

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «حدث الناس ما حدجوك بأسماعهم، ورموك بأبصارهم، فإذا رأيت منهم فترة فأمسك» انتهى[٥].

وقال رضي الله عنه: «حدث القوم إذا أقبلت عليك قلوبهم، فإذا انصرفت عنك، فلا تحدثهم»، فقال له: وما علامة ذلك؟ قال: «إذا أحدقوا إليك أبصارهم فقد أقبلت عليك قلوبهم، فإذا اتكأ بعضهم على بعض فقد انصرفت عنك قلوبهم، فلا تحدثهم»

(١) «يتخولنا»: قال ابن حجر في الفتح: «المعنى كان يراعي الأوقات في تذكيرنا، ولا يفعل ذلك كل يوم لئلا نَمَلَّ».

(٢) صحيح البخاري.

(٣) كتاب (المدخل إلى السنن الكبرى) للبيهقي.

(٤) صحيح البخاري.

(٥) كتاب (نثر الدر) للآبي.

انتهى[١].

أي: إذا أنصتوا لك باهتمام وتركيز فتحدث، أما إذا انعكس الحال فاصمت، بل اصمت قبل أن يملوا.

وروى ابن المبارك عن ابن مسعود أنه قال: «إن لهذه القلوب شهوة وإقبالًا، وإن لها فترة وإدبارًا، فخذوها عند شهوتها وإقبالها، وذروها عند فترتها وإدبارها»، وقال ابن المبارك: «كان يقال: اعمل وأنت مشفق، ودع العمل وأنت تحبه، عملًا صالحًا دائمًا وإن قل» انتهى[٢].

وقال قتادة: «إذا أعيد الحديث في مجلس ذهب نوره» انتهى[٣].

وقال المناوي: «إنه ينبغي للطالب عند وقوف ذهنه ترويحه بنحو شعر أو حكايات، فإن الفكر إذا أغلق ذهل عن تصور المعنى، وذلك لا يسلم منه أحد، ولا يقدر إنسان على مكابدة ذهنه على الفهم وغلبة قلبه على التصور؛ لأن القلب مع الإكراه أشد نفورًا وأبعد قبولًا، وفي أثر: إن القلب إذا أكره عمي، ولكن يعمل على رفع ما طرأ عليه بترويحه بشعر أو نحوه من الأدب ليستجيب له القلب مطيعًا قال:

وَلَيْسَ بِمُغْنٍ فِي المَوَدَّةِ شَافِعٌ   إِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الضُّلُوعِ شَفِيعُ

وقال الحكماء: إن لهذه القلوب تنافرًا كتنافر الوحش، فألفوها بالاقتصاد في التعليم والتوسط في التقديم ليحسن طاعتها ويدوم نشاطها، وهذا يسمى عندهم بالتحميض، وكان ابن عباس يقول لأصحابه إذا داموا في الدرس: «أحمضوا» أي: ميلوا إلى الفاكهة وهاتوا من أشعاركم، فإن النفس تمل كما تمل الأبدان، وفي صحف إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام: على العبد أن يكون له ثلاث ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلي فيها بين نفسه ولذاته فيما يحل ويباح» انتهى[٤].

(١) كتاب (المدخل إلى السنن الكبرى) للبيهقي.
(٢) كتاب (الزهد) لابن المبارك.
(٣) كتاب (المدخل إلى السنن الكبرى) للبيهقي.
(٤) كتاب (فيض القدير) للمناوي.

متى وكيف تقول: «لا»؟

في هذا المجال ينبغي التنبه إلى أن التربية تؤثر في الفرد منذ ولادته، فنلاحظ أن الطفل عندما يبكي يحمل ويضم بحنان، والبعض في الغالب لا يعمل ذلك إلا عند البكاء فقط، وعلى هذا الأساس ينمو على تلك التربية منذ البداية.

وبهذا يتعود الطفل على أنه لا يحصل من أهله على الاهتمام به والاستجابة لمطالبه إلا عند اللجوء للبكاء والغضب وإحداث المشاكل والضغط بشتى الوسائل، أما في حالة كون هذا الطفل إيجابيًّا مسالمًا ويطلب ما يريد بأدب، فإنه لن ينال الاهتمام الكافي ولن يحصل على ما يريد!

وعلى هذا الأساس ينشأ الفرد متمردًا لا يخضع للتعليمات ولا يستمع للتوجيهات، بل يطلب ما يشتهي ويناله بالوسائل غير المشروعة.

فيلاحظ عدة أخطاء تعين على الانحراف؛ أهمها:

١- كسر النظام.

٢- استخدام الوسائل غير المشروعة.

لهذا ينبغي ألا نُلْجِئَهم بهذه التربية إلى الخروج عن الأخلاق الفاضلة لكي ينالوا حقوقهم أو ما يحتاجون، بل على العكس نربي أولادنا وطلابنا على أن نعطيهم الاهتمام والحنان ونلبي حاجاتهم في حال التزامهم بالأدب، أما إذا كان العكس فإنا لا نستجيب لهم بل نقابلهم بعدم الرضا، ولكن هنا ينبغي أن نلاحظ ملاحظة هامة؛ وهي:

متى نقول: «لا»؟ و متى نقول: «نعم»؟ حتى إذا قلناها تمسكنا بها.

راجع كتاب «كيف تقول «لا» وأنت تعنيها» للمؤلفة كارين ساليفان[1].

---

(١) الخبيرة التلفزيونية المعروفة في حل مشكلات تربية الأبناء ورعايتهم، كارين ساليفان، وضعت أسلوبًا للتأديب سيعزز من قدرة الأطفال على اختيار الخيارات الصحيحة المتعلقة بسلوكياتهم.
تشرح كارين بوضوح أساسيات أسلوب التأديب الفعال الإيجابي، وكتابها دليل شامل من أجل حل المشكلات ومعالجة الأخطاء. وهي تستكشف مختلف السيناريوهات المحتملة وتقدم طرقًا سديدة وحلولًا موثوقة لجميع المواقف. دار النشر مكتبة جرير، سنة الصدور: ٢٠٠٦م.

الأنانية والعصبية:

إن الأنانية والعصبية مرضان نفسيان واجتماعيان؛ وعن طريقهما حصل ويحصل للمجتمعات فساد كبير، ومن أحسن من يعالجهما المعلمون- والعكس صحيح- فهم حملة الفكر والمربون، وعن طريقهم تتكون لبنات المجتمع؛ لهذا ينبغي الحذر من مثل هذه الأمراض.

فالذي يقدم أبناءه أو أهله أو قبيلته على غيرهم ويحابيهم... فهذا يرجع عنده إلى أسباب منها: الأنانية، والشح، والكبر، والحسد...، وهي من الصفات السيئة في النفس الإنسانية، وليس المقصود بالأنانية حب النفس؛ فإن حب النفس وإكرامها وفق ما شرع الله تعالى مطلوب في الدنيا والآخرة.

ولكن الأنانية هي حب النفس وتقديمها على الآخرين بغير وجه حق- وقس على ذلك- فالأناني يحب نفسه ويقدمها حيث إن لها الأولوية المطلقة، ومن ثم فإنه يقدم كل (ما يتبع هذا الأنانية)؛ مثل الآباء والعائلة والقبيلة والعشيرة والقوم والوطن... إلخ.

وكذلك قد يكون هذا التعصب راجعًا إلى نقص معين؛ وهو عدم إشباع (حاجة الانتماء).

لأن كل إنسان له حاجات إنسانية يحتاج إليها في حياته، فإذا لم يشبعها فإنه سيعيش محتاجًا إلى سد هذا النقص، ومن الحاجات الإنسانية: الحاجة للانتماء والحب (الحاجات الاجتماعية)[1]، فتجد البعض يتأثر سلبًا بهذه التعصبات[2].

ومن الأمثلة على التعصب: التعصب للأنساب والقبائل؛ فيقسم الناس: هذا

(١) وكما سبق، فإنه لأهمية الحاجات الإنسانية في التربية ولتأثيرها الكبير على تكوين الإنسان سيأتي بيانها بشكل أوسع إن شاء الله تعالى.

(٢) وكذلك هناك أمور أخرى تؤثر في الإنسان تندرج تحت «البارادايم» (سيأتي شرحه) وكل ذلك يخزنه العقل الواعي والعقل اللاواعي (العقل الباطن)، وتكمن خطورة العقل الباطن في صعوبة التعامل معه، وذلك من جهات عدة؛ مثل: السيطرة عليه، والإحساس به وتغييره، وكذلك معرفة العوامل المؤثرة فيه والإحساس بها، وله نقاط ضعف ونقاط وقوة؛ مثل: أنه قوي التأثير ومع ذلك غبي يسهل استغفاله للتأثير عليه من أي أحد، وبشكل عام هو باب يحتاج المعلم إلى معرفته وهذا يطول شرحه.

أصيل، وهذا غير أصيل، وهذا بينهما، وهذا أصله عبد....، وبعضهم يفني جزءًا من عمره في ذلك، ويحسب أنه على شيء، بل قد يظن أنه في سبيل الخير، بل قد يظن أنه في سبيل الله، ومن الأكيد أنه سيتخذ لنفسه حيلًا نفسية، معتمدًا على حجج واهية من أقوال وحكم، ليبرر لنفسه ولغيره هذا العمل الصالح في نظره!

ولكن لو سألته فقلت له: لو اكتشفت و(عَلِمَ الناس) أنك غير أصيل كما تزعم، فتكون- مثلًا-: عبدًا أو ظهر لك أن أصلك عبد، أو أنك من أصل محتقر عند الناس؛ كطبقة المنبوذين في الهند، أو مكروه؛ كاليهود، هل ستستمر في هذا الجهاد الأكبر؟!

أم أنك في هذه الحالة ستنتقل إلى الجهة المقابلة، وتستشهد بالأدلة وتقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾، و﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾، و«كُلُّكُمْ لآدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ» و«دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ» و«إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ».

ولهذا ينبغي أن تخلو بنفسك، وتتفكر لمدة خمس دقائق (فقط): هل ستتغير مبادئك في هذه الحالة الجديدة؟ فإذا كان الجواب: (نعم)- وهو الأكيد- إذن فالجأ إلى المبادئ التي لا تتغير، لا في زمان، ولا مكان...، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾[1].

فينبغي اللجوء لهذه الخلوة دائمًا والاستفادة منها، سواء في حال الفقير والغني، أو الصغير والكبير، أو الرئيس والمرؤوس... وعلى هذا فقس، واحذر أن تتخذ مبادئ ثم تلبسها لباس الدين، فتحسب أنك تحسن صنعًا، وتشهد الله على ما في قلبك وأنت ألد الخصام.

ولا شك أنه في حال التجرد الصادق، تتكشف النيات والمقاصد؛ لهذا حث الإسلام عليه ومن ثم حث على التفكر؛ قال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[2].

ولكن قد يحتج البعض بحجج دينية- كما أسلفنا- فيلبس على نفسه أو غيره بقول

---

(١) سورة البقرة، الآية: (١٣٨).

(٢) سورة سبأ، الآية: (٤٦).

الرسول صلى الله عليه وسلم: «تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ، فَإِنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ مَحَبَّةٌ فِي الأَهْلِ مَثْرَاةٌ فِي المَالِ مَنْسَأَةٌ فِي الأَثَرِ»[١].

فنقول: إذا كان القصد من ذلك صلة الرحم فقط، فالحمد لله، ولكن قد يكون هذا مجرد عذر لأمر آخر، والله أعلم بالنيات.

ومع العلم بإن محاربة التعصب والحمية الجاهلية، لن يستطيع أحد أن ينهيها ويقتلعها أو يجتثها من جذورها كالشجرة الخبيثة، أو كالنار المشتعلة، ولكن يكافحها ويسعى في إخمادها أو يقلل من سعارها، والسبب يرجع لخبر الرسول صلى الله عليه وسلم: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ لا يَتْرُكُونَهُنَّ: الفَخْرُ بالأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ»[٢].

وسنذكر بعض الأحاديث التي تحارب هذه العادة الجاهلية:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالآبَاءِ؛ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللهِ مِنَ الجِعْلانِ التي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتْنَ»[٣].

وعن المعرور بن سويد، عن أبي ذر، قال: رأيت عليه بردًا[٤]، وعلى غلامه بردًا، فقلت: لو أخذت هذا فلبسته كانت حلة، وأعطيته ثوبًا آخر؟! فقال: كان بيني وبين رجل كلام، وكانت أمه أعجمية، فنلت منها، فذكرني إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لي: «أَسَابَبْتَ فُلانًا؟» قلت: نعم، قال: «أَفَنِلْتَ مِنْ أُمِّهِ؟» قلت: نعم، قال: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ!» قلت: على حين ساعتي هذه من كبر السن؟! قال: «نَعَمْ، هُمْ إِخْوَانُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ جَعَلَ اللهُ أَخَاهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلا يُكَلِّفُهُ مِنَ العَمَلِ مَا يَغْلِبُهُ، فَإِنْ كَلَّفَهُ مَا يَغْلِبُهُ فَلْيُعِنْهُ عَلَيْهِ»[٥].

---

(١) صححه الألباني، ومعنى قوله: «منسأة في الأثر» يعني: زيادة في العمر.

(٢) صحيح مسلم.

(٣) حسنه الألباني.

(٤) أي: قال المعرور: رأيت على أبي ذر بُرْدًا، وهو الكساء.

(٥) صحيحي البخاري ومسلم، واللفظ للبخاري.

وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: كنا في غزاة- قال سفيان مرة: في جيش- فكسع (أي ضرب) رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار،! وقال المهاجري: يا للمهاجرين!، فسمع ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «مَا بَالُ دَعْوَى جَاهِلِيَّةٍ؟!». قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار، فقال: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ»، وفي رواية: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ»[1].

وهنا ينبغي أن نعرف كيف وصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم، لقد وصفها بأنها دعوى جاهلية، ونهى عنها ووصفها بالمنتنة والخبيثة؛ فهي: جاهلية ومنتنة وخبيثة.

وروى الإمام أحمد في مسنده: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ أَنْسَابَكُمْ هَذِهِ لَيْسَتْ بِسِبَابٍ عَلَى أَحَدٍ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ وَلَدُ آدَمَ، طَفُّ الصَّاعِ لَمْ تَمْلَؤُوهُ، لَيْسَ لأَحَدٍ فَضْلٌ إلا بِالدِّينِ أَوْ عَمَلٍ صَالِحٍ، حَسْبُ الرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ فَاحِشًا بَذِيًّا بَخِيلًا جَبَانًا»[2].

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلا لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، ولا لِعَجَمِيٍّ على عَرَبِيٍّ، ولا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، ولا لِأَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ؛ إلا بالتقوى؛ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾، ألا هَلْ بَلَّغْتُ؟!»، قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: «فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ»[3].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ نَصَرَ قَوْمَهُ عَلَى غَيْرِ الحَقِّ، فَهُوَ كَالبَعِيرِ الَّذِي رُدِّيَ، فَهُوَ يُنْزَعُ بِذَنَبِهِ»[4].

وبعد بيان سوء التعصب، فإنه ينبغي أن نلاحظ أن الإسلام اجتث هذا التعصب

---

(١) صحيح البخاري ومسلم.

(٢) صححه المحدث الألباني إلا انه قال «مسابكم» بدل «أنسابكم»، قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث: «كلكم بنو آدم طف الصاع، ليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقوى» أي: قريب بعضكم من بعض. يقال: هذا طف المكيال وطفافه وطفافه: أي ما قرب من ملئه. وقيل: هو ما علا فوق رأسه. ويقال له أيضًا: طفاف، بالضم. والمعنى: كلكم في الانتساب إلى أب واحد بمنزلة واحدة في النقص والتقاصر عن غاية التمام. وشبههم في نقصانهم بالمكيل الذي لم يبلغ أن يملأ المكيال، ثم أعلمهم أن التفاضل ليس بالنسب ولكن بالتقوى.

(٣) صححه الألباني.

(٤) صححه الألباني.

الأعمى وأبدله بالحق الذي لا لبس فيه فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: «**انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا**» فقال رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلومًا، أفرأيت إذا كان ظالمًا كيف أنصره؟! قال: «**تَحْجُزُهُ- أَوْ تَمْنَعُهُ- مِنَ الظُّلْمِ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ**»(١).

ولا يخفى أن الأنانية والتعصب أنواع وأشكال؛ فالأناني يتعصب لقريته أو مدينته بل وللدولة والجنس؛ فهذا عربي، وهذا فارسي، وهذا ألماني، وهذا شركسي، وتركي، وكردي، وهندي... إلخ.

وكذلك يتعصب لأفكاره ومذهبه؛ كالحنفي، والمالكي... ومشائخه، وعلمائه...

فالأناني المتعصب يجمع بين حب الذات والإحساس بالنقص، وهذه مساوئ نفسية يعبر عنها صاحبها بعدة طرق؛ كالحسد والحقد والكره، بحيث تنعكس على الواقع، فيقدم ما يحب ويؤثره على غيره بغير وجه حق، وفي المقابل يكره ما يضاده، وتخيل هذا الشخص كيف يتعامل مع الغير؛ كالطبيب مع مرضاه، والمعلم مع طلابه، والقاضي والتاجر، وهذه المساوئ من أسباب الاحتكار والجشع والغش والظلم والمشاجرات والحروب ووضع الرجل في المكان غير المناسب...

والأمثلة على الأنانية والتعصب كثيرة، وتأتي على صور متعددة؛ كالمال أو العائلة أو القبيلة أو البلد أو الدولة أو الجنس أو المذهب أو الحزب أو العمل... ولكن أمام هذه الصور المتعددة ينبغي أن يتقدم الإيمان على جميع هذه الصور.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾(٢).

والحمد لله، فقد حارب الإسلام الأنانية والشح والتعصب بجميع صوره، وفي المقابل امتدح الإيثار؛ قال الله عز و جل: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ

(١) صحيح البخاري.

(٢) سورة التوبة، الآية: (٢٤).

خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(١).

---

(١) سورة الحشر، الآية: (٩) قال ابن كثير في تفسيره: «﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ يعني: حاجة، أي يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم ويبدؤون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك، وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ جُهْدُ المُقِلِّ». وهذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله بقوله تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾، وقوله: ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾، فإن هؤلاء تصدقوا وهم يحبون ما تصدقوا به، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه، ومن هذا المقام تصدق الصديق رضي الله عنه بجميع ماله فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟»، فقال رضي الله عنه: أبقيت لهم الله ورسوله. وهكذا الماء الذي عرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك، فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه.

وقال البخاري: أتى رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أَلَا رَجُلٌ يُضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ رَحِمَهُ اللهُ؟!»، فقام رجل من الأنصار فقال: أنا، يا رسول الله، فذهب إلى أهله فقال لامرأته: هذا ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا تدخريه شيئًا، فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية، قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم، وتعالي فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة، ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «لَقَدْ عَجِبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ- أَوْ ضَحِكَ- مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانَةَ»، وأنزل الله تعالى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾، أي: من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اتَّقُوا الظُّلْمَ؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الفُحْشَ؛ فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الفُحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ، وَإِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ؛ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ؛ أَمَرَهُمْ بِالظُّلْمِ فَظَلَمُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالفُجُورِ فَفَجَرُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا».

وعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لَا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ فِي جَوْفِ عَبْدٍ أَبَدًا، وَلَا يَجْتَمِعُ الشُّحُّ وَالإِيمَانُ فِي قَلْبِ عَبْدٍ أَبَدًا».

وقال ابن أبي حاتم: جاء رجل إلى عبدالله، فقال: يا أبا عبدالرحمن، إني أخاف أن أكون قد هلكت! فقال له عبدالله: وما ذاك؟ قال: سمعت الله يقول: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾، وأنا رجل شحيح لا أكاد أن أخرج من يدي شيئًا، فقال عبدالله: ليس ذلك بالشح الذي ذكر الله في القرآن؛ إنما الشح الذي ذكر الله في القرآن أن تأكل مال أخيك ظلمًا، ولكن ذاك البخل وبئس الشيء البخل.

وعن أبي الهياج الأسدي قال: كنت أطوف بالبيت، فرأيت رجلا يقول: اللهم قني شح نفسي، لا يزيد على ذلك، فقلت له؟ فقال: إني إذا وقيت شح نفسي لم أسرق ولم أزن ولم أفعل، وإذا الرجل عبدُ الرحمن بن عوف رضي الله عنه؛ وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بَرِيءٌ مِنَ الشُّحِّ مَنْ أَدَّى الزَّكَاةَ وَقَرَى الضَّيْفَ وَأَعْطَى فِي النَّائِبَةِ» انتهى مختصرًا.

قال الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله: «إن القيم والأقدار وآثارها الحسان الممتدة على مسارب الزمن، لا تقوم بالجاه والمنصب والمال والشهرة وكيل المدائح والألقاب، وإنما قوامها وتقويمها بالفضل والجهاد وربط العلم بالعمل، مع نبل نفس، وأدب جم، وحسن سمت، فهذه وأمثالها هي التي توزن بها الرجال والأعمال. وإلى هذا الطراز المبارك تشخص أبصار العالم، ولكل نبأ مستقر»[١].

وهذا الميزان هو ما ينبغي أن يقيم به الرجال، مع أن الميزان الحقيقي هو بالتقوى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٢]، ولا يعلم ذلك إلا الله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾[٣].

هَلْ تَطْلُبُونَ مِنَ الْمُخْتَارِ مُعْجِزَةً ... يَكْفِيهِ شَعْبٌ مِنَ الأَجْدَاثِ أَحْيَاهُ
سَنُّوا الْمُسَاوَاةَ لا عُرْبٌ وَلا عَجَمٌ ... مَا لِامْرِئٍ شَرَفٌ إِلاَّ بِتَقْوَاهُ
وَقَرَّرَتْ مَبْدَأَ الشُّورَى حُكُومَتُهُمْ ... فَلَيْسَ لِلْفَرْدِ فِيهَا مَا تَمَنَّاهُ
وَرَحَّبَ النَّاسُ بِالإِسْلاَمِ حِينَ رَأَوْا ... أَنَّ السَّلامَ وَأَنَّ الْعَدْلَ مَغْزَاهُ

والذي يقرأ التاريخ يرى العجب، فبهذا التعصب وغيره شوهوا صورة الإسلام والنظرة إليه، مع أنه رسالة عامة إلى الناس جميعا، بل إلى الثقلين.

فبهذا السبب وغيره، نقلوا صورة مشوهة عن الإسلام، واستفزوا المسلمين من غير العرب، وكذلك من دخل في الإسلام، بل ساعدوا في خروج الشعوبية، والمذاهب الهدامة، بل الزندقة أيضًا.

ولتقريب الفكرة، أذكر قصة الشيخ الأستاذ علي الطنطاوي[٤] رحمه الله تعالى،

---

(١) كتاب (تصنيف الناس بين الظن واليقين) لبكر أبو زيد.

(٢) سورة الحجرات، الآية: (١٣).

(٣) سورة النجم، الآية: (٣٢).

(٤) علي مصطفى الطنطاوي، ولد في دمشق بسوريا عام ١٣٢٧هـ الموافق ١٩٠٩م، تولى القضاء في سوريا وتولى التعليم فيها وفي العراق ولبنان والسعودية.
من أشهر الدعاة الإسلاميين، له مؤلفات قيمة وبرامج إذاعية وتلفزيونية مشهورة، عاش بقية حياته في السعودية، توفي في عام ١٤٢٠هـ، الموافق ١٩٩٩م، في مدينة جدة، ودفن في مكة المكرمة، بعدما صلي عليه في الحرم المكي، غفر الله له ورحمه.

عندما ذهب إلى مناطق الأكراد الشمالية، وذلك بقلم: محمد المجذوب في ترجمته للشيخ محمد علي الطنطاوي، حيث كتب:

«وهنا قصة جديدة يطرفنا بها الأستاذ، فيقول: طلبت من مدير المدرسة التي أحلت إليها في كركوك الاطلاع على جدول العمل ومواقيت الدروس، فكان يؤخر الإجابة يومًا بعد يوم، ولما طال المطال قلت له: إذا لم تريدوا درسي فأخبروني أرجع أو أستقل، فقال: والله أريدك ولكني أخاف عليك! وسألته: مم تخاف علي؟ أجاب: هؤلاء الطلاب أكراد ومتعصبون، وهم متمردون ينزعون في الليل لباس الفتوّة، ويرتدون ألبستهم القومية: الشال العريض وفيه الخنجر، وهم كما ترى ذوو أجسام وقامات، كلما جاءهم مدرس للعربية استقبلوه بالضرب حتى يخرج محطمًا..

وهنا أدرك الشيخ سر التردد في موقف المدير.. فلم يرد عليه بشيء، ولكنه انتهز غفلة منه ليدخل الفصل على الطلاب، فإذا هم على ما وصف من التحفز والاستعداد للشر.. وبلهجة ملؤها الصدق والحنان أخذ يخاطبهم بقوله: يا أولادي.. العرب كانوا من أضل الأمم فهداهم الله بالإسلام.. وأنا جئت لأعلمكم العربية لا من أجل أهل بغداد ولا من أجل العرب، بل من أجل القرآن العربي الذي تقرؤونه، ومحمد العربي الذي تحبونه وتتبعونه، وامتثالًا لأمر الله الذي جعل تعلم العربية من الدين.. فقولوا لي يا أبنائي: أتحبون أن تتعلموا العربية أم لا؟

يقول الشيخ: ووالله إني لعاجز عن تصوير الموقف.. لقد تغلبوا علي وحملوني برغمي على الأعناق.. وكان المدير قد استدعى الشرطة تحسبًا للخطر، ولم يطمئن قلبه حتى رآني على هذه الحال، ومنذ ذلك اليوم بات درس العربية أحب الدروس لهؤلاء الأكراد..

قلت: ذلك لأن الشيخ دخل على قلوبهم من نافذة الدين.. على حين كان مدرسو العربية قبله يواجهونهم باسم العنصرية، التي تقسم البشر زمرًا دموية، فكان المحصول تنفيرهم من العربية وكل ما له بالعرب صلة، حتى ينتهي الأمر بهم إلى الضرب والتحطيم، بدلا من التقدير والتكريم.. وقديمًا قال حكيم عربي: لا يبلغ الأعداء من

جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه» انتهى[١].

قلت: مع أن تعصب بعض العراقيين في ذلك الوقت إنما هو في مقابل الأكراد، وليس لله[٢].

وفي نفس الكتاب كتب محمد المجذوب: «ويستأنف الشيخ: لما ذهبت إلى العراق في العام ٣٦ كما أسلفت وجدت تدهورًا خطيرًا في الأحوال الدينية، وكان ذلك قبل تأسيس «الإخوان المسلمين» من قبل أخينا الأستاذ محمد محمود الصواف. وهاكم مثلًا على ذلك: في أحد أيام رمضان شاهدت بواب المدرسة يتناول الطعام على مرأى من الجميع!!!.

فقلت له: كيف تفعل هذا علنا ودون تحفظ؟ فأجاب: شنو أغاتي! وأخذ يسوغ عمله بأن دور الإسلام قد انتهى لأنه إنما جاء لقوم من البدو، وقد تغير كل شيء، فلماذا لا يتغير الإسلام!!» انتهى.

إذن فالتعصب والكبت والاستغلال والاحتقار والظلم...كل ذلك يولد الانفجار، ومع أن المعروف أن الفعل له رد فعل، وينص قانون الحركة الذي يقول:

---

(١) لاحظ هذا التعصب وما قبله الكثير الكثير، ومن ثم لاحظ مواقف الأكراد وغيرهم، لتعلم ماذا جره هذا التعصب النتن الذي أساء إلى المسلمين وإلى صورة الإسلام.

ولاحظ كيف تصرف هذا المعلم القدير الذي أثر على طلابه في درس واحد فقلب التعصب إلى إيمان، ومن ثم قلب الكره إلى حب، والعداوة إلى أخوة، وهنا نعرف قيمة المعلم الصالح.

ونتساءل: لو صلح كل المعلمين ماذا سيكون حال المسلمين؟!

(٢) ولقد وصفهم أحد الشعراء، في أبيات قال فيها:

دَاءُ التَّأَخُّرِ مِنَّا فِي خَلائِقِنَا ... لَقَدْ فَشَا الدَّاءُ حَتَّى اسْتَفْحَلَ السَّقَمُ
كَانَتْ خَلائِقُنَا لِلْعِزِّ ضَامِنَةً ... حَتَّى فَسَدْنَ فَزَالَ العِزُّ وَالشَّمَمُ

وبين الحالة المزرية التي وصلوا إليها فقال:

إِذَنْ فَالهِنْدُ أَشْرَفُ مِنْ بِلادِي ... وَأَشْرَفُ مِنْ بَنِي قَوْمِي الهُنُودُ
أَمَا وَاللهِ لَوْ كُنَّا قُرُودًا ... لَمَا رَضِيَتْ قَرَابَتَنَا القُرُودُ

وهذا التعصب النتن لا يخص العراق، بل كل مكان، بل إن القومية النتنة في العالم العربي تصل إلى حد الكفر والعياذ بالله؛ ومن الأمثلة في منطقة الشام، أبيات قال فيها أحد الشعراء:

بِلادُكَ قَدِّمْهَا عَلَى كُلِّ مِلَّةٍ ... وَمِنْ أَجْلِهَا أَفْطِرْ وَمِنْ أَجْلِهَا صُم
هَبُونِيَ عِيدًا يَجْعَلُ العُرْبَ أُمَّةً ... وَسِيرُوا بِجُثْمَانِي عَلَى دِينِ بُرْهُم
سَلامٌ عَلَى كُفْرٍ يُوَحِّدُ بَيْنَنَا ... وَأَهْلًا وَسَهْلًا بَعْدَهُ بِجَهَنَّمِ

«كل فعل له رد فعل مساو له في المقدار ومضاد له في الاتجاه»، وهذا القانون فيزيائي، ولكن في المجتمعات البشرية قد تفوق ردة الفعل في الاتجاه المضاد قوانين الفيزياء.

وهذا ليس عذرًا للشعوبيين (أعداء الجنس العربي) ولا للمذاهب الضالة، ولكن ينبغي التنبه إلى أن البعد عن المنهج الرباني هو الذي مزق المسلمين وأحدث الفرقة بينهم، بل ساعد في صد غير المسلمين عن الدخول في الإسلام، وهذا ما حذرنا منه رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث إن هذا النتن أخرج هذه الروائح الكريهة من شعوبية وغيرها من الأفكار الضالة؛ لهذا ينبغي أن ندع هذا التعصب الجاهلي وما يتولد منه من خبث أشد، وهذه هي التربية التي تربى عليها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهذا سلمان الفارسي رضي الله عنه عندما سئل عن نسبه قال: «أنعم الله علي بالإسلام، فأنا سلمان بن الإسلام»[1].

ولم يقل: إني من حضارة عريقة ومن عائلة مرموقة وأبي كان مسؤولًا كبيرًا، ولم يعدد ويفاخر، وإنما وقف في وجه تلك الدعوى ورد عليها ردًّا مفحمًا وكبت تلك الروائح المتتنة وأبدلها بأزكى الروائح، فأبدل برواسب الجاهلية نقاء الإسلام الطاهر الذي أخذه من تربية المصطفى وسيرته العطرة صلى الله عليه وسلم، فما أطيبه حيًّا وميتًا.

أَبِي الإِسْــلاَمُ لا أَبَ لِي سِـوَاهُ إِذَا افْـتَـخَـرُوا بِـقَـيْـسٍ أَوْ تَمِـيـمِ

هذا عمر الفاروق القرشي رضي الله عنه عندما سمع ذلك من سلمان الفارسي رضي الله عنه، قال: «وأنا عمر بن الإسلام، أخو سلمان في الإسلام»[2].

بل كان عمر القرشي رضي الله عنه يقول عن بلال الحبشي الذي كان عبدًا مملوكًا: «أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا» يعني: بلالًا[3].

---

(١) كتاب (تاريخ دمشق) لابن عساكر.

(٢) مصنف عبد الرزاق.

(٣) صحيح البخاري. يقول المستشرق البريطاني جب: «ما زال في مستطاع الإسلام أن يقدم للإنسانية خدمة جليلة، فليس هناك أية هيئة سواه يمكن أن تنجح مثله نجاحًا باهرًا في تأليف هذه الأجناس البشرية المتنافرة في جبة واحدة أساسها المساواة» انتهى، كتاب (الرسول في الدراسات الاستشراقية المنصفة) لمحمد الشيباني.

ولسان حال المسلم المخلص الصادق يقول:

إِذَا اشْتَكَى مُسْلِمٌ فِي الهِنْدِ أَرَّقَنِي ... وَإِنْ بَكَى مُسْلِمٌ فِي الصِّينِ أَبْكَانِي

وَمِصْرُ رَيْحَانَتِي وَالشَّامُ نَرْجِسَتِي ... وَفِي الجَزِيرَةِ تَارِيخِي وَعُنْوَانِي

وَيَسْكُنُ المَسْجِدُ الأَقْصَى وَقُبَّتُهُ ... فِي حَبَّةِ القَلْبِ أَرْعَاهُ وَيَرْعَانِي

أَرَى بُخَارَى بِلادِي وَهْيَ نَائِيَةٌ ... وَأَسْتَرِيحُ إِلَى ذِكْرَى خُرَاسَانِ

وَأَيْنَمَا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ فِي بَلَدٍ ... عَدَدتُّ ذَاكَ الحِمَى مِنْ صُلْبِ أَوْطَانِي

شَرِيعَةُ اللهِ لَمَّتْ شَمْلَنَا وَبَنَتْ ... لَنَا مَعَالِمَ إِحْسَانٍ وَإِيمَانِ

★ ★ ★ ★ ★

الحرية:

أيها المعلم الكريم، على كل منا أن يسأل نفسه هذا السؤال: منذ ولدت، وأنا أفخر بالإسلام، فمتى يفخر الإسلام بي؟ لا شك أن حمل الرسالة وتأديتها على الوجه المطلوب أمر صعب، وخاصة أمام ما نحمله من تأثير البيئة التي نعيش فيها من ظلم وعنف وفوضى وبعد عن العقلانية... وفي المقابل تعصب وعناد ومكابرة وتقليد وأنانية...

ولكن كل ذلك وغيره سيهون ثم سيزول، إذا أخلصنا العمل لله سبحانه وتعالى، واتبعنا واسترشدنا بخير من حمل الرسالة وأداها، وفي المقابل تحررنا من جميع المؤثرات المضادة؛ وهذا يتلخص في ثلاث نقاط؛ هي:

١- الإخلاص والاستعانة بالله سبحانه وتعالى.

٢- اتباع المنهج النبوي.

٣- التحرر.

قيمة الحرية:

إن الحرية من أساسيات الإنسان، ومن دونها لا يكون الإنسان إنسانًا، فكل إنسان يولد حرًّا، وليس لأحد أن يسلب منه هذه الحرية؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي منحها للإنسان وميزه بها، ولهذا عليه أن يختار أكبر اختيار في حياته.

الحرية في أكبر اختيار:

كل المخلوقات المعروفة ليس لها اختيار بين الإيمان والكفر غير الثقلين، وهذه أمانة يجب أن يحافظ عليها[1]؛ لأن الاختيار: إما أن يذهب بصاحبه إلى أعلى عليين، أو إلى أسفل سافلين؛ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[2].

فبما أن الله سبحانه وتعالى أعطى الحرية في الاختيار، فلا شك أن من ظلم الإنسان

---

(١) قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾، سورة الأحزاب، الآية: (٧٢).

(٢) سورة الكهف، الآية: (٢٩).

لنفسه أن يسمح لأحد أن يقيده فيسلبه هذه الحرية ويجعله عبدًا.

ومن أحسن ما قيل في هذا الشأن، قول الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لا تكن عبد غيرك، وقد جعلك الله حرًّا»[١].

فمن ثم عليه أن يختار بين العبودية أو الحرية، وفي هذه الحال لا شك أن العاقل سيختار الحرية، ولكن عليه أن يكون عبدًا لخالقه الذي أوجده وهو المتصرف فيه من جميع النواحي تبدأ بالوجود والعدم إلى الهداية والرزق والعافية.... بل الاختيار نفسه.

فلهذا لا بد أن يكون الإنسان عبدًا لخالقه حرًّا عن غيره؛ لأنه إن خضع لأحد غير الله سبحانه تخلى عن الحرية، وإذا تخلى عن الحرية فسيضل ويضر نفسه من جهات كثيرة منها:

١ - أنه اعتدى على حق الخالق سبحانه وتعالى؛ لأنه أعطى من لا يستحق شيئًا من حق خالقه، وهذا ظلم عظيم فهو أعظم الظلم وأكبره وليس هناك ظلم يدانيه، خاصة إذا رأينا لمن يتوجه الظلم ومن الموجه (عظم الخالق أمام المخلوق)، وما القضية، وما مصير الظالم، وفي المقابل مصيره لو ترك هذا الظلم[٢]، ولقد بين القرآن الكريم عظم الظلم في سورة لقمان في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾[٣].

٢- أنه سعى إلى العبودية وهو حر، وهذا منافٍ للشرع والعقل؛ لأن الإنسان في حال الحرية سيربح الرفعة والكرامة والعزة... وكل المعاني الحسنة، وفي المقابل يسلم من الذل والحقارة والخسة... وكل المعاني السيئة.

٣- أنه قيد نفسه وحجّر واسعًا، وفي هذا إعاقة للفكر وإفساد للحياة الجميلة التي التي خلقها له الله عز وجل وسخر له ما في السماوات وما في الأرض[٤]، وهناك أمور

(١) قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لابنه الحسن في وصيته له: «يا بني، إن استطعت ألا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل، ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرًّا، فإن اليسير من الله تعالى أكرم وأعظم من الكثير من غيره، وإن كان كل منه كثيرا» كتاب (أدب الدنيا والدين) للماوردي.

(٢) إما رضا وتخليد في الجنة، أو سخط وتخليد في النار.

(٣) سورة لقمان، الآية: (١٣).

(٤) قال الله عز وجل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾، سورة الجاثية، الآية: (١٣).

كثيرة ينبغي التنبه لها لكي ينعتق الإنسان ويكون حرًّا غير مقيد؛ مثل: تحكُّم الحاجات الإنسانية (١)، و«البارادايم»(٢).

---

(١) إن كل إنسان له حاجاته الإنسانية التي يحتاج إليها في حياته، فإذا لم يشبعها فإنه سيعيش محتاجًا إلى سد هذا النقص، والحاجات الإنسانية خمس؛ وهي:
١- الحاجات الجسدية (الفسيولوجية) التي يحتاج إليها الجسم؛ كالأكل، والشرب، والجنس...
٢- الحاجة للأمان والحماية.
٣- الحاجة للانتماء والحب (الحاجات الاجتماعية).
٤- الحاجة للاحترام وللتقدير.
٥- الحاجة للإدراك وتحقيق الذات.
ولأهمية الحاجات الإنسانية في التربية ولتأثيرها الكبير في تكوين الإنسان، سيأتي بيانها بشكل أوسع في الكتاب القادم إن شاء الله تعالى.

(٢) (البارادايم) هو التقييد. إن كل ما يمر على الإنسان يؤثر عليه ويرسم له حدودًا يصعب الخروج منها، فالبارادايم هو المقيد أو المتحكم.وبعبارة أوسع: ما يحصل عليه الإنسان من كوامنه النفسية في ذاته أو من المؤثرات الخارجية في بيئته، من أفكار ومعلومات وثقافات وخبرات واعتقادات وأنظمة وعادات... كل ذلك يؤثر عليه، ومن ثم يتحكم فيه بتكوين دوائر ذهنية تحيط به وتقيده وتنتج له أفكارًا وتصورات وأحكامًا مسبقة يعيش فيها.
وقد تكون مباشرة أو غير مباشرة، وقد يشعر بها أو لا يشعر بها.
ومن خلال ما سبق، ترسم له الحدود في كل شيء، وبهذا يدخل في إطار أو قالب لا يستطيع الخروج منه؛ وهذا هو البرادايم الذي يحكمه ويصعب الخروج منه.
وهذا البرادايم أو الإطار أو القالب أو النمط، يمثل طريقة تفكيره وثقافاته واعتقاداته وعاداته... وفي كل جزء مما سبق قيود وقوالب يصعب الخروج منها، فهناك بارادايمات متعددة.
وموقف الناس من هذه القيود على درجات؛ فمنهم العارف اليقظ المتحرر، ومنهم الجاهل، ومنهم المستسلم، ومنهم المشجع، وأخيرا منهم الأهوج الذي يدعي التحرر من القيود فيتبنى المخالفة والخروج عن المألوف ومناقضة الأفكار والعادات والتقاليد... والسبب الوحيد مجرد ادعاء التحرر، وهذا التصرف قد يكون رد فعل أو شذوذًا، وهذا يعتبر من أكبر القيود.
ولتقريب صورة (البارادايم) فلنلاحظ إنسانًا يعيش في أدغال إفريقيا أو في مصنع في اليابان أو في الأسكيمو، أو رجلًا يعيش في القرون الوسطى أو قبل ذلك، أو رجلًا يعيش مع فرعون، وهكذا فالتاريخ والبيئة والناس والدين... كل ذلك يؤثر ويتحكم في الإنسان وبعبارة أخرى: «كل إناء بما فيه ينضح»، وإذا شبه الإنسان بالإناء الذي لا يخرج منه إلا ما وضع فيه، فإن هذا هو البرادايم، ومن الأمثلة: أن من يقيده البرادايم كمن يعيش كل حياته في صندوق، ومن يتحرر من البرادايم كمن يخرج هذا الصندوق. أو تمثيل البارادايم بالنظارة التي يرى الإنسان من خلالها العالم، ولهذا يختلف الناس باختلاف نوع هذه النظارة. =

وزيادة على ما سبق من أضرار، فإن هناك الجزاء العادل للطرفين، طرف يكون له الخير العظيم نسأل الله من فضله، والطرف الآخر يكون له الشر العظيم والعياذ بالله.

فنلاحظ أن كل هذه الخيرات تكون لعبد الله الحر، والعكس صحيح للجانب الآخر، كل هذه الشرور تكون للذي ليس عبدًا لله وليس حرًّا.

العبودية لغير الله:

إن للعبودية لغير الله صورًا كثيرة[(١)]؛ منها: الخضوع لما يشتهي الإنسان ويهوى[(٢)]

= ويعتبر الخروج عن البارادايم من الصعوبة بمكان بل هو إبداع، ولكن قد يكون أبداعًا إيجابيًّا أو سلبيًّا، ويحكم هذا النتيجةُ؛ فإن كانت النتيجة صالحة فهو إيجابي، والعكس بالعكس، ولا شك أن ما يمس شرع الله لا يدخل في هذا الإبداع، بل يصح فيه الحديث الشريف: «كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار».

وينقسم الناس من خلال تأثرهم بالبارادايم، إلى ثلاثة أقسام؛ هم: المبدعون، والرواد، والنمطيون.

القسم الأول: المبدعون: وهم الذين يطرحون أفكارا جديدة لا يقيدهم البردايم؛ هم خرجوا من الصندوق.

القسم الثاني: الرواد: وهم الذين يقبلون الإبداع والذين يتبنون أفكار المبدعين ويحولونها إلى واقع.

القسم الثالث: النمطيون أو (التقليديون): وهم أعداء الإبداع، ولا يريدون التغيير؛ فهم يسرعون برفض الجديد ويتأخرون في التغيير، ومن صفاتهم: التعميم، والتحجر؛ وهما صفتان تغلبان على من في صندوق البارادايم؛ ولذلك هم يعارضون أغلب الاختراعات أو الاكتشافات في بداياتها.

والفرق بين الاختراع والاكتشاف، أن الاختراع ابتكار وإظهار شيء غير موجود؛ مثل: الطباعة، الآلة الكاتبة، التلفزيون، الهاتف المحمول، الكمبيوتر، الإنترنت.... أما الاكتشاف فهو معرفة شيء موجود ولكن لم يكن يظهر؛ مثل: اكتشاف كوكب، أو اكتشاف جرثومة معينة، أو مرض..

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهكذا حال من كان متعلقًا برئاسة أو بصورة- ونحو ذلك من أهواء نفسه- فهذا عبد ما يهواه من ذلك وهو رقيق له؛ إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده؛ ولهذا يقال: «العبد حر ما قنع.. والحر عبد ما طمع»، وقال الشاعر:

أَطَعْتُ مَطَامِعِي فَاسْتَعْبَدَتْنِي ... وَلَوْ أَنِّي قَنِعْتُ لَكُنْتُ حُرًّا

ويقال: الطمع غل في العنق، وقيد في الرجل؛ فإذا زال الغل من العنق زال القيد من الرجل» انتهى باختصار من كتاب العبودية لابن تيمية.

(٢) قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾، سورة الفرقان، الآية: (٤٣). ولا يخفى أن من أهم الوسائل المادية التي يستطيع أن يتوصل بها الإنسان إلى شهواته: =

من جهة، والخضوع للأشخاص من جهة أخرى[١]؛ فالعقل يعرف أن الحجر أو الشجر أو النار أو الشمس أو الميت أو الحي... من خلق الله سبحانه وتعالى، ولكن شياطين الإنس والجن هم الذين أفسدوا بعض الناس بوسائلهم المختلفة فأطاعوهم- مع أنهم مخيرون- وهذا من عبادتهم، وقد سبق بيان كيف اتخذوا الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله[٢]؛ لهذا يجب أن يقدر الإنسان قيمة الحرية والاختيار؛ لأنها أمانة عظيمة.

وهذا لا يمنع من التأثر بالناس في عمل الخير؛ كالقدوة والنصيحة...، مع أن عمل الخير إذا كان نابعًا من صاحبه سيكون أفضل وأصفى وأخلص.

لأن من يتوجه من نفسه لله سبحانه وتعالى خير من أن يدفعه أحد لهذا التوجه، بل إن من لا يعمل العمل إلا من أجل الناس يعتبر منافقًا مرائيًا في الدرك الأسفل من النار.

لهذا ينبغي أن نكون أحرارًا ونربي النشء على ذلك، وليس معنى أن نكون أحرارًا ألا نقيم للناس وزنًا، فنناقضهم ونحطم عادات المجتمع ونعمل ما يخرم المروءة أو نعتدي عليهم[٣]، فهذا بلا شك من قلة الأدب وليس من الحرية؛ لأن من الأدب احترام الناس وتقدير أذواقهم، وهذا لا ينافي الحرية، بل قد يضادها؛ لأن فيها خضوعًا للنّزوات واتباعًا للهوى، وهذا لا يقبله الشرع ولا العقل.

وخير مثال على هذا من يرى أن حرية المرأة تتمثل في نزع الحجاب والاختلاط

= المال؛ ولهذا فإن العبد يخضع للمال من أجل ما يهوى، فهي ظلمات بعضها فوق بعض؛ الهوى والمال، مع أن الخضوع لأحدهما مهلك لصاحبه؛ قال الرسول صلى الله عليه وسلم عن عبد المال: «تعس عبد الدينار وعبد الدرهم...». صحيح البخاري.

(١) ومن المعروف أن المجوس يعبدون النار، ولكن هذا ما عناه الصحابي الجليل ربعي بن عامر رضي الله عنه حينما قال: «إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام» كتاب (البداية والنهاية) لابن كثير.

(٢) وقال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾، سورة التوبة، الآية: (٣١)، وقال تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾، سورة آل عمران، الآية: (٦٤).

(٣) وكما قيل: «حريتك تنتهي عندما تبدأ حرية الآخرين».

والإباحية.

فلا بد أن نعمل ونحرص على تربية الأجيال على التقرب من عبادة الله والتحرر من غيره فنكون عبيدًا أحرارًا.

حرر نفسك:

إن المسلم الحر يقول لجميع أصحاب الملل والمذاهب من متعصبين وكفار ومتمذهبين ومتصوفين وعلمانيين[١]، وكذلك يقول لليبراليين[٢] الذين يتبجحون بالحرية حينما يتشدقون فيقولون: (Free Your Self)؛ أي: «حرر نفسك»؛ يقول لهم جميعًا: «بل أنتم حرروا أنفسكم»[٣].

أما من يقصد بالحرية أن يكون حرًّا على الإطلاق من غير نية التزام الحق، فإنه ينبغي أن يعلم أمرًا هامًّا وهو: أن من يخالف العقل لا يعتبر حرًّا، بل يعتبر مجنونًا، وأشد منه من يخالف شرع الله سبحانه وتعالى.

وفي كلا الحالين يدل هذا على فساد عقله، وقد يرجع هذا الفساد- غير الجنون- إلى فساده الراجع إلى إرادة الفساد[٤]. نسأل الله الصلاح والإصلاح.

---

(١) العلمانية هي اللادينية، أو فصل الدين عن الحياة العامة.

(٢) الليبرالية هي الحرية، أما ليبراليو العالم فقد يلتمس لهم العذر بحكم أنهم ما عرفوا إلا الكفر، فأرادوا التحرر من كل ما يعرفون، أما ليبراليو العالم الإسلامي أسرى الأهواء والمصالح الرخيصة، فلا عذر لهم؛ لأن الأحرار منهم حقًّا اتبعوا المنهج الإسلامي الحر في الحقيقة. وكل من ادعى الليبرالية ممن لم يعرف الإسلام ولم يدخل فيه بعد أن يعرفه حقًّا فهو كاذب؛ لأنه ليس حرًّا، بل عبد لهواه.

(٣) في كتاب (الرسول في الدراسات الاستشراقية المنصفة) يقول محمد شريف الشيباني: «ولقد رأى الباحث الأسباني العلامة سان اليار في مؤلفه: «تعاليم اللغة العربية» أن مبادئ الحرية الفكرية التي دعا إليها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم تجاوزت أفكار الكثير من المفكرين والمصلحين، بقوله: «إن أوضح مبادئ الحرية الفكرية قد كشفت أمثال لوثير وكالفين، وعاد الفضل فيها إلى رجل عربي من رجال القرن السابع؛ ذلك هو صاحب شريعة الإسلام» انتهى .

(٤) فمن قدم هواه على أمر الله عز وجل، لأي سبب كان من كبر أو عناد... أو أي شهوة زائفة زائلة، فإنه بلا شك قدم الضلال على الهدى، والعذاب على المغفرة؛ فما أصبره على النار: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾، سورة البقرة، الآية: (١٧٥). =

الخلاصة:

إن قمة الشرف والمتعة في أن نتشرف ونستمتع بالعبودية التامة لمن يستحقها، وفي المقابل نتشرف ونستمتع بالحرية التامة عن غيره، وأفضل من هذا الشرف والمتعة أن مكانتنا تعلو عند الله عز وجل كلما زدنا في تحقيق هذا المعني، وفي الحقيقة هذا هو معنى أغلى وأعظم كلمة وهي كلمة: «لا إله إلا الله»؛ فالخضوع والعبودية تكون له وحده لا شريك له سبحانه وتعالى.

لهذ ينبغي أن نربي أجيالنا على القيمة العالية الحرية وحسن الاختيار؛ فإنها أمانة.

حرية إبداء الرأي وقول الحق:

إن الحق لا بد له من تبيين؛ لذلك بعث الله الرسل؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾[1].

فالمطلوب أن يعرف الإنسان الحق ويعرف الباطل، وهذه رسالة المعلم، وهي أن يربي طلابه على بيان الحق في كلا الحالتين: في حالة كون الأمر صحيحًا، وفي حالة كون الأمر خطأً.

ولكن ما الحق؟ ومع من يكون؟ لا شك أن الحق من الله سبحانه وتعالى وأنه أرسل به الرسل عليهم السلام، ولكن ليس لأحد من بعدهم- مهما كان- أن يدعي

= بل إن هذا المسكين الناقص والضعيف صاحب العمر القصير الذي يدعي حرية التصرف، لو انسد عرق في مخه (جلطة) أو انفجر (نزيف)، لأصبح لا يستطيع التصرف والسيطرة على حركاته، فكيف يسيطر على تفكيره؛ قال تعالى: ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾، سورة البقرة، الآية: (١٤٧).

بل إن البعض عندما تبدأ عليه علامات الشيخوخة أو يحس أنه اقترب من الموت- كمن يصاب بمرض خطير كالسرطان أو الأيدز- فإنه قد يلجأ إلى الله خوفًا فقط، ولكن لو أنه قدم هذا اللجوء حبًّا لله ورجاءً وخوفًا منه لكان خيرًا له.

ومهما ادعى الحرية في التفكير، فإنه سيذل ويرضخ لما اتفق عليه الجميع وهو باختصار: إن الإنسان مهما عمل فإنه سيموت؛ لذلك فليلجأ إلى الله الجبار القوي الحي الذي لا يموت سبحانه وتعالى. أما الأحرار فإنهم يلجؤون له سبحانه؛ لأنه المستحق لذلك، فيجمعون الحب والرجاء والخوف من الله عز وجل.

(١) سورة البقرة، الآية: (١١٩).

أنه صاحب الحق أو أن قوله هو الحق (الحق الإلهي)؛ لهذا لا بد من الاجتهاد في معرفة الحق والعمل به، وعلى المعلم أن يربي الطالب على أن يعرف الحق ويقوله ويتمسك به ويدافع عنه ويدعو إليه ويحكم به ويرضى به.

ولكي يكون الطالب مع الحق، فإن لذلك معانيَ وعواملَ وصفاتٍ توصله إليه ينبغي الأخذ بها وترك ما يضادها، وسنمثل للأولى والثانية:

الأولى: العوامل والصفات التي توصل إلى الحق:

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- الشورى.
- إبداء الرأي.
- عدم السكوت عن قول الحق.
- النقد.
- النصح.
- التقويم.
- الاقتراح.
- الإصلاح.
- الحرية[١].

وفي المقابل هناك عوامل وصفات تبعد عن الحق؛ مثل:

- النفاق والمداهنة [٢].

---

(١) سيأتي الحديث عنها إن شاء الله تعالى.

(٢) ولا يعني هذا أن يكون المسلم جلفًا جافيًا، بل عليه أن يتكلم بكلام يغمره الحب والأدب، بل يختار أحسن الألفاظ وأجملها، وعليه أن يداري ويلاطف، ولكن لا ينافق ويداهن؛ والفرق بينهما كبير؛ فالأول من المعاملة الحسنة، أما الثاني فإنه خداع على حساب الحق، وورد في كتاب فتح الباري لابن حجر: «الفرق بين المداراة والمداهنة: أن المداراة بذل الدنيا لصلاح الدنيا أو الدين=

- التسلط والاستبداد والاستعلاء.

- الكبر (بطر الحق)(١).

- التفرد بالرأي.

- الطاعة العمياء.

- السكوت على الإطلاق(٢).

وهنا نلاحظ أن الأولى تتميز بالعزة والكرامة، والثانية تغلب عليها الذلة والمهانة.

إن التربية على الاحتجاج والانتقاد والدفاع عن الحق من الأسس التي يجب أن يُربَّى عليها الطالب لكي يلتزم بالحق ويدافع عنه؛ لأنه إذا لم يدافع عن الحق فكيف سيواجه الحياة؟ وكيف سيدافع عن حقوقه؟ مثل:

- كيف يدافع عن حقوقه ومقدساته التي اغتصبها الصهاينة؟

- كيف يدافع عن نفسه؟

- كيف يدافع عن مبادئه؟

- كيف يدافع عن دينه؟

وكيف وكيف وكيف؟؟؟

ولا شك أن حرمان الطالب من هذه التربية سيكون عاملا لتكوين نوعين من

= أو هما معا، وهي مباحة، وربما استحبت، والمداهنة ترك الدين لصلاح الدنيا» انتهى.

(١) روى الإمام مسلم في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة؟ قال: «إن الله جميل يحب الجمال؛ الكبر بطر الحق وغمط الناس».

معنى (بطر الحق) هو: دفعه وإنكاره ترفعًا وتجبرًا. ومعنى (غمط الناس) هو: احتقارهم؛ كما في شرح النووي على صحيح مسلم.

(٢) إن مقولة: «إذا كان الكلام من فضة، فالسكوت من ذهب»، ليست على إطلاقها؛ فهي تقال في حق الكلام الذي ليس فيه فائدة؛ لأن الكلام قد يكون مستحبًا، وقد يكون واجبًا، ويكون السكوت محرمًا، وكما قيل: «الساكت عن الحق شيطان أخرس».



الطلاب متضادين، بحيث ينشأ إنسانًا على النحو التالي:

النوع الأول: إنسان ثائر على غير هدى، منحرف لا يؤمن بشيء، ليس له مبادئ يسير عليها، ومن ثم يتخبط في حياته فيدمر نفسه ويدمر غيره.

النوع الثاني: إنسان مهزوم، والمهزوم يفقد شخصيته فيكون (كما هو ملاحظ):

١ - إما تابعًا لمن يقوده ولو كان إلى ضلال.

٢ - أو منطويًا على نفسه بلا شخصية.

مواقف المربين من هذه المبادئ:

إن رؤية المربين إلى هذه المبادئ تنقسم باختصار إلى قسمين أو منهجين أساسيين: الأول: يمنعها منعًا باتًّا، بل يعتبرها من إثارة الفتنة، بل إن منعها من الحكمة وسداد الرأي، والثاني: يؤيدها ويشجعها بل يأمر بها ولكن بتعقل؛ وهناك قسم ثالث وهو: عدم التطرق لهذا الأمر وجعله مهملًا فليس هناك منهج يقتدون به.

وكذلك هناك قسم رابع وهو: تشجعها ولكن بشكل فوضوي، وهذا القسم شائك لا يتضح للكثير من الناس، بل إن كثيرًا من الناس يلحقه بالمنهج الثاني (المؤيد لإبداء الرأي) أو يجعله سببًا لإلغاء هذا النهج، وبهذا يختار النهج الأول (منع إبداء الرأي) ويلغي غيره؛ إما بجهل أو بسوء نية.

ولإيضاح ذلك سنناقش المنهج الأول والثاني، ومن خلال المناقشة يتبين المنهج الصحيح بإذن الله سبحانه وتعالى.

أما المنهج الأول فإنا إذا أرجعناه لأصله وجدناه تابعًا للمدرسة الفرعونية وإن ألبست لباسًا إسلاميًّا؛ كما قال ابن تيمية: «وهذه حال كثير من المتدينين»[1].

وأما المنهج الثاني فإنه منهج الأنبياء ومن سار على نهجهم، وسنبين أصل هذا التوجه

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وهذه حال كثير من المتدينين؛ يتركون ما يجب عليهم من أمر ونهي وجهاد يكون به الدين كله لله وتكون كلمة الله هي العليا؛ لئلا يفتنوا بجنس الشهوات؛ وهم قد وقعوا في الفتنة التي هي أعظم مما زعموا أنهم فروا منه، وإنما الواجب عليهم القيام بالواجب وترك المحظور». مجموع فتاوى ابن تيمية.

والرد عليه، ولكن من خلال المعلم وطلابه (وهو ما يهمنا في هذا الكتاب)، وهو دعوة المعلم لكي يربي طلابه في مدرسة نبوية تخرج جيلًا يتميز بالعدل والرشد والمساواة والحرية والعزة، لا جيلًا فرعونيًّا يشتكي من الذل والفسوق والظلم والعبودية، ولن يكون هذا الكلام إنشائيًّا، بل سيستند على أدلة عقلية ونقلية صريحة صحيحة؛ لأن الكثير ممن تربى في المدارس التقليدية التي قد تكون قريبة من المدارس الفرعونية (ولو ادعوا أنها إسلامية) سيرفضون هذا الإيضاح؛ لأنه ضد توجههم؛ إما بسبب الجهل، أو بسبب سوء النية؛ كدفاعهم عن مصالحهم.

ولا شك أن هذا الكلام لا يندرج تحته كل المعلمين، بل إن كثيرًا منهم يحرصون أو يعملون وفق المنهج النبوي، وكذلك يربون طلابهم وفق ذلك.

ولكن سيكون الخطاب موجهًا للمعلم الذي يتبع المنهج الأول، فيقال له: لا تكن ضحية من أجرموا في تعليمك وتربيتك على هذا، بل لا تنهج سبيل الصهاينة أو الفراعنة، بل اتبع سبيل الأنبياء والمصلحين.

فإذا دعتك نفسك الظالمة، أو أثرت عليك تربيتك الجائرة، أو رأيت في الصلاحيات الممنوحة لك وتميزت بها عن الطالب الضعيف ما يجعلك في مكانة عالية؛ فلا تكن كفرعون: ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾[1]، أو منهج إبليس: ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾[2]، ولا تستأثر بالقول لك وحدك كفرعون: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾[3]، ولا تجعل طلابك يطيعونك طاعة عمياء: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾[4]، ولكن في المقابل ليكن مبدؤك كمبدأ موسى- عليه السلام- الذي تربى في بيت فرعون ونال الكثير من الميزات؛ كالجاه والعز والنعمة بحيث صارت له صلاحيات كثيرة تعطيه الفرصة للاستبداد والتسلط، ولكنه قال قولته المشهورة في كتاب الله سبحانه وتعالى وبها تبرأ

(١) سورة الزخرف، الآية: (٥٢).

(٢) سورة الأعراف، الآية: (١٢)، وسورة ص، الآية: (٧٦).

(٣) سورة غافر، الآية: (٢٩).

(٤) سورة الزخرف، الآية: (٥٤).

من الانحراف لأي سبب كان: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾[١].

وزيادة على هذا سنذكر بعض الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ومواقف لرجلين هما أعظم تلاميذ رسول الله صلى الله عليه وسلم والخليفتان الراشدان المهديان من بعده، وهما أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، والأدلة كثيرة، وذكرها يطول، والكثير يعرفها، ولكن سأذكر القليل منها لأسباب؛ منها:

١- توضيح الوجه الصحيح المشرق للإسلام وتنقيته من الشوائب.

٢- لبيان أن هذه المبادئ من أصول الإسلام وليست من فروعه؛ لأن الكثير من الناس يهملها أو لا يعطيها قيمتها الحقيقية.

٣- الرد على من يفتري ويشوه الشريعة باسم الشريعة.

٤- للتذكير؛ فإن الذكرى تنفع المؤمنين.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾[٣].

والتواصي بالحق من السبل المنقذة من الخسران، حيث ذكره الله تعالى مع الإيمان والعمل الصالح فبدونه يكون الإنسان في خسر، وهذا بيّنٌ في سورة العصر المكونة من ثلاث آيات، وقال فيها الشافعي رحمه الله تعالى: «لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم»[٤].

أما منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان كثير المشاورة، وكان يقول: «أَشِيرُوا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيَّ...»[٥]، مع العلم أن الله تعالى قد أغناه عنهم، ولكنه أراد تربيتهم على إبداء الرأي وتطييب خاطرهم.

---

(١) سورة القصص، الآية: (١٧).

(٢) سورة آل عمران، الآية: (١٥٩).

(٣) سورة الشورى، الآية: (٣٨).

(٤) تفسير ابن كثير.

(٥) صحيح البخاري.

هذا في حق الرسول صلى الله عليه وسلم، أما في حق غيره فإن المنهج عدم السكوت بل المشورة وإبداء الرأي وقول الحق والنقد والتقويم والإصلاح، بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بايع أصحابه على قول الحق حيثما كانوا، وألا يخافوا في الله لومة لائم[١]، وبين أنه لا قُدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع[٢]، وكذلك وصى أصحابه أن يقولوا الحق ولو كان مرًّا[٣].

أما في الجهة المقابلة، فإنه عليه الصلاة والسلام قد حذر هؤلاء الظلمة الذين لا يقبلون أن يُرد عليهم، وبين مقامهم اللائق بهم؛ فقال صلى الله عليه وسلم: «سَتَكُونُ أَئِمَّةٌ مِنْ بَعْدِي، يَقُولُونَ، فَلا يُرَدُّ عَلَيْهِمْ قَوْلُهُمْ، يَتَقَاحَمُونَ فِي النَّارِ كَمَا تَقَاحَمُ القِرَدَةُ»[٤]، والأحاديث في هذا الباب كثيرة، ولكن في ما ذكر كفاية لمن أراد معرفة المنهج النبوي واتباعه؛ فليتنبه المعلمون- وغيرهم- ألا ينزلوا بظلمهم وتسلطهم عن المستوى الإنساني إلى مستوى القردة، وألا يكون مصيرهم إلى النار والعياذ بالله، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يحفظنا وإخواننا المعلمين، وأن يعيننا على اتباع الحق والابتعاد عن الباطل، ويقينا شر النفس الأمارة بالسوء وشر من يشوه الدين.

أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

أما أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقد اتبع المنهج النبوي بصدق، وطبقه على نفسه، وربى أصحابه عليه وألزمهم به، بل أعلن هذا المبدأ الأساسي عندما تولى الخلافة والذي ضرب به هامة الاستبداد في الصميم بخطبة دستورية بليغة قال فيها: «إن أسأت فقوموني»، وبين من هو الضعيف عنده ومن هو القوي، ومتى يطاع ومتى يعصى.

ولم يكتفِ بالكلام فقط، بل صدق في القول والعمل؛ حيث ترجم هذه المبادئ إلى واقع يشع نورًا ورقيًّا، وليس ذلك بغريب؛ فهو الصديق رضي الله عنه وأرضاه.

وبهذا سار بالناس بعيدًا عن المميزات، محاربًا لخرافة تمييز الناس بين قوي وضعيف،

---

(١) صحيح البخاري.

(٢) صححه الألباني.

(٣) صححه الألباني.

(٤) صححه الألباني.

فالمميزات الدنيوية لا قيمة لها عنده، فالاحترام والتقدير مكفولان للجميع وبالتساوي، وهذا منهج المؤمنين الذين تربوا في المدرسة النبوية، بعيدًا عن غش المسلمين والتلاعب بالألفاظ، بل بالمبادئ.

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله: «أيها الناس، فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف منكم قوي عندي حتى أزيح علته إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ منه الحق إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا يشيع قوم قط الفاحشة إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله» انتهى[1].

بل إنه رضي الله عنه صحح بعض المفاهيم المغلوطة؛ مثل قوله: «يا أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية، وتضعونها على غير موضعها: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾(٢)، وإنا سمعنا النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ»، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي، ثُمَّ يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا، ثُمَّ لا يُغَيِّرُونَ إلا يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ مِنْهُ بِعِقَابٍ» انتهى[3].

عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه اتبع المنهج النبوي أيضًا بصدق، وطبقه على نفسه، بل ربى أصحابه عليه، وهذا لا يخفى، ولكن نورده من باب التذكير:

قال رضي الله عنه: «رحم الله من أهدى إلي عيوبي»[4].

---

(١) رواه الحافظ ابن كثير في كتابه البداية والنهاية، وصحح إسناده.

(٢) سورة المائدة، الآية: (١٠٥)؛ وهي قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

(٣) صححه الألباني.

(٤) سنن الدارمي وتفسير الرازي.

وقال: «لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نقبلها منكم»[١].

وقال: «الحمد لله الذي جعلني بين قوم إذا رغبت عن الحق قوموني»[٢].

وإليك هذا الانتقاد والاعتراض والمساءلة التي تبين المستوى الراقي، الذي لو كان في هذا الوقت المتخلف لقيل فيه جميع الاتهامات السيئة، ولكنها التربية النبوية وليست الفرعونية، فهي بين رجلين رباهم الرسول صلى الله عليه وسلم وزكاهم:

«خطب عمر بن الخطاب يومًا وعليه ثوبان، فقال: أيها الناس ألا تسمعون؟!

فقال: سلمان لا نسمع.

فقال: عمر، ولم يا أبا عبد الله؟

قال: إنك قسمت علينا ثوبًا ثوبًا وعليك ثوبان.

فقال: لا تعجل، يا عبد الله، يا عبد الله، فلم يجبه أحد.

فقال: يا عبد الله بن عمر.

فقال: لبيك يا أمير المؤمنين.

فقال: نشدتك الله، الثوب الذي ائتزرت به أهو ثوبك؟

قال: نعم، اللهم نعم.

فقال سلمان: أما الآن، فقل نسمع»[٣].

وكذلك سار صاحباهما عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاهم جميعًا وزكى منهجهم فقال: «إِنَّ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي؛ عَضُّوا

(١) كتاب (مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب) لابن الجوزي. وقد قالها عمر بن الخطاب عندما أراد أحد الحضور إسكات أحد المعترضين على عمر رضي الله عنه.

(٢) كتاب (كشف الأسرار) لعلاء الدين البخاري.

(٣) كتاب (إعلام الموقعين) لابن القيم.



عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ»[١].

لهذا ينبغي أن نلتزم ونتمسك بهذه السنة، وندع من يخالف هذا المنهج بأي حجة أو خدعة كانت.

بل علينا ألا نلتفت إلى غيرهم من الظلمة المستبدين المغرورين بمناصبهم؛ كقول القائل: «والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه»[٢].

وقتنا الحاضر:

ولننتقل من تلك العهود النبوية والراشدة الراقية، إلى وقتنا الحاضر الذي حصل فيه بعض النقص والتشويه، ولنناقش أفكار بعض المعلمين وأقوالهم[٣]؛ مثل:

- «سأجعل الطالب لا يرفع رأسه».

- «في الماضي كان الطالب لا يرفع عينه أمام المعلم، أما الآن فإن الطلاب قليلو الأدب».

- «سأعلم الطلاب الأدب، بحيث يسمع الطالب ولا يرد على معلمه».

- «سأكسر شوكته».

- «سأحجمه»... وغير هذا من الكلام الصادر من أفكار مغلوطة.

فيقال: إن الطالب إذا لم يرفع رأسه ولم يبد رأيه ويطالب بحقه بطريقة صحيحة راقية، فإنه لا بد أنه سينحرف، وهذا الانحراف له اتجاهان، وهما:

١- إما أن يهتم بسفساف الأمور؛ لأنه منع من رفع رأسه، فإذا لم يرتفع رأسه ارتفعت أمور أخرى، وكثير من هذا واقع.

٢- وإما أن يرفع رأسه ويرد على معلمه وغير معلمه ولكن بطريقة وقحة؛ لأنه لم

(١) صححه الألباني.

(٢) كتاب(تاريخ الخلفاء) للسيوطي.

(٣) وهم قليلون ولله الحمد، نسأل الله لنا ولهم الهداية والتوفيق، وهذا النقد من باب «رحم الله من أهدى إلي عيوبي».

يتعلم الطريقة الصحيحة، وكثير من هذا واقع.

سؤال: لكي نعلم بشاعة هذه الأقوال، ينبغي أن نسأل أنفسنا: إذا ذهب المعلم المؤيد لتدمير إرادة الطلاب وكسر شوكتهم، إلى صلاة الجمعة وسمع المسلمين يؤمنون على دعاء الخطيب الذي يقول: «اللهم من أراد أبناء المسلمين بسوء فأشغله بنفسه، واجعل الدائرة عليه، واجعل تدبيره تدميرًا عليه، ورد كيده إلى نحره، واكسر شوكته، و....».

ففي هذه الحال ماذا يقول:

١- يدعو على نفسه ويقول مع المصلين: (آمين)!

٢- يقول: اللهم اغفر لي وارحمني وتب علي واهدني.

٣- يقول: بل اللهم انصرني على أبناء المسلمين واكسر شوكتهم بحيث لا تقوم لهم قائمة!

نلاحظ أن هذه الأفكار في الغالب ناتجة من البيئة التي عاش فيها المعلم، بل بشكل خاص من المدرسة؛ فالمعلم كما هو معروف يتأثر بمعلمه، وكذلك بزملائه المعلمين وخاصة الذين جاؤوا من قبله. وعلى هذا الأساس يكون المعلم نسخة مكررة من معلمه، ثم يكون الطالب الذي سيتخرج معلمًا نسخة من معلمه وهكذا- وقد يكون بعضهم نسخة مخففة- ولكن لماذا أيها المعلم لا تقطع هذا التسلسل الفرعوني، بل تنتقل وتنهض بالجيل إلى التربية النبوية[1]؟ وبهذا تقطع هذه السلسلة السيئة.

ونقول لمن يدافع عن هذه السلسلة أو يلتمس لها الأعذار والمبررات أو يتلاعب بالأدلة: اتق الله، ودع الناس يعرفون الوجه الحقيقي للإسلام، بل يعيشونه، فلا تكن ممن يشوهون الإسلام، فقد حصل للإسلام من التشويه الشيء الكثير [2]، بل بسبب

(١) إن هذا (الطالب) يمثل تسلسل الأجيال كلها، فهو في الماضي أنت عندما كنت صغيرا وأخوك وصديقك وجارك.. بل ما قبل ذلك هو أبوك وعمك وخالك... وفي الوقت الحاضر هو أخوك الصغير وابن جيرانك، وفي المستقبل ابنك وابن أخيك وابن صديقك.. وهكذا التسلسل والإحساس؛ فالمسلمون كالجسد الواحد.

(٢) قال أحد المسلمين: «إن الغرب لم يعد بحاجة لإزعاج نفسه حول كيفية تشويه صورة الإسلام؛ لأننا- نحن المسلمين- نفعل ذلك لهم». والأمثلة على صور تشويه الإسلام كثيرة؛ منها: ثناء =

هذا التشويه ارتد بعض المسلمين عن دينهم أو انحرفوا عن بعض مبادئه، فمنهم من اتبع الغرب أو الشرق أو الأديان والمذاهب الأخرى؛ كالشيوعية أو الليبرالية بحجج مختلفة؛ مثل الحرية أو العدل أو المساواة... فاتق الله ولا تظلم نفسك وتظلم غيرك وتشوه هذا الدين الكامل، بل اجعل غير المسلمين يقبلون على الإسلام، لا تنفر المسلمين منه؛ فقد قال الحبيب صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ مِنكُمْ مُنَفِّرِينَ»(١).

الخلاصة: إن الإسلام هو دين الحرية وقول الحق وحرية إبداء الرأي، وينبغي ألا نلتفت لمن يشوه الإسلام بكبت الطلاب بحجة الفتنة والحكمة...، بل تراه لتأييد ما في نفسه

= البعض على الفقر والمرض، بل منهم من يدعو إليه! ويذكر في سبيل هذه الأفكار الفاسدة بعض الأحاديث الذي تذكر الأجر الذي يناله الفقير والمريض الصابر المحتسب، وكذلك الأقوال التي تذكر فوائد الفقر والمرض، بل الأقوال التي تمجد الفقر والمرض وكذلك الجهل، والكتب مليئة بهذه الأقوال والمدافعين عنها، ومن أراد الاستزادة فليطلع على كتب وأقوال مخرفي المتصوفة وغيرهم.

وللرد على هذه الأقوال السقيمة التي ينخدع بها الكثيرون، نكتفي ببيان الموقف العام للإسلام منها، والمتمثل في أن الرسول صلى الله عليه وسلم تعوذ منها جميعا، وفي المقابل سأل الله سبحانه وتعالى عكسها، ولا شك أنه يتعوذ من الشر ويسأل الله الخير، والأحاديث في ذلك كثيرة.

بل إن تشويه الدين بلغ إلى حد الوقوف مع أعداء المسلمين! كقول بعض المتصوفين عن جيوش الاستعمار عندما غزت بعض دول شمال إفريقيا: «إن دخول هؤلاء هو من قدر الله، وإن محاربتهم اعتراض على قدر الله»، أو: «هو عقاب من الله فارضوا بعقابه».

هذه أمثلة على تشويه الإسلام باسم الإسلام، أما تشويهه ببعد المسلمين عن الإسلام فذلك كثير، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يصلح حال المسلمين.

فانظر إلى موقف البعض من هذا الثالوث: الفقر، والمرض، والجهل؛ الذي هو أكبر عدو للمجتمعات بعد الكفر، بل قد يكون وسيلة إلى الكفر؛ لأنه عدو بحد ذاته، في حين يجعله البعض من الدين! وفي هذا بيان أن هناك من يدخل أمورا أخرى يحاربها الإسلام؛ مثل سوء المعاملة في التربية ومنها الضرب.

وقد يكون من وراء التزوير والتلاعب في الدين هدف آخر؛ وهو أن يتم استغلالهم من خلال إضعافهم وتجهيلهم بـ(الفقر والمرض والجهل)، فإذا سيطر عليهم هذا الثالوث، فإنه سيسهل استغلالهم بأنواع الاستغلال المختلفة، بل إذلالهم؛ ومما يساعد على ذلك ضربهم وهم صغار، بل قد يضربون وهم كبار، ومن يحتج فإنه يعتبر معارضًا للدين أو لعادات وتقاليد المجتمع؛ لأن المسلم إذا صار عالما غنيا قويا فإنه سيكون عزيزا، ولن يخضع إلا لله وحده، وهذا ما لا يرضاه الكثيرون، على اختلاف أنواعهم، سواء بقصد أو من غير قصد، وبطريق مباشر أو غير مباشر.

(١) صحيح البخاري.

يتعسف بنقل بعض الأقوال من هنا وهناك، ولهذا نقلنا من الأصول الصريحة الصحيحة، ولو ذهبنا نقل كل ما اطلعنا عليه من كلام في هذه المسألة لطال بنا الكلام، ولكن لعل فيما ذكرنا من الآيات والأحاديث وكلام أهل العلم كفاية وإقناع لطالب الحق الذي يريد تربية الطلاب على مبادئ الإسلام النقية الطاهرة البعيدة عن الشوائب والأهواء، والحمد لله رب العالمين.

ورحم الله الشافعي الذي يعتبر من أكبر أئمة الإسلام، والذي فهم الإسلام فهماً صحيحاً حيث قال:

هِمَّتِي هِمَّةُ المُلُوكِ وَنَفْسِي نَفْسُ حُرٍّ تَرَى المَذَلَّةَ كُفْرَا

خاتمة الباب:

إن علاج الأخطاء ينبغي أن يكون شاملًا؛ أما ألا نطبق منهج الرسول صلى الله عليه وسلم في التربية والإصلاح ونجعل التخلف والفساد ينتشر، ثم ننطلق على هؤلاء الضحايا فنعاقبهم بالضرب بيد من حديد، بل قد نعاقبهم باسم الشريعة ؛ فنطبق عليهم الحدود؛ إذ إن البعض لا يرى في الإسلام وتطبيق الشريعة إلا إقامة الحدود فقط[١]، مع أن الإسلام منهج كامل شامل، أما من يريد أن ينتقي منه بعض ما يريد ويترك البعض الآخر، فليقرأ قول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٢].

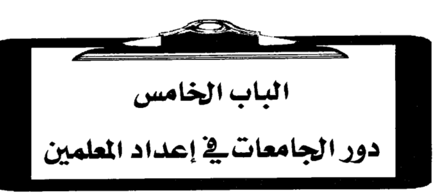
---

(١) مع أنه روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه نهى عن قطع يد السارق في حالة معينة وهي المجاعة، عندما رأى أن المسلم لم تتكامل فيه الأمور الموجبة لإقامة الحد؛ لأن الهدف لا يكمن في قطع اليد، وإنما لمنع السرقة؛ فقطع اليد لمنع السرقة، وهذا الإيضاح ليس من باب الدعوة لعدم إقامة الحدود كما يدعو له أعداء الشريعة، وإنما من باب إقامة الشريعة بوجه كامل.

(٢) سورة البقرة الآية: (٨٥). والآيات في هذا الباب كثيرة جدا.

الباب الخامس
دور الجامعات في إعداد المعلِّمين





الباب الخامس

دور الجامعات في إعداد المعلمين

يناقش هذا الباب: مشاكل إعداد المعلمين، وما المطلوب منهم، والمراحل التقليدية لإعداد المعلمين، وفي المقابل الطريقة المثلى لإعدادهم، والتقصير الحاصل من الجامعات بما فيها من أساتذة، ولأن الجامعات هي أعلى المؤسسات التعليمية، سيرد ذكر قصة (سنوحي) ليتبين أنه ليس هناك أحد من الناس غير الأنبياء منَزَّه عن النقد مهما كانت المكانة والسمعة.

ويناقش الوضع البائس للطالب الجامعي، والشهادات العليا، والألقاب، ومشاكل الأساتذة، والجامعات، وطريقة التدريس، وقصور المواد العلمية وضعف مضمونها، والنقص في كليات إعداد المعلمين.

المعلم المظلوم:

لقد دأب الكثير من الناس على إلقاء المسؤولية فيما يقع من مشاكل التربية والتعليم على كاهل المعلمين فقط، ولا شك أن في هذا ظلمًا للمعلمين وعدم فهم للعملية التعليمية والتربوية بشكل عام؛ لأن المسؤولية أكبر وأشمل من ذلك بكثير.

صحيح أن المعلم عامل أساسي في هذا الأمر، ولكن هناك عوامل أخرى هامة تؤثر في وجود الأخطاء، ولا شك أن هناك من أسهم في هذه الأخطاء، بل أسهم في وجود أخطاء المعلمين.

فكما أن على المعلمين واجبات، فإن لهم حقوقًا كذلك، ولكي لا ينحصر جهد الكتاب في بيان حقوق الطالب- مع أنهم هم الأساس وهم الجيل القادم- ينبغي بيان حقوق المعلم، مع العلم أن المعلم إذا أعطي حقوقه فإن ذلك سيعود بالنفع على الطالب، وإحقاقًا للحق فإنه لابد أن نبين أن المعلم بشكل عام مظلوم، وظلمه ليس من جهة

واحدة، ولكن من عدة جهات، ومن الأمثلة على الظلم الذي أصاب المعلم ما يأتي:

١- سوء إعداد المعلم في مراكز إعداد المعلمين[١].

٢- تقصير الإدارة المدرسية (بمعناها العام) في إعطاء المعلم حقوقه المادية والمعنوية، وكذلك تقصيرها في تدريبه والرفع من كفاءته...

٣- عدم وجود المدارس النموذجية بما فيها من تجهيزات مكتبية وتعليمية ومكتبات[٢] وساحات وقاعات وأماكن تناول الإفطار وطريقة الحصول عليه ونوعيته... وعدم تحديد الأعداد المناسبة من الطلاب في كل صف[٣]، وكذلك غياب إعداد المناهج المتميزة والوسائل التعليمية.

ولو ناقشنا هذه الجوانب لطال الأمر، ولكن سنناقش القسم الأول من هذه الجوانب؛ وهو: إعداد المعلمين والرفع من كفاءتهم.

---

(١) بل ناله الظلم قبل هذه المرحلة، فلم يأخذ حقوقه التربوية والتعليمية، بل إنه عانى من مشاكل التربية والتعليم أكثر من طلاب وقتنا الحاضر.

(٢) وإن كان في المدرسة مكتبة، فإن فيها كتبًا إنشائية مملة؛ مثل عيد- أو يوم- الشجرة أو الأم أو المعلم...، أو مبادئ ومُثُل لا تطبق إلا في النادر. فهذه المبادئ ينبغي أن تضمن في القصص والكتب العلمية وغيرها، أما أن تخرج كقرارات أو توصيات أو نتائج مؤتمرات، فالطالب ينبغي ألا يربى على النفاق الاجتماعي والكلام المكرر والممل والمراد به الاستعراض... بل ينبغي أن تكون الكتب شيقة وممتعة ومسلية ومفيدة ومناسبة... كالقصص والكتب العلمية والقواميس... وتكون على مستوى عالٍ من الإعداد والتصوير والطباعة والإخراج... بل ينبغي أن تكون وزارات التربية مساهمة في إعداد هذه الكتب من المتخصصين بعيدا عن الوعظ المباشر والتقعر والألفاظ الغريبة والصعبة بحجة الإثراء الثقافي! فإعداد كتب الطلاب لها قواعد وأصول عالمية، ينبغي أن يسير عليها المعدون لها، بعيدًا عن الإعداد التقليدي المتخلف. وكذلك ينبغي الاهتمام بإعداد المكتبة من جميع الجهات؛ مثل: أثاث المكتبة، حسن المعاملة، التنظيم، الراحة، الهدوء، درجة الحرارة، الإنارة... وإعداد المكتبة من جهة تزويدها بالكتب الجديدة والشيقة كل سنة، ومراعاتها لنسبة عدد الطلاب... كل هذا قد يعتبره البعض خياليًّا أو يعتبره بعض المتخلفين ترفًا... مع أن هذه المكتبات النموذجية بما فيها من الكتب، موجودة على أرض الواقع (المطبق والمحسوس) في كثير من الدول المتقدمة، مع أن طلاب العالم الإسلامي أولى بذلك لكمال دينهم ولأنهم خير الأمم، لا أن تكون أمة "اقرأ" لا تقرأ.

(٣) حيث إن العدد العالمي أن يكون في الصف عشرة طلاب تقريبًا.

إعداد المعلمين:

ينقسم إعداد المعلمين إلى قسمين:

القسم الأول: إعداد المعلمين قبل التحاقهم بالعمل، ويتمثل في مراكز إعداد المعلمين، وإعداد البحوث والدراسات العلمية وتأليف الكتب.

القسم الثاني: إعداد المعلمين وتنمية قدراتهم أثناء العمل، ويتمثل في رفع مستواهم وتزويدهم بما يعينهم على حل مشكلاتهم، والإجابة على تساؤلاتهم، وتنمية مهاراتهم وتطويرها، ورفع كفاءتهم لأداء دورهم على أكمل وجه، ويكون ذلك من عدة طرق؛ مثل: الدراسات العليا، والدورات، والبرامج التدريبية، والاهتمام بتعدد مصادر المعرفة، والمحاضرات، والزيارات، والمجلات، والكتب، والنشرات...

ما المطلوب من المعلم؟

إن هناك ظلمًا للمعلم، فالمطلوب من المعلم الكثير والكثير والكثير...، وهناك مطالب ومطالب ومطالب... ومن هذه المطالب التي تطلب منه ما يأتي: أن يلم بالمواد التي يدرسها من الناحية العلمية، ويجيد مهارات البحث، ويبدع في تعليم الطلاب والاستخدام الأمثل للأساليب الفعالة، ويتقن مهارات السلوك والتواصل، ويتميز في استخدام الوسائل التعليمية المناسبة، والقيام بالأنشطة التعليمية الملائمة، مع مراعاة حاجات الطلاب ونموهم النفسي العقلي والاجتماعي والوجداني والشخصي....، ويراعي الفروق الفردية بين الطلاب، ويلتزم بالواجبات والمسؤوليات الملقاة على عاتقه، ويحافظ على الأخلاق الفاضلة؛ كالأمانة، والعدل، والحكمة.... ويحسن التعامل مع جميع الأطراف؛ الطلاب، والزملاء، والإدارة، وأولياء الأمور، ويحقق الأهداف بجميع أنواعها التعليمية والوجدانية والتربوية ووو... إلخ، بل يكون كل ذلك على أعلى المستويات وأحسنها...، ولا يقف عند ذلك الحد بل يسعى للرفع من كفاءته ويستمر في التطوير ووو...!

ولكن أمام كل هذه المطالب التي تطلب من المعلم، هناك سؤال يتبادر إلى الذهن، وهو: هل تم إعداد المعلم إعدادًا تامًّا ومناسبًا لكي يحقق هذه المطالب؟ أو على الأقل

لكي يكون في مقدوره واستطاعته أن يحققها؟ وهل أعطي حقوقه؟ لكي نعرف الإجابة، ينبغي أن نعرف المراحل التي يمر بها المعلم، ونعرف الواقع والمأمول، ثم نعرف بعد ذلك أين الخلل:

المراحل التي يمر بها المعلم:

إن المعلم قبل أن يكون معلمًا ناجحًا يمر بمراحل كثيرة، ينبغي أن يراعى في كل مرحلة من هذه المراحل شروط ومعايير مقننة وموضوعية، وينبغي أن تكون بعيدة عن الشكلية والمحسوبية والفوضى...، وتضمن تخريج معلم ناجح متميز.

ولكن هناك ثلاث مراحل أساسية ينبغي التركيز عليها، وهي:

المرحلة الأولى: مرحلة ما قبل الإعداد:

إن من يتقدم للتعليم ينبغي أن تتوفر فيه شروط أساسية قبل البدء في إعداده لكي يكون صالحًا لمهنة للتعليم من جميع النواحي؛ ومنها: الناحية العلمية، والعقلية، والنفسية، والجسمية... وكذلك سلامة النطق، ووضوح العبارات[1].

وقد نوجزها في نقاط مثل:

١ - وجود الدافع الداخلي والقدرة على الإدراك وتقييم الذات والتكيف.

٢ - القدرة على التحاور وسلامة النطق وإيصال المعلومات.

٣- وجود المصداقية والمثابرة والثقة بالنفس.

٤ - الشخصية القيادية التي تحمل صفات الإحساس بالمسؤولية والرفق والرحمة التعاطف.

٥ - سلامة الشخصية بشكل عام، وتميزها بالأخلاق العالية والسلوك الصحيح.

المرحلة الثانية: مرحلة الإعداد:

ما الذي يجب أن يعرفه المعلم؟ وما الذي يجب أن يكون قادرًا على القيام به؟

---

(١) فمثلا: يلاحظ على بعض المعلمين عدم سلامة النطق أو عدم الوضوح، لدرجة أن بعض الطلاب لا يفهم كلامهم أو لا يستسيغه؛ مثل: البطء، أو السرعة المخلة في خروج العبارات، أو عدم نطق بعض الحروف، أو نطقها بصورة غير صحيحة، ومع ذلك نجدهم مستمرين في تدريسهم، ويحق لكل عاقل مخلص أن يتساءل: كيف يستمرون في التدريس؟! بل كيف تم قبولهم أصلًا؟!

١- المعرفة التخصصية:

أي: معرفة علم المادة التي يدرسها؛ كمعرفة الرياضيات بالنسبة لمعلم الرياضيات.

٢- المعرفة التطبيقية:

أي: معرفة كيفية تدريس هذه المادة.

٣- المعرفة التربوية:

أي: معرفة تربية الطلاب.

ولكن الملاحظ أن غالب مراكز إعداد المعلمين- إن لم تكن كلها- تعتمد على الجانب المعرفي (المعرفة التخصصية)، وهذا من التخلف والقصور الذي أضر بالمعلمين؛ لأنه يركز على جزئية معينة، وهذا مع التقصير الحاصل في هذه الجزئية.

أما المعرفة التطبيقية والمعرفة التربوية، فيلاحظ على المراكز التي تدرسها سلبيات كثيرة؛ مثل: تدريسها بنسب قليلة، ويغلب عليها حشو المعلومات الجافة المملة، كذلك تكون المعلومات قديمة وعقيمة مع وجود الأخطاء العلمية.

لهذا فإن الكثيرين يصفون التعليم في العالم النامي بأنه تعليم بنكي، يشبه ما يحدث في البنوك؛ إذ إنه كما تودع الأموال وتسترد بطريقة آلية، فكذلك المعلومات تودع في ذهن الطالب، ثم في وقت الاختبار تسترجع منه، فعليه أن يذكرها كما كانت.

إن أهم عناصر العملية التعليمية تتمثل في مهارات التواصل والسلوك، وهي من أهم العناصر الواجب توافرها لدى المعلم، وهذا من نقاط الضعف الرئيسة عند بعض المعلمين الذين يحصرون جهودهم في الجانب المعرفي وبطريقة إلقائية، فالمعلومة يمكن الحصول عليها بيسر وسهولة، ولكن الأهمية تكمن في كيفية الحصول عليها ومن ثم الاستفادة منها.

فعلى سبيل المثال في مادة التاريخ، ليس هناك صعوبة في توفير مجموعة كبيرة من الأرقام التاريخية لكثير من الأحداث، ومن ثم فإن أمر الطلاب بحفظها يجعل التعليم حفظ أرقام، ولكن الأهمية تكمن في طريقة إيصال تلك الأحداث التاريخية لفهمها

واستيعابها وتحليلها واستنباط الفوائد منها. وبهذا يخرج الطالب بفوائد معرفية وسلوكية وحب للمعلم والتعليم والمادة والموضوع... وكذلك يُنمى لديه الفهم وطريقة التفكير والمعرفة في استخراج المعلومات واستحضارها وتحليلها.

هذا بالإضافة إلى تحقيق الأهداف السلوكية والوجدانية.

المرحلة الثالثة: مرحلة التدريب (التطبيق):

وهذه المرحلة من أهم المراحل، وهي أسوأ المراحل في الواقع، ولذلك سوف نبينها بشيء من التفصيل، وسنبين الواقع، ثم نبين المأمول:

الواقع:

إن الواقع- مع الأسف- في أغلب مراكز إعداد المعلمين- إن لم تكن كلها- يتمثل في صورة واحدة مع بعض الاختلاف الطفيف، وهذا ما سنبينه باختصار، ومن غير مبالغة؛ لأن الواقع خير برهان.

إن من يريد أن يصور واقع تدريب إعداد المعلمين قبل أن يتخرجوا ويكونوا معلمين، يحتاج إلى: (بيت الشعر التالي)، وكذلك إلى (المثل التالي)؛ لأنهما يصوران الواقع:

أَلْقَاهُ في اليَمِّ مَكْتُوفًا وَقَالَ لَهُ   إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبْتَلَّ بِالمَاءِ!

وأما المثل فهو: «يتعلم الحلاقة في رؤوس اليتامى».

فالمتأمل لبيت الشعر والمثل يجدهما يصوران حال المتدربين؛ إذ إن مراكز إعداد المعلمين تعطي المتدرب بعض المعلومات السقيمة وتجعله مع مجموعة من المتدربين تحت إشراف (أستاذ)، ووظيفة هذا المشرف تنحصر في توجيههم للمدارس ثم إدخال هذا المتدرب (وحيدًا) على الطلاب لا ليعلمهم، ولكن ليتعلم فيهم!

وينحصر عمل هذا (الأستاذ المشرف) على المتدرب في عملية مكررة؛ وهي:

الدخول على المتدرب في الفصل الذي يتدرب فيه، لمدة حصة واحدة أو بعض الحصة، ليقيمه من خلالها، ثم يخرج ويجتمع مع المتدربين ويعطيهم بعض الملاحظات العامة مثل: «يجب عليكم أن تراعوا الفروق الفردية»، وكذلك بعض الملاحظات الخاصة.

وهكذا، تكرر هذه العملية مع كل متدرب عدة مرات قد لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة، وبهذا ينتهي دور التدريب والإشراف ويتخرج المتدرب، ثم يُلقى- بهذه الحال- في هذا البحر من الطلاب لكي (يتعلم فيهم).

وبهذا يتبين أن هناك ضحيتين:

الضحية الأولى: هذا المعلم الذي تعلم وتدرب وتخرج بشكل سيئ، والمحكوم عليه بالفشل مقدمًا، إلا إذا اعتمد على الله عز وجل ثم على نفسه وطورها.

الضحية الثانية: الطلاب الذين يمثلون العالم الإسلامي.

* * *

الطريقة المثلى لإعداد المعلمين:

لكي نصل إلى ما نطمح إليه، ينبغي أن نعرف أن مهنة التعليم من أعظم المهن، إن لم تكن أعظمها على الإطلاق، بل هي تعتبر رسالة؛ لأنها تتحكم في مصير الأمم؛ لذلك فهي لا تقل عن المهن الأخرى بما فيها مهنة الطب مثلا.

ولكن سنرى كيف يتعلم الطبيب وكيف يتدرب لكي يسمح له بممارسة مهنة الطب، والسبب في اختيار مهنة الطب يتركز في أن مناهجهم- بشكل عام- تكون مستوردة بحيث لا يتلاعب فيها بعض الأساتذة، باجتهاداتهم المستهترة بقيمة الطلاب، بل بالإنسان في العالم الثالث.

وسنلاحظ أن كليات الطب تعتمد في إعداد الأطباء على الاهتمام بتنمية مهاراتهم، وتشجيع البحوث العلمية، والتركيز على التعليم العملي الميداني مع التقليل من التعليم النظري[1]:

الدراسة في كليات الطب تنقسم إلى أربع مراحل، وقد يكون هناك اختلاف بسيط من جامعة لجامعة أخرى، ولكنهم يشتركون في النظام الأساسي:

المرحلة الأولى: السنة التحضيرية، وتشتمل المواد العلمية الأساسية.

المرحلة الثانية: ما قبل السريرية، وتشتمل على العلوم الطبية الأساسية، ومدة المرحلة الثانية تساوي مدة المرحلة الثالثة.

المرحلة االثالثة: السريرية، وتمثل الجانب العملي، ويقضيها الطالب في المستشفى،

---

(١) مع العلم أن كثيرًا من كليات الطب في الدول المتخلفة في العالم النامي تعاني من العكس، وهو التركيز على التعليم النظري على حساب التعليم العملي، مع إغفال تنمية المهارات والبحوث العلمية.
هذا في كليات الطب، فكيف الحال في كليات التربية؟!
وهذا يرجع إلى عدة أمور منها سهولة التعليم النظري لأنه- باختصار- لا يكلف إلا مجرد طباعة مذكرات مكررة، وإلقاء محاضرات فقط (مجرد كلام) على مجموعة من الطلاب، ثم اختبار من حفظ هذا الكلام، والسلام.
والأمر الآخر يتمثل في عدم تقدير التعليم العلمي الميداني؛ بسبب التخلف، وكذلك احتقار قيمة الطلاب، أو عدم التضحية وبذل الجهد من أجل الطلاب.

بحيث يتدرب الطالب فيها على إجراء الفحوصات الطبية وتشخيص الأمراض وطريقة العلاج.

المرحلة الرابعة: سنة الامتياز، وهي التدريب على مزاولة الطب تحت إشراف الأطباء الاستشاريين، لمدة سنة، وبعد ذلك يعطى الطالب الشهادة التي تخوله لمزاولة مهنة الطب.

فَتَشَبَّهُوا إِنْ لَمْ تَكُونُوا مِثْلَهُمْ   إِنَّ التَّشَبُّهَ بِالكِرَامِ فَلاحُ

وبهذه المقارنة بين إعداد المعلمين وإعداد الأطباء، نعرف الفرق الكبير بين الأطباء والمعلمين، في جميع النواحي؛ كالنسبة بين الدراسة النظرية وبين الدراسة العملية الميدانية والتركيز في التخصص والمعلومات الموضوعية والجدية والمهنية... وكذلك الاستعدادات المادية؛ كالمباني، والأجهزة، والمراجع، والقاعات...

مع العلم أن عمل المعلمين أهم من الأطباء بفارق كبير ومن وجوه كثيرة يطول ذكرها، ولكن أهمها أن الأطباء يسعون في إصلاح حال المرضى والمعلمون يسعون في إصلاح حال الأمة كلها.

ولكن مع الأسف، من يقوم بدراسة ميدانية متكاملة، فإنه بلا شك سيلاحظ الفرق الكبير، ومدى التقصير من كليات إعداد المعلمين، هذا مع العلم أن بعض المعلمين يتخرج من مستويات أقل من كليات التربية؛ مثل المعاهد، أو يتم تأهيل المعلمين بدورة تسمى (دبلوم) تكون مدتها ستة أشهر أو سنة ثم يتخرج معلمًا، بل إن بعض الجامعات تدرس كل هذا في مادة واحدة تسمى (طرق التدريس).

والخلاصة أن المعلم يتخرج بعد أن يدرس دراسة عقيمة تركز على الجوانب النظرية.

والجامعات التي يقال لها إنها متخصصة ومتميزة، يكون التدريس فيها لمدة سنة واحدة فقط، وتقسم إلى نصفين:

في نصف السنة الأول: يحضر المتدربون (المعلمون في المستقبل) في الفصول المدرسية، والأستاذ المشرف الجامعي يقوم بتدريس الطلاب أمام المتدربين، ويكون

ذلك بشكل يومي أو ثلاثة أيام في الأسبوع، ويرى المتدرب ويتعلم طرق التدريس وإيصال المعلومات وكيفية التعامل مع الطلاب وطرق القياس وكذلك الحلول المثلى في حل مشاكل الطلاب، وطريقة التعامل مع كل مشكلة؛ مثل:

التأخر عن الدرس، وعدم حل الواجبات، والكلام الجانبي أثناء الشرح، والنوم في الفصل، والشجار بين الطلاب، والردود السيئة على المعلم.

ويكون كل هذا أمام المتدرب، فيسجل المتدربون الاستفسارات والملاحظات، ثم يناقشونها بعد ذلك مع الأستاذ المشرف.

في نصف السنة الثاني: يكون العكس يحضر المشرف في الفصل، والمتدرب يقوم بتدريس الطلاب، ويكون ذلك بشكل يومي أو ثلاثة أيام في الأسبوع، ويسجل المشرف الملاحظات ثم يناقشها بعد ذلك مع المتدرب.

وبقية الأيام تكون مخصصة لإعداد البحوث عما يستجد من أحداث في عملية التربية والتعليم.

وهكذا يربط الدراسة النظرية بالتجارب الميدانية لتكوين خبرات يستطيع المتدرب أن يمارس من خلالها التعليم على أكمل وجه.

وبعد ذلك يعطى للمتدرب الشهادة التي تخوله لمزاولة مهنة التعليم، وبهذا يتحول التعليم من وظيفة إلى مهنة[1]، فيعطى المعلم رخصة للتعليم تجدد كل مدة، بحيث يتم ترقيته أو العكس، من خلال عطائه وإنتاجه وتفوقه وتطويره لنفسه؛ وبهذا يصل هذا المعلم إلى درجة الخبير التربوي أو المعلم الأول، بحيث يستشار في المشاكل التربوية.

وهنا نتساءل:

١- هل حققت الجامعات ما يراد منها؟

٢- هل أدى أساتذة الجامعات الأمانة الملقاة على عاتقهم؟

٣- هل هناك تقصير؟

(١) مع العلم أن الأمر أهم من ذلك كله، فهو رسالة عظيمة يؤديها المعلم.

وهذا ما سنجيب عليه بشيء من التفصيل، رغبة في الخروج من دوامة التخلف.

قصور الدكاترة والجامعات:

قبل البداية ينبغي العلم أن التقصير لا نعني به أحدًا بعينه أو جامعة أو بلدًا أو مجتمعًا بعينه.

وكذلك إحقاقًا للحق، يقال: إن أغلب المتميزين من العالم الإسلامي في وقتنا الحاضر، هم من الدكاترة أو خريجي الجامعات؛ فهم كما يقال: «ملح البلد»؛ لأنهم ينتسبون لمراكز من أهم صروح العلم؛ لذلك يحتاجون إلى بذل جهد مضاعف؛ لأن في صلاحهم صلاحًا للبلد بإذن الله تعالى.

يَا مَعْشَرَ الْعُلَمَاءِ يَا مِلْحَ الْبَلَدْ   مَا يُصْلِحُ الْمِلْحَ إِذَا الْمِلْحُ فَسَدْ

وكذلك يقال: إن هناك دكاترة وأساتذة جامعات يتفوقون على غيرهم، ليس من العالم الثالث، بل يتفوقون على غيرهم من جميع بقاع العالم، وليس هذا مجاملة، بل من خلال الواقع، وللدلالة على ذلك سنذكر شخصية تبين ذلك، مع أن الشخصيات الخيرة المحسنة كثيرة، ولله الحمد.

وستكون هذه الشخصية نموذجًا من النماذج المضيئة، ولهذا سنذكر هذا الدكتور (النموذج) في آخر الكتاب؛ لأنه لم يقتصر علمه على التعليم التقليدي المقيد، بل انطلق إلى ما هو أكبر؛ وهو إنقاذ أصحاب المصائب بكل جهد وإخلاص.

ولكن عن هذه الشخصية سأذكر في هذا الموضع، جزءًا من رسالة كتبها أحد الدكاترة المتميزين عندما سافر ورأى هذا الدكتور الذي يستحق أن تدرس سيرته، فقد أوردتها لكي يعرف الناس- خاصة أصحاب الشهادات العليا- كيف يكون أصحاب العلم وكيف يكونون عظماء حقًّا، حيث قال هذا الدكتور جزاه الله خيرًا: «يا دكتور، لقد منحتني شهادة عليا في هذه الرحلة لم تستطع جامعات الدنيا أن تمنحني إياها.. لقد حصلت على الدكتوراه في احتقار النفس أمام العظماء.. وتجاوزت الماجستير في العمل الحقيقي الذي كنا نعتقد أنفسنا من رواده، وبكالوريوس بامتياز في معرفة رجال الأمة الحقيقيين الذين يستحقون شهادات التقدير وجوائز الشكر.. لكنهم مع ذلك يقولون

كما كنت تقول لي: يا أخي، نحن لا ننتظر شهادات من أحد.. نحن عملنا في الميدان.. وننتظر من الله فقط أن يتقبل منا» انتهى[١].

ولكن لأن الغالب في الجامعات التخلف، فإن التركيز سيكون على العينة المقصرة من الأساتذة، وبما أن الجامعات هي التي تخرج هؤلاء المعلمين لذلك سنبين بعض القصور الذي ينبغي عليها تلافيه للنهوض بالأمانة العلمية المناطة بها. ولكن في البداية ينبغي أن ننبه إلى أن أساتذة الجامعات هم من نتاج هذه التربية السيئة أو القاصرة، وهم من أبناء هذه المجتمعات بما فيها من مشاكل وتخلف، ولكن كل هذه المبررات ليست بعذر في أن نستمر في السوء أو أن نسيء في تربية النشء الجديد، وإلا أصبحنا ندور في حلقة مفرغة من التخلف.

ولا شك أن الإحساس بالمسؤولية أمانة عامة ينبغي أن يحملها الجميع، ولكنها تزيد على المعلمين بما فيهم أساتذة الجامعات؛ لأنهم بلغوا القمة بوصولهم لهذه المرحلة من العمر ومن التعليم، ولهذا لا يعذرون بتقصيرهم أو إساءتهم، بل يؤكد عليهم المسؤولية قبل غيرهم ويزيد عليهم الحمل.

ولكن في البدء وقبل أن نذكر أساتذة الجامعات ومناهجهم وسلطاتهم، سنذكر قصة (سنوحي) الممتعة الهادفة، والداعي لذكرها ثلاثة أسباب؛ هي:

السبب الأول: أن نخرج من التعقيد الذي يحيط بطبيعة هذه المواضيع، ونلطف الجو بهذه القصة الممتعة.

السبب الثاني: ما تحمله هذه القصة من المعاني العميقة، التي توقظ النائم، وتنبه الغافل، وتعلم الجاهل.

السبب الثالث، وهو الأهم وسنبينه بشيء من التفصيل:

أن الجامعات هي أعلى مراكز التعليم، وأن من يدرسون فيها يحملون أعلى الشهادات وهذا شرف، ولكن ينبغي أن يعلم ويفهم الجميع أن المقصود من تأسيس هذه الجامعات ووضع هذه الشهادات هو التكليف لا التشريف.

---

(١) سيأتي بيان ذلك في آخر الكتاب، إن شاء الله تعالى.

ولكن بسبب انقلاب الموازين عند البعض وخاصة في مجتمعات الجهل والتخلف، نلاحظ أن بعض الجامعات وحملة الشهادات العليا تحيط بهم هالة من الحصانة العجيبة، مع أن أول خمس مئة جامعة في العالم ليس فيها جامعة واحدة من العالم الإسلامي، وقد يكون العكس، فلو ظهرت دراسة تبين أسوأ ٥٠٠ جامعة لوجدناها كلها في العالم الثالث![1].

فبعض الأساتذة- هداهم الله- بعد أن يحصل على الشهادات ويعمل في الجامعة وينال الكثير من الصلاحيات، نلاحظ أنه يتفرعن بعد أن يحصل على السلطات، فيصدق في حقه قول القائل: «أردته عونْ، فصار فرعونْ»، وبهذا يسيء العمل ولا يجد من يصلحه أو يوقفه عند حده.

وهذا بسبب السلطة التي كونها في الجامعة مع مجموعة من المشاركين له والمتفعين منه، وبما نال من المكانة والهيلمان عند الجهلة.

وفي هذه القصة كسر لحاجز الجهل والخوف، وكشف للأنانية والتلاعب والفساد و(الغباء)، وكذلك نقد بناء للجامعات ومن يدرِّس ويدرُس فيها، وليسعى الجميع في إصلاحها، وليعلم الجميع أن الهدف منهم هو التكليف ونفعهم للغير، وليس التشريف ونفع أنفسهم فقط.

مع أن بعض ممن يريد أن ينتقد هؤلاء المتفرعنين يمتنع من ذلك لأسباب كثيرة؛ منها:

أ- نظر العامة والجهلة لهؤلاء المتفرعنين المنظورين بمنظار العصمة.

ب- نظر العامة لمن ينتقدهم بمنظار الجهل والحقد والحسد والفساد والخطيئة.

ت- الخشية من سطوة بعض المتعصبين من أصحاب الشهادات العليا، وخاصة من أصحاب الشهادات المزورة أو المغشوشة.

أما أصحاب الشهادات العليا- حقًا- من العلماء ومريدي الخير، فلا خوف منهم، بل سيفرحون بتنظيف الجامعات وتطويرها.

---

(١) ويلاحظ بعد هذه الفضيحة، أن كثيرًا من الجامعات بذلت (الجهد) في أن تكون من ضمن الجامعات المتفوقة في العالم، فهل هذا من أجل العلم أم السمعة؟ وهل هذه النتائج حقيقية؟

قصة (سنوحي):

قصة (سنوحي) تبين تأثر الإنسان بالبيئة المحيطة به:

كان (سنوحي) طبيبًا للفرعون (أمفسيس) الذي عاش في القرن العاشر ق.م، وقد كتب مذكراته عن حياة هذا الفرعون وعن الشعب المصري الذي كان يعاني استبداد أمفسيس، واكتشف علماء الآثار هذه المذكرات ضمن ما خلفته السنون بين الكتب الهيروغليفية، وترجمت مذكرات هذا الطبيب التي كتبها بأسلوب رائع وبديع إلى اللغات العالمية الحية، وهي الآن بين أيدينا، يستطيع القارئ قراءتها ويستخلص دروس العجب منها. فماذا قال؟!

يقول سنوحي في مذكراته:

«كنت أمشي في شارع من شوارع مصر، وإذا بالرجل الوجيه الشريف الثري المعروف (إخناتون) ملقًى على الأرض مضرجًا بدمائه وقد قطعت يداه ورجلاه من خلاف، وجدعت أنفه، وليس في بدنه مكان إلا وفيه طعنة من رمح أو ضربة من سوط، وهو قاب قوسين أو أدنى من الموت، فحملته إلى دار المرضى وجاهدت جهادًا عظيمًا لإنقاذه من الموت، وبعد شهرين أو أكثر، وعندما أفاق من غيبوبته قص علي قصته المحزنة المفجعة قائلًا: لقد أمرني الفرعون (أمفسيس) أن أتنازل عن كل شبر أرض أملكه، وأن أهبه أزواجي وعبيدي وكل ما أملك من ذهب وفضة، فاستجبت لما أراد بشرط أن يترك لي داري التي أسكن فيها ومعشار ما أملكه من الذهب والفضة لأستعين بها على أودي، فاستثقل فرعون هذا الشرط واستولى على كل ما كان عندي، ثم أمر بأن يفعل بي تلك الأفاعيل الشنيعة وأن أطرح في الشارع عاريًا لأكون عبرة لمن يخالف أوامر (الإله أمفسيس).

ودارت الأيام وإخناتون المسكين يعاني الفقر والحرمان، وكل أمله في هذه الدنيا القصاص من الفرعون الظالم ولو على يد غيره.

ومات الفرعون وحضرت مراسيم الوفاة بصفتي كبير الأطباء، فكان الكهنة يلقون خطب الوداع مطرين الراحل العظيم، وكانت الكلمات التي يرددونها لا زلت

أتذكرها جيدًا، فقد كانوا يقولون: «يا شعب مصر، لقد فقدت الأرض والسماء وما بينهما قلبًا كبيرًا كان يحب مصر وما فيها من إنسان وحيوان وجماد. كان للأيتام أبًا، وللفقراء عونًا، وللشعب أخًا، ولمصر مجدًا، ذهب أمفسيس وترك الشعب في ظلام».

ويضيف (سنوحي): «وبينما أنا أصغي إلى كلام الكهنة ودجلهم في القول، وأندب حظ مصر وشعبها المسكين الذي يرزح تحت سياط الفراعنة والكهنة معًا، وبينما كانت الجماهير المحتشدة- الذين لقي كل فرد منهم على حدة من بطش فرعون وسياطه أذى وعذابًا تجهش بالبكاء- سمعت رجلًا يبكي كما تبكي الثكلى وصوت بكائه علا كل الأصوات ويردد عبارات غير مفهومة، فنظرت مليًّا وإذا صاحب البكاء هذا هو إخناتون (المعوق العاجز) الذي كان مشدودًا على ظهر حمار، وأسرعت إليه لأهدئه بعض الشيء، فقد ظننت أنه يبكي سرورًا وابتهاجًا على وفاة ظالم ظلمه إلى حد الموت بالتعذيب، ولكن إخناتون خيب آمالي عندما وقع نظره علي وأخذ يصرخ عاليا بقوله: «يا سنوحي، لم أكن أعلم أن أمفسيس كان عادلًا وعظيمًا وبارًّا بشعبه إلى هذه المرتبة العظيمة، إلا بعد أن سمعت ما قاله كهنتنا فيه. وها أنا أبكي يا سنوحي؛ لأنني حملت في قلبي حقدًا على هذا الإله العظيم، بدلًا من الحب والإجلال طوال سنوات عديدة، حقًّا لقد كنت في ضلال كبير».

ويقول سنوحي: «وعندما كان إخناتون يكرر هذه الكلمات بإيمان راسخ، كنت أنظر إلى أعضائه المقطوعة وصورته المشوهة وأنا حائر فيما أسمع، وكأنه قرأ ما يدور في خلدي وإذا به يصرخ بملء شدقيه: «لقد كان أمفسيس على حق فيما فعله بي؛ لأنني لم أستجب إلى أوامر الآلهة، وهذا هو جزاء كل من يعصي الإله الذي أحبه، وأي سعادة أعظم للمرء من أن ينال جزاء أعماله الذي يستحق على يد الإله لا على يد غيره».

وبعد..! من أمفسيس هذا؟!

هو فرعون من فراعنة مصر، حكمها بالنار والحديد طوال عشر سنوات، دخل في حرب خاسرة مع بلاد النوبة الجارة، قتل فيها خُمس شعب مصر، وخرب المزارع، وقطع الأشجار، وأباد شباب مصر متهمًا إياهم بالهزيمة في الحرب التي شنها ضد بلاد النوبة، وأحرق العاصمة في إحدى ليالي مجونه، كما فعل نيرون بعده بسبعة قرون عندما

أحرق روما عاصمة الرومان، لقد كان عهد أمفسيس أسوأ عهد عرفته مصر في تاريخ الفراعنة الذين حكموها مبتدئًا من الأسرة الأولى حتى الأسرة الخامسة.

مات أمفسيس وترك خرابًا شاملًا وشعبًا ممزقًا، ومع هذا كله بكته الجماهير المحتشدة متأثرة برثاء الكهنة وخطبهم، ومن بين تلك الجماهير إخناتون المسكين» انتهى[1].

وضع الطالب الجامعي:

قبل أن نناقش وضع الجامعة وأساتذتها، سنبين وضع الطالب الجامعي الذي أسست الجامعة وعين الأساتذة من أجله، فهل أفلحوا فيما جاؤوا من أجله وحققوا أهدافهم؟

إن الملاحظ على الطلاب في كثير من الجامعات هو التشتت والضياع بين تلك الكتب القديمة العقيمة، وبين ذلك الأستاذ المتعالي المستغل المسيطر، والذي جرأه على ذلك سلطة النظام والمكانة الاجتماعية والسمعة العلمية، وكذلك ضعف الطالب ذي الشخصية المهتزة والخلفية الذليلة المستكينة.

وعلى هذا الأساس يتخرج وهو مشتت؛ لأنه لم يتعلم تعليمًا عاليًا صحيحًا، ولم يحافظ على مبادئه العلمية البسيطة الأصيلة، فصار كصاحب المشية العرجاء؛ كما يقول المثل: «ضيع مشيته ومشية الحمامة».

فهو بين أمرين أحلاهما مر: بين أن يكابر ويعتز بتلك الشهادة بما فيها من العلم القاصر ونالها بعد الذل والمنة والتعب، وبين أن يقول الحق فينتقص من شهادته أمام العامة فتنزل مكانته أمامهم.

فالطالب بسبب تعبئته من مجتمعه وخاصة أهله الذين أرسلوه للجامعة وهم ينتظرون منه الكثير والكثير، ومع قلة معرفته وثقته في نفسه، يقف أمام هذا الصرح العلمي والأستاذ المتعالي المستبد، موقف المتحيّر المنكسر، فالكثير لا يرون أمامهم إلا حالتين أحلاهما مر؛ هما:

الحالة الأولى: إن رفض واعترض، طُرد من الجامعة ولم يعترف به في المجتمع،

---

(١) ارجع إلى كتاب (يا شيعة العالم استيقظوا) للدكتور موسى الموسوي، أورد هذه القصة ينبه بها عوام الشيعة ويحذرهم من الآيات ورجال الدين المعمَّمين؛ من استغلال مناصبهم وخداعهم باسم الدين.

وصار حاله كحال (أخناتون) في المرة الأولى.

الحالة الثانية: إن خنع واستكان، عاش ذليلًا مغفلًا مسكينًا، وصار حاله كحال (أخناتون) في المرة الثانية.

فما أكثر الضحايا من الذين لم يتعلموا، وما أكثر الضحايا من العاطلين من أصحاب الشهادات الجامعية التي لا تنفع صاحبها ولا مجتمعه، ولكن هناك وظيفة للشهادة نفسها، وهذه الوظيفة تتلخص في التعليق على الحائط من أجل إرضاء الثقافة المتخلفة!

ولكن مع هذا كله، فإن عزاءنا في نموذجين مباركين؛ هما:

١ - الطلاب الذين استمروا وما وهنوا لما يصيبهم، ولم يضعفوا ولم يستكينوا، وإنما صبروا وساروا إلى الشهادات العليا ليتعلموا ويعملوا ويصلحوا، نسأل الله عز وجل أن يوفقهم ويجزيهم خير الجزاء.

٢ - الأساتذة الذين لم يخونوا أماناتهم، ولم ينجرفوا مع المتخلفين في استبدادهم وتسلطهم...، ولم تُغْرِهِم شهوات المادة والجاه والمنصب...، بالرغم من الظروف الصعبة، وبالرغم من التسيب والفوضى، بل ارتفعوا عن ذلك كله واستمروا في جهادهم، فجزاهم الله خير الجزاء.

فهؤلاء هم الأمل بإذن الله سبحانه وتعالى.

أُعَلِّلُ النَّفْسَ بِالآمَالِ أَرْقُبُهَا   مَا أَضْيَقَ العَيْشَ لَوْلا فُسْحَةُ الأَمَلِ

الشهادات العليا:

إن الهدف من الدراسات العليا هو العلم والعمل، وليس الشهادة والجاه والمنصب والمادة.

وَمَا الحُسْنُ في وَجْهِ الفَتَى شَرَفًا لَهُ   إِذَا لَمْ يَكُنْ في فِعْلِهِ وَالخَلائِقِ

فلهذا يقال لمن نال شيئًا من هذه الشهادات أو الألقاب العلمية: لا تغتر بها وترى أنك نلت بها القبول والرفعة والشرف؛ فإن الأعمال الصالحة هي التي ترفع صاحبها؛ لأن قلة شاذة من الدكاترة يرفعون أنفسهم بهذا اللقب، لأنهم يرون أن هذا اللقب هو

الذي يرفعهم، وبالتالي هم أقل من هذا اللقب! لذلك لا يريدون أو لا يحبون من أحد أن يخاطبهم باسمهم في نظرهم، بل يريدون الارتفاع إلى هذا اللقب.

فيلاحظ عليهم الحرص عليه والتمسك به وتصدير أسمائهم به في كل مكان.

فمن المعروف أن صاحب اللقب العلمي لا يتسمى به إلا في عمله أو عندما يكتب موضوعًا يتكلم في (تخصصه)، أما هذا المسكين فإنه يكتبه ويحمله في كل مكان، حتى عند أقاربه، بل عند البقال وبائع الخضار[١]، ولم يبق إلا أن يوقف الناس في الطريق ويخبرهم به؛ لكي ينال التقدير والاحترام!

وليس في هذا مبالغة، بل هي صور موجودة بكثرة في البيئات المتخلفة.

ولكن الكثير- ولله الحمد- لا تزيده هذه الشهادة إلا تواضعًا وخشية من الله سبحانه وتعالى الذي قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾[٢].

ولا شك أن العالم يزداد معرفة بقلة علمه؛ لأنه كلما تبحر في العلم عرف تنوع العلوم وعمقها وتبين له قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٣].

وفي الحقيقة: أن من يحمل العلم حقًّا هو المتواضع؛ قال الشاعر:

مَـلأَى السَّنَابِلِ تَنْحَنِي بِتَوَاضُعٍ وَالفَارِغَاتُ رُؤُوسُهُـنَّ شَوَامِخُ[٤]

الألقاب:

إن هذه الألقاب التي تقال من باب التفخيم والتعظيم، لها أثرها كبير في إفساد المجتمعات؛ فهي سبب أساسي لفساد الأخلاق والأعمال، وقد حذر منها الإسلام[٥].

(١) وقد يشفع له إن كان يريد السلامة فقط، وذلك في أن يحترم ويعطى حقوقة لا أكثر، كما سلف في الحديث عن (قيمة الإنسان).

(٢) سورة فاطر، الآية: (٢٨).

(٣) سورة الإسراء، الآية: (٨٥).

(٤) يقول الشاعر: إن السنابل المليئة بالحب تنحني بتواضع، وأما السنابل الفارغة من الحب فإنها ترفع رأسها إلى الأعلى بتعالٍ وتكبر، وفي هذا شبه بتواضع العالم؛ كلما زاد علمه زاد تواضعه، بعكس الجاهل فإنه كلما زاد جهله زاد تعاليه.

(٥) سبق التطرق لهذا الموضوع، ولكن لضرره الكبير في المجتمعات، سنعيد طرحه من ناحية أخرى.

ولكن قبل ذلك نجد أن الإنسان السوي ذا الفطرة السليمة يعجب من هذا الذي يتلفظ بهذه الألقاب وينشرها في المجتمع، كيف تسمح له نفسه بذلك؟!

ولنأخذ مثلًا واحدًا من هذه الألقاب وهو: (معالي) أو (صاحب المعالي)، بل إن البعض لا يخاطبه بالمعالي، بل يخاطب اللقب نفسه فيقول: مثلا أطلب من معاليكم، فهو لا يصل إلى أن يخاطبه شخصيًّا باسم المعالي! مع أن هناك ألقابًا أسوأ هذا.

فنتساءل عن السبب الذي سمح لنفسه ورضي أن تسميه بالمعالي:

- هل يقصد أنه أعلى من غيره، وهذا يعني أن غيره (أوطى) منه؟

- أم أن من يقولها أحس في نفسه بالسفالة وأن الآخر أعلى منه؟

- أم أنه سمعها فرددها من غير أن يعرف مدلولها ومغزاها؟

- أم أنه بلغ من الإهانة إلى درجة عدم الاهتمام؛ كما قال الشاعر:

مَـنْ يَهُـنْ يَـسْـهُـلِ الهَــوَانُ عَـلَـيْـهِ   مَــا لِــجُـرْحٍ بِـمَـيِّـتٍ إِيــلَامُ

إن الإنسان ليشكر الله سبحانه وتعالى عندما يعلم أنه كرم بني آدم، وجعلهم سواسية؛ وهذا مما يميزنا على جميع الأمم بالرغم من المحاولات الحثيثة للكثير من الأمم للوصول إلى المساواة في الإسلام[1]، الذي رفع قيمة الفرد؛ فلا يبغي أحد على

---

(١) يقول توماس كارلايل في كتابه الأبطال: «إن في الإسلام خلة أراها من أشرف الخلال وأجلها؛ وهي التسوية بين الناس، وهذا يدل على أصدق النظر وأصوب الرأي؛ فنفس المؤمن راجحة بجميع دول الأرض، والناس في الإسلام سواء. والإسلام لا يكتفي بجعل الصدقة سنّة محبوبة، بل يجعلها فرضا حتما على كل مسلم، وقاعدة من قواعد الإسلام، ثم يقدرها بالنسبة إلى ثروة الرجل... جميل والله هذا، وما هو إلا صوت الإنسانية، وصوت الرحمة الإخاء والمساواة» انتهى.

وتقول ساروجنى ندو- شاعرة الهند: «يعتبر الإسلام أول الأديان مناديًا ومطبقًا للعدالة والمساواة، وتبدأ هذه العدالة والمساواة في المسجد خمس مرات في اليوم الواحد عندما ينادى للصلاة ويسجد القروي والملك جنبا لجنب اعترافًا بأن الله أكبر.. ما أدهشني هو هذه الوحدة غير القابلة للتقسيم والتي جعلت من كل رجل بشكل تلقائي أخًا للآخر» انتهى.

ويقول المستشرق الإنجليزي هاملتون جيب في كتابه دراسات في حضارة الإسلام: «كانت التعاليم التي جاء بها محمد في أساسها إعادة لإحقاق المبادئ الأخلاقية التي تشترك فيها ديانات التوحيد، فازداد ترسيخ معنى الأخوة بين جميع أفراد الجماعة الإسلامية، وأنهم سواسية من حيث=

أحد، ولا يفخر أحد على أحد؛ والأدلة في هذا المجال كثيرة ولله الحمد(١)، ولكن مع ذلك تأتي هذه التصرفات- مع الأسف- من بعض المتأثرين بحثالة الأفكار المستوردة، بل بحثالة أفكار الطبقيات الوضيعة والتسميات التي ما أنزل الله بها من سلطان(٢)، ولم يتطور أهلها إلا بعد أن ثاروا عليها وأبعدوها عن حياتهم العلمية.

فيقال لمن تأثر بغيره: اتق الله، ولا تشوه هذا الدين النقي الشامخ، ولا تستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، وانظر إلى من تربوا في مدرسة النبوة فإن أسماءهم أسمى من هذه الألقاب فلم يتلوثوا بلوثات الجاهلية، فهذا أبوبكر وعمر وعثمان وعلي... وبقية الصحابة يسمون بأسمائهم الطاهرة، وهم أفضل من كثير من أصحاب السماحة والفضيلة الذين لا يبلغون عشر معشارهم من الخير، هذا إن كان فيهم خير.

بل إن المسلمين في عهدهم الزاهر الراشد، لم ينسبوا معاركهم وانتصاراتهم إلى القادة كغيرهم؛ مثل: انتصر نابليون وانهزم هتلر...، وإنما يقولون: انتصر المسلمون، بل إنهم يقولون: انتصر المسلمون في معركة بدر وغيرها، مع أن فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي هو قائدهم، وهو أحق من غيره بهذه التفرقة، لو أن هذه التفرقة تجوز، بل دل الدليل على عكسها، وهذه هي التربية النبوية المتبعة للمنهج الرباني؛ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾(٣).

= القيمة الشخصية الفطرية، دون النظر إلى ما في مكانتهم الدنيوية ووظائفهم وثرواتهم من تباين واختلاف» انتهى.

(١) ومع ذلك سنذكر دليلين فقط:

الأول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ» صححه الألباني.

الثاني: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة؟ قال: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ؛ الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ»، صحيح مسلم. «بطر الحق»: دفعه ورده على قائله. «غمط الناس»: احتقارهم.

(٢) مثل الطبقات الهندوسية، والتسميات النصرانية المحرفة؛ مثل: قداسة البابا، أو غبطة المطران....، وقد تأثر كثير من المسلمين بهم واتبعوهم حذو القذة بالقذة، فقالوا: سماحة وفضيلة...، مع أنها مأخوذة من خرافات جاهلية؛ مثل: الناسوت، واللاهوت، وأنهم يتحدثون باسم الرب.

(٣) سورة آل عمران، الآية: (١٢٣).

ولكن عهد الخلفاء الراشدين ليس كعهد من بعدهم، حيث بدأ حب الألقاب، فهذا الإمام القدوة: شعيب بن حرب[1]، عندما خاطب أحد الخلفاء العباسيين باسمه، أنكر عليه الخليفة قائلًا: ما حملك على أن دعوتني باسمي؟

قال: أنا أدعو الله باسمه: «يا الله»، أفلا أدعوك باسمك؟! وهذا الله سبحانه قد دعا أحب خلقه إليه بأسمائهم: «يا آدم»، «يا نوح»، «يا إبراهيم»، «يا موسى»، «يا عيسى»، وكنى أبغض خلقه إليه فقال: «تبت يدا أبي لهب»[2].

إلا أن الملاحظ أن بعض المسلمين في عصر التخلف زادوا على غيرهم وأعطوا الألقاب وأهلها أكثر من غيرهم، ولننظر إلى بعض دكاترة الجامعات وتعاملهم مع الطلاب، بل إن الكثير منهم لا يأكل في مطاعم الطلاب، بل إن في بعض الجامعات تفريقًا بين مكتبة أعضاء هيئة التدريس ومكتبة الطلاب!

والخلاصة: أن الله سبحانه وتعالى قد أعزنا بالإسلام، ولهذا فلنناد الناس بأسمائهم وإن كان لا بد فلنلتزم الأدب ولنراعِ في ذلك أمورًا؛ منها:

أ- ألا نفرق بين الناس بألقاب تعلي المدعو وتهين الداعي - كـ(معاليكم وسيادتكم وعظمتكم...)، وإنما بمهنته الوظيفية؛ كالدكتور، أو المهندس، أو القاضي، أو الأستاذ...

ب- ألا تطلق هذه الألقاب إلا في العمل أو فيما يخص العمل؛ كالمهندس، والأستاذ...

ت- ألا يكون من باب المدح للمدعو أو التذلل من الداعي.

لذلك نقول لمن في نفسه هذا النقص: لقد كرمك الله سبحانه وتعالى وأعزك بالإسلام، فاحمد الله ودع عنك هذا الهوان، فلا تفسد المجتمع ولا تسعَ في إفساده؛ فإن في ذلك ضررًا لفئات كثيرة من المجتمع؛ مثل:

١ - إعطاء الفرصة لهذا وأشكاله من المتكبرين الذين يحبون التفخيم والتعظيم، وذلك بنفخه وتعويده على هذه الألقاب، وفي المقابل تشجيع من لديه قابلية لهذه الأمراض.

---

(١) قال عنه الحافظ الذهبي في (سير أعلام النبلاء): «الإمام القدوة العابد شيخ الإسلام».

(٢) باختصار من كتاب (البداية والنهاية) لابن كثير.

وهذا بلا شك يولد أمراضًا أخرى؛ مثل: الاستبداد، والظلم، والتسلط، والطبقية...، ومن جهة أخرى، يعطيه انطباع التفوق والكمال والغرور، فلا يسعى إلى إصلاح نفسه، بل يغضب ممن ينتقده أو يذكره بأن فيه نقصًا، وهنا ينبغي تذكير من يحب التعالي والتعظيم، بقول الرسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: «قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا، قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ»(١).

وقبل ذلك، ليقرأ قول الله سبحانه وتعالى عن حال هذا الأثيم الشقي الذي في جهنم: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾(٢).

أما من يحب الفخر والخيلاء(٣)، فليقرأ قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ

---

(١) صححه الألباني.

(٢) سورة الدخان، الآية: (٤٩).

(٣) قد يكون عند البعض ضعف أو نقص؛ فيحب ما لا يليق به؛ كالكبر والخيلاء والفخر وحب الظهور والشهرة وحب الأضواء...، وهنا ينبغي أن يكافح ما يجيش في نفسه، وهناك عدة وسائل تؤدب هذه النفسية. وللاختصار أنقل بعض ما كتبه الأخ محمد سيد حسين، جزاه الله خيرًا، في مقالٍ يحث فيه على التواضع بعنوان: (ادفن وجودك في أرض الخمول)، حيث قال: «يخطئ من يظن أن ذنوب الجوارح أخطر من ذنوب القلوب، وأن زلات الأقدام أشد من آفات النفوس، ذلكم أن العبد قد يبتلى بمعصية ظاهرة، فيعلم من نفسه التقصير ويسعى للتخلص مما ابتلي به من معصية، ولكن الخطر الوبيل ذلك الذي ظاهره التقوى وسمعته بين الناس الصلاح، وبين جنبيه نفس احتوت من الآفات والأمراض ما قد يكون سببًا لهلاك أمة أو ضياع كيان عظيم.

وليس الفقه مجرد علم بالأحكام الظاهرة، فذلكم معنى استجد بعد العصور الأولى، أما أهل القرون الأولى فالفقيه عندهم من تعلم الإخلاص قبل العمل، والتوكل قبل الكسب، والتواضع قبل التصدر.

ولم تبتل أمة الإسلام خلال تاريخها المديد قدر ما ابتليت بنفوس مريضة من أبنائها، باعوا دينهم بعرض من الدنيا، وباعوا نفوسهم بأبخس الأثمان، وآثروا سمعة زائفة أو ذكرًا بين الخلق على رضا ربهم وصلاح أمتهم، حتى صدق فيهم قول ابن المبارك:

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ القُلُوبَ ... وَقَدْ يُورِثُ الذُّلَّ إِدْمَانُهَا

وَتَرْكُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ القُلُوبِ ... وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إلا المُلُوكُ ... وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا

فَبَاعُوا النُّفُوسَ وَلَمْ يَرْبَحُوا ... وَلَمْ تَغْلُ فِي البَيْعِ أَثْمَانُهَا

=

مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[١].

٢- نشر ثقافة المدح والتخضع والتذلل بين العامة الذين قد يتعودون على ذلك لجهلهم- وقد حصل من ذلك الكثير- فالمسلم لا ينحني ولا يخضع ولا يذل إلا لله عز وجل، والحمد لله لقد سدت الأبواب الموصِّلة لذلك؛ فلهذا نهى عن القيام لأحد أو السجود له أو الركوع أو التميز بمكان مخصص في المجالس...

٣- تعكير مزاج الناس المحترمين باستخدام هذه الألفاظ السيئة التي تحمل معاني الذل والإهانة، وإحراجهم مع بعض المنفوخين الذين يغضبون ممن لا يمدحهم ويتخضع لهم.

٤- تأييد المداحين والمتزلفين، وجعلهم يتمادون في حقارتهم؛ قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ، فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ»[٢].

وليس معنى هذا أن يكون المسلم غليظًا جلفًا جافَّ الألفاظ، وإنما يكون لطيفًا يعامل الجميع بتقدير واحترم، بل يعرف حقوق العلماء، ولكن بعيدًا عن الكذب والتزلف والنفاق[٣].

= وقال الشاعر:

كُنْ خَامِلَ الذِّكْرِ بَيْنَ النَّاسِ وَارْضَ بِهِ ... فَـذَاكَ أَسْـلَمُ لِلدُّنْيَـا وَلِلدِّيـنِ

ترى لو أحسن التعامل مع هذه الحكمة كثير ممن لم يحسنوا دفن وجودهم أولا قبل تصدرهم، أما كانت الأمة قد تحاشت هذه الأقزام التي استطالت، والقطط التي استأسدت، والفقاقيع التي ظنت نفسها شيئًا في دين الناس أو دنياهم، حتى صدق فيهم قول شاعرنا المعاصر:

كُلُّهُـمْ فِي الهَـوَى يُزَيِّـنُ دِينَـهْ ... أَلْـفُ مُفْتٍ وَمَالِـكٌ فِي المَدِينَـهْ

نَجِّنَـا رَبِّ إِنَّنَـا قَـدْ جَعَلْنَـا ... كُلَّ فَـنٍّ فِي غَـيْرِ مَـنْ يُحْسِنُونَهْ

على أن الموصل للإخلاص وتحقيق الخمول: مجاهدة طويلة، وتربية هادئة عميقة، ثم علم واقٍ، وفكر صافٍ. فذلكم طريق السالكين، والحمد الله رب العالمين».

انتهى باختصار من إسلام أون لاين.

(١) سورة لقمان، الآية: (١٨). قال ابن كثير: «أي: مختال معجب في نفسه، فخور؛ أي: على غيره» انتهى.

(٢) صحيح مسلم.

(٣) قال الغزالي: «في المدح ست آفات: أربع على المادح، واثنتان على الممدوح: أما المادح: فقد يفرط فيه، فيذكره بما ليس فيه؛ فيكون كاذبًا. وقد يظهر له من الحب ما لا يعتقده؛ فيكون منافقًا. وقد=

القيام للمعلم:

القيام وما في حكمه مسألة كبيرة فيها من المعاني التربوية والآثار النفسية والاجتماعية وما يتفرع منها، الكثير والكثير؛ ولهذا سنناقشه بشيء من التفصيل، خاصة أن ذلك- مع الأسف- يحصل في أغلب دول العالم الإسلامي، وهو أمر الطلاب أن يتمثلوا قيامًا لمعلميهم، زاعمين أن هذا من الأدب المطلوب، وأنه رمز لتوقير المعلم وتبجيله، وقد أخطأ الذين يرون ذلك أدبًا، خاصة إذا علموا أن ذلك مخالف للشريعة الإسلامية السمحة، فما خالف الشرع لا يسمى أدبًا، بل في خلاف الشرع قلة أدب، ولكن قد يسمى أدبًا في قاموس المعرضين عن شرع الله، أو من آداب الظلمة والمتكبرين، أو من تربى على الذل والخنوع.

وقد بين العلماء آداب القيام، مقتبسين ذلك من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يجوز لصاحب البيت أن يقوم إلى استقبال ضيوفه، أو يقوم إلى معانقة القادم من السفر، وهو من إكرام الضيف، وهذا ليس مكان البحث. ولا عبرة بقول الشاعر:

قُمْ لِلْمُعَلِّمِ وَفِّهِ التَّبْجِيلَا   كَادَ المُعَلِّمُ أَنْ يَكُونَ رَسُولَا

لمخالفته قول الرسول صلى الله عليه وسلم الذي كره القيام له، وأنذر من أحب أن يقام له بدخول النار؛ حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ النَّاسُ قِيَامًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[1].

= يقول له ما لا يتحققه؛ فيكون مجازفًا. وقد يفرح الممدوح به، وربما كان ظالمًا؛ فيعصي بإدخال السرور إلى قلبه. وأما الممدوح: فقد يحدث فيه كبرًا وإعجابًا. وقد يفرح فيفسد العمل». كتاب (تحفة الأحوذي) للمباركفوري.

(١) صححه الألباني، وعلق عليه في كتابه (السلسلة الصحيحة) فقال: «دلنا هذا الحديث على أمرين: الأول: تحريم حب الداخل على الناس القيام منهم له، وهو صريح الدلالة، بحيث إنه لا يحتاج إلى بيان. والآخر: كراهة القيام من الجالسين للداخل، ولو كان لا يحب القيام، وذلك من باب التعاون على الخير، وعدم فتح باب الشر».

وقال رحمه الله تعالى: «إذا نظرت إلى مجتمع كمجتمعنا اليوم، قد اعتادوا القيام المذكور، فإن هذه العادة لاسيما مع الاستمرار عليها فإنها تذكره به، ثم إن النفس تتوق إليه وتشتهيه حتى تحبه، فإذا أحبه هلك، فكان من باب التعاون على البر والتقوى أن يترك هذا القيام، حتى لمن نظنه أنه لا يحبه خشية أن يجره قيامنا له إلى أن يحبه، فنكون قد ساعدناه على إهلاك نفسه وذا لا يجوز.

ومن الأدلة الشاهدة على ذلك أنك ترى بعض أهل العلم الذين يظن فيهم حسن الخلق، تتغير=

ولنلاحظ أهمية الفعل وشدة العقوبة المترتبة عليه، علمًا بأن الأدب مع المعلم لا يكون بالقيام، بل يكون بالحب والاحترام والتوقير والطاعة وامتثال الأمر وإلقاء السلام والكلام المهذب، وغير ذلك من الآداب.

ونستفيد مما سبق، بيان ووضوح أصالة معاني العزة والكرامة والشموخ والرقي، وكذلك العدل والمساواة والحرية في الإسلام، وتقدمه في ذلك على الجميع.

ويتجلى ذلك في حرص حبيبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، على تربية أمته على تلك المعاني السامية، وعدم القيام لأحد مهما كان، إلا القيام لله الواحد القهار.

ولكن الكثير يأبى تلك التربية النبوية ويرفضها، ويختلق لتلك المعصية أعذارًا وحيلًا واهية[1]؛ كالحب والاحترام والتنظيم وما شابه ذلك؛ ولهذا فمن آثار ترك تلك

= نفوسهم إذا ما وقع نظرهم على فرد لم يقم له، هذا إذا لم يغضبوا عليه ولم ينسبوه إلى قلة الأدب، ويبشروه بالحرمان من بركة العلم بسبب عدم احترامه لأهله بزعمهم. بل إن فيهم من يدعوهم إلى القيام، ويخدعهم بمثل قوله: «أنتم لا تقومون لي كجسم من عظم ولحم، وإنما تقومون للعلم الذي في صدري»!! كأن النبي صلى الله عليه وسلم عنده لم يكن لديه علم!! لأن الصحابة كانوا لا يقومون له، أو أن الصحابة كانوا لا يعظمونه عليه السلام التعظيم اللائق به! فهل يقول بهذا أو ذاك مسلم؟!» انتهى. كتاب (السلسلة الصحيحة) للألباني

(١) لا يخفى ما يكون في الموالد من بدع تخالف سنة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن يحسن التنبيه على أدب القيام لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو القيام الذي يكون من البعض هداهم الله عز وجل، في الموالد وما يسمى بـ(الحضرة)، ويزعم البعض أن النبي صلى الله عليه وسلم يحضر أو أن روحه تحضر، فيقام له بدعوى الحب أو غيره، ولا يخفى أن هذا مخالف لهديه صلى الله عليه وسلم. ولنقرأ مقدار حب الصحابة لرسول الله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأدب ذلك الحب: قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «ما كان في الدنيا شخص أحب إليهم رؤية من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا إذا رأوه، لم يقوموا له؛ لما كانوا يعلمون من كراهيته لذلك» صححه الألباني. فرسول الله صلى الله عليه وسلم في حال حياته، نهى عن القيام له، وكرهه من الصحابة، وامتثل الصحابة لما يريد، ولكن هناك من يخالف الرسول الله صلى الله عليه وسلم بحجة الحب! فالعجب من عدم التمسك بسنته صلى الله عليه وسلم والابتداع فيها، بل والإصرار على ما يكرهه حتى بعد وفاته، وكل ذلك بحجة الحب! فهل هو حب مزور أم جهل؟ قال الشاعر:

تَعْصِي الإِلَـهَ وَأَنْـتَ تُظْهِـرُ حُبَّـهُ ... هَـذَا مُحَـالٌ فِي القِيَـاسِ بَدِيـعُ
لَـوْ كَانَ حُبُّـكَ صَادِقًـا لأَطَعْتَـهُ ... إِنَّ المُحِـبَّ لِمَـنْ يُحِـبُّ مُطِيـعُ

نسأل الله أن يهدينا جميعًا لما يحبه ويرضاه.

التربية النبوية، نلاحظ الحرص على قيام الطلاب لمعلميهم، والمتصوفة لمشايخهم...

وفي المقابل مع حرص هؤلاء القائمين على قيامهم لكبرائهم ووجهائهم في الدنيا، أي (سادتنا وكبرائنا)، وقد يكونون أحرص على لعنهم لعنًا كبيرًا يوم القيامة!!!

* * *

الأساتذة والجامعات:

إن الأساتذة والجامعات شريحة من العالم الثالث وينطبق عليها ما ينطبق عليه، مع أن المفروض أنهم بلغوا الرشد وصاروا قدوة ومنارة للحق، ولكن الواقع شيء والمفروض شيء آخر؛ لذلك سنبين أهم جانب من جوانب التقصير من أجل معرفته وإصلاحه.

وهذا الجانب يدور على مشاكل مكررة، فهي نفس مشاكل العالم الثالث: التفكير العقيم، والتواكل، والظلم، والتسلط، والأنانية، والاستبداد، والنظرة الثقافية المتخلفة، ويتمثل فيما يخص الجامعة في فساد الجوهر، وهذا ما سنركز عليه لأنه الأساس وهو الهدف من العمل الموجود من أجله؛ لهذا نلاحظ بعض الدكاترة- مع الأسف- لا يحرص على هذه الدال (د) بهدف العلم والإفادة- وهذا هو الأصل وهو المفترض- ولكن بهدف هذه الشهادة التي تعني لديه (الرفاهية) والتي توفر له المميزات الكثيرة؛ كالوجاهة الاجتماعية والإغراءات المالية والراحة في العمل، وكذلك انتهاز الفرص لتولي المناصب المرموقة، بل إن الكثيرين تربوا منذ صغرهم على ثقافة (ادرس لكي تكون دكتورًا).

أما إذا صار في الجامعة، فإن الصلاحيات تتضخم وتصل إلى حد التسلط والاستبداد، وفي المقابل فإن الدكتور يترك له الحبل على الغارب في محافظته على الجودة والرفع من الكفاءة في جميع المجالات؛ كالتدريس والبحث العلمي والالتزام بالكثير من الآداب العلمية والتعليمية....

وباختصار: إن وظيفة الجامعات كبيرة وشاملة ومتعددة، وكل ذلك يكون داخل الجامعة وخارجها؛ كخدمة المجمع والتقدم العلمي وتعليم الطلاب وتوجيههم ليتخرجوا في الجامعة عناصر يتمناها المجتمع وينتظرها لحل مشاكله وينقذه من ذلك التخلف.

ولكن واقع الجامعات بشكل عام هو العكس!

مع العلم أن التقصير في ذلك لا يقع على أساتذة الجامعات فقط، ولكن الملاحظ أن كثيرًا من أساتذة الجامعة في العالم الثالث، أهملوا الأصل وهو العلم و الإفادة، واهتموا بما يترتب على ذلك الأصل فاستغلوه أبشع استغلال، بل إن البعض لم يسعَ ويبذل

الجهود الكبيرة في الحصول على تلك الشهادات والمراكز العلمية، إلا من أجل المميزات التي حصل عليها بفضل هذه الشهادة- في نظره- فلذلك نجد البعض بمجرد حصوله على الشهادة ينتهي عنده دور العطاء ويبدأ دور الأخذ!

فبئس من اتخذ في حياته هذه الطريقة! وبئس من كانت هذه مبادئه وأهدافه:

صَلَّى المُصَلِّي لأَمْرٍ كَانَ يَطْلُبُهُ   لَمَّا انْقَضَى الأَمْرُ لا صَلَّى ولا صَامَا

لهذا فإن بعض الأستاذة الجامعيين إذا حصل على هذه الشهادة- بعد الجهد والتضحيات- سيستغلها أكبر استغلال؛ لأنها هي الهدف في نظره، وبسبب هذه التربية وهذا التفكير الاستغلالي نجد هذه المظاهر في تخلف تلك الجامعات، وذلك من عدة وجوه، ويتضح ذلك في المستوى الضعيف للبحوث العلمية الهزيلة، والمستوى نفسه في تأثير الجامعات على المجتمع، أما في قاعات التدريس فيلاحظ ذلك في إلقاء المحاضرات السردية الإنشائية والحشوية المكررة، والخالية من الروح العلمية الجادة، هذا غير التعالي على الطلاب وتسخيرهم في إعداد البحوث (وليس التعاون معهم)؛ فالفساد يتفاوت وقد يصل إلى بيع الأسئلة بل النتائج، وكذلك هناك أمور قد تكون عامة؛ مثل: انتشار المحسوبيات، والمزاجية، والتسلط، والتهديد... هذا بالإضافة إلى الاستغلال في شراء الكتب، وطريقة التصحيح الصورية... بل تصل بالبعض إلى سرقة بحوث الطلاب ونسبتها إلى نفسه.

وليس لأحد من الطلاب أن يناقشه في ذلك كله؛ لأنه (أستاذ جامعي)!

فكيف سيكون الطالب الجامعي؟

لَيْسَ الجَمَالُ بِأَثْوَابٍ تُزَيِّنُنَا   إِنَّ الجَمَالَ جَمَالُ العِلْمِ وَالأَدَبِ

إن الطالب بعد أن يتخرج ويصل إلى هذا الهدف (المزيف) الذي تحقق، يتطلع إلى مصالح أخرى؛ لهذا نرى هذه الجامعات في مؤخرة الجامعات في العالم، وهذا بالطبع ينعكس على الخريجين، فعلى هذا الأساس نجد كثيرًا من طلاب الجامعة بعد تخرجه قليل الفائدة في عمله- هذا إن وجد عملًا- وهذا مما يزهد أصحاب الأعمال فيه فيكون عاطلا مع بقية العاطلين، أو يعمل في غير تخصصه، وهذا ملاحظ؛ إذ نرى

الكثير من الخريجين في الجامعات يعملون في مجالات تختلف عن تخصصاتهم، ومما يزيد الطين بلة- وكما يقال: شر البلية ما يضحك- قد يكون غير المتخصص أحسن من المتخصص؛ فينجح في هذا المجال ويبدع بشكل أكبر!

بل قد يكون ذلك المبدع لم يدخل الجامعة أصلا أو دخلها ولم تناسبه؛ لأن لها برتوكولات وسلطات لم يخضع لها، فيخرج من الجامعة، ويبدع في نفس المجال أكثر من المتخصص الذي تخرج في الجامعة! لأنها خرجته تخريجًا صوريًّا لا مضمون فيه؛ ولهذا ينطبق على هذه الجامعات المثل القائل: «أسمع جعجعة ولا أرى طِحْنًا»، فهل نغير اسم بعض الجامعات إلى (جعجعات)؟!

ويلاحظ أن كثيرًا من هذه الجامعات التي من المفترض أن تكون (صروحًا علمية)، لا تحمل من معاني الجامعة إلا اسمها، وقد وصفها أحد الأساتذة الجامعيين[1]، فقال: إنها كقبور اليهود: «من برا رخام ومن جوا سخام».

ولو أردنا أن ندلل على هذه الحقائق المؤسفة لطال بنا المقال، مع أن الواقع خير مثال، ولكن نكتفي بشخصيتين بارزتين عرفتا واقع الجامعات عندنا وعند غيرنا، وهاتان الشخصيتان هما:

الشخصية الأولى:

عالم الفضاء المصري البارز الدكتور فاروق الباز[2]، وقد بين المستوى السيئ لحال

---

(١) وهو دكتور مسلم عربي تخرج في جامعة هارفرد الأمريكية، ومتخصص في التربية.

(٢) عرفه مقدم الحلقة أحمد منصور فقال: «عالم الفضاء البارز الدكتور فاروق الباز، مدير مركز أبحاث الفضاء في جامعة بوسطن في الولايات المتحدة الأمريكية، ولد في عام ١٩٣٨م في مصر، حصل على البكالوريوس في الكيمياء والجيولوجيا من جامعة عين شمس، ثم حصل على الماجستير في الجيولوجيا من معهد علم المعادن في ولاية ميسوري الأمريكية، ثم على درجة الدكتوراه في التكنولوجيا الاقتصادية، ثم عاد إلى مصر، لكنه مثل كثير من أبنائها المبدعين وجد نفسه قد وضع في المكان غير المناسب، فعاد سرا إلى الولايات المتحدة عام ١٩٦٦ حيث التحق بوكالة الفضاء الأميركية ناسا، وكان أول من حدد مواقع هبوط المركبات الفضائية الأمريكية على سطح القمر، كما أنه قام بتدريب رواد الفضاء الأمريكيين قبل رحلاتهم؛ مما جعل رائد الفضاء الأمريكي نيل أرمسترونج يرسل رسالة من على سطح القمر باللغة العربية؛ تقديرا لأستاذه فاروق الباز، كما حمل معه صورة من صور القرآن الكريم تركها على سطح القمر، بقي فاروق الباز إلى العام =

الجامعات وأشار إلى حقائق نختار منها ما يأتي:

«أننا بعيدون عن كل ما يحصل من قياسات وكل الدراسات العلمية، وهذه مصيبة عندنا. وأرجع ذلك إلى العرب كلهم وليس الحكومات فقط، بل العلماء العرب من أولهم لآخرهم، وجزء من المسؤولية يقع على العلماء أنفسهم، وعلى الأقل العلماء في الجامعات» انتهى[1].

الشخصية الثانية:

الدكتور: رشدي راشد[2]، مدير الأبحاث في المركز القومي الفرنسي للبحث العلمي،

= ١٩٧٢ يعمل في برنامج الفضاء أبولو، حيث كان يدرب رواد الفضاء كما كان يحدد لهم مواقع هبوط مركباتهم الفضائية على سطح القمر، وفي العام ١٩٧٣ انتقل للملاحظة الكونية والتصوير في مشروع أبولو، ثم انضم عام ١٩٨٦ إلى جامعة بوسطن حيث يعمل الآن مديرا لمركز أبحاث الفضاء في جامعة بوسطن» انتهى باختصار.

(١) قناة الجزيرة، برنامج: بلا حدود، عنوان الحلقة: (المخاطر التي تهدد دلتا النيل وسكانها)، تاريخ الحلقة: ١٨/ ١١/ ٢٠٠٩م.

(٢) عرفه مقدم الحلقة أحمد منصور فقال: «أحد أبرز علماء العرب المهاجرين في الغرب، البروفسور رشدي راشد، مدير الأبحاث في المركز القومي الفرنسي للبحث العلمي. ولد في مصر عام ١٩٣٦م، حصل على ليسانس الفلسفة من جامعة القاهرة، ابتعث إلى باريس وحصل على دكتوراه الدولة في الفلسفة والعلوم، عمل في جامعة هومبولد في ألمانيا، ثم عاد إلى باريس في المركز القومي الفرنسي للبحث العلمي، شغل طوال ٤٥ عاما مناصب علمية مرموقة، من أهمها مؤسس وأول رئيس لفريق البحث العلمي في نظرية المعرفة وتاريخ العلوم وتاريخ المؤسسات العلمية في جامعة باريس السابعة، رئيس قسم دراسات الدكتوراه في نظريات المعرفة وتاريخ العلوم في نفس الجامعة، عمل أستاذا متفرغا وزائرا للعشرات من جامعات العالم، منها جامعة طوكيو في اليابان والمنصورة والقاهرة في مصر ومونتريال في كندا، وجامعات أمريكية وإيطالية وعربية أخرى عديدة، حصل على جوائز وأوسمة عالمية، من أهمها وسام الفارس الشرفي من رئيس الجمهورية الفرنسية عن كافة أعماله في خدمة العلم والمعرفة، ميدالية ألكسندر كورييه وهي أعلى ميدالية تمنح في تاريخ العلوم في العالم، ميدالية وجائزة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، ميدالية ابن سينا الذهبية من اليونسكو، ميدالية وجائزة الملك فيصل العالمية عن الدراسات الإسلامية، ميدالية المركز القومي الفرنسي للبحوث، وغيرها من الميداليات والجوائز العالمية الأخرى، عضو في الكثير من الأكاديميات العلمية ومراكز البحث في العديد من دول العالم، أصدر ما يزيد على ٤٦ كتابا نشرت بالعربية والإنجليزية والفرنسية والتركية وترجمت إلى لغات أخرى عديدة، لكن أهم ما قام به رشدي راشد هو أنه أحيا من خلال مؤلفاته- التي كتب بعضها باشتراك مع علماء =

ولما لهذا الدكتور من إلمام كبير في مجال المراكز العلمية- بما فيها الجامعات- وأثرها في تطور الدول ورقيها، ولخبرته الكبيرة في مجالات عديدة، فقد دعاني هذا للتركيز على كلامه القيم، واستخلاص بعض الملاحظات؛ إذ إنها من جهة تكشف عن الحال السيئ للجامعات من خلال الحقائق العلمية، ومن جهة أخرى تبين العلاج الملائم والأسس التي ينبغي الأخذ بها لكي تنهض بالأمة، وسنلخص منها عشر ملاحظات؛ وهي:

«١- يقيم الطالب الجامعي أو المتخرج في الجامعة في العالم العربي بأنه (مأساة حقيقة).

٢- يُرجع مشكلة عدم نشوء المجتمع العلمي إلى أمرين:

الأول: الإمكانيات.

الثاني: تكوين مجتمع علمي، وهناك فرق ضخم بين وجود أفراد علميين، وبين وجود مجتمع علمي.

٣- قال عن البحوث في الدول العربية: «يجب أن نفرق بين مؤتمر علمي، ومهرجان!»[1].

٤- يدعو إلى إصلاح التعليم، ويدعو إلى إعادة تكوين الطالب الجامعي، ويشير إلى أن من مميزات المؤسسات العلمية الغربية أنها تبني الأفراد.

٥- يقترح إعادة تأهيل أساتذة الجامعات.

٦- يدعو إلى التركيز على تنشيط مؤسسات البحث العلمي.

٧- يرى أنه يستحيل أن تكون نهضة علمية ومجتمع معرفي في العالم العربي بغير اللغة العربية، وتكون اللغة العربية في جميع العلوم بما فيها الهندسة والطب؛ أما بغير لغتها فلن يؤسس علم على هذا الأساس، ويبين أن التعليم في اليابان باليابانية، وليس

= غربيين- أحيا تاريخ العلوم عند العرب؛ مثل مؤلفات ابن سينا وشرف الدين الطوسي وابن سهل وابن الهيثم وثابت بن قرة وابن سنان والخازن والقوهي وابن السمح وابن هود والكندي وعمر الخيام ونعيم بن موسى والخوارزمي، وأصبح الغرب يستفيد من هذه العلوم التي أقام عليها حضارته بشكل كبير» انتهى باختصار.

(١) في إشارة إلى أن المؤتمرات العلمية ينبغي ألا تقام لأجل المظاهر، وإنما للفائدة العلمية.

بالإنجليزية، والتعليم في الصين بالصينية...

وبين أن الجامعات التي تدرس بغير لغتها لن تتقدم؛ لأمرين هامين:

الأول: أن الجامعات ستكون جامعات تقنية أكثر منها جامعات أساسية.

الثاني: أن الأستاذ المتميز الهام لن يترك جامعته الأصلية ويترك طلابه وأبحاثه ومركزه... لن يترك ذلك حتى لو أعطيته ملايين الدولارات ليدرس في جامعة أجنبية عنه؛ فهذا غير ممكن؛ فالذين يأتون للتدريس أقل بكثير من الأساتذة المتميزين.

٨- ينبغي أن يتواصل تاريخ العلوم عند العرب والمسلمين بالحاضر وبالمستقبل.

٩- يرى أنه ينبغي أن تكون النهضة شاملة في جميع الميادين العلمية؛ فلا تفصل النهضة في ميادين اللغة عن التاريخ عن الفقه عن الجبر عن الهندسة،،، إلى آخره، يعني: أن العلوم الإنسانية لها مكانتها إلى جوار العلوم التطبيقية.

١٠- يرى أنه ينبغي أن نوطن العلوم لا أن نستوردها».

انتهت ملاحظات الدكتور رشدي راشد[١].

وهنا ينبغي التأكيد على أن أساتذة الجامعات لا يتحملون المسؤولية الكاملة في هذا التخلف، بل إن بعض العلماء كافح وضحى بكل ما يملك لرقي الجامعات ، ولكن!

ومع انحدار المستوى العلمي نلاحظ أن البعض يريد من دراساته العليا المظاهر البراقة فقط؛ فالكثير يريد الشهادة الجامعية أو الماجستير أو الدكتوراه؛ لشكلها لا لمضمونها، وكذلك تحولت المؤتمرات العلمية إلى مهرجانات.

وهذا من أسباب البطالة التي تضاف إلى تخلف العالم الإسلامي.

وللأمانة، قد يستثنى من ذلك بعض التخصصات؛ كالطب، ولكن ما السبب؟ هل السبب يكمن في أن برامجهم ومناهجهم مستوردة؟!

---

(١) قناة الجزيرة، برنامج بلا حدود، عنوان الحلقة: (تراجع الدول العربية في البحث العلمي)، مع ضيف الحلقة رشدي راشد، مدير الأبحاث في المركز القومي الفرنسي للبحث العلمي، تاريخ الحلقة ٢٨/ ٧/ ٢٠١٠م.

وأما التخصصات الإنسانية[١]، فإن بعض بحوثهم التي نالوا عليها شهادة الدكتوراه، تتلخص في جهود كتابية، وتدور حول مواضيع عقيمة أو قليلة الفائدة، في مجتمعات هي أحوج ما تكون إلى من يخرجها من ذلك التخلف، بل وصل التخلف إلى التقصير فيما يختص به عالمنا الإسلامي[٢]، ومن يطلع على هذه المواضيع، يجدها تتحدث في مواضيع على شاكلة ما يأتي:

---

(١) وهذا ليس انتقاصًا من الدراسات الإنسانية، فالدراسات الإنسانية لا تقل عن غيرها، بل هي أهم إذا تم تعليمها بطريقة صحيحة.

(٢) ومن الأدلة: أن من يكتشف آثارنا هم الغرب، بل إن الكثير يرتاح لقراءة التاريخ الماضي من كتب الغرب (مع أنه مجرد كتابة!)، مع العلم أن المسلمين هم الأصدق وهم أول من وضع الأسس العلمية الصحيحة للوصول إلى المعلومة وصحتها، وذلك بعلم الرواية والدراية؛ فالرواية تقوم على دراسة السند (الرجال الذين رووا الخبر) من ناحية ضبطهم وعدالتهم، وكذلك من حيث اتصال تسلسلهم في رواية الخبر، وكذلك من ناحية خلو الخبر من الشذوذ والعلل.

ومن الأمثلة على التقصير: سنختصر بذكر مثال على علم يعتبر عند الناس من أسهل العلوم، ليتبين أن التقصير في غيره من باب أولى، وهو (التاريخ)، وإليك المثال: ينتشر في كتب التاريخ اتهام المسلمين العرب باختطاف السود في إفريقيا وبيعهم عبيدًا في الغرب، ولا شك أن هذا تشويه لتاريخ المسلمين، وزرع للكراهية لهم في وقتنا الحاضر، فماذا عملت كليات التاريخ؟

مع أن الحقيقة هي: أن العنصريين البيض في الغرب كانوا يختطفون السود الأحرار من قراهم في إفريقيا ويبيعونهم على أنهم عبيد، وذلك تحت سياط التعذيب، بل القتل لمن يرفض ذلك، واستمر ذلك لعدة قرون، ولكن مع الأسف أن هذه الجرائم التاريخية ألحقت بالعرب زورًا وبهتانًا ونسبت لهم، وأرادوا من ذلك التزوير تبرئة ماضيهم، وإلحاق هذه الجريمة بالعرب لتشويههم ومن ثم تشويه صورة الإسلام.

وبهذا زوروا التاريخ وصارت هذه معلومة ثابتة عند الكثيرين من أبناء الغرب، بل غيرهم أيضًا.

ولقد أراد أحد الأوروبيين- وبالتحديد من فرنسا- أن يصحح هذه المعلومة التاريخية فذهب إلى إفريقيا ليثبت ذلك من خلال البحث العلمي القائم على الأدلة والبراهين الثابتة والموثقة، ولكن لأن هذه المهمة تحتاج إلى دعم مادي طلب من السفارة الفرنسية دعمًا ماديًّا لكي يبرئ العرب من هذه التهمة، فجاء رد الحكومة الفرنسية بما معناه: «إن هذا يخص العرب».

وهنا نتساءل: أين مؤرخو العرب لتصحيح هذه المعلومة؟

ولكن الحل قد يكمن في ما يأتي: إن كانوا لا يستطيعون إثبات هذه المعلومة: إما بسبب جهلهم، أو كسلهم، فإن الحل يتمثل في أن يعطوا هذا المؤرخ الفرنسي مبلغًا من المال لكي يصحح هذه المعلومة أو يثبتها، وبهذا يتفرغون في جامعاتهم لتخصصات التاريخ العقيم المريح، ويدورون في حلقاته المفرغة مبتدئين من التسمية هل هو: (تأريخ) أو (تاريخ)!

أ- تحقيق مخطوطة ألفها رجل من مئات السنين، فقصر تفكير هذا الباحث عن أن يبدأ من حيث انتهى غيره، وإنما يعيد طباعتها ولكن بطريقة متكلفة، وبهذا ينال الدكتوراه.

ب- يجمع مجموعة من المعلومات والأقوال القديمة، ويردد هذه الأقوال، ثم يجعلها في أبواب، ثم ينسب كل قول لصاحبه، ثم يعرف كل شخص منهم، ثم يجمعها كلها، ثم يصنفها في مجموعات، ثم يفهرسها، ثم يفرقها... وهكذا يحصل على الدكتوراه.

ت- يكتب في موضوع تافه لا يمت لمشاكل البيئة المحيطة به بأي صلة، ثم يزيد فيه ويعيد، حتى يملأ مجلدًا ليأخذ عليه شهادة الدكتوراه.

ث- يكتب في موضوع ناقشه العلماء منذ مئات السنين، ومع ذلك لا جديد، وإنما زيادة كتب من غير فائدة إلا الدكتوراه.

ج- يكتب عن موضوع يخص أحداثًا انتهت وتكلم عنها العلماء، ومع ذلك لم يخرج بفائدة تذكر، وإنما لينال شهادة الدكتوراه.

ح- يكتب في موضوع ينم عن ترف علمي، ولكن المقصود هو الشهادة.

وهذا غير من ينال تلك الشهادة بمساعدة البعض، أو يسافر للخارج، ثم يأتي بشهادة (رخيصة).

- وهكذا ينال كل منهم الشهادة ثم توضع تلك البحوث في رفوف لكي يسكن عليها الغبار!

- وهكذا تتكرر الشهادات ويبقى التخلف، فلو أن ذلك الإهمال حصل في الدول المتقدمة لالتمسنا لهم بعض الأعذار؛ لأنهم حققوا الأساسيات، وكذلك لأنهم لا يؤمنون بدين قويم يوجههم، ولكن لماذا كل هذا؟!

يَا لَـهْفَ نَفْسِي إِذَا كَانَتْ أُمُورُكُمُ   شَتَّى وَأُحْكِمَ أَمْرُ النَّاسِ فَاجْتَمَعَا

* * * * *

طريقة التدريس:

وأما طريقة التدريس فإن الكثير منهم لا يخرج عن طريقتين: إما أن يقرأ على الطلاب من كتاب، أو يحفظ معلومات يكررها عليهم منذ سنوات، مع إعطاء بعض البحوث العقيمة... وهكذا بطرق لا ترقى إلى المستوى المطلوب.

أما الطرق والأساليب الأخرى في التدريس، فكأنه لا وجود لها، فمثلًا: قَلَّ أن تجد منهم من يعطي الطلاب بحوثًا ودراسات جادة منتقاة ويناقشهم فيها بروح علمية، وأدب عال محبب إلى النفوس.

قصور المواد العلمية وضعف مضمونها:

لا شك أن مناهج الجامعات متخلفة (بشكل عام) من جميع النواحي من ناحية اختيار المواد العلمية، ومضمونها، وطريقة تدريسها، فيلاحظ أنها في الغالب عقيمة وجافة ولا تجاري العصر وقديمة؛ فقد أكل عليها الدهر وشرب، وهي كذلك غير علمية! لأن العلم الحديث يحتاج إلى علم، لا إلى تاريخ علم، ولكن لإضفاء طابع الدرجة العلمية العالية تملأ بالفلسفات؛ مثل: (قال سقراط، وقال أفلاطون، وقال أرسطو) وإذا زاد بعدهم قال: (قال ابن خلدون)[1]، وكذلك الغموض واستعراض المصطلحات العلمية الغربية.

ولكي لا يتخيل أو يتصور البعض أن هذه التهم تلقى جزافًا، سنتكلم عن بعض المواد العلمية والمواضيع الهامة التي من المفروض أن تدرس في كليات إعداد المعلمين، ولكن بالرغم من أهميتها إلا أنها لا تُدرس، وإن دُرس بعضها فإنه يدرس بطريقة نظرية عقيمة مملة.

---

(١) سقراط وأفلاطون وأرسطو، كلهم فلاسفة يونانيون وأزمنتهم كما يأتي:
- سقراط: (٤٦٩ ق.م- ٣٩٩ ق.م).
- أفلاطون: (٤٢٧ ق.م- ٣٤٧ ق.م).
- أرسطو أو أرسطوطاليس: (٣٨٤ ق.م- ٣٢٢ ق.م).
- ابن خلدون: هو عبد الرحمن بن محمد (٧٣٢هـ- ٨٠٨هـ)، (١٣٣٢م- ١٤٠٦م)، رائد علم الاجتماع ومؤرخ، حفظ القرآن الكريم في طفولته، وكان أبوه هو معلمه الأول، أشهر كتبه (مقدمة ابن خلدون)؛ كتبها ابن خلدون في تاريخه العام.

ولولا الإطالة لانتقدنا المناهج (العقيمة) التي تدرس في هذه الجامعات[1]؛ كالتاريخ، والجغرافيا، والدين، واللغة العربية...

وفي المقابل المناهج التي ينبغي تدريسها، ولكن سنتكلم عن النقص الحاصل في كليات إعداد المعلمين، وعلى هذا الأساس يقاس النقص الباقي.

النقص في كليات إعداد المعلمين:

إن من يرى هذا النقص يعجب من أسبابه: هل هي راجعة إلى الجهل؟ أو الإهمال؟ أو الخوف من زيادة الأعباء؟ أو كل ذلك وغيره الكثير؟

ولهذا سنذكر بعض أوجه النقص؛ لأن ذكرها وتفصيلها يحتاج إلى جهد كبير جدًّا[2]، ولكن سنشير إليها إشارة، والحر تكفيه الإشارة:

١ - المدرسة النبوية في التربية.

٢ - البرمجة العصبية.

٣- التربية الإيجابية.

٤ - التربية بالحب.

٥ - مهارات وطرق تغيير السلوك.

---

(١) ومعرفة هذا النقص ليس من علم الغيب، بل هو ظاهر يعرفه الكثير، ولكن!

(٢) وسنبين بعضها بشيء من التفصيل في الكتاب القادم إن شاء الله تعالى؛ لأن بناء المعلم يحتاج إلى جهد كبير ومضاعف له جوانب كثيرة.

وما سيقال مجرد ذكر لعينات من النقص؛ لأنه من المستحيل حصرها والحديث عنها في كتاب واحد أو كتابين أو ثلاثة، بل يحتاج إلى أكثر من ذلك بكثير. فلو تحدثنا عن جانب بناء الذات مثلا فإنا سنتحدث عن بناء الذات بما فيها من غرس وتنظيم وتحكم وتغيير وتطوير؛ كالتركيز والتفكير والإحساس والتفاؤل، وكذلك التعامل مع الضغوط النفسية وتحقيق السعادة ووسائل النجاح وأسراره والطرق المؤدية إليه، والإدارة بأنواعها بما فيها إدارة الوقت ومهارات الاتصال وطرق الحوار وفنون التعامل مع الغير وكسبهم والتأثير فيهم واختبار القدرات والتخطيط، بما فيه التخطيط للمستقبل...

فكل هذا وغيره يؤدي إلى إبداع المعلم في عمله وتفوقه في مجالات التربية والتعليم.

٦- مهارات وطرق الحوار.

٧- مهارات وطرق الإلقاء[١].

٨- مهارات وطرق إيصال المعلومة[٢].

٩- مهارات وطرق الإقناع[٣].

١٠- العلاج بخط الزمن[٤].

١١- أنماط الشخصيات ومهارات التعامل مع كل شخصية.

١٢- التعلم السريع.

١٣- التغذية الراجعة.

١٤- إدارة الصف.

١٥- إدارة الوقت.

١٦- الحاجات الإنسانية وإشباعها.

١٧- علم النفس التربوي[٥].

١٨- الكورت[٦].

---

(١) هل يتعلم المعلم فن الإلقاء ويتدرب عليه؟

(٢) إن هناك طرقًا كثيرة جدًّا لإيصال المعلومة، بل إن هناك طرقًا تفوق العشرات توصل المعلومة بدون الكلام والإلقاء.

(٣) وبها يستطيع المعلم أن يؤثر في اتجاهات وميول وسلوك الطلاب عن طريق الألفاظ والإشارات...

(٤) طريقة مختصرة للعلاج بتغيير سلسلة من الأحداث الماضية الداخلية المؤثرة في النفس، والمؤدية إلى سلوك أو حالة نفسية سلبية، وبهذه الطريقة تزول السلوك والمشاعر السلبية وتتحول إلى إيجابية.

(٥) بطريقة علمية عملية حديثة، وليست الطريقة القديمة المملة العقيمة.

(٦) الكورت: برنامج متكامل وعملي ينمي مهارات التفكير، فهو يشرح ويوضح ويدرب على التفكير السليم، بحيث يكون التفكير صحيحًا ومنتجًا ومبدعًا، ويصلح لجميع الأعمار والمستويات والقدرات، وهو يعتبر أكبر برنامج يستخدم لتعليم التفكير، وبلغ عدد الذين تدربوا عليه من الطلاب أكثر من ٧ ملايين طالب حول العالم، ويستخدم هذا البرنامج في دول كثيرة؛ مثل: =

١٩- طريقة الاسترخاء.

٢٠- طريقة التنفس[1].

٢١- الطريقة السليمة للحفظ والقراءة السريعة.

٢٢- لغة الجسد.

لا يخفى أن للجسد لغة يحتاجها المربي: إما في طريقة الشرح والإقناع وتغيير السلوك، أو في فهم الطلاب ومراعاة نفسياتهم.

ولغة الجسد علم له أصوله، وهذه الأصول يطول شرحها، بل يطول تعدادها، فقد ذكر أحد المتخصصين أن هناك أكثر من ٤٦ مليون دراسة في لغة الجسد، فما نصيب كليات إعداد المعلمين في عالمنا الإسلامي؟ وما نصيب المعلمين؟

ومهارات الجسد وعناصره كثيرة؛ فهي تتحدث عن أجزاء متعددة من الجسم؛ مثل: تعبير الوجه، وإخراج الألفاظ، ونبرة الصوت، وحركة اليدين...، وسنتطرق لبعض ذلك ونأخذ عنه فكرة مختصرة:

أ- الإشارة بالأصبع:

الإشارة بالأصبع لها أصول علمية؛ منها: أن الإشارة على الطلاب لا تكون بالسبابة؛ لما لها من مضامين غير حسنة؛ كالاتهام، والتعالي...، وعندما تقول لأحد الطلاب: اجلس، وتشير إلى المكان بالسبابة، تختلف عن الإشارة إليه باليد المبسوطة... ولاحظ اسمها (السبابة)، مع أنها في حالات أخرى تنعكس وظيفتها فتسمى المسبِّحة.

ومن أخذ من الكنوز النبوية التي لا تنضب واستعرض سيرة الرسول صلى الله

= إنجلترا، والولايات المتحدة، وكندا، وأستراليا، واليابان، وفنزويلا.

ولا شك أن التفكير له أهمية كبيرة، ولكن التربية على التفكير بطريقة صحيحة تنقص الكثير من سكان العالم الثالث.

ومن المعلوم أن الإسلام حث على التفكير؛ ففي القرآن الكريم أكثر من ٥٠٠ آية تدعو إلى إعمال العقل.

(١) إن الدراسات تبين أن أكثر الناس لا يتنفسون بطريقة صحيحة، وأغلبهم يستخدم أقل من ثلث قدرة الرئتين على التنفس، مع أن الهواء متوافر ولله الحمد!

عليه وسلم، عرف أنه كان يشير بيده في حالات، وبإصبعه في حالات أخرى.

ب- طريقة المشي:

وطريقة المشي لها أصول؛ مثل: المشي أثناء إلقاء الدرس بطريقة الخطوة ونصف، بحيث إنه عندما يمشي المعلم بهذه الطريقة أمام الطلاب لا يدير لهم ظهره أثناء إلقاء الدرس، وكذلك نوعيات المشي، وكذلك المسافات وأنواعها وتأثيرها، والمكان، والجهة المناسبة في المناقشة والحديث....

ت- العين:

قال الشاعر:

عَيْنَاكَ قَدْ دَلَّتَا عَيْنَيَّ مِنْكَ عَلَى أَشْيَاءَ لَوْلاهُمَا مَا كُنْتُ أَدْرِيهَا

وَالنَّفْسُ تَعْرِفُ مِنْ عَيْنَيْ مُحَدِّثِهَا إِنْ كَانَ مِنْ حِزْبِهَا أَوْ مِنْ أَعَادِيهَا

فعلوم العين لها أصول وأبواب كثيرة؛ مثل طريقة توزيع النظرات أثناء إلقاء الدرس، وشكل العين وحركتها،إذ إن أي إنسان يتكلم تظهر على عينيه علامات، يتبين من خلالها إن كان صاحبها يتذكر أو يفكر أو يتكلم عن مشاعره وما يحس به...

وهذا علم قديم، وقد استخدم في التحقيق في الحرب العالمية منذ أكثر من خمسين سنة، فهل استخدم في كليات التربية في وقتنا الحاضر؟!

٢٣- تأثير الألوان:

يقول أردتشام، أحد علماء النفس: «إن تأثير اللون في الإنسان بعيد الغور، وقد أجريت تجارب متعددة بينت أن اللون يؤثر في إقدامنا وإحجامنا ويشعر بالحرارة أو البرودة، وبالسرور أو الكآبة، بل يؤثر في شخصية الرجل وفي نظرته إلى الحياة».

بل إن هناك من يوصل هذا الأمر إلى العلاج بالألوان.

٢٤- ضرب الطلاب:

إن قضية ضرب الطلاب، لا تدرس ولا تناقش في الجامعات مناقشة علمية متكاملة تشمل جميع النواحي؛ كالنواحي الدينية، والتربوية، والنفسية، والاجتماعية.

والواقع يشهد بذلك التقصير، وإن من يسأل المعلمين حديثي التخرج أو القديمين يلاحظ في إجاباتهم كثيرًا من التخبط والبلبلة والجهل الكبير في جميع نواحي هذه القضية، مع أنها مسألة أساسية في التربية، وقد عانى ويعاني منها الكثير من الطلاب في العالم الثالث، وصدرت فيها التعاميم والنشرات من وزارات التربية، وتكلمت فيها وسائل الإعلام، ولكن الكليات في واد آخر!

فلماذا هذا الإغفال؟ فهل هو بسبب الجهل أم الاستهتار؟

يقول بعض المعلمين: إن السكوت عن الضرب أو التغاضي عنه، قد يراد منه أن يُضرب الطلاب ويُذلوا وتُمسخ كرامتهم وتُكسر شوكتهم، بحيث يأتون للجامعات لا إرادة لهم ولا كرامة وإنما عبيد أذلاء، وبذلك تسهل السيطرة عليهم ويسيَرون كيفما تريد الجامعة وتحشى رؤوسهم بهذه المناهج العقيمة، وهم مستكينون خاضعون.

فإذا كان هذا الإهمال يحصل في هذه القضية الأساسية، فما بالك بغيرها من القضايا؟

وأخيرًا:

هذا بعض ما طرأ على الفكر من المفردات التربوية، ومن المفترض على هذه المراكز العلمية أن تكون هي المبادرة إلى ما يستجد في أمور التربية، وأن يكون القائمون عليها هم خير من يعلمها للطلاب ويدربهم عليها، ولا شك أن هناك كثيرًا من أساتذة الجامعات لا يرضون عن هذا التخلف والانحدار أو انتشار هذه المهازل في الجامعات، ولكن الأسى والحزن ينصرف إلى من يتخرج في هذه الجامعات وهو لا يعرف من التربية إلا كتبًا قديمة عقيمة، وقد تأثر بسوء المعاملة، وبهذا يسيء تربية هذا الجيل المسلم.

تَذَكَّرْتُ وَالذِّكْرَى تَهِيجُ عَلَى الفَتَى ... وَمِنْ حَاجَةِ المَحْزُونِ أَنْ يَتَذَكَّرَا



الباب السادس
الإدارة والمعلِّمون





سيناقش هذا الباب مشاكل الإدارة والمعلمين، ويبين كيفية التعامل مع المدير المستبد، وحق المعلمين في الإدارة، ثم يبين أنواع أعضاء هيئة التدريس، وبعض الطرق السيئة للاستبداد والاستمرار في الفساد، ثم التنبيه على فهم أسباب الفساد، ومعالجة مشاكل المعلمين.

وأخيرًا: ما العمل الذي من خلاله نستطيع أن ننهض بالتربية في العالم الإسلامي، وبيان أن ذلك لا يكون إلا بعد معرفة المشكلة وفهم الحل، ثم العمل.

ثم سيرد ذكر الشخصية (النموذج) الذي طبق كثيرًا من المعاني السامية التي وردت في هذا الكتاب على أرض الواقع، بحيث صار قدوة معاصرة.

ثم ذكر التوصيات، وخاتمة الكتاب.

الإدارة:

لا شك أن الإدارة لها دور هام ورئيس في نجاح العمل، ولقد قال أحد الخبراء النابهين في أكبر دولة صناعية متقدمة: «خذوا كل ممتلكاتنا وكل شيء، واتركوا لنا الإدارة».

وسنناقش الإدارة من خلال شخصية واحدة وهي مدير المدرسة أو الجامعة بالشكل العام، مع العلم أن كثيرًا من المديرين مخلصون ومجتهدون في عملهم، ولن يكون الكلام في هذا الكتاب مخصصًا لأحد معين- كما بينا في ما سبق عن المعلمين - ولكن سنبين الفكرة الصحيحة في فهم الإدارة والقيادة والإساءة في استغلالها، وسنختصر في ذلك؛ لأن فيها شبهًا كبيرًا بوظيفة المعلم في إدارة الفصل[1].

---

(١) ولن نفصل في أنواع المديرين والإدارات، وكيف يكون المدير ناجحًا، والطرق المتبعة للإدارة الناجحة.

يقول أحد المفكرين (العرب): «عندما كنت في إحدى الدول الغربية وأردت أن أدير عملًا معينًا، أعلنت في الصحف أطلب سكرتيرة لتعينني في عملي.

وعندما حضرت السكرتيرة المناسبة، بينت لها أنها في حالة تغيبها بسبب المرض عليها أن تحضر من المستشفى ما يثبت أنها مريضة!

وعند ذلك اعتذرت السكرتيرة عن العمل معي، بحجة أن هذا العمل قائم على عدم الثقة، وقالت: إذا كنت لا تصدقني في أني مريضة، فكيف تقبلني أمينة على أعمالك!».

وعلى هذا الأساس فإنها لا ترغب في عمل قائم على التفكير التخويني؛ لأنه إذا فقدت الثقة فسد العمل أو صار العمل سيئًا.

أما في مجتمعات العالم الثالث، فلابد من ورقة رسمية من الطبيب وأن تكون موقعة ومختومة.

في إحدى الدول الغربية قالت سكرتيرة أحد الأطباء: «إننا لا نملك ختمًا في عملنا».

قالته لرجل من دول العالم الثالث، طلبت منه إدارته المتخلفة أن يختم على الكشف الطبي؛ لأنها لا تثق فيه ولا في أوراقه التي أحضرها.

وهنا قد يقول البعض: لا بد أن تكون هناك أوراق، ولا بد أن تكون الأوراق موثقة ووو...!

وهنا نتساءل: لماذا وصلنا إلى هذه الحال، وإلى هذا التفكير، مع أننا- نحن المسلمين- نحمل الأمانة العظيمة؟!

لا شك أنه التخلف الذي يضرب أطنابه بيننا، حيث تربى الإنسان منذ نعومة أظفاره على الاستبداد والانتهازية والأنانية والظلم في أخذ الحقوق وعدم أداء الواجبات، ثم التخوين، ثم الخيانة، ثم الفساد....

ومن يلاحظ الفرق بين الإدارة في المجتمعات المتخلفة والمجتمعات المتقدمة

- فضلا عن المجتمعات التي تسود بينها التعاليم الإسلامية بشكل واقعي- فإنه سيلاحظ التعامل الراقي، لأن كثيرًا من الدول المتخلفة، لا يحسن هذه المعاملة الراقية في الإدارة التي تعلمها منذ نشأته، فالإدارة بشكل عام بما فيها إدارة المدرسة التي تجتهد في مراقبة الطلاب وتفتيشهم، بل تراقب المعلمين، فمثلا التوقيع أساسي في كل شيء، من حضور المعلم للمدرسة إلى انصرافه منها، وكما سبق بيانه عن بعض المجتمعات المتخلفة (الإنسان متهم حتى تثبت براءته).

كيفية الإدارة:

وقد يتساءل البعض- ممن استمرأ ذلك التعامل الهابط المتخلف- عن كيفية الإدارة في هذه المجتمعات المتخلفة، وكيف يعمل الموظفون أو المعلمون من دون تواقيع تبين الانضباط والإخلاص في العمل؟!

فيقال ببساطة: إن الإنسان المجتهد بين، وغير المجتهد بين، وهذا لا يخفى على أي موظف في هذه الإدارة، فكيف بالمدير، بل إن هذه التواقيع والروتين بشكل عام يفسد أكثر مما يصلح، فهو يحمي الفاسد، ومن الأدلة على أن الإدارة فيها فساد: كثرة التواقيع والأختام والروتين، والعكس بالعكس.

والروتين يرعى حق المسيء؛ لأنه يعمل الشكليات المطلوبة منه فيكون أمام النظام سليمًا ليس عليه ملاحظات، بل قد يكون على هذا المبدأ أحسن من المعلم المجد المخلص، فالمهم هو الشكل لا المضمون.

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ

* * *

المدير:

لا شك أن المدير ينبغي أن يكون نموذجًا راقيًا للطلاب والمعلمين وأولياء الأمور والمسؤولين، بحيث تتوفر فيه خصال كثيرة؛ مثل الأمانة، والعدل، والتواضع، والإتقان، والمحبة، والتضحية، والإيثار.

ولكن المشكلة إذا كان العكس، بحيث يسيء استغلال السلطة، فيستبد ويظلم

ويتكبر ويستغل ويحابي ويخون ويتمنن...

وهذا غالبًا ما يكون في هذه المجتمعات المتخلفة؛ لأنه يحمل فكرًا يقوم على أنه هو المسؤول الوحيد وأن له السلطة المطلقة، وأن البقية تابعون له، ويزيد في المشكلة أن من يتعامل معه يحمل نفس الفكر.

لهذا يلاحظ على بعض مديري المدارس أنه يتكلم من برج عاجي يأمر وينهى، ولا يراجَع أو يُنتقد كأنه معصوم من الأخطاء، وفي المقابل على البقية السمع والطاعة، كأنه يملك هذه المدرسة أو الجامعة، وأن الطلاب والمعلمين مجرد عبيد عنده يعملون في أملاكه.

لهذا ينبغي أن يعرف- هو ومن معه- أنه لا يمثل إلا نفسه وأنه لم يوضع إلا لخدمة الصالح العام. وأن الإدارة تكون بالحب والمشاركة وبروح الفريق الواحد، وليس بروح القطيع عند من يدير ملكًا له.

فهذه العقلية قديمة متخلفة لا تناسب الإدارة المدرسية الحديثة، وقبل ذلك لا تناسب الإسلام (النقي غير المشوه).

كيفية التعامل مع المدير المستبد:

لا يمكن القضاء على هذه الأفكار والعادات إلا بالتربية؛ فلهذا يجب أن يرقى المعلمون بفكرهم وتربيتهم للطلاب ليكون هذا التخلف الفكري منبوذًا في المجتمع، وليكون منبوذًا في نفس صاحب المنصب.

وليعلم أي مدير أن هذا المركز تكليف لا تشريف، فلا يستغل هذا المنصب بحيث يتحكم في من يرعاه فيأكلهم، بل عليه أن يرعى حقوقهم، ولا يكن كما قال الشاعر:

أُوتِيتَ حُكْمًا لِتَرْعَانَا فَتَأْكُلُنَا ... فَلَيْتَ شِعْرِي أَذِئْبٌ أَنْتَ أَمْ رَاعِ؟!

وينبغي أن نحارب شراسة المتسلط ونقلم أظافره ونلغي استغلاله لمكانته في مصالحه الذاتية، ونجعل فجوة بينه وبين المنصب بحيث لا يرتبط بالمنصب إلا من خلال الإصلاح فقط، فلا يدخل شخصيته (بمصالحها الذاتية المقيتة) ويستغل هذا المنصب.

وينبغي أن يتربى الطلاب على أن من يحمل هذه الأفكار (مجرم حقير)؛ لأنه خان

الأمانة ووظفها لمصلحته الذاتية، فلا يوصف بالسارق (الحرامي)؛ لأن السارق يأخذ حقوق الناس وهم لا يعلمون، أما من يأخذها وقد أعطيت له ليحفظها فإنه سارق وخائن.

بل إن هذه الحقوق لم تعط له من أجل الحفظ، ولكن من أجل الإصلاح.

وزيادة على ذلك، فإنه يعطى أموالا وصلاحيات على جهده (المفسد) الذي من المفترض أن يكون إصلاحًا.

فإذا عرف الجميع هذه المعاني كفّوا عن اللهاث المغلوث من أجل السلطة.

حق المعلمين في الإدارة:

كما بينا أن الإدارة المتخلفة تقوم علي السلطة المطلقة وأن المدير هو الذي يفرض الأوامر وينظر إلى المعلمين على أنهم موظفون ينفذون هذه الأوامر، وفي الجهة المقابلة على المعلم أن يقوم بتنفيذ ما يتلقاه من أوامر، ويكون ذلك من خلال التفتيش الدقيق على حركات المعلم وسكناته، وهذا يخلق في المعلم روح الخضوع والسلبية، فيشعر أنه مشكوك في إخلاصه وأمانته؛ لهذا عليه أن يتخلى عن إنسانيته، ويعتبر نفسه مجرد آلة أو أداة، فيؤدي ما يتلقاه بشكل روتيني ممل مفروض عليه من أعلى.

مع العلم أن المعلمين ليسوا مجرد منفذين، بل هم مشاركون رئيسيون في تطوير التعليم والرفع من كفاءته، وهذا لا يتم إلا بمعلمين راشدين يعطون الثقة والنقد والمشاركة، وبهذا يكون التطوير والتغيير للأحسن.

ولكن الملاحظ أن هذه الحالة (المتخلفة) بين الإدارة والمعلم، هي تكرار لنفس الحالة بين المعلم والطالب!

فالمعلم يعمل تحت مجموعة من السلطات القائمة على التهديد والتخويف والمراقبة والتفتيش، القائمة على الشك؛ لهذا يطلب منه التوقيع على كل صغيرة وكبيرة، وكما يقال: أرخص من توقيع المعلم.

والمشكلة أن بعض المعلمين استمرؤوا ذلك، فرأوه طبيعيًّا وهكذا تتكرر نفس مشاكل الطلاب، فكل إناء بما فيه ينضح، وعلى هذه الحال لا يمكن تطور التعليم

وتحسنه بهذه المستويات والأفكار المتسلطة المتخلفة العقيمة!

وكما أن من الحق على المعلم المشاركة في تطوير التعليم والرفع من مستواه، فكذلك من حق المعلم أن تحسن أوضاعه الاقتصادية والاجتماعية والوظيفية....، وأن يكون في وضع راقٍ يليق بمكانته العالية، ولا يكون ذلك إلا بإعداده إعدادًا لائقًا، مع الاستمرار في تطويره ورفع مستواه....

أنواع أعضاء هيئة التدريس:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾[1].

لا شك أن أعضاء هيئة التدريس متفاوتون؛ ففيهم المحسن، وفيهم المسيء، وفيهم ما بين ذلك، فهم ينقسمون إلى ثلاثة أنواع:

القسم الأول: المحسنون:

وهؤلاء المحسنون الأبرار الذين يقومون بأعمالهم على أكمل وجه، لهم حقوق كثيرة ينبغي أن تعطى لهم، مع أنهم لا يرجون من أحد جزاءً ولا شكورًا؛ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾[2]. وهؤلاء وأمثالهم من أصحاب النيات الصالحة والأهداف النبيلة، كثيرون- ولله الحمد- في المجتمعات الإسلامية، وهم ولله الحمد لا يحتاجون إلى توجيه وإرشاد، بل هم المرشدون الراشدون؛ فجزاهم الله خير الجزاء.

القسم الثاني: المحسن المقصر:

وهؤلاء لهم أعمال حسنة، ولكن عندهم تقصير، فهم الذين يحتاجون إلى التوجيه

---

(١) سورة فاطر، الآية: (٣٢).

(٢) سورة الإنسان، الآيتان: (٨ و٩).

قال ابن كثير رحمه الله تعالى، في تفسيره: « ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: رجاء ثواب الله ورضاه، ﴿ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾؛ أي: لا نطلب منكم مجازاة تكافئوننا بها، ولا أن تشكرونا عند الناس؛ قال مجاهد وسعيد بن جبير: أما والله ما قالوه بألسنتهم، ولكن علم الله به من قلوبهم، فأثنى عليهم به ليرغب في ذلك راغب» انتهى.

والإرشاد واستعمال الطرق المناسبة في تعزيز وتنمية جوانب إحسانهم، وإصلاح جوانب التقصير فيهم وتقويمها.

القسم الثالث: المسيء الظالم:

وهؤلاء هم مكمن الخطورة؛ لأن ضررهم لا يقتصر عليهم أنفسهم، بل يتعداهم إلى غيرهم؛ فلهذا ينبغي كشفهم وكشف طرقهم في الإساءة، حيث إن لهم طرقًا كثيرة في التغطية على أنفسهم، وكذلك في إفسادهم لغيرهم، مع أنهم يعتذرون عن إهمالهم وتقصيرهم وفسادهم بأعذار وتبريرات واهية؛ مثل: عدم إعطائهم حقوقهم المادية والمعنوية، وانتشار الفساد، وقلة الإمكانيات...، وهكذا يستمر في رمي التهم وتعليقها على الغير والتنصل من المسؤوليات.

مع أن الواجب على من عمل في هذه المهنة أن يؤدي عمله بإخلاص، وألا يجعل انتشار الفساد مانعًا أو ومبررًا له، بل يجعل الفساد دافعًا للصلاح والإصلاح.

وبهذا يتبين أن الفاسد ليس له عذر، ولكنه يحاول أن يتخذ له طريقًا يمهد له هذا الفساد، وللمفسدين طرق كثيرة، ولكن سنبين أربعًا من هذه الطرق التي يسلكها كثير من المفسدين:

١ - الأعور عند العميان:

البعض يحب أن ينتشر الفساد في المجتمع التعليمي، بل يحب أن يكون غيره أفسد منه، لكي يغطوا عليه بفسادهم، وبهذا يكون بينهم- بالرغم من فساده- متميزًا؛ كالأعور عند العميان.

٢ - الحكمة المقلوبة!

الحكمة تقول: «اشغلهم بالخير، لكي لا يشغلوك بالشر»، ولكن هذا الفاسد يقلب الحكمة بطريقة يعتقد أنها مفيدة لمبدئه؛ وهي: «اشغلهم بالشر، لكي لا يشغلوك بالخير»؛ فالمعلم الفاسد يعلمُ أن في صلاح المجتمع التعليمي نهاية له، وفي فساده ديمومة له وأشباهه؛ لأن بيئة الفساد وانتشار الفوضى تخلي له الجو فيستمر في تقصيره وفساده، وكما قال الشاعر:

خَلَا لَكِ الجَوُّ فَبِيضِي وَاصْفِرِي   وَنَقِّرِي مَا شِئْتِ أَنْ تُنَقِّرِي

ولكن هذا الفاسد يحرص على ألا يتعدى فساده درجة معينة؛ لأنه إن زاد عنها أنهى نفسه، وهذا ما تفسره الطريقة الثالثة.

٣- الكلب بين الذئب والغنم:

إن في تشبيه العالم الخائن للأمانة بالكلب حكمة بالغة[1]، وكذلك فإن له ولغيره من الموظفين الخونة[2] شبهًا بالكلب، ولكن من جهة أخرى، سنذكرها ليتبين خطره وينكشف تخطيطه.

إن بعض المعلمين المسيئين في أعمالهم يحرصون على ألا تتعدى إساءتهم حدود معينة، امتثالًا للقول الدارج: «لا يموت الذئب ولا تفنى الغنم»، فالكلب وظيفته حراسة الغنم من الذئب، فعندما يتوافر هذان الطرفان (الغنم والذئب) يدوم عمله ويستمر، ولكن إذا خان الكلب بدرجة كبيرة وفنيت الغنم انتهى دور الكلب، والعكس صحيح: إذا مات الذئب انتهى دور الكلب؛ فلهذا يحرص المفسدون على مقدار محدد من الفساد؛ فلهذا يحرص ألا يفسد الطلاب بشكل تام فيلفت الأنظار وينتهي دوره.

٤- الذئب الصالح!

يحرص كثير من المفسدين على أن يستخدم المكر، ومثال ذلك أن يُعين المعلم أو المدير عريفًا أو مشرفًا ظالمًا شديدًا، فيوصيه بالشدة والظلم، أما هو فإنه يظهر في الواجهة بمظهر المصلح الطيب، أي فساد مغلف بالصلاح.

وفكرة هذا الخداع تقوم على أن يقوم هذا السيئ بتجميل نفسه والظهور بمظهر

---

(١) قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾، سورة الأعراف، الآيات: (١٧٥-١٧٨).

(٢) بل إن المعلمين بوجه عام أفضل من الموظفين؛ لأن المعلم يحمل علماً ويعلم ويصلح، ومن المعلوم فضل العالم- في الدين- على العابد.

الصلاح، أما فساده فإنه يجعل أحدًا غيره يتولاه. ولكن إذا زاد هذا الفساد ووصلت الشكوى إليه، فإنه في هذه الحال يتدخل بلباس المصلح المحب الرقيق الرحيم في حق المظلوم، وبلباس المصلح العادل المعنف لهذا الظالم، وإذا زاد الأمر فإنه قد يغيره بآخر مثله أو أسوأ، وبهذه الفكرة يحقق أهدافه ويستمر الأمر على هذه الحال، فهم كما قيل: يلبسون للناس جلود الضأن من اللين، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم قلوب الذئاب.

وهذا من الكذب والمراوغة والخداع الذي ينبغي ألا يصدر من مؤمن مهما كان المبرر؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الْمُؤْمِنُ غِرٌّ كَرِيمٌ، وَالفَاجِرُ خِبٌّ لَئِيمٌ»[١].

فينبغي على المؤمن أن يتنزّه عن الخداع؛ لأنه يناقض الإيمان، ولكن في الوقت نفسه ينبغي على المؤمن ألا ينخدع بهؤلاء الفجرة؛ فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لست بالخب، و لا الخب يخدعني»[٢]، وقال المغيرة ابن شعبة رضي الله عنه، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «كان- والله- أفضل من أن يَخدع، وأعقل من أن يُخدع»[٣].

والخلاصة: أن هناك من لا يريد أن يتحسن حال العالم الإسلامي ولا يريد نقده أو محاولة إصلاحه، بل يريد أن يستمر في تخلفه، وهذا راجع لأمور؛ أهمها أن له مصلحة من هذا الفساد، أو أنه يكره المسلمين ولا يريد الخير لهم، وقد يخرج بهذا من دائرة المسلمين، وليس هذا دعوة لسوء الظن، وإنما للإصلاح، ولا شك أنه يوجد مفسدون في وقتنا الحاضر، خاصة إذا علمنا أنه كان هناك مفسدون في العهد النبوي.

---

(١) حسنه الألباني. «الخب» في اللغة تدور معانيه على: الخداع، والخبث، والإفساد، والغش، وفساد السريرة، والمكر، والتلون، وخبث النفس. وعن الغر قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث: «هو ضد الخب، يريد: أن المؤمن المحمود من طبعه الغرارة، وقلة الفطنة للشر، وترك البحث عنه، وليس ذلك منه جهلًا، ولكنه كرم وحسن خلق»، وفي السلسلة الصحيحة للألباني: «الغر في كلام العرب: هو الذي لا غائلة ولا باطن له يخالف ظاهره، ومن كان هذا سبيله أمن المسلمون من لسانه ويده؛ وهي صفة المؤمنين. والفاجر: ظاهره خلاف باطنه؛ لأن باطنه هو ما يكره، وظاهره مخالف لذلك؛ كالمنافق الذي يظهر شيئًا غير مكروه منه، وهو الإسلام الذي يحمده أهله عليه، ويبطن خلافه؛ وهو الكفر الذي يذمه المسلمون عليه».

(٢) كتاب (أدب الدنيا والدين) للماوردي.

(٣) المصدر السابق.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[1].

لعل له عذرًا وأنت تلوم:

ينبغي ألا نبني نظرتنا لكل معلم سيئ على أنه شيطان في جثمان إنسان، والعكس صحيح.

لقد كان بعض الآباء والأمهات في قديم الزمان يذهبون بفلذات أكبادهم إلى الكتاتيب أو المدارس ويقولون للمعلمين- بحماس وجهل وحسن نية- كلمات في نظرهم أنها دافعة إلى تحسين تربية أبنائهم؛ مثل: «خذه لحم وأعطناه عظم»؛ أي: قطع لحمه بالضرب حتى لا يبقى إلا العظم! أو يقولون: «كسر وأنا أجبر» أي: كسر عظامه بالضرب وأنا أجبرها بعد تكسيرك إياها!

وبعض المعلمين يجتهدون- بحماس وجهل وحسن نية- فيقومون بتنفيذ الوصية!

والطفل يسمع هذه المحاورة والتسليم والاستلام الخاص به، فيحس هذا المسكين أنه سيدخل مسلخًا أو مشرحة.

كان ينبغي أن يحس أنه يدخل مدرسة تعطيه ما يسعده وينفعه، فيحبها ويحب العلم والعمل، وليس العكس، وهو الكره الغالب في مجتمعات العالم الثالث.

يقول رجل: عندما كنت صغيرًا أعطاني أبي مبلغًا صغيرًا جدًّا من المال، وأرسلني لشراء حاجة من السوق، ولكني فقدت ذلك المبلغ، فرجعت إلى أبي وأبلغته، وما كان منه إلا أن عاقبني عقابًا شديدًا ورمى بي من أعلى الدرج.

وعندها هربت من البيت، وعشت بعيدًا عنه ولم أسامحه طوال حياته. ومضت السنين وكبرت وتعلمت قيمة التسامح والحب والعطاء، بعد ذلك سامحته في يوم لا

(١) سورة التوبة، الآيات: (٨-١١).

أنساه، حيث إني نمت في ذلك اليوم ورأيته في المنام فقال معتذرًا لي بما معناه: «يا بني، إني كنت لا أعرف التربية»، وعندها ارتحت كثيرًا.

تَأَنَّ وَلا تَعْجَلْ بِلَوْمِكَ صَاحِبًا　　لَعَلَّ لَهُ عُذْرًا وَأَنْتَ تَلُومُ

* * * * *

معالجة مشاكل المعلمين:

الحلول المقترحة لمعالجة مشاكل المعلمين تتلخص فيما يأتي:

أولًا: إعطاء المعلمين حقوقهم، بجميع أنواعها؛ مثل: الحقوق المادية، والمعنوية، وإيجاد المباني المناسبة والمناهج النموذجية.

وهذا ينعكس إيجابًا على المعلمين وعطائهم، إذا وجدوا من يقف معهم ويقدرهم ويعرف لهم مكانتهم الهامة والعالية.

ثانيًا: إعداد المعلمين إعدادًا سليمًا، مع التركيز على النواحي الإيمانية والإنسانية، وكذلك النواحي الإدارية والتربوية الحديثة.

ثالثًا: إعادة تقويم المعلمين بما فيهم المقصرون وخاصة القدامى، والعمل على الرفع من كفاءتهم بالزيارات والدورات المكثفة- مع التركيز على النوعية والخاصة بكل حالة- والنشرات والكتب المجلات...

رابعًا: التركيز على المعلمين السيئين والمرضى ومعالجتهم معالجة جذرية:

١- دراسة كل حالة دراسة مستقلة ومركزة، ومعرفة أسباب المشكلة بحيث تشمل الدراسة جميع الجوانب؛ كالجوانب الدينية والفكرية والنفسية والاجتماعية والمادية والوظيفية... ومن ثم تحديد المشكلة وبذل الجهد وعدم التساهل في المعالجة، لحلها بقدر المستطاع وبشكل جذري.

٢- تفريغهم كليًّا لدورات مركزة.

٣- عند نفاذ جميع الوسائل، يعزلون عزلًا تامًّا عن تربية الطلاب[1]، ويوجهون إلى

---

(١) ولكن ينبغي الحذر من أن يتبع معهم علاج: «وداوني بالتي كانت هي الداء»، فيعاملون بمبدئهم،=

مكان آخر، بحيث يكون تعاملهم مع الجمادات؛ كالعمل في المصانع أو الورش- وهذا ليس انتقاصًا من تلك الأعمال؛ لأنها أعمال شريفة ومرموقة- ولكن الكائنات الحية لها أحاسيس ومشاعر، فتحتاج إلى نوعية معينة تحسن التعامل معها.

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئًا فَدَعْهُ ... وَجَاوِزْهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيعُ

ومن البديهي أن من لا يجيد التعامل مع الناس ينبغي ألا يتولى تربيتهم، لكي لا يسهم في فساد الجيل المسلم؛ لأن في بقائه ظلمًا للطلاب[1]، ولقد رأينا الآثار المدمرة لذلك.

لهذا عليه أن يدع الطلاب ولا يعاند ويكابر، وبذلك ينفع نفسه بعدم الإساءة إلى الناس، ويسلم المسلمون من لسانه ويده.

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم: أيُّ العمل أفضل؟ قال: «إِيمَانٌ بِالله، وَجِهَادٌ في سَبِيلِهِ»، قلت: فأي الرقاب أفضل؟ قال: «أَغْلاهَا ثَمَنًا، وَأَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا»، قلت: فإن لم أفعل؟ قال: «تُعِينُ صَانِعًا أَوْ تَصْنَعُ لأَخْرَقَ»، قال: فإن لم أفعل؟ قال: «تَدَعُ النَّاسَ مِنَ الشَّرِّ؛ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ تَصَدَّقُ بِهَا عَلَى نَفْسِكَ»[2].

وقال صلى الله عليه وسلم: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»[3].

يَا بَارِيَ القَوْسِ بَرْيًا لَسْتَ تُحْسِنُهَا ... لا تُفْسِدَنْهَا وَأَعْطِ القَوْسَ بَارِيهَا

★ ★ ★ ★ ★

= والذي يتمثل في العقاب والأخذ بأمثلتهم؛ مثل: «آخر الدواء الكي» و«العصا لمن عصا»... ويكون ذلك بوجه متجهم مكفهر، ومن غير تبسم.

وألا يصل الأمر إلى الفصل بشكل نهائي من جميع الأعمال، لأنهم ضحايا من سبقهم، فيؤخذ بأيديهم لما ينفعهم في الدارين.

(١) كان عمر بن الخطاب يقول: «إذا بلغني من عامل ظلم فلم أغيره، فأنا الظالم»، كتاب (تذكرة الحفاظ) للذهبي.

(٢) صحيح البخاري ومسلم.

(٣) صحيح البخاري ومسلم.

وأخيرًا.. ما العمل؟[1]

(المشكلة، ومعرفة الحل، وحل المشكلة) باختصار[2]؛ هذه ثلاث مراحل يلخصها هذا الكتاب؛ حيث حرص على إنهاء المرحلتين، وبقيت المرحلة الثالثة.

وهذه المراحل هي:

المرحلة الأولى: يجب تبيين المشكلة بوضوح تام، وعدم التهاون في ذلك بحجة الفضيحة أو جلد الذات.

المرحلة الثانية: معرفة الحل، والتأكد من أن الحل صحيح، ويمكن تطبيقه، ويتيقن نجاحه.

المرحلة الثالثة: العمل على حل المشكلة، وهذه المبادرة تقع على كل من استطاع، مع الحذر من الأعذار والتبريرات.

وكل واحدة من هذه النقاط وحدها تكون ضارة إذا أسيء استعمالها أو أخذت مجزأة؛ فلا نكتفي بذكر المشاكل فقط لكي لا يكون ذلك تحطيمًا للمعنويات ونشرًا للفساد.

وكذلك الاكتفاء بذكر الحلول من غير العمل، عبث أو انتحار؛ كمن يموت من

---

(١) العمل هو: العمل.

(٢) لقد كتب العلماء والمصلحون جزاهم الله خيرا عن مشكلة تخلف العالم الإسلامي، والحلول المؤدية إلى تقدمه وإعادة مجده، وعلى حد علمي فإن خير من تكلم في عصرنا الحاضر في هذا المجال، هو الدكتور طارق السويدان جزاه الله خيرا، حيث بين أن تغيير حال العالم الإسلامي وبناء الحضارة الإسلامية يحتاج إلى: (معرفة الواقع) و(معرفة الرؤية) أو الهدف، وبين أنه لكي ننتقل من الواقع إلى الهدف نحتاج إلى معرفة أمرين أساسيين؛ هما: (الخطة)، و(المقاومة):

(الخطة) هي: أن تكون الخطة واضحة تحدد فيها المراحل والأدوار والمشاريع.

و(المقاومة) هي: معرفة المقاومة، ومقاومة المقاومة، أي معرفة موانع الإصلاح، ومعرفة التغلب على هذه الموانع.

وكذلك بين الأمور التي ينبغي التركيز عليها في إعادة بناء الحضارة، وبين خطوات بناء الحضارة، وبين المقومات التشريعية، والمقومات الأخلاقية، والمقومات العملية، ومقومات الجماعة، والفئات التي ينبغي التركيز عليها.

العطش والماء عنده، فالعمل على الحل هو الهدف المقصود، ولكن ينبغي أن يكون العمل هو الأخير، بحيث يكون بعد وضوح المشكلة ومعرفة الحل المناسب، لكي لا تكون الحلول غير صائبة، أو تكون أعمالًا مشتتة وغير منتجة، بل قد يكون ضررها أكثر من نفعها.

لهذا سنتكلم بإيجاز عن قيمة العمل في الإسلام وأهميته:

* * *

العمل:

سبق أن عرفنا أن الإسلام حثَّ على عدم سؤال الناس، بل كان ذلك في مبايعة الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين: على ألا يسألوا الناس شيئًا، وأن يعملوا ويعتمدوا على أنفسهم، ولا شك أن هذا هو الخلق النبيل، فلا يخضع الإنسان لأحد ولا يذل نفسه، وبهذا يكون غنيًّا فعلًا، وهذا من الأمور الهامة التي فرط فيها كثير من المسلمين مع الأسف.

ولا يخفى القول المشهور: «ويل لأمة تأكل ما لا تزرع، وتلبس ما لا تصنع»؛ لأنها ستكون تحت رحمة أعدائها، فهم يستطيعون في أية لحظة أن ينهوا حياتها، وإلا فإنهم سيستمرون في سيطرتهم عليها وهي على هذه الحال البائسة، فكما قيل: «من اعتمد على زاد غيره، طال جوعه».

وسبق أن بينا أهمية العمل في الإسلام وذكرنا ما يدل عليه، ولكن سنختار أدلة أخرى تبين أهمية العمل وعدم الاعتماد على غير الله سبحانه وتعالى، بل سنذكر أدلة يعجب منها الإنسان إذا قرأها ورأى حال المسلمين؛ لهذا سنختار ما يأتي:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَلَّا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ»[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَأَنْ يَحْتَطِبَ أَحَدُكُمْ حِزْمَةً عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ

---

(١) صححه الألباني. وينبغي أن يستمر العمل إلى آخر وقت في الحياة، فإذا قامت الساعة وانتهى كل شيء، لم يكن التوجيه إلى رميها والاتجاه إلى الصلاة أو الاستغفار... إن هذا التوجيه الباهر المراد منه بيان أهمية العمل، وأن العمل عبادة، والله أعلم.

مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا فَيُعْطِيَهُ أَوْ يَمْنَعَهُ»[١].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ»[٢].

وخير قدوة في هذا المجال هم لأنبياء عليهم السلام؛ فكان منهم الخياط، والنجار، والحداد، بل كلهم رعوا الغنم، وكذلك الصحابة كانوا عمالًا.

ولكن سنذكر أحد الأنبياء وهو داود عليه السلام، وقد تم اختياره؛ لأنه نبي وملك، وسأذكر من سيرته ما يجعل الإنسان ينبهر من عمله- لمن تفكر- فسبحان من اصطفاهم:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ عليه السلام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»[٣].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ دَاوُدَ عليه السلام كَانَ لا يَأْكُلُ إلا مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»[٤].

دقق في هذا الحديث وتأمل وتخيل.. إنه نبي وملك، ولكن مع تلك الوظيفتين الهامتين اللتين قام بهما خير قيام، زاد على ذلك فكان لا يأكل إلا من عمل يده!

بل زيادة على ما سبق كان يصلي الليل ويصوم النهار![٥]؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللهِ صِيَامُ دَاوُدَ؛ كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَأَحَبُّ الصَّلاةِ إِلَى اللهِ صَلاةُ دَاوُدَ؛ كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ»[٦].

---

(١) صحيح البخاري.

(٢) صحيح البخاري.

(٣) صحيح البخاري.

(٤) صحيح البخاري.

(٥) وفي المقابل: كيف بمن يتولى وظيفة التعليم وغيرها، ومع تقصيره يأكل من تلك الوظيفة؟! مع العلم أن البعض على العكس، لا يأخذ على تعليمه مقابلًا ولا يقصر في عمله، وكذلك هناك من يلتزم بإحدى الميزتين، فهم على أربع درجات، فمن أي درجة أنت؟
وهذا ينطبق على الطبيب، والقاضي، والمحامي، والمهندس، وإمام المسجد، والمؤذن....

(٦) صحيح البخاري.

أما عن عمل الصحابة الكرام رضي الله عنهم، فنكتفي بما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عمال أنفسهم»[1].

إن أمة لا تعمل لا تستحق البقاء:

قال الدكتور عائض القرني جزاه الله خيرًا:

«رفع الألمان بعد الحرب شعار: العمل أو الموت.. فتحولت ألمانيا إلى ورشة عمل، وبعد أربع سنوات صارت دولة صناعية مرموقة، وفي كتاب متعة الحديث يقول إسحاق نيوتن: النجاح يحتاج إلى ثلاثة عوامل: العمل ثم العمل ثم العمل، والعمل يبدأ بالعلم، والعلم يبدأ بالقراءة، وأمة لا تقرأ لن تتعلم ولن تعمل ولن تنال المجد.

إن أمة لا تعمل لا تستحق البقاء، والإسلام جاء بالعلم والعمل، وقد أعطى الرسول صلى الله عليه وسلم رجلًا فأسًا وأمره أن يحتطب ويبيع؛ لئلا يبقى عالة على المجتمع، وضرب عمر بن الخطاب شبابًا جلسوا في المسجد وتركوا الكسب واعتمدوا على جيرانهم، وصاح في وجوههم: «اخرجوا واطلبوا الرزق؛ فإن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة»، وشارك الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه في بناء مسجده، وحفر مع الصحابة الخندق، وقال: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ مِنْ أَحَدِكُمْ إِذَا عَمِلَ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ»، وقال: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ».

وكان إدريس خياطًا، وزكريا نجارًا، وداود حدادًا، ورعى موسى الغنم بالأجرة.

من أسباب تقدم الغرب اعتماده على العلوم العملية التطبيقية، فدخل المصانع والمعامل، واعتمدنا على العلوم النظرية فانشغلنا بالجغرافيا حتى حفظنا عن ظهر قلب أسماء عواصم تشاد والسنغال وأوغندا، وحفظنا نقائض جرير والفرزدق وهي لا تطعم خبزًا ولا ترفع مجدًا، وأسرفنا في الفنون والرياضة على حساب الإبداع والاختراع والصناعة الإنتاج.

خدعة شيطانية ولعبة إبليسية، فمنتخب الكاميرون الرياضي أقوى من منتخب الولايات المتحدة الأمريكية، بينما عجزت الكاميرون عن إطعام رعاياها الخبز

---

(١) صحيح البخاري، باب كسب الرجل وعمله بيده.

اليابس، وإذا أرادت الشعوب أن يحالفها الإخفاق ويختم لها بالخذلان تحولت من الجامعات إلى الملاهي الليلية، ومن المصانع إلى مقاهي اللهو، ومن الإنتاج والإبداع إلى لعب الورق.

رأيت في ألمانيا: مزاين المرسيدس.. وفي فرنسا: مزاين الكونكورد سابقة الصوت.. وفي أمريكا: مزاين أف ١٦ العاصفة القاصفة.. ولأننا أقمنا مزاين الإبل.. فينبغي أن نقيم مهرجانات: مزاين العقول.. لنحيي فيها الموهوبين ونكرم المبدعين ونشجع المخترعين والمكتشفين.

ينبغي أن نعالج مرضانا النفسيين بالإيمان والعمل؛ لأن الفراغ يولد لهم الخيالات الفاسدة التي توصل صاحبها إلى الانتحار، والعمال أسعد الناس وأشرحهم صدورًا؛ لأنهم ليس عندهم فرصة للتفكير الخاطئ، وأي دولة لا تتحول إلى ورشة عمل هي دولة نامية نائمة كتب عليها الموت، وإذا عملنا واجتهدنا فسوف تتقلص مشكلاتنا وبطالتنا وفقرنا وأمراضنا، ولنرفع شعار: نأكل مما نزرع، ونلبس مما نصنع.

إن عرق العامل أزكى من مسك الفاشل، وإن ساعد المثابر أكرم من جبين الكسلان، وإن زفرات البنّاء أجمل من غناء المترف.

لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا ... وَلَكِنْ لا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي

وَلَوْ نَارٌ نَفَخْتَ بِهَا أَضَاءَتْ ... وَلَكِنْ أَنْتَ تَنْفُخُ فِي رَمَادِ

شكرًا لكل مسؤول جلس على كرسيه يعدل في القضايا، ويقمع الظالم وينصر المظلوم ويواسي المنكوب، شكرًا لكل أستاذ وقف يصحح مفاهيم، ويصلح قلوبًا، ويبني عقولًا، شكرًا لكل طبيب يعالج مريضًا ويداوي مبتلًى ويضمد جراحًا، شكرًا لكل مزارع يغرس شجرة، ويعدل ماءً ويحرث أرضًا، شكرًا لكل جندي يحمي دينًا، ويحرس وطنًا، ويدافع عن أمة، شكرًا للسواعد القوية والهمم الوثابة والأفكار الخلابة، وشكرا للناجحين» انتهى[1].

قال موشي ديان وزير الدفاع الإسرائيلي الشهير، قولته المشهورة يصف العرب

(١) باختصار من: جريدة الشرق الأوسط، رقم العدد: (١٠٦٩٦).



وليس المسلمين[1]: «العرب أمة لا تقرأ، وإن قرأت لا تفهم، وإن فهمت لا تفعل!».

ولكن قال الدكتور جورج سارتون، مؤرخ العلم والأستاذ في جامعة هارفرد: «صدع الرسول بالدعوة نحو عام ٦١٠م وعمره يوم ذاك أربعون سنة، وكان مثل إخوانه الأنبياء السابقين، ولكن كان أفضل منهم بما لا نسبة فيه.. وكان زاهدًا وفقيهًا ومشرعًا ورجلًا عمليًّا».

ويتبين مما سبق أن (العمل وحب العمل) هو السبيل إلى حل مشاكل المسلمين وعزهم ورقيهم بإذن الله سبحانه وتعالى، وهذا ما ينبغي أن نربي عليه أبناء المسلمين في جميع المراحل وبكل السبل.

* * *

(١) مع أن العرب هم قلب المسلمين، ولكنه قال ذلك استخفافا بهم وسخرية، وما ذالك إلا لبعدهم عن الإسلام، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقهم ويصلح حالهم.

نموذج:

ولكي لا نفقد الثقة أو نشك في إخلاص المعلمين ورجال العلم، لابد أن نذكر نموذجًا من النماذج البارزة في عصرنا الحاضر؛ فلذلك سنعطر هذا الكتاب بذكر القليل عن هذه الشخصية، ولن نستعرض التاريخ ونتكلم عن نماذج من العلماء الذين قدموا ما يبهر الناس في علمهم وتواضعهم وبذلهم وإيثارهم، ولكن سنختار من عصرنا الحاضر شخصًا كريمًا في أخلاقه وعمله:

إنه النموذج الباهر بمعنى الكلمة الأخ: عبد الرحمن السميط[1] جزاه الله خيرًا.

دكتور مسلم نذر نفسه للعمل الخيري- وعلى رأس هذا العمل تعليم الناس الإسلام- رغم الأمراض والظروف، فهو يتميز بأنه فرغ نفسه لعمل الخير ليس في الإجازات فقط، بل فرغ نفسه في حياته كلها، ولم يكن يقدم خدماته بكبر وتعالٍ، بل بأخلاق إسلامية؛ بتواضع وابتسام وإتقان...، ولم يكن ذلك لخدمة جماعته أو عرقه أو بلده، بل لخدمة جميع من على وجه الأرض، وليس تعصبًا لأحد، بل للإنسانية كلها، وكذلك معه أهله جزاهم الله خيرًا، وأخيرًا وخير ميزة، أنه لا يريد من عمله أي مقابل مادي أو معنوي، بل لا يريد به إلا وجه الله سبحانه وتعالى.

وقد عرف عنه منذ صغره وقوفه إلى جانب المحتاجين؛ فقد قام مع أصدقائه في المرحلة الثانوية بعمل تطوعي، فجمعوا مبلغًا من المال من مصروفهم اليومي واشتروا سيارة، وكان أحدهم يقوم بعد انتهاء دوامه بنقل العمال البسطاء إلى أماكن عملهم أو

(١) عبد الرحمن حمود السميط، ولد في الكويت عام ١٩٤٧م، وتخرج في جامعة بغداد بعد أن حصل على بكالوريوس الطب والجراحة، وحصل على دبلوم أمراض مناطق حارة من جامعة ليفربول عام ١٩٧٤م، واستكمل دراساته العليا في جامعة ماكجل الكندية متخصصا في الأمراض الباطنة والجهاز الهضمي، عمل أخصائيًّا في الكويت في الفترة من ١٩٨٠- ١٩٨٣م، ونشر العديد من الأبحاث العلمية والطبية في مجال القولون والفحص بالمنظار لأورام السرطان، أصدر مجموعة من الكتب، بالإضافة إلى العديد من البحوث وأوراق العمل ومئات المقالات التي نشرت في الصحف المتنوعة، تولى منصب الأمين العام لجمعية مسلمي إفريقيا عام ١٩٨١م، وما زال على رأس الجمعية بعد أن تغير اسمها إلى جمعية العون المباشر في ١٩٩٩م، شارك في تأسيس ورئاسة وعضوية مجموعة من الجمعيات واللجان والهيئات والمجالس الخيرية والطبية والجامعية والدعوية والإغاثية، ونال عددا من الأوسمة والجوائز والدروع والشهادات التقديرية.

إلى بيوتهم دون مقابل.

وعندما تخرج في كلية الطب وعين طبيبًا في أحد المستشفيات بعد تخرجه، كان يتفانى في خدمة المرضى، فكان يعيش أحيانًا لمدة أسبوع كامل مع المرضى، بل كان لا يخرج من جناح المستشفي إلا إلى دورة المياه أو الاجتماع مع الأطباء، لدرجة أن الأطباء كانوا يتأثرون عندما يرون ملابسه الرثة ومكثه تلك المدة في خدمة المرضى، بل كان يقوم بتفقد أحوال أسر المرضى المحتاجين.

ومع ذلك لم يكتف بها قدم، فحينما شعر بالخطر الذي يهدد مسلمي إفريقيا وخطورة التنصير المخطط لهم، ترك عمله الأصلي وخرج من بلده لنصرة المستضعفين، وقام بتأسيس مشروع خيري لإغاثة المحتاجين ومواجهة خطر التنصير واستقطب معه فريقًا من المخلصين في هذه الأعمال الخيرية، بل كان يذهب بأهله للإغاثة.

فتولى الإحسان إلى الناس بلا مقابل، وكانت أعماله الخيرية تشتمل على عدة جوانب؛ كالدعوة إلى الإسلام، وعلاج المريض، وإطعام الجائع، وإعطاء الفقير، وتعليم الجاهل؛ وكلها في سبيل الله تبارك وتعالى.

نماذج من الصور التي مرت به وهو يعمل الخير في سبيل الله عز وجل:

- في إحدى المناطق البعيدة النائية، وجد نحو مليون إنسان يسيطر عليهم الجهل في الدين وغيره، وكذلك يسيطر عليهم الفقر والتخلف.

والغريب أن هؤلاء أصلهم من مكة، ولكن بلغ منهم الجهل والتخلف والفاقة، أن أكثرهم لا يعلم أن أصله من مكة، فهم منسيون من إخوانهم المسلمين.

يقول الدكتور عبد الرحمن: عندما قابلتهم قالوا: أنت أول عربي يأتي إلينا للدعوة وعمل الخير.

- كان يأتي عليه اليوم واليومان بلا أكل، وكان ينتقل إلى المناطق النائية بحالة شاقة، فركب في إحدى سفراته شاحنة فيها أبقار، وكانت مدة الرحلة أسبوعين، فركب مع الأبقار، يقول: كانت الرياح والعوالق تلتصق بنا، فكانت الأبقار تلحس رأسي (رأسه أصلع)، فإذا أبعدت بقرة جاءت أخرى لتلعق، ويعلق الدكتور مازحًا: إن لحس البقر

للرأس لا ينبت الشعر.

- وجد أطفالًا في حاجة ماسة إلى المساعدة، لدرجة أن أحد الأطفال قد أضعفه الجوع والمرض حتى صار جلدًا على عظم، فعند ما رآه قد أشرف على الموت، وكان مع الدكتور دواء تبلغ قيمته ربع دولار، ومع ذلك تردد في إعطائه؛ لأن هناك حاجة وأولويات، وهذا الطفل حالته شبه منتهية، فقد يكون لا فائدة من علاجه، وقيمة الأدوية معه أمانة من أهل الخير يجب أن يدفعها للفائدة.

يقول الدكتور: وبعد تردد أعطيته الدواء، ولكن كم كانت فرحتي عندما رأيته فيما بعد، رجلًا بحالة جيدة.

- رأى في منطقة نائية فقيرة، رجلًا يدرس القرآن الكريم للأيتام في المسجد، قبل أن يحين وقت ذهابهم للمدرسة، يقول الأخ عبد الرحمن السميط: عندما سألته: ماذا تتمنى؟ قال بعد تردد: عندما حفروا لنا بئرًا أصبحنا نعاني المشقة في إخراج الماء، فكان بعض الأيتام يسقط في الماء فينزل آخر لمساعدته، وعلى هذا الأساس يتمنى (حبلًا) ليستطيع من خلاله إخراج الماء، فلا ينزل الأيتام للبئر!

هناك الحاجة الماسة لأن يقدم المسلمون أعمال الخير للمسلمين وغيرهم، فالجمعيات غير المسلمة لا يكون عملها لله، بل قد يكون لمحاربة دين الله سبحانه وتعالى.

وفي محاضرة للدكتور بعنوان (ماتوا بين يدي) ذكر فيها بعض ما رأى من الأحداث المؤلمة قال فيها: «وأذكر أن رئيس قرية من القرى زرتها في إثيوبيا فقد ٤٠ رأسًا من الإبل و٦٠ رأسًا من البقر وعددًا كبير من رؤوس الماعز والغنم.

وعندما زرته وجدته نحيلًا جدًّا وقد فقد زوجته وبعض أولاده ولم يبق عنده إلا عجل ضعيف جدًّا مثل الهيكل العظمي، وطلب مني أن آخذه وهو مبتسم قال: تستطيع أن تأخذه؛ لأنه سيموت خلال يومين أو ثلاثة، فلا يوجد علف في البادية، وطبعًا عندهم لا يوجد علف صناعي؛ لأنهم أصلا لا يحصلون على أكل البشر، دعك من الحيوانات!

وأذكر عندما زرت هذه القرية وجدت أشكالًا وألوانًا من الأطفال وهم هياكل

عظمية تمشي على قدمين، بعضهم يستطيع أن يمشي، وبعضهم يحبو حبوًا وعمره قد يكون عشر سنوات، أو اثنتي عشرة سنة ولا يستطيع المشي على قدميه، وأغلبهم لم يأكل منذ ثلاثة أو أربعة أيام، وهذا الشيء عادي جدًّا إلى الدرجة التي أذكرها جيدًا عندما ذهبت من المرات مع زوجتي وأولادي إلى إحدى القرى ودخلنا إلى كوخ من الأكواخ، وعرفنا بعد مدة وبعد أسئلة كثيرة أن صاحبة الكوخ ومعها أطفالها وأقاربها لم يأكلوا منذ ثلاثة أيام أي شيء على الإطلاق، حتى الحشيش الذي يؤكل غير موجود بسبب الجفاف..

من هنا، شعرنا بأن هذه العائلة بحاجة إلى المساعدة، وذهبت إحدى بناتي إلى السيارة لتجلب كيسًا فيه كيلو من الدقيق أو الطحين لتعطيه إياهم، وفوجئنا بأن المرأة صدمت واستغربت أن نعطيها الطحين فقالت: لماذا هذا؟!!

فقلنا لها: لأنك ما أكلت منذ ثلاثة أيام أنت وأولادك.

قالت: نحن أغنياء، الحمد الله نحن ثلاثة أيام فقط ما أكلنا..، ثم قالت: وراءنا جيراننا، في العشة التي وراءنا، اذهبوا إليها، فهؤلاء فقراء يحتاجون مساعدة، أما نحن فالحمد لله بخير ونعمة، مجرد ثلاثة أيام ما أكلنا..

ذهبنا إلى الكوخ الآخر خلف الكوخ الذي كنا فيه، فوجدنا أن المرأة التي هناك وأهلها لم يأكلوا منذ ثمانية أيام!. دمعت أعيننا.. وقارنّا بين وضعهم ووضعنا نحن لو غابت عنا وجبة واحدة لقلبنا الدنيا فوق تحت! ليس إذا غابت الوجبة، بل إذا كان نوع الأكل الذي يقدم قد لا يتناسب مع أذواقنا فلا نكون سعداء، ونبدأ في عمل مشاكل كثيرة.. وهذا موقف مؤلم عندما نقارن بيننا وبينهم!

ويقول: رأينا آلافًا مؤلفة من العائلات التي سارت على أقدامها أيامًا وليالِيَ تبحث عن لقمة العيش.

من السهل جدًّا أن تتكلم عن موت الأطفال، ولكن- والله- أيها الإخوة، لن تعرف ألم الموت إلا عندما تحمل الطفل بين يديك ويموت وأنت تحمله؛ عند ذاك لن تنسى أبدًا لحظات النّزع الأخير»[1].

---

(١) ومن القصص المحزنة أن بعض تلك الجمعيات التبشيرية (التنصيرية) توزع الأكل على أهل قرية=

الدكتور عبد الرحمن السميط جزاه الله خير الجزاء، أسلم على يديه أكثر من أربعة ملايين مسلم، بل عم نفعه على غير المسلمين؛ فهو ينظر للإسلام على أنه رحمة لجميع الناس حتى ولو لم يسلموا، فهو يقدم لجميع الناس المساعدة الصحية والغذائية.

ولا شك أن المساعدة الكبرى لهم تتمثل في إنقاذهم من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام.

وبالرغم من حبه لعمل الخير والسعادة التي يعيشها، إلا أنه لم يتوقف عند ذلك، بل تعداه إلى حب الخير وتمنيه لغيره، فهو يدعو الجميع إلى ذلك.

إن الكثير يعمل ويوفر لكي يتفرغ في المستقبل للراحة والاستمتاع بالشهوات والهوايات المحببة إلى نفسه، بعد أن سخر عمله قبل ذلك لهذا الهدف الرخيص، بل إن بعضهم يعيش ويموت على ذلك.

ولكن هذا الدكتور بعد أن عمل الأعمال الجادة في مساعدة الناس، قرر أن يعيش في منطقة نائية بعد هذا العمر، لكي يتفرغ ويركز جهوده على هذه المنطقة التي هي في أمس الحاجة لمن ينقذها مما هي فيه من ضلال وفقر ومرض وجوع... فهي بحق تحتاج إلى تفرغ، ولكن التفرغ في نظر الدكتور يختلف عن النظرة العابثة للتفرغ عند البعض.

يقول الدكتور: «قررت أن أتفرغ للدعوة في إفريقيا وأن أعيش وسط قبيلة أصلها عربي مسلم، فقدت هويتها وضاع منها دينها وتحولت إلى الوثنية، أصلها من الحجاز

= أشرف أهلها على الموت من الجوع، وكان من ضمن هذه القرية إمام المسجد الذي ناله الجوع كما نالهم، وعندما بدأ التوزيع ذهب إليهم إمام القرية يطلب الأكل كغيره، ولكن هذا المنصر رفض أن يعطيه إلا بشرط أن يتنصر، ولكن الإمام رفض، وأمام رفض الإمام خفف المنصر من شرطه وطلب منه أن يثني أمام أهل القرية على دين النصارى، ومع ذلك رفض الإمام، وأمام هذا التمسك بالإسلام رفض الكافر أن يعطيه ما يأكله هو وأسرته، فذهب الإمام إلى بيته ولم يأخذ شيئًا، ولكن بعد أيام وجدوا هذا الإمام قد مات في بيته من شدة الجوع، حيث وجدوه وأسرته ممددين في هذا البيت وهم أموات.

لقد مات هذا الإمام وهو لم يتنازل عن شيء من دينه، ولو كان ذلك من أجل إنقاذ حياته وحيات أسرته، فتصور حاله وحال من تصيبه التخمة أو يموت من كثرة أكل الحرام وهو مسلم بل قد يكون على حساب الدين!

هاجرت قبل ٨٠٠ سنة إلى جنوب شرقي مدغشقر، ولم يبق لها من الإسلام إلا تحريم أكل لحم الخنزير وكراهية الكلب وكتابة كتابهم المقدس بالحروف العربية، ولكن بلغتهم، لقد نسيهم الدعاة، فنسوا دينهم وعبدوا الأحجار والأشجار.

لقد قررت أن أعيش بينهم في منطقة نائية في مدغشقر ينعدم فيها كثير من الخدمات، لمساعدتهم على العودة إلى دينهم واستعادة هويتهم..

إن عددهم نصف مليون، وهم بحاجة إلى جهود كبيرة وأموال كثيرة، خاصة أن الكنيسة بدأت العمل بينهم منذ ١١٠ سنوات، وقد وضعنا خطة لنشر الإسلام بينهم لمدة ٢٥ سنة....» انتهى من مقابلة للدكتور مع مجلة نون.

وبالرغم من عمره الذي قضاه في سبيل الدعوة، وبالرغم من الملايين الذين أسلموا على يده ومساعدته للناس وإنقاذهم من المرض والجوع والجهل، بالرغم من ذلك كله يرى أنه مقصر في عمله، وأنه يحتاج إلى الاستمرار والزيادة في بذل الجهد؛ لأنه رأى حال الناس، ولكنه رجل يحس بالمسؤولية ولا يبحث عن الأعذار؛ حيث قال: «وهذا ما جعلني أشعر بعظم مسؤوليتي أمام الله، وأن الطريق طويل، والعقبة كؤود، والزاد قليل، فكيف ألقي عصا الترحال وهناك الملايين ممن يحتاجون للهداية وأنا بحاجة إليهم يوم القيامة ليشهدوا لي لعلي أدخل الجنة بدعاء واحد منهم؟

لو كانت القضية دنيوية لقلت: نعم، بملء فمي، فعندي عشرات الأمراض من جلطة بالقلب مرتين، وجلطة بالمخ، مع شلل قد زال والحمد لله، وارتفاع في ضغط الدم، ومرض السكري وجلطات في الساق، وتخشن في الركبة يمنعني من الصلاة دون كرسي، وارتفاع في الكولسترول، ونزيف في العين، وغيرها كثير، ولكن من ينقذني من الحساب يوم يشكوني الناس في إفريقيا بأنني لم أسع إلى هدايتهم»[1].

وهل أبقى مع أولادي ورسولنا صلى الله عليه وسلم يقول: «لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»، وأدعو الله أن يكون ذلك رجلًا من قبائل (الأنتيمور) التي أعمل وسطها حاليًا، والتي أسلم فيها عشرات الألوف ينقذني من النار، ويكون

(١) وَإِذَا كَانَـتِ النُّـفُـوسُ كِبَارًا   تَعِبَـتْ فِي مُرَادِهَـا الأَجْسَـادُ

سببًا في دخولي الجنة». انتهى من مقابلة للدكتور مع مجلة نون.

ونكمل المقابلة التي اختصرنا منها الكثير:

سألوه: متى تلقي عصا الترحال؟

قال: «سألقي عصا الترحال يوم أن تضمن الجنة لي، وما دمت دون ذلك فلا مفر من العمل حتى يأتي اليقين؛ فالحساب عسير.. كيف يراد لي أن أتقاعد وأرتاح والملايين بحاجة إلى من يهديهم؟ وكيف أرتاح بدنيًّا وكل أسبوع يدخل الإسلام العشرات من أبناء (الأنتيمور) من خلال برامجنا ونرى كل يوم أن أعداء الإسلام لا يدخرون جهدًا ولا مالًا في سبيل إبعاد أبناء هذه القبيلة- التي كانت عربية مسلمة- عن الإسلام وينفقون كل سنة عشرات الملايين ولديهم عشرات من العاملين هنا؟».

سألوه: ما أكثر المواقف تأثيرًا على نفسك؟

قال: «المواقف أكثر من أحصيها وكثيرة جدًّا، ولكن ما زلت أذكر قرية غرب السودان أثناء مجاعة ١٩٨٤م سألناهم: ماذا تطلبون؟ فقالوا: كل أطفالنا ماتوا من الجوع وبدأ الكبار يموتون بعد أن ماتت ماشيتهم وزروعهم! نناشدكم الله أن تحفروا لنا قبورًا لندفن موتانا، فنحن عاجزون عن حفرها بسبب الجوع، ونطلب منكم أكفانًا لموتانا.

في تلك الفترة رأيت قرى بكاملها في إثيوبيا مات سكانها وحيواناتهم وزروعهم، ولم أعثر على مسلم واحد يذكر الله، فكلهم إما في القبور أو ماتوا ولم يجدوا من يدفنهم فبقيت هياكلهم العظمية شاهدا على إهمالنا لهم».

سألوه: هل تواجهون خسائر مادية أو بشرية؟

قال: «هذا شيء طبيعي ومن يرد الراحة الجسدية فليجلس عند زوجته ولا حاجة لله فيه، وطريق الدعوة محفوف بالمشكلات، وكل سنة نفقد نحو ٨-١٠ من العاملين معنا في الحروب الأهلية التي لا ننسحب منها؛ لأن الحاجة إلى عملنا تكثر، لقد أصبت مرتين بجلطة في القلب، وأصبت بأمراض كثيرة، ولكن هذا كله يهون إذا عظم الهدف الذي تسعى إليه.

لقد كان المخترع المشهور توماس أديسون يعمل أحيانًا ٣٦ ساعة متواصلة دون راحة في اختراعاته، وعمل كولونيل ساندرز سنتين متواصلتين يحاول تسويق دجاج كنتاكي المقلي، وكان ينام في سيارته حتى نجح وأصبح للشركة الآن نحو عشرة آلاف مطعم في العالم، ومبيعاتها السنوية بآلاف الملايين، وهؤلاء يعملون للدنيا، فأين من يعمل للآخرة من شبابنا ونسائنا؟

وفي تاريخنا قصص مشرفة عن علماء ساروا من أقصى المغرب إلى بغداد لتلقي العلم، وعلماء مثل ابن حنبل عمل حمّالًا من بغداد إلى مكة حتى يأخذ حديثًا.

وهذا الإمام النووي لا يعرف له فراش ينام عليه، وكان إذا تعب يستند إلى عمود المسجد وينام، ومات وعمره ٤٤ سنة، وترك لنا عشرات الكتب التي ندرسها، ولن ينجح من لا يدفع ثمن النجاح».

سألوه: ماذا جنيت بعد ٢٦ سنة من العمل الدعوي؟

قال: «جنيت راحة البال وشعوري بأن حياتي التي قضيتها في مساعدة إخواني في إفريقيا كانت ذات معنى ولها هدف، قد لا أكون قد حققت كل ما أسعى إليه خاصة أنني كلما وصلت إلى هدف بدأت أسعى إلى هدف أبعد».

سألوه: هل أنت داعية أم ماذا؟

قال: «أنا أبسط من أن أكون داعية، فما زلت في بداية الدرب، والدعوة حقيقة أكبر مني».

سألوه: الدعاة في الخليج هل أدوا دورهم كاملًا؟

قال: «لا أعتقد فيما عشته ورأيته ما يشجعني على القول بأن الدعاة في الخليج أدوا دورهم في الدعوة في إفريقيا، نحن جميعًا مقصرون تجاه الله في إفريقيا».

سألوه: هل اقتربت من تحقيق هدفك من الدعوة؟

قال: «أعيش من أجل إنقاذ إخواني في القارة السمراء، وأموت من أجل ذلك، فما زال الهدف الأساس بعيدًا جدًّا، ولا وقت لدي الآن للتفكير في غير ذلك».

وعندما سئل: هل تذوقت طعم الفشل؟

قال: «لا نجاح أبدًا بدون الفشل، النملة لا تستطيع تسلق الحائط بدون أن تسقط أكثر من مرة، والطريق إلى النجاح يمر دائمًا بمحطات من الفشل، ولا خير فيمن يستسلم في المعركة الأولى».

سألوه: كيف تعاملت معك القبائل الإفريقية؟

قال: «بعض القبائل المسلمة في غرب إفريقيا فرحت بي كعربي مسلم يزورهم، وأهدوني ثوبًا ملكيًّا ونصبوني ملكًا عليهم، وعندما عرضوا علي جارية لخدمتي رفضت.

وقد عرض علي الزواج أكثر من مرة من بنات زعماء إلا أنني مشغول بما هو أهم، وهو الدعوة، ومن تزوج بالدعوة لا وقت له للزواج من بنات الناس».

سألوه: في أي جانب تنحصر مهمتكم في إفريقيا؟

قال: «مهمتنا هي دعوة الإنسان الإفريقي وإعادة بنائه ثقافيًّا ودينيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا وصحيًّا، وتنمية المجتمع المهمش في إفريقيا، ولا شيء كالعلم الصحيح والدعوة بالحكمة في تحصين الإنسان من الردة»(١).

السعادة الحقيقية الطاهرة:

يقول: إن سعادته ليست في جمع الأموال والاستمتاع بالملذات، بل تكمن تلك السعادة في خدمة المحتاجين، وتزداد سعادته عندما يكون بقرب الأيتام الذين يحبهم ويحبونه، ويبين أنه يبلغ القمة من السعادة عندما يتمسح به الأيتام كما يتمسح القط بصاحبه.

وكذلك يبين أن من السعادة عندما يريه الله سبحانه وتعالى أثر عمله وجهده مع الأيتام، فيرى منهم الطبيب والعالم.

وأخيرًا يقول جزاه الله خيرًا:

«أتمنى لكل الناس أن يأتوا ويحسوا بهذه السعادة التي أحس بها».

---

(١) لقاء مجلة نون مع الداعية عبد الرحمن السميط.

وأخيرًا.. ولكي لا نكون مثل (أخناتون) ونصدق جميع الناس ونغتر بكل من مدح وأثني عليه مثل (أمفسيس).

فكم من الشخصيات البارزة في وقتنا الحاضر مثل (أمفسيس) والتي سُمعتها تصم الآذان ومع ذلك هم من أخبث الناس، وأضرهم على الناس والواقع يشهد، وكذلك كم من الأتباع الجهلة المغفلين مثل (أخناتون).

ولكن هذا الدكتور يختلف؛ لأمور كثيرة، منها:

١- أنه يريد من عمله وجه الله سبحانه وتعالى.

٢- أن هذا الدكتور لم يستفد من عمله فوائد مادية ولا معنوية.

٣- أن حالته البسيطة تشهد على ذلك.

٤- أن خاتمته- والله أعلم- في مناطق نائية.

٥- أنه ليس في حياته تلذذ بالمتع الدنيوية، بل شقاء (مادي) في خدمة المحتاجين.

٦- أن من يثني عليه يعرف حاله (مع أن هذا لا يكفي)[1].

---

(١) هذه رسالة بعنوان (عندما زرتك يا دكتور)، كتبها الدكتور فهد بن عبد العزيز السنيدي بعدما ذهب في رفقته لإعداد برنامج (القارة المنسية)، قال فيها:

(سعادة الدكتور العزيز/ عبدالرحمن السميط سلمه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

فاسمح لي أن أسرد على كريم علمك جزءًا من فصول الجمال والإبداع ومشهدًا من مشاهد الحب والوفاء التي أنت فيها المعد والمقدم والمنتج والمخرج وذلك فضل الله عليك.. إنها قصة زيارتنا لكم في مدغشقر لتصوير برنامج (القارة المنسية)، فبعد عزم فريق العمل السفر إلى القارة كانت المخذلات كثيرة بينها المحفزات واحدة.. المخذلات أكثر من أذكرها حتى لا يتشبث بها قارئ فأكون السبب في ثني عزمه عن المسير.. أما المحفزات فهي أن الدكتور/ عبدالرحمن السميط الذي هو في سن آبائنا ترك حياة الراحة والدعة وأقام في بيت متواضع في قرية مناكارا بجوار قبائل (الأنتيمور)، وقطع على نفسه العهد أن يمضي بقية عمره في الدعوة إلى الله هناك.. ألا يكفي هذا أن يحفزنا؟ ألا يكون هذا درسًا من دروس احتقار النفس أمام أمثال الدكتور حفظه الله؟! بلى والله، فلقد عزمنا على السفر لتحقيق أمور عديدة سائلين الله تعالى التوفيق والإخلاص.

حطت بنا ركاب السفر في العاصمة (أنتنانا ديقو) ليقول لنا الإخوة هناك: إن خط سيركم سيكون عبر طريق وعر تقطعونه في أكثر من ثلاث عشرة ساعة، أو عبر طائرة صغيرة لا تقلع إلا أحيانًا =

٧- مجهوده الرائع الذي كان سببًا في إسلام أكثر من أربعة ملايين مسلم، وساعد

= وبعدد لا يتجاوز العشرة أشخاص وهي أشبه بالباص (المكسر).. وهنا سألنا الإخوة: كيف يتنقل الدكتور؟ فقالوا: الدكتور كثيرًا ما يتنقل برًّا، وقد سافر بالقطار في أكثر من أربعين ساعة بفتات الخبز! فقلنا لأنفسنا: هذا الاختبار الأول رسبنا فيه جزمًا، حيث طلبنا السفر بالطائرة؟! وعندما وصلنا إلى (مناكارا) استقبلنا الدكتور/ عبدالرحمن بوجه مشرق ونفس راضية تحمل بين جنباتها همًا عظيمًا هو هذا الدين.. ليقول لنا: متى تريدون أن نبدأ العمل ونزور القبائل لتروا بأنفسكم أن الإسلام كان هنا ولكنه اندرس؟ لقد تعلمت في أول ساعة معكم يا دكتور أن العمل المتواصل والبذل الدائم هو طريق النجاح.. إن الأمثلة المحفوظة والأشعار المنثورة ليست في قاموسي بشيء؛ لأنها كانت مادة جافة أرددها دائمًا عن العزم والعمل والجهد والمثابرة.. لكنها أفلست مني أو أنا أفلست منها عند أول درس عملي من الدكتور!

أعلم يا دكتور أني سأوقف قلمي قليلا؛ لأن الخطوط الحمراء التي لن ترضى بخروجها.. والأعمال الكثيرة التي لا تقبل أن يعلم بها أحد لن أبوح بها.. ولكني كتبتها بقلم الذاكرة وحبر الزمن في مجلدات الوفاء.. إن لم أستطع قولها للناس تحقيقًا للأمر النبوي الكريم بذم المديح وحفظ حق الإخوان في عمل السر، فإني سأقولها لهم بدموع تنهمر بعد عودتي.. وعبارات أتنهد بها عندما يسألني أحد عن هذه الجهود!!

ماذا عساني أن أكتب لكم عن رحلة استمرت قرابة الشهر في إفريقيا لتصوير البرنامج كان نصيب الأسد فيها للأسد السميط.. لقد تعلمنا منك أن الحياة شباب وإن كنت كبير السن.. وهذه الحياة واحة فريدة في صحراء العمر.. ولست أعني الشباب الغض الناعم، الذي ترق عنده الحياة، فتسحره بالنظرات المغرية، وتجمع له لذائذ الدنيا، في لحظة مسكرة، أو شبهة عارضة، الشباب الذي يعيش للهوى وأحلام اليقظة، فيبدأ تاريخ حياته بالحاء، فلا يلبث أن ينتهي بالباء. ديدن حياته يقوم على هذين الحرفين في غير مكانها الصحيح، بالطبع لست أعني هذا الشباب، وإنما أعني: شبابك يا دكتور، مع بياض شعرك وصعوبة حركتك.. وتثاقل أقدامك، إنه الشباب الحي العامل، الذي وضع له غاية في العيش أبعد من مجرد العيش. فهو في جهاد مع وقته ونفسه والهوى والشيطان.

وَإِذَا كَانَـتِ النُّفُـوسُ كِبَـارًا   تَعِبَـتْ فِي مُرَادِهَـا الأَجْسَـامُ

تعلمت يا دكتور أن المال الصالح في يد العبد الصالح سلاح مضاء وعدة عتيدة وقوة مكينة لا يمكن معها التقاعس أو الكسل.. فهمت منك أن الأثرياء في الأمة كثيرون ولكن النافع منهم قليل.. أولئك الذين ضعف عندهم الخلق والدين، استخفوا بقواعد الإيمان ومبادئ الإسلام، يأكلون كما تأكل الأنعام دون أن يؤدوا واجبًا لدينهم أو مجتمعهم.. بل إنهم أصبحوا حربًا على أمتهم.. يسخرون أموالهم في العفن والفن والفجور... يؤصلون للرذيلة.. ويقيمون لها المؤسسات والأندية.. لا يتوانى الواحد منهم أن يقدم المال لكسر فضيلة.. أو قتل خلق فاضل.. بينما يستثقل أحدهم أن يبذل لعمل الخير.. ﴿وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾، لا يليق بالرجل القادر، أن يرضى لنفسه أن يكون حملًا على كاهل المجتمع، ثقيلًا مرذولًا، وأن يقعد فارغًا من غير شغل، أو أن يشتغل بما لا يعنيه، إن هذا لمن سفه الرأي، وسذاجة العقل، والجهل بآداب الإسلام. =

غيرهم من المحتاجين.

= تعلمت يا دكتور، أن يكون هم الدعوة إلى الله شغلي الشاغل حتى في اللقمة التي آكلها.. أتذكر تلك الزيارات التي نقطع فيها الساعات بين طرق وعرة وغابات مظلمة مخيفة وأنهار موحشة في قوارب صغيرة ومستنقعات منتنة.. فإذا وصلنا إلى القرية واجتمع أهلها قال لهم الدكتور: ربي الله الواحد الأحد الذي خلقني ورزقني وهو الذي يميتني ويحييني.. كلمات يسيرة يدخل بها أعداد منهم إلى الإسلام! أتذكر تلك الملابس التي تحملها معك. لماذا يا دكتور؟ إنها هدية لملوك القرى تأليفًا لقلوبهم إلى الإسلام! لماذا هذه الحلوى؟ لأطفال القرى من أجل إدخال السرور على نفوسهم.

ماذا عساي أن أقول؟ وبأي درس يمكن أن أتحدث؟ هل يمكن أن أسطر رحلة تعلمت فيها رغم قصر مدتها بقدر ما تعلمته من سني عمري الماضية؟ لقد نسيت معاناة السفر ومشقة الحياة وشظف العيش قهرًا لنفسي لأني أرى شيخًا كبيرًا مصابًا بالسكر وبه آلام في قدمه وظهره.. يكسر كل حدود الترف والتأفف أمام ميدان الدعوة إلى الله! ألا يستحي الشباب مثلي وهم هناك من أن يتذمروا لعدم وجود الماء الصالح للشرب والاستحمام؟ أو عدم الحصول على المناديل المعطرة؟ أو النوم أحيانًا دون عشاء؟ إيه أيتها النفس.. كم أنت مترفة.. ومنعمة.. وبعيدة عن ميدان العمل الحقيقي..

لقد تعلمت من لسع البعوض في تلك القرى دروسًا في الصبر.. وتعلمت من شح الماء دروسًا في اليقين وتعلمت من انقطاع الكهرباء أيامًا دروسًا في الطمأنينة..

يا دكتور.. لقد منحتني شهادة عليا في هذه الرحلة لم تستطع جامعات الدنيا أن تمنحني إياها.. لقد حصلت على الدكتوراه في احتقار النفس أمام العظماء.. وتجاوزت الماجستير في العمل الحقيقي الذي كنا نعتقد أنفسنا من رواده وبكالوريوس بامتياز في معرفة رجال الأمة الحقيقيين الذين يستحقون شهادات التقدير وجوائز الشكر.. لكنهم مع ذلك يقولون كما كنت تقول لي: يا أخي، نحن لا ننتظر شهادات من أحد.. نحن عملنا في الميدان.. وننتظر من الله فقط أن يتقبل منا؟

لا زلت يا دكتور أتذكر تلك القرية التي أعلن أهلها إسلامهم وكيف كانت فرحتك العارمة.. كأننا خرجنا بأموال الدنيا. كنا نحن ننتظر مشاهد التصوير ونحسب إنجازنا بعدد ساعات التصوير كانت هذه ساحة سعينا.. وميدان بصرنا.. بينما كنت تسبح هناك.. وتنظر هناك.. وتتأمل هناك.. الآخرة..! فلله درك أيها العظيم.

كنت أتعجب منك وأنت تحاسب من يعمل معك بكل دقة وتقف بنفسك حتى على طعام الأيتام.. وأقول في نفسي: هو جهد زائد ينبغي أن يدفعه لغيره.. لكني فهمت متأخرًا عندما قلت لي: أموال الناس التي دفعوها لعمل الخير لا يمكن أن أفرط في ريال واحد منها.

أتدري يا دكتور أن هذا البرنامج كتب سيناريو حلقاته وصمم فكرته وأخرج أطرافه عملكم المتوقد وسعيكم الدائب؟! أتدري أني قرأت كل ما كتبته في مجلتكم (الكوثر) قبل أن أصل إليك لأجد ما كتبته عن جهود العمل (غيضًا من فيض)، وعندها تذكرت: «ليس راء كمن سمع»، وأكدت لنفسي: «من شاهد الحقائق ضمن الوثائق»، كنت أتنقل معك بصحبة فريق البرنامج بين القرى والقبائل لنجد منكم شخصًا ملمًا بحياتهم وعاداتهم وتقاليدهم.. وهذا درس من دروس،=

وغير ذلك من الأدلة، ومع ذلك كله فإنا لا نزكيه على الله، وإنما نحسبه كذلك والله حسيبه، فهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، سبحانه وتعالى.



= فالداعية الحق هو الذي يعرف طبيعة من يدعوهم، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل لما أرسله لليمن: «إنك تأتي قومًا أهل كتاب» إنها معلومة مهمة يراد من ورائها رسم منهج للدعوة.. فليس كل داعية يصلح للدعوة في كل مكان.. بل لابد من مواصفات معينة يسبقها العلم التام بطبيعة المدعوين وأحوالهم.

دكتور.. أسعد الله مساءك بكل خير أينما كنت.. تذكرت ذلك المساء الحالم.. عندما أرخى علينا الليل سدوله بعد أن صلينا المغرب وانكمش المنعمون مثلنا من آثار البرد.. فوقفت على تلك الحلقة المستديرة التي تجمع فيها أبناؤكم الأيتام يقرؤون القرآن.. وأنت تنتقل من حلقة إلى أخرى.. تطمئن على حفظهم للقرآن الكريم.. وتبتسم في وجوهم كل لحظة.. تذكرت خروجك بعد العشاء لتطمئن عليهم هل ناموا؟ هل استقروا جميعًا في مهاجعهم؟

تذكرت سائقك الخاص وأنت تعامله بلطف ومحبة حتى أعلن إسلامه.. تذكرت أولئك الدعاة وهم يجيبون على سؤالي في كل لقاء.. من أي مدرسة تخرجتم في الدعوة؟ فقالوا: من مدرسة عبد الرحمن السميط الدعوية!

تذكرت تلك الليلة الشاتية عندما عمدنا إلى جذوع الشجر لنوقد النار للتدفئة، فجلست وقد أحطنا بك من كل ناحية.. تحكي لنا حكايات رائعة.. ليست عن حب وغزل.. ولا عن شعر وزجل.. بل عن دعوة وإغاثة.. عن إسلام وراحة.. عن أقوام كانوا في ضلال فأنقذهم الله بالإسلام ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ (الأنعام: ١٤٢)، أيها الفاضل.. اسمح لي أن أزجي سرًّا.. هذه الصور المذكورة من الجهد المتواصل ليست حكرًا عليك فقط.. بل هي ديدن أسرتكم الكريمة من زوجة وأبناء حفظكم الله بحفظه.

لا أريد أن أحرق البرنامج على مشاهدينا الكرام.. فهو برنامج أسبوعي في قناة المجد بعنوان (القارة المنسية) فيه الغرائب والعجائب والأفراح والأتراح.. والفقر والغنى..

فيه صورة إسلام منسية.. وكتاب مقدس عند أهله اسمه (السواربي)، ومقابر لا يتم الدخول إليها إلا بدعاء يتضمن سورة الفاتحة.. برنامج أظن أن غرائبه وعجائبه ستحمله إلى المشاهدين فلن أتحدث عنه مكتوبًا.

شكر الله لك أيها الدكتور الفاضل.. ورفع قدرك.. وجزاك عنا خير الجزاء، وكثر الله في الأمة من أمثالك؛ إنه جواد كريم.. وإلى اللقاء على طريق الخير والمحبة...

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

ابنكم: فهد بن عبدالعزيز السنيدي، مذيع إذاعة القرآن الكريم، وقناة المجد الفضائية، المشرف العام على موقع المجلة الإسلامية» انتهى.





التوصيات

١- جعل هذه الحياة كلها عبادة خالصة لله تبارك وتعالى، فنعمل على هذا الأساس ونعلمه للطلاب، فينشأ المجتمع مخلصًا لله تعالى، فيربح الدنيا والآخرة.

٢- غرس عقيدة التوحيد والإخلاص والتعلق بالله عز وجل، وحفظ هذا الحديث الشريف العظيم واستشعاره وتعليمه للطلاب لتطبيقه في حياتهم، وهو: عن ابن عباس، قال: كنت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا، فقال: «يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَـمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»[1].

٣- إعادة البرمجة للمعلم والطالب جميعًا على العمل وعدم السؤال، فالمعلم لا يسأل أحدًا وكذلك الطالب.

مع العلم أن هذه الحالة صعبة التطبيق لتأصلها وتعقيدها ولتغلغلها في حياة الطرفين، بل في المجتمع كله، ولتساهلهم فيها، ولكن الرسول قطعها من جذورها بل جعلها من شروط البيعة، وقرنها بأسس الإسلام، وطبقها على نفسه الشريفة[2]،

---

(١) صححه الألباني.

(٢) وقد ذكرنا بعض الأحاديث التي تنهى عن السؤال وتحث على الاعتماد على النفس، وتبين منهج الرسول صلى الله عليه و سلم في هذا الأمر الهام ليقتدي الناس به بالرغم من فضله ومكانته الرفيعة العالية؛ ومن ذلك قوله في الحديث الذي صححه الألباني: «لِيَسْتَغْنِ أَحَدُكُمْ عَنِ النَّاسِ وَلَوْ بِقَضِيبِ مِنْ سِوَاكٍ»، وقد ورد هذا الحديث في كتاب شعب الإيمان للبيهقي؛ عن ميمون بن أبي شبيب، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر، فنزل للصلاة، فلما توجه إلى الصلاة رجع إلى راحلته ليعقلها، فقال الناس: نكفيك يا رسول الله، فأبى وقال: «لِيَسْتَغْنِ أَحَدُكُمْ عَنِ النَّاسِ بِقَضِيبِ سِوَاكٍ»، قال: فعقلها. «عقل الناقة»: شد ركبة الناقة مع ذراعها بحبل. فيض القدير للمناوي. «الراحلة من الإبل»: البعير القوي على الأسفار والأحمال، ويطلق على الذكر والأنثى.

فهل بعد هذا التبيين بيان؟! وهل بعد هذا التبليغ بلاغ؟! نشهد أنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة.

ولكن الباقي علينا- نحن المعلمين- أن نبرمج الطلاب وغيرهم على المبادئ الربانية الكاملة العظيمة، وفي المقابل نضغط على أنفسنا ونجاهدها لكي لا نرجع إلى الاستغلال وتشويه صورة الإسلام النقي الكامل، ولنحرص على إعادة تلك المبادئ العظيمة في حياة المسلمين والرفع من قيمة الإنسان، بالتمسك الشديد بحسن الخلق والقدوة الحسنة، ولنحتسب الأجر من الله عز وجل، فلا نبخل على المسلمين في نزع تلك الشوائب، وتنظيف تلك الأوساخ التي علقت بحياة المسلمين، وفي ذلك إسهام في تجديد دين هذه الأمة[١]؛ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِئَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»[٢]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يَحْمِلُ هَذَا العِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُه؛ يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الغَالِينَ وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ وَتَأْوِيلَ الجَاهِلِينَ»[٣]؛ فكل مسلم على ثغر، ولا تحقر من المعروف شيئًا؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ»[٤].

وينبغي أن نتنبه ونحرص الحرص الشديد على توعية الأمة لنهوضها من كبوتها وتحذيرها من الأخطار المحدقة بها، فعلى كل فرد أن يحمل أهمية معنى (النذير العريان) وقوته، ثم يعمل من خلاله؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ: يَا قَوْمِ، إِنِّي رَأَيْتُ الجَيْشَ بِعَيْنَيَّ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ العُرْيَانُ، فَالنَّجَاءَ! فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَدْلَجُوا، فَانْطَلَقُوا عَلَى مَهَلِهِمْ فَنَجَوْا، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الجَيْشُ، فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي، فَاتَّبَعَ مَا

---

(١) ينبغي العلم أن التجديد يخص دين الأمة، لا الدين نفسه، بحيث يلاحظ المتأمل في قوله صلى الله عليه وسلم: «من يجدد لها دينها» أنه أضاف الدين إلى الأمة، ولم يقل: يجدد لها الدين؛ وذلك لأن الدين ثابت كما أنزله الله لا يقبل التغيير ولا التجديد، وأما دين الأمة بمعنى علاقة الأمة بالدين، فهو المعنى القابل للتجديد، بحيث يعيد الناس إلى المستوى الذي ينبغي أن يكونوا عليه أو يبين لهم ذلك.

(٢) صححه الألباني.

(٣) صححه الألباني.

(٤) صحيح مسلم.

جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الحَقِّ»[١].

٤- الاهتمام الشديد بأمر الصلاة وتربية الطلاب عليها وإقامتها في المدارس على الوجه المطلوب، فهي التي لعظم شأنها ورد الأمر بالضرب عليها في السنة النبوية.

٥- إن تطبيق مبدأ الثواب والعقاب في التربية يجب أن يكون متوافقًا ومقتديًا ومتأسيًا بمنهج الرسول صلى الله عليه وسلم، وعلى أسس تربوية متطورة واعية ودقيقة؛ فالتربية جهد يحتاج إلى نفس طويل واحتساب وصبر وتأنٍّ وبرمجة يومية ومتابعة مستمرة، لكي تتحقق النتائج الإيجابية المرجوة على أكمل وجه، والحذر من التعجل واللجوء للوسائل غير التربوية، وحصر العقاب المتزن في أضيق الظروف.

٦- التمسك بالتربية النبوية الصحيحة، وتصفية التربية والتعليم من الشوائب التربوية السيئة، والحذر منها ولو جاءت بصور مختلفة؛ كالأحاديث غير الصحيحة، أو القصص والأقوال التاريخية، أو العادات والتقاليد؛ فالجميع يعرض على كتاب الله عز وجل والسنة الصحيحة، فما وافقهما قبلناه، وما خالفهما رددناه كائنًا ما كان.

٧- الحرص على الأخذ بأحسن ما توصلت إليه الحضارة الحديثة[٢]، من الناحية المادية والمعنوية؛ أي المحافظة على: (الأصالة والمعاصرة).

وَكُـلُّ بُـنْـيَـانِ قَـوْمٍ لا يَـقُـومُ عَـلَى   دَعَائِمِ العَصْرِ مِنْ رُكْنَيْهِ مُنْصَدِعُ

* * *

(١) صحيح البخاري.

(٢) ولكن ينبغي أن ننبه إلى أمر هام؛ وهو أن الأخذ من الحضارة الحديثة ينبغي أن يقتصر على ما يفيد ومن غير أضرار؛ ومن ذلك ألا ننبهر بما تنتجه الحضارة الغربية، أو نقلدها تقليدا أعمى، أو نحس بأننا تابعون لها، ومن جهة أخرى ينبغي أن يكون للمسلم شخصية مستقلة عزيزة؛ فلا ينبهر أو يتشبه بالغربيين وأشباههم، فلا يتخلى عن شخصيته، كما نرى من بعض الممسوخين الذين نشاهد صورهم المقرفة، بل إن هؤلاء الممسوخين صورا عديدة لا تقتصر على الشكل، بل تتعدى إلى المضمون؛ كالأفكار أو تعويج اللسان ببعض كلماتهم... بل إن منهم من يكون ممسوخا مسخا تاما، والعياذ بالله!
فعلى المسلم ألا يرى نفسه أقل منهم، بل ألا يحس بأنه مثلهم، بل هو من الأعلين إن كان من المؤمنين، وليعلم أن الأخذ من الغرب ليس من باب الانبهار أو الإعجاب أو التقليد، وإنما من باب أن العلم والحكمة أمر مشاع بين جميع الناس، ومتى ما وجده العاقل أخذه، بغض النظر عمن أخذه منه أو من أين أخذه؛ فالعلم والحكمة ليسا خاصين بأحد؛ فإن الحكمة ضالة المؤمن، حيثما وجدها فهو أحق بها.





الخاتمة

وفي ختام الكتاب، وبعد كل ذلك، أحب أن أؤكد أهمية مكانة المعلم وعظم المسؤولية الملقاة على عاتقه، فأوصيه بتقوى الله عز وجل وأذكره بهذين الحديثين الشريفين:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ»(١).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ؟». قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا؛ فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ؛ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»(٢).

ويقال: إن الرجل الذي يكره الظلم توقع منه الخير، والعكس صحيح.

أيها القارئ الكريم، إن ما ذكر في هذا الكتاب مجرد مفاتيح وإشارات تربوية تبين الطريق لمن أراد الخير له ولأمته(٣)، ولكي لا نكون بين الأمم كما قال الشاعر:

تَمُوتُ الأُسْدُ فِي الغَابَاتِ جُوعًا ... وَلَحْمُ الضَّأْنِ تَأْكُلُهُ الكِلَابُ

قد يقول قائل: إن هذا الكتاب مبالغ في النقد، أو متشائم، أو نظرته سوداوية، أو ينظر إلى نصف الكأس الفارغ، أو هذا جلد للذات... إلخ.

(١) صحيح مسلم.

(٢) صحيح مسلم.

(٣) هذا للجميع، أما سدنة المناصب وأتباعهم وأذنابهم فإنا قبل ذلك ندعوهم وندعو لهم؛ ندعوهم للحرية والكرامة والتجرد، وندعو لهم بالهداية، وهذه الدعوة لسدنة جميع المناصب من معلمين ودكاترة وأطباء ومهندسين وغيرهم.

وفي المقابل يقول آخر: إنه يريد مجتمعًا مثاليًّا أو ملائكيًّا، وهذه نظرة خيالية (طوباوية)[١]، لا يمكن تحقيقها على أرض الواقع.

فيقال: أولًا: انظر إلى وضع العالم الإسلامي وارجع إلى الإحصائيات واحكم، ثم انظر للدول المتقدمة واحكم، ثم انظر إلى الإسلام النقي الكامل وإلى تعاليمه الحرة الراقية التي طبقت والقابلة للتطبيق، واحكم.

ثانيًا: إننا ولله الحمد متفائلون، ونعلم أن المستقبل لهذا الدين، وخاصة أنه يحمل هذا المنهج الرباني، المتمثل في منهج معلم البشرية نبينا وحبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى.

فأقول يا أحبابي: اذكروا قول الله عز وجل تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[٢].

اصبروا.

وصابروا.

ورابطوا.

واتقوا الله.

لعلكم تفلحون.

فأبشروا بالفلاح بإذن الله سبحانه وتعالى، وبمنه وكرمه، والحمد لله رب العالمين.

وأخيرًا.. آمل في خاتمة هذا الكتاب أن يكون قد حاز على ما آمله، فما وجد فيه من

---

(١) الطوباوية: كلمة أصلها يوناني (اليوتوبيا)، والكلمة تعني (لا مكان)، أو المكان الذي لا وجود له أو لا يوجد له مثيل. وبمعنى آخر: المكان المثالي، أو الرؤية التصورية الخيالية للمجتمع المثالي الكامل. وأول من استخدم هذه الكلمة هو المفكر البريطاني (توماس مور) من القرن السادس عشر، حيث ألف كتاب بهذا العنوان، مع أن هذا التفكير سبقه عليه الكثير مثل (جمهورية أفلاطون) أو (المدينة الفاضلة) للفارابي. والطوباوية مفهوم يشير إلى تصور مجتمع مثالي خيالي لا يمكن تحقيقه على أرض الواقع، ومع مرور الزمن صارت هذه الكلمة تطلق على أي فكرة أو تفكير يدعو لأمور مثالية غير قابلة للتنفيذ.

(٢) سورة آل عمران، الآية: (٢٠٠).

خير فالفضل لله فله الحمد والشكر، ثم أقدم الشكر لكل من أسهم في إخراجه.

وما وجد فيه من خطأ فأستغفر الله، وحسبي أني اجتهدت وبذلت طاقتي ووضعت لبنة في طريق من يريد إكمال البناء[1]، وآمل الدعاء لي في ظهر الغيب. مع أني أعرف أن في كتابي أخطاء كغيره من الكتب، وقد قيل: «أبى الله أن يتم إلا كتابه»، ولكن عند ملاحظة شيء من ذلك، آمل نصحي في السر وبصراحة - فإن النصيحة في العلن فضيحة - ورحم الله من أهدى إليَّ عيوبي.

تَعَمَّدْنِي بِنُصْحِكَ فِي انْفِرَادِي وَجَنِّبْنِي النَّصِيحَةَ فِي الجَمَاعَهْ

فَإِنَّ النُّصْحَ بَيْنَ النَّاسِ نَوْعٌ مِنَ التَّوْبِيخِ لا أَرْضَى اسْتِمَاعَهْ

وَإِنْ خَالَفْتَنِي وَعَصَيْتَ قَوْلِي فَلا تَجْزَعْ إِذَا لَمْ تُعْطَ طَاعَهْ

وأنا أتقبل ذلك بصدر رحب، داعيًا بحسن الجزاء.

وعند وجود أي ملاحظة، آمل إرسالها إلى:

صندوق البريد رقم ٥٨١٦٦ الرياض ١١٦٩١

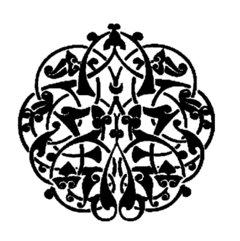
البريد الإلكتروني: almotrek@hotmail.com

وختامًا أقول:

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



(١) وإن شاء الله تعالى سأخرج بعده كتابًا يكمل المسيرة على نفس المنهج، ولكن مع شيء من التأصيل لبعض الأساسيات، وإكمال لبعض ما قصر عنه هذا الكتاب.



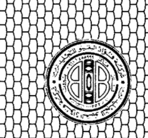
فهرس المحتويات

الباب الثالث: الضرب
(٨٧-١٦٦)

الباب الرابع: علاج الأخطاء
(١٦٧-٣١٠)

الباب السادس: الإدارة والمعلمون

(٣٥٣-٣٨٥)







كلمة الناشر

الكل يعلم حال العالم الإسلامي وتخلفه، وقد يكون البعض مل من القراءة والبحث في هذا المجال، ولكن هناك جوانب وطرق أخرى بعضها لم يطرق، وبعضها يخشى الكثيرون من الخوض فيه، وبعضها مشوه، وبعضها غامض، وبعضها مجهول.

وتسعد دار العاصمة بنشر هذا الكتاب الذي يثري المكتبات، ويسلط الضوء بإبداع وتميز على هذه الجوانب، ويكشفها بكل وضوح وجرأة وصراحة، مع تصحيح ما شُوه منها، وتبيين ما غمض، وتعليم ما لم يُعلم.

ويتطرق لهذا كله من باب من أهم الأبواب وهو باب تربية الأجيال؛ فيبين مناهجها ودور المعلمين في ذلك، وما ينبغي أن يضطلعوا به، كل هذا بطريقة متميزة غير تقليدية.

وبهذا التميز ناقش المؤلف واقع العالم الإسلامي والأساليب التربوية ودور المعلم ومكانته العالية، وخطورة التربية السلبية مركزًا - في باب مستقل - على مسألة في غاية الأهمية، ويندر مناقشتها بهذا التأصيل العلمي؛ وهي مسألة ضرب الطلاب والأولاد، وساق الأدلة على عدم مشروعية الضرب، وفند أدلة المجيزين، ثم تكلم عن معالجة الأخطاء، وواقع الجامعات ودورها في إعداد المعلمين، وعن الإدارة والمديرين؛ مستشهدًا في ذلك كله بالآيات والأحاديث الصحيحة وأقوال أهل العلم والمتخصصين، مع عرض نماذج تربوية رائعة للاقتداء بها، وعكسها لتجنبها، بالإضافة إلى مواضيع وأفكار لن تجدها في كتاب غيره، كل هذا بأسلوب سهل مناسب للجميع بعيد عن التعقيد والتكلف، مع تميز وأصالة في الطرح.

نسأل الله عز وجل أن ينفع به قارئه ومؤلفه وناشره.

ردمك: ٧-٣٧-٨٠٥٧-٦٠٣-٩٧٨